أليتا جاكوبز

مكتبة ياسمين

سيرة

مُذكرات طبيبة نِسوية

ترجمة: سارة سيف الدين ومحمد رمضان

صفصافة
SEFSAFA PUBLISHING HOUSE

t.me/yasmeenbook مكتبة ياسمين

كانت أليتا جاكوبز (9 فبراير 1854- 10 أغسطس 1929) طبيبة رائدة ونسوية، وواحدة من المؤثرين في القرن العشرين. كانت من النساء اللاتي تركن الكثير من الأثر؛ تخرجت في جامعة أمستردام عام 1878، وحصلت على شهادة الدكتوراه بعدها بعام واحد فقط. وبذلك تكون أليتا أول امرأة تلتحق بجامعة هولندية، وأول امرأة هولندية تحصل على شهادة طبية في البلاد، وأول امرأة تحصل على دكتوراه في الطب.

ناضَلَت بضراوة من أجل حق المرأة في الاقتراع، وأسَّست ما يمكن اعتباره أوَّلَ عيادة لتحديد النسل في العالم، كما قادت حملات من أجل منعٍ الدعارة، ومن أجل مراعاة ظروف العمل للمرأة. كانت زعيمة بارزة في كلٍ من المنظمات الهولندية والدولية للاقتراع، وفي حركة السلام النسائية خلال الحرب العالمية الأولى.

كانت جاكوبز شخصية غير عادية. تحدَّت العديد من الأعراف السائدة فيٍ عصرها، ورفَضَت أن تعيش حياة امرأة تقليدية. كان تعليم الفتيات منفصلاً، باستثناء المرحلة الابتدائية، دعت جاكوبز بشدة إلى التعليم المختلط والموحَّد للرجال والنساء، وسعت بشدة إلى المساواة في التعليم.

يعتمد الكثير ممَّا نعرفه عن أليتا جاكوبز، وحياتها وعملها؛ على ما اختارت أن تخبرنا به في مذكراتها. تقدِّم الذكرياتُ تلك التجاربَ بكلماتها الخاصة، وتساعدنا على فهم نقاط القوة والضعف في الحركة النسوية في القرن التاسع عشر، وبعض الأسس التي بُنِيَت عليها الحركة النسوية في القرن العشرين.

توثِّق مذكرات أليتا جاكوبزٍ ما يمكن أن تحقِّقه امرأة شجاعة من خلال عملها المتفاني طوال حياتها، نيابةً عن جميع النساء الأخريات.

9 789778 213645

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE

أليتا جاكوبز

مذكرات طبيبة نسوية

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

ترجمة:

سارة سيف الدين

ومحمد رمضان

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

مذكرات طبيبة نسوية
طبعة/ 2024
رقم الايـــــداع: 20121/ 2023
الترقيم الدولي: 978-977-821-364-5

الناشر
محمد البعلي

إخراج فني
علاء النويهي

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي دار صفصافة.

This book contains the full translation of the book "HERINNERINGEN" by Aletta Jacobs.

The publisher gratefully acknowledge the support of the Dutch Foundation for Literature.

تمت ترجمة هذا العمل بدعم من المؤسسة الهولندية للآداب

Nederlands letterenfonds dutch foundation for literature

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
sefsafapr@gmail.com

دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
49 شارع المخزن- العمرانية- الجيزة- مصر

المحتويـــات

7	مقدمة
11	الفصل الأول: **سنوات الطفولة**
41	الفصل الثاني: **سنوات الدراسة**
77	الفصل الثالث: **الإقامة في لندن**
87	الفصل الرابع: **السنوات المبكِّرة لممارسة الطب**
103	الفصل الخامس: **تنظيم الأسرة**
115	الفصل السادس: **الحملة من أجل حق النساء في التصويت**
143	الفصل السابع: **عملي بالنيابة عن البائعات**
159	الفصل الثامن: **الانخراط مع الحركات السلمية ومكافحة العسكرة**
211	الفصل التاسع: **الدَّعارة**
229	الفصل العاشر: **حياتي مع كاريل فيكتور جريتسن**
289	الفصل الحادي عشر: **من 1905 إلى 1911**
315	الفصل الثاني عشر: **جولة حول العالم**
339	الفصل الثالث عشر: **من عام 1913 حتى 1924**
361	أليتا جاكوبز من منظور تاريخي
391	خاتمة
395	أنماط التَّذكُّر .. خاتمة أدبية

مقدمة

هل يحتاج هذا الكتاب للتقديم؟ بالطبع لا، فهو كتابٌ واضح من العنوان، لكن وبما أننا يجب أن نكتب مقدمات للكتب، فإن ذلك قد يكون فرصة جيدة لإبداء القليل من الملاحظات.

يمكنني أن أؤكد لك، عزيزي القارئ، أن مجرَّد فكرة كتابة هذا الكتاب بالنسبة لي كانت مُربِكةً للغاية؛ لذلك فقد أخذ هذا الكتاب الكثير من الوقت كي يخرج للعلن. هناك فارق كبير بين أن تكتب أفكارك وذكرياتك على الورق في دفتر خاص بك، وبين أن تصبح تلك الكتابة متاحةً أمام الجميع. لكن، وفي نهاية ذلك الارتباك، استسلمت لتشجيع الأصدقاء المستمر في الداخل والخارج من أجل كتابة تلك المذكرات.

ربما عليَّ أن أعترف لكم الآن أنه عندما بدأت في تصفُّح خطاباتي وأوراقي القديمة، من أجل أن أكتب بعض الملاحظات وأرتِّب بعض الأفكار في رأسي قبل الكتابة، أحسست فقط عندها أن هناك أهمية لكتابة تلك المذكرات؛ ربما لأنها سوف تعطي صورة للنساء الصغار في هذه الأيام، كيف كانت الحياة صعبة ومحدودةَ الخيارات أمام أمهاتهنَّ وجدَّاتهن، وبالطبع لعمَّاتهن العزباوات؛ ومن ثم يمكن أن تصبح هؤلاء الشَّابَّات أكثر تقديرًا لفكرة أنَّهنَّ الآن أكثر استقلالية وقدرة على اتخاذ قراراتهن الخاصة.

بالتأكيد، خلال فصول الكتاب القادمة لن أعزف فقط على وتر

الاختلاف بين الماضي والحاضر في حقوق النساء، مع اعترافي بأن تلك المقارنة مهمة جدًّا.

هناك سبب آخر جعلني أُقدِم على نشر هذا الكتاب، فمذكِّرات النساء هي شيء نادر في بلدنا؛ لذلك يمكن أن تعتقد الأجيال الحالية أن النساء كُنَّ غائبات عن الصورة الكبيرة للانتفاضات والحراكات الاجتماعية التي شهدها هذا البلد في العقود الخمس الأخيرة، وبالتالي لم يكن لهؤلاء النساء دور في سيرورة التغيير الاجتماعي، وهو شيء شديد الخطأ، فقد كانت النساء حاضرات في كل مراحل النضال في هذا البلد في العقود الأخيرة.

لقد قرَّرتُ ألَّا أحاول سرد كل ما مررت به في سنوات عملي العام، وإلا فسوف نحتاج لمجلدات بدلًا عن هذا الكتاب الصغير، وحتى بغَضِّ النظر عن مشكلة ضخامة تفاصيل ما مررت به في حياتي، فإن نقل كل شيء قد مررت به سوف يعكس نوعًا من الإحباط العام؛ بسبب الظروف المعاكسة المباشرة وغير المباشرة التي مررتُ بها، لكن هدف الكتاب هو نقل الفكرة الأعم، وهي أنه حتى في ظل أحلك الأوقات كان دائمًا هناك نوع من الدعم والمساندة والحب من رجال ونساء ذوي مبادئ. لحسن حظي أنني كنت استثناءً للمثل الشعبي الهولندي القائل بأن «مَن يأتِ أوَّلًا، غالبًا ما يعاني الفشل».

اليوم، وفي نهاية حياتي، يمكنني أن أنظر بتقديرٍ لتلك المسيرة الطويلة. لقد عرفت الفرح والحزن، لقد سافرت حول العالم كله تقريبًا، وأينما ذهبت وجدت أصدقاء طيبين أتذكَّرهم اليوم بكثير من الحب. وعلى الرغم من أنني اليوم لا يمكنني المشاركة بفعالية كبيرة في النضال من أجل إصلاح أحوال النساء حول العالم، إلَّا أنني سعيدة

بكَمٍّ المراسلات المكثفة بيني وبين هؤلاء المناضلات، والذي يجعلني على اطِّلاع دائم بتطوُّر نضال النساء في كل أنحاء العالم تقريبًا.

اليوم أصبحت أكثر تقديرًا لفكرة أنني شهدت تحقُّق ثلاثة أشياء كانت ضرورية من أجل تحسين أحوال النساء، فمن خلال مشاركتي لنضال هؤلاء السيدات أصبحت النساء اليوم أكثر استقلالية في ميدان السياسة، وأكثر استقلالية من الناحية الاقتصادية، وأصبح تنظيم الأسرة أمرًا واقعًا في هولندا. لذلك، وحينما يأتيني القدر، سوف أقول بشجاعة إنني ساهمت في تغيير العالم بالنسبة للنساء، لقد غادرت العالم وهو مكانٌ أفضل للنساء عن الوقت الذي دخلته فيه.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

يسعدنا انضمامكم إلى قناة
مكتبة ياسمين
معكم نكبر ونستمر بكل جديد

اضغط هنا .. اتبع اللينك

الفصل الأول

سنوات الطفولة

(الأبوان والأبناء. الطفولة المبكرة. كيف تربينا. المدرسة. العودة للبيت مع الأم. مخطَّطات كبيرة. التدريب على الحياكة. طرق جديدة. الامتحان الأول).

غالبًا ما يكون مولد الطفل الثامن في أسرة من سبعة أطفال حدثًا عاديًّا، وبالتأكيد سوف يصبح أكثر عاديَّةً إذا كان الطفل السابع نفسه، لم يكمل سنواته الأربع، والأبوان على اعتقاد كامل بأنهما قد وصلا لذروة حياتهما الإنجابية. كان من حسن حظي أن أدخل إلى هذا العالم في التاسع من فبراير عام 1854، كطفلٍ ثامنٍ لعائلة طبيب في سابمير[1]، وعلى الرغم من تلك العادية الشديدة لقدوم طفلٍ ثامن، إلَّا أن مولدي -على ما أعتقد- كان مصدرَ سعادة كبير لأبويَّ.

كان والداي أبراهام جاكوبز، وآنا دي جونخ قد تزوَّجا قبل ما يقرب من ثلاثة وعشرين عامًا. استقرَّا في البداية في «كايل فاندفير» وهي قرية في مقاطعة «جرونينجن»، حيث بدأ أبي عمله كطبيب محلي في تلك القرية. كان عمل والدي هو مصدر الدخل الوحيد لتلك الأسرة الفقيرة. ذلك الدخل الصغير جعل أمي في بداية سنوات زواجهما

1- قرية صغيرة في مقاطعة جرونينجن في هولندا.

مُجبَرة على القيام بجميع أعباء المنزل بمفردها. كانت تلك الأعباء المنزلية كبيرة جدًّا في ذلك الزمن، فكان على أمي أن تخبز، وتصنع الزبد والجبنة بنفسها، وتغسل الثياب وتطبخ النقانق، وتحفظ اللحم. كان عليها أيضًا أن تغزل وتخيط كل شيء يمكن لأبنائها أن يرتدوه. كان أبي خارج المنزل في أغلب الأوقات، ولفتراتٍ طويلة؛ لأن معظم مرضاه كانوا يسكنون في مزارع بعيدة، بالتالي كان هذا يعني رحلاتٍ طويلة كل يوم، وعندما يعود في المساء مُتعبًا من كثرة المشي والتَّنقُّل، كان على أمي أن تساعده في تحضير الأدوية والوصفات الطبية، والتي كان على الطبيب المحلي في تلك الفترة أن يحضِّرها في منزله. وكل سنة تقريبًا كان على أمي أن تشهد قدوم فردٍ جديد في تلك القبيلة الصغيرة.

بعد طفلهما الثالث، أدرك أبي وأمي أن تلك القرية الصغيرة لن تزيد معدَّلات نموها السكاني بقدر معدَّلات نمو أسرتهم، حتى على المدى الطويل. لم يكن عدد المرضى المحدود في تلك القرية الصغيرة ليوفِّر الدخل اللازم من أجل إعالة تلك الأسرة، التي تنمو بمعدَّلات خرافية؛ لذلك قرر والداي الانتقال إلى «سابمير»، والتي كانت في تلك الفترة مجتمعًا محلِّيًّا أكثر حيويَّة، حيث كان على أبي أن يصبح طبيبًا لعدد أكبر من المرضى، حتى 1878، وهي السنة التي باغتت اضطرابات القلب أبي لتجبره على التوقُّف عن ممارسة الطب. لاحقًا، وفي مذكراته الخاصة عن تلك الفترة، اكتشفنا أنه لكي نتدبَّر شؤون العيش في سابمير، كان على أبي أن يكسب ألفَيْ جِلدَر سنويًّا، كانت هناك بعض السنين التي يزيد فيها الدخل السنوي عن ذلك، ففي سنة زاد ذلك الدخل ليصبح ثلاثة آلاف جِلدَر، لكن في سنوات أخرى لم يزِد دخل تلك الأسرة عن أربعمائة جلدر سنويًّا. بالطبع كان للمال قيمة أكبر في منتصف القرن التاسع عشر، وكانت الحياة في سابمير

أرخص كثيرًا من الحياة في المدن الكبرى، لكن، ومع كل ذلك، كان حُسن التدبير ضروريًّا من أجل توفير نفقات الحياة لعائلةٍ مثل عائلة جاكوبز، والتي تستمر في النُّموِّ سنةً بعد الأخرى.

رغم أنني كنت أمتلك 10 من الإخوة والأخوات، لكن كلنا تقريبًا حصلنا على تعليم جيد، على الأقل بمعايير ذلك الزمان. كان ذلك يعني بالطبع نفقات مالية كبيرة كان على أبي وأمي أن يتحمَّلاها معًا، غالبًا ما نصحهم الأصدقاء بالتوفير من أجل تقاعُدِهم حين يكبرون في السن، بدلًا من تبديد الأموال على تعليم الأطفال، لكنهم كانوا دائمًا ما يردُّون ببساطة أن المال الذي يُستثمَر في تعليم الأبناء هو أفضل استثمار من أجل المستقبل. «إن تحصيل المعرفة من أجل الصالح العام هو أسمى الأماني»، كانت تلك الحكمة دائمًا على لسان أبي حين كان يعطينا تمارين الإملاء، وغالبًا ما كتبناها مرَّاتٍ عديدة في تلك التمارين المتكررة للإملاء.

سار أكبر إخوتي الصبية على نهج أبيه وأصبح طبيبًا، الثاني أصبح صيدلانيًّا، والثالث -الذي مات صغيرًا- كان في طريقه للحصول على الدكتوراه في الفلسفة، أمَّا الثلاثة الآخرون من الأبناء فقد حصلوا على وظائف عسكرية، بعكس رغبة أبي، حتى إن أحدهم قرَّر ترك مجال الهندسة من أجل أن يصبح ضابطًا في الجيش. أمَّا أخواتي من الإناث فالكبرى تزوَّجَت من طبيبٍ في سنٍّ التاسعة عشرة، بعد أن تدرَّبَت لتصبح مُعلِّمةً في مدرسة. الأخت الثانية تشارلوت كانت

أوَّل صيدلانية في هولندا[2]. بينما درستُ أنا الطب، وفريدريكا -أختي الصغرى- كانت المرأة الأولى التي تحصل على شهادة جامعية لتدريس الرياضيات والمحاسبة في هولندا. بعدها عُرض عليها منصبٌ جامعي في كلية البنات بجامعة لاهاي. واحدة فقط من بين الاثني عشر طفلًا لم تفلح محاولات الأب والأم في تعليمها تعليمًا جيدًا، فشلت كل محاولات الأسرة لتحضيرها للعالم الخارجي، ليس بسبب قلَّة محاولاتنا؛ ولكن لعدم رغبتها في ذلك.

مع ميلاد طفلهما الأول، قرَّر أبي وأمي الابتعاد عن التقليد السائد آنذاك بتسمية الأطفال باسم أحد أفراد العائلة الأكبر سنًّا. كانت أمي تشعر أن من حقها أن تختار أسماءنا، وككل الأمهات التي تريد لأبنائها مستقبلًا مشرقًا، كانت لا تريد أن تُحمِّلنا عبء الأسماء القديمة والمشوَّهة في تلك الفترة. كانت لاحقًا تقول: «رغم كل شيء، يمكنني أن أفخر أنني أسميتكم أسماءً جميلة». لاحقًا حكت لنا كيف أنها كانت تُدوِّن الأسماء التي تقرؤها في الروايات؛ حتى يمكنها في كل مرة أن تختار من بين قائمة طويلة من الأسماء الجيدة. هناك استثناء واحد لتلك القاعدة التى وضعتها أمي في اختيار أسماء أبنائها، كان هذا الاستثناء هو أخي، الذي وُلِد في 1850، والذي أسماه أبي يوهان

2- كانت أخت أليتا جاكوبز الكبرى هي شارلوت (1847-1916). بدأت دراسة الصيدلة في جامعة جرونينجن في 1877. وكان يشار إليهم (فريدريكا- أليتا- شارلوت) في الجامعة في ذلك الوقت باسم بنات سابمير. بعد أن أنهت دراسة الصيدلة في الجامعة عملت في مستشفى أوترخيت. ثم سافرت لاحقًا إلى جاكرتا إلى في الهند الشرقية الهولندية. وبعد 6 سنوات من العمل هناك كمساعدة صيدلانية أسَّسَت صيدليتها الخاصة. ولم تكن توظِّف غير النساء في ذلك الوقت. نشطت أيضًا في حركة الدعوة لحق النساء في الانتخاب في جزر الهند الشرقية. قبل أن تعود لهولندا في عام 1913 وتشارك في كثير من المؤتمرات النسوية في تلك الفترة.

رودولوف، على اسم رجل السياسة الشهير يوهان رودولف ثوربيك[3]، والذي كان والدي من أشدِّ المعجبين به.

لقد سمعت الكثير من القصص العائلية عن مولدي، إحدى أشهر تلك القصص، أنه كان قبل ساعات قليلة من ميلادي ذهب خمسة من إخوتي الأكبر سنًّا إلى حفل راقص للأطفال. كانت أمي قد ألبَسَت إخوتي الخمسة الأكبر أزياء تلك الحفلة الكبيرة، بعد أن غسلتها جيدًا، وحرصت على كيِّها؛ كي يظهر أطفالها بأفضل مظهر ممكن. وعندما عاد هؤلاء الخمسة في العاشرة من مساء نفس اليوم فوجئوا بطفلة صغيرة في المهد بجانب أمي، اعتقد إخوتي البنات أنني كنت العروسة الصغيرة التي وعدهم بها أبي، تلك العروسة الصغيرة التي يمكنها أن تنام بجانبهم في السرير لكي يُهَدهِدوها ويلعبوا معها. لقد سمعت تلك القصة مرَّاتٍ عديدة، لدرجة أنني اعتقدت أنني أتذكر تفاصيل حدوثها، وغالبًا ما كنت أغتاظ بسبب تهكُّم إخوتي الأكبر على تلك المُخيِّلة الحيَّة التي كنت أمتلكها في سنٍّ صغيرة. كانت كل القصص عن مولدي غالبًا ما تنتهي بالتأكيد على أن أبي قد استقبلني أنا - طفلته الثامنة - بنفس الحماس الذي استقبل به طفلته الأولي.

ما لبثت أن أصبَحَت تلك الطفلةُ الثامنة هي المفضَّلةَ لدى أبي. كنت معصومة من الخطأ في نظره، وكان ذلك مَدعاةً لأن يستغل إخوتي الأكبر هذا الحب وتلك الميزة، فغالبًا ما كانوا يسألونني أن أطلب من

3- يوهان رودولف ثوربيك (1798 - 1872) هو أحد أبرز أعلام السياسة في التاريخ الهولندي الحديث. هو الذي وضع دستور 1848 الذي مهَّد الوضعَ لتحويل هولندا من ملكية، لملكية دستورية. يمارس فيها البرلمان المنتَخَب مجموعة من السلطات التنفيذية والتشريعية. أصبح رئيسًا للوزراء في 1849. وكان رئيسًا للحزب الليبرالي في ذلك الوقت. خلال عمله في السياسة وعبر مناصبه الوزارية المختلفة سعى لتطبيق عدد من الإصلاحات في القطاع التعليمي. أهمها زيادة أعداد المدارس العلمانية على المدارس الدينية في البلاد. كما ساهم في إصلاحات أخرى ساهمت في علمنة المجتمع الهولندي.

أبي ما لا يقدرون على طلبه منه. لاحقًا، وكالعادة توقَّفتُ عن كوني «آخر العنقود»، فكما جرت العادة، تمَّت إضافة 3 أعضاء جدد في الأسرة، عبر الفترات الزمنية المعتادة من ثلاثة عشر إلى أربعة عشر شهرًا. كنا نحن الأربعة الأصغر في الأسرة نكوِّن عُصبة مُنفصلة نسبيًّا عن الأسرة. لا أمتلك حاليًّا ذاكرة كبيرة عن تفاعُلي مع إخوتي الأكبر، بقدر ما أملك ذاكرة لتفاعلاتي اليومية مع الثلاثة الأصغر سنًّا، حتى الآن ما زلت أعتبر نفسي أختًا لإخوتي الأصغر أكثر من إخوتي لهؤلاء الأكبر مني سنًّا.

على الرغم من ذلك، لقد أحببت كثيرًا أخي الأكبر جوليوس، والذي كان يكبرني بثلاثة عشر عامصا. لا أمتلك ذكريات محدَّدَة عنه بخلاف فترة دراسته في جرونينجن، عندها عرفته كضيفٍ مَرِح يأتي لمنزلنا بين الحين والآخر. كان جوليوس يأتي عادة بدون إعلام مسبَقٍ ليقضي الإجازة، وأحيانًا يصطحب جمعًا من أصدقائه. وكما أسلفتُ، فإن دخل الأسرة لم يكن ليوفِّر لجوليوس مصروفًا جيدًا في أثناء الدراسة؛ بالتالي فإن هذا الشاب كان يعوِّض ذلك النقص من خلال العمل كمدرس خاص. كان جوليوس محبوبًا وسط أساتذته وأصدقائه من الطلاب على حدٍّ سواء. وكنا نحن في البيت نعدُّ الأيام كي يعود للمنزل؛ لأنه كان شديدَ القُرب منَّا نحن الصغار، في كل مرة كانت لديه حيلة جديدة أو لعبة أو قصة جديدة، وحتى أغاني جديدة يمكنه أن يغنيها لنا، وأحيانًا أخرى كان يستمر في الحديث عن حياته في جرونينجن بلا توقُّف.

لقد أحببتُ أيضًا أبي، ذلك الرجل الشريف ذا المظهر الجدِّيِّ في معظم الوقت، وعشقت أيضًا أخي المفعم بالأمل والمحبَّ للحياة. أردت أن أصبح مثلهم في يوم من الأيام، غالبًا ما كنت أجلس لأستمع

لأحاديثهم المطوَّلة، والتي كانت تستمر لساعات في أحيان كثيرة. غالبًا ما كانوا يتحدثون عن حالات مرضية في مستشفى جرونينجن، أو عن المرضى الذين يعالجهم أبي. بالطبع لم أفهم أي شيء ممَّا كانوا يتحدثون عنه، لكن الحديث نفسه كان مشوقًا بالنسبة لي، بحيث أترك ألعابي وأصدقائي الصغار لأجلس فقط معهم كي أسمتع لتلك الأحاديث المطوَّلة.

وفي عمر السادسة، كنت قد قرَّرتُ - بلا وعي بالطبع - أنني أريد أن أصبح طبيبةً مثل أبي وأخي الأكبر. في ذلك العمر لم أكن بالطبع أدرك مدى صعوبة هذا الاختيار لبنتٍ في مقتبل العمر مثلي. لماذا بالأساس ينبغي أن يكون اختيارًا صعبًا؟ ففي بيتنا كان الصبية والبنات يُعامَلون بالمثل؛ نذهب لنفس المدرسة، ونحضر نفس الدروس، ونأخذ نفس المصروف، حتى إنه يطلب منَّا نفس المهام والأعمال المنزلية. تقريبًا كنَّا على قدم المساواة؛ يُطلب من البنات الخياطة ورتق الملابس القديمة، وكان يُطلب من الأولاد تلميع الأحذية وقَطع الأخشاب. لم يكن هناك من مزيَّةٍ للأولاد على البنات الصغار؛ بالتالي كان مُتوقَّعًا بالنسبة لفتاة صغيرة مثلي أن تُترَك لها طبعًا حرِّيَّة اختيار مهنتها المستقبلية

بالطيع كان أبواي مندهشين من أفكاري الصغيرة لكي أصبح طبيبة، لكنهم - وبالأخص أبي - لم يفعلوا أي شيء لإثنائي عن ذلك الحلم، بل على العكس، كان أبي داعمًا لي.

عندما كنت أتغيب عن المدرسة - لسبب أو لآخر- فإنني كنت غالبًا ما أرافقه في زياراته المنزلية البعيدة. لاحقًا أدركت مدى أهمية تلك الرحلات الطويلة في تلك الطرق الريفية، وتمكَّنتُ من حصد نِتاج تلك

الأحاديث الجادة التي كان أبي يحدِّثني بها خلال الطرقات وأنا طفلة صغيرة. في الحقيقة، إن ذاكرتي المفضَّلة عن أبي هي أحاديثه الجادَّة في تلك الطرق الريفية، مع نظرته لي، والتي يتجسَّد فيها بالنسبة لي خير العالم كله.

وعلى الرغم من أنني أحببت حقيقة أنني يمكن أن أتكلَّم وأستمع لأبي يحكي عن أشياء أكبر من سنِّي، إلا أنني غالبًا ما كنت أجد نفسي، وفجأة، عُرضَة للتَّشتُّت بفعل أي شيء؛ بفعل وردة جميلة، أو منظر حقل أخضر من اللفت، أو فراشة ملوَّنة تطير فوقنا؛ لذلك، وقبل أن يلاحظ أبي ذلك التَّشتُّت، كنتُ أقفز للأعلي فوق قناة صغيرة من المياه بطريقة متهوِّرة. وعلى الرغم من أن أبي كان يوبِّخني كثيرًا حينما يتكرر ذلك، إلا أنه كان أوَّلَ مَن ينفجر بالضحك حينما يحكي ذلك للأسرة حينما نعود للمنزل.

لم يكن مخزون البطولة عندي فقط مقتصرًا على القدرة على القفز فوق قنوات الماء الصغيرة، بل أيضًا تسلُّق الأشجار والسباحة والتجديف. كنت كولدٍ صغير. تلك الأفعال لم تكن غريبة بالطبع اليوم، لكن في طفولتي كانت تلك الأفعال غريبة على فتاة صغيرة، وعندما كان الفلاحون يُعلِّقون على تلك المناظر بأنني «ولدٌ شقي»، لم يكن ذلك بالطبع من باب المجاملة. بالفعل، كنت مثل ولدٍ شَقيٍّ، ولكنني في جوانب أخرى كنت مجرَّد فتاة رقيقة. أحببت الدُّمى الصغيرة، ولكنني لم ألعب بها، بل كنت أغلب الوقت أحاول خياطة ملابس لتلك الدمى. صنعت لها فساتينَ وملابس داخلية وقبَّعات صغيرة، وحتى أحذية صغيرة. لا زلت أستمتع بهذه الهواية حتى الآن. بعد أن حصلت على شهادة الدكتوراه، قضيت بعض الوقت في لندن، حيث اشتريت

بعض الدمى الصغيرة والأقمشة الصغيرة، وبدأت أقضي وقت فراغي في حياكة ملابس لتلك الدمى، حتى أدهشتُ أبناء أخوتي الصغار بهذه الدُّمى التي ترتدي ملابس تشبه تمامًا ملابس النساء. وحتى لاحقًا حينما مرضتُ وتطلَّبَت فترة نقاهتي أن أجلس في المنزل بدون حركة لفترة طويلة، وجدتُ تزيين العرائس تسليةً جيدة جدًّا في هذا الوقت الصعب. والحقيقة أنني كنت ماهرةً جدًّا في الأعمال الحرفية، كنت أخيط القبَّعات الحريرية التي ترتديها النساء في سابمير في وقت فراغي. كنت أحب جدًّا تطريز القماش وخياطة المعاطف المزركشة، والتي كانت موضة منتشرة في ذلك الوقت.

لقد كان بيتنا مليئًا بهذا الشعور المِلحِّ للنظام، كل شيء يخضع للنظام في كل جانب منه، وحتى اليوم، حينما أقارن طريقة تربية والديَّ لي بطرق تربية الأبناء في هذه الأيام، فإنني أجد تلك الطرق القديمة تمتلك وَجاهةً ما، فعلى الرغم مثلًا من متطلَّبات مهنة أبي كونه طبيبًا متنقِّلًا، إلَّا أنه كان يقضي وقتًا كافيًا مع أبنائه، يتابع بنفسة تطوُّرَهم الجسدي والعقلي وتَشكُّل شخصيَّاتهم عبر السنوات. كل يوم، وتحت إشرافه، كنا نمارس تمرينات المشي في بهو المنزل ورؤوسنا لأعلى، الكوع للخلف، والصدر للأمام. وفي كل يوم كنَّا نمارس تمارييننا الرياضية في حجرة اللعب، التي كانت أكبرَ حجرة في المنزل. كل شيء في المنزل كان مُعَدًّا للأطفال؛ الكراسي الخشبية، والطاولة الخشبية كانت موجودة لتبقى سنوات طويلة وتتحمَّل حركة الأطفال الزائدة في هذه السِّنِّ الصغيرة، كان يُسمَح لنا بالخروج من المنزل يوميًّا للتَّنزُّه حتى نكتفي من خارج البيت ونعود. كلٌّ منَّا كان له دولاب خاص للمتعلقات الشخصية، وكل دولاب كان له مفتاح خاص يحتفظ به الطفل. في كل أسبوع كانت أمي تحرص على ترتيب

ونظافة تلك الدواليب، وأن كل شيء في مكانه.

في ليالي الشتاء، حينما تغرب الشمس، كان أبي يجمعنا، نحن الصغار، حول المدفأة بعد أن يشعل نارها. كان أصغر الأطفال يجلس على ركبته، والثلاثة الآخرون يجلسون حوله. كان يبدأ في حكاياته المعتادة لنا عن رجال ونساء من التاريخ، أو عن حقبة تاريخية مُعيَّنة. وفي الليلة التالية، كان يُطلَب منَّا أن نكرر بأسلوبنا ما تعلَّمناه من حكاياته في اليوم السابق. وحينما لا يتسنَّى لأبي أن يكون معنا في تلك الليالي الباردة من الشتاء، فإن أمي غالبًا ما تحلُّ محلَّه، بحكايتها الخيالية، أو بغنائها معنا تلك الأغاني التي تعلَّمناها في المدرسة. وبينما تحرص هي على راحتنا، نحن الصغار، في اللعب والغناء والحكايات، يكون بإمكان الإخوة الأكبر سنًّا أن يقوموا بواجباتهم المدرسية، أو يذاكروا دروسهم بهدوء في غرفة منفصلة مخصَّصة لهذا الغرض.

بالرغم من أن أبي لم يكن عضوًا في حزب سياسي، حيث كانت أحزاب الديمقراطيين الاشتراكيين والديمقراطيين الليبراليين، ما زالت أحزابًا محصورةً فقط في المدن الكبيرة، إلا أنه كان بالطبع شخصًا يميل للديمقراطيين. لقد أسلَفتُ قبل ذلك وبيَّنتُ مدى إعجابه بالوزير ثوربيك، ولكن على الرغم من إعجابه الشديد بثوربيك، إلا أنه كان دائمًا ما يُبدي الندم على أن عبقرية ثوربيك ومبادئه لم تَرَ النور في كثير من الأحيان، بسبب متاهات السياسة واضطرار الرجل الدائم لأن يساوم ويفاوض الأحزاب السائدة.

كان أبي رجُلًا تقدُّميًّا، حتى إن تلك الآراء التقدمية امتدَّت لمنظومة العقاب الأُسريَّة التي وُضِعَت لنا. كانت القاعدة تنصُّ على إرسال الأبناء اثنين باثنين - بفاصل نصف ساعة - إلى النوم. كان هؤلاء الذين يتعرَّضون للعقاب يُرسَلون للنوم نصف ساعة مبكِّرًا عن موعدهم

المعتاد، والذي اقتضته السِّنُّ، كلما كنتَ أكبر في السِّنِّ كلما كنتَ تُرسَل للسرير متأخِّرًا، مع طلب أن يكرر عبارة «لقد تصرَّفت مثل الأطفال؛ لذلك تتمُّ معاملتي مثلهم». كان غالبًا ما يتم الالتزام بتلك المنظومة العقابية بشكل كامل، وفي حالات الخطأ الشديد يُحرَم الطفل من قُبلة قبل النوم من قِبَل أبي وأمي. كان ذلك على وجه الخصوص يسبِّب لي الكثير من الحزن، فبدون قُبلة ما قبل النوم لم أكن أستطيع النوم. لحسن الحظ كانت أمي تقوم بجولات على الغرف في حدود العاشرة مساءً؛ ما يوفِّر فرصة للمذنبين أن يعترفوا بأخطائهم ويَعِدوا بالتغيير فيما هو قادم. كان أحد الأمثلة الأخرى على المنظومة العقابية التي وضعتها الأسرة تتضمَّن شجرة البيلسان في الفناء الخلفي للمنزل. لقد كان أبي يمنعنا من أن نأكل من ثمار تلك الشجرة، وعلى الرغم من أن أبي قد كرَّر علينا كثيرًا سبب ذلك، إلَّا أننا لم نكن قادرين على مقاومة الإغراء في أكل تلك الثمار. في أحد الصباحات، وحينما ظنَّ الصغار أنه لا أحد يمكنه أن يكشفهم، قرَّروا عصيان أوامر أبي مرة أخرى. ويومها حينما كان يتم تقديم الشاي لنا بعد الظهيرة، وُضِع أمام كلٍّ منَّا صحن كبير مُغطى، وطلب منَّا أبي أن ننتظر ولا نفتحه إلا حين يتم تقديم الصحن للجميع، وحينها اكتشفنا أن تلك الأطباق كانت ممتلئةً عن آخرها بثمار البيلسان.

«هيا، ابدؤوا بالأكل» قالها أبي، ثم أردف: «أريدكم جميعًا أن تستمتعوا بكل حبَّةٍ من تلك الثمار، فلن تأكلوا اليوم أي شيء آخر غير تلك الثمار».

بدأت الدموع تنهمر من أعيننا، ولم يجرؤ أحد منَّا جميعًا أن يمسك بثمرة واحدة من تلك الثمار، وفي النهاية سمح لنا أن نُفرِغ أطباقنا ونحصل على بعض الطعام الحقيقي، ولكن منذ ذلك اليوم - ولاحقًا - فقَدَت شجرة البيلسان أي سِحرٍ ممكن علينا جميعًا.

كانت القاعدة الأسرية تقتضي أن تتعامل أمي مع الجُنَح الصغيرة، ويتدخل أبي فقط في الموقف حينما نفعل شيئًا كبيرًا خاطئًا. لم يَشُكَّ أبي في كلامنا أبدًا؛ وذلك لأننا لم نكن نحاول الكذب عليه. عندما نسيء التصرف كان يسألنا فقط: «حسنًا، هل تظن أنك تستحقُّ عقابًا أم سماحًا؟»، وفي الغالب كنَّا نردُّ بأننا نستحقُّ عقابًا صغيرًا على ما فعلناه.

لقد لعبت حصالة النقود - والتي كانت على شكل خنزير - دورًا مهمًّا في تربيتنا. كان أبي يعطي كلَّ واحد منَّا في عيد ميلاده الخامس تلك الحصالة، والتي كان بها رُبع جِلدَر، وكان يجب أن يزيد هذا المبلغ مع الوقت. كنَّا مسؤولين عن رأس المال ذلك شخصيًّا، ومع ذلك كان علينا أن نشتري هدية في كل عيد ميلاد لكل واحد منَّا، وندفع من أجل الرفاهيات مثل أوشحة الحرير، إسورة اليد، والقلادات المطعَّمة بالذهب من أجل البنات، وروابط العنق الحريرية والساعات الفضية بالنسبة للأولاد. في كل أسبوع كانت الأم تعطي سِنتَيْن لكل طفل صغير منَّا، ومبلغًا أكبر بالطبع للأطفال الأكبر سنًّا. وكان أبي يعطينا نفس المبالغ تقريبًا. كان علينا أن ندخل في مسابقة للاحتفاظ بذلك المبلغ، وفي نهاية كل أسبوع مَن كان يستطيع أن يحتفظ بكامل المبلغ، كان يمكن أن يتضاعف مصروفه الشخصي، بشرط أن يتمَّ نقل مصروف الأسبوع السابق إلى الحصالة مباشرة. كانت تلك المسابقة تتكرر تقريبًا في كل أسبوع. بالإضافة لذلك كان يمكننا أن نكسب بعض المال من أداء الأعمال في المنزل. لقد كنَّا نتلقَّى أموالًا لكل شيء نفعله في المنزل تقريبًا، كانت عشر صفوف من الكروشيه أو عمل منشفة لوعاء الشاي تعني الحصول على سِنتٍ تقريبًا. كان رتق الجوارب يمكن أن يُكسِبنا حتى سِنت لكل ساعة عمل. كان الأولاد يتلقَّون مكافآت

مالية على أشياء أخرى؛ مثل تلميع الأحذية، أو قطع الأخشاب، أو قَصِّ العشب في الحديقة.

كان العمل في الحديقة يأخذ منا الكثير من الوقت، غالبًا ما كنا ننشغل في ذلك العمل في فترات ما بعد الظهيرة التي لا يكون لدينا فيها واجبات منزلية، أو صباحًا في أيام الآحاد. قص العشب، ترتيب النباتات وربط النباتات الطويلة، كنا نفعل أي شيء من أجل أجرة تتراوح بين 5 سِنتات وعشرين سِنتًا لكل فريق منَّا. كان كل فريق يتكون من الأطفال الصغار الذين ما زالوا يعيشون في المنزل، بالإضافة لأحد المشرفين من الأولاد أو البنات الكبار، والذي كان دوره هو أن يضع تقسيمًا جيِّدًا للعمل والأجرة بين كل أعضاء الفريق.

في ذلك الوقت لو كنا سمعنا عن الإضرابات العامة والإضرابات الجزئية ومطالب العمال، والحق في المعاملة الجيدة؛ فإنني على يقينٍ من أن العمل في الحديقة كان سوف يصبح مَصدرَ ثورة دائمة في المنزل. لم نكن راضين تمامًا عن تقسيم العمل في الحديقة، ونحاول بكل شكل من الأشكال أن نتفاوض على الأجرة قبل بدء العمل في الحديقة. لكن بالطبع لم نكن نحصل على تلك المطالب، كان القائد الفعلي للمجموعة - وهو من الإخوة الكبار - لديه مطلق السُّلطة، وكان علينا فقط أن نطيع أوامره بدون نقاش.

كانت المشاكل الحقيقية تبدأ حينما يأتي وقت دفع الأجرة، وفي بعض الأحيان كنَّا نرفض ببساطةٍ الانصياع للقِسمة الجائرة من قِبَل هؤلاء المسؤولين عنَّا من الكبار، وخاصة حينما يتعلق الأمر بتوفير بعض المال للمسؤول عن المجموعة، أو جعل الصغار لا يعملون في مقابل نفس القدر من المال. وحينما كانت مثل تلك الخلافات تنشب

بيننا كنا نلجأ للسُّلطة العليا في كل ذلك؛ وهو أبي، والذي كان يقوم بالتعويض المناسب بالنسبة لنا، إمَّا من خلال إعادة توزيع الأجر بيننا، أو أنه كان يعطينا المزيد من جيبه الخاص.

لقد كانت مُعارَضتي الشديدة للمدارس الخاصة طوال حياتي مَبنيَّة على تلك التجربة التي عايشتُها وأنا صغيرة في مدرسة القرية. لا يمكنني حتى الآن فهم لماذا نريد أن نصنِّف هؤلاء الأطفال الصغار. إن المدارس المختلطة تجعل الأبناء والبنات على دراية أكبر بصعوبات الحياة التي يعانيها أبناء الطبقة العاملة، وعلى الجانب الآخر، إذا تركنا أبناء الفقراء يدرسون سويًّا مع أبناء الأغنياء، فإن تلك الصحبة يمكن أن تفيدهم بشكل جيد في المستقبل؛ ولذلك كنت دائمًا أحاول أن أقف وأعترض - بأبسط الطرق، في حياتي اللاحقة - على وجود المدارس الخاصة، بل وأدافع عن إلغائها بشكل كامل.

كنت في عمر الثالثة عشرة حينما أنهيت دراستي في مدرسة القرية، كنت الأولى على الفصل بالطبع، وذلك على الرغم من الملاريا ونزيف الأنف اللذين أقعداني الكثير من الأيام في البيت ولم أستطع بسببهما الذهاب إلى المدرسة. وخلال السنة الأخيرة لي في المدرسة حضرت الفصول في مدرسة الحِرَف، والتي كنت أتعلم فيها كل يوم من الخامسة مساءً وحتى السابعة فنونَ الخياطة والتطريز وغيرها من المهارات المشابهة، كان التريكو هو نشاطي المفضَّل لأنني كنت أستطيع أن أقرأ في نفس الوقت.

بمجرَّد أن تتخرَّج فتاة قروية من مدرسة القرية فإن الطريق الوحيد أمامها كان أن تذهب إلى مدرسة نسائية محلية.

في ذلك الوقت كان هناك مدرسة ثانوية قد افتُتِحَت قريبًا في

المدينة، ولكن كانت الدراسة فيها حَصرًا على الذكور فقط. كانت بنات الفلاحين - وحتى الأغنياء - يذهبن إلى مدارس السيدات أو مدراس النساء، حيث كنَّ يتعلَّمن بعض الحِرَف اليدوية، بالإضافة للقليل من اللغة الفرنسية، ولكن قبل كل ذلك كان عليهنَّ أن يتعلَّمن الأخلاق الحميدة.

لم أستطع الاستمرار لأكثر من أسبوعين في تلك المدرسة. لقد حاولوا أن يُعلِّموني كيف يمكن للمرأة أن تدخل إلى الغرفة، وكيف يمكنها أن تصافح الرجال، وتعلَّمتُ أن مصافحة الرجال تختلف عن مصافحة النساء. لقد كان عليَّ أن أتعلم بعض الإتيكيت وآداب اللياقة، وبالطبع لم أكن التلميذة المثالية في تلك المدرسة. لقد علَّمونا أيضًا أن نستبدل بعض المصطلحات والكلمات الهولندية الجيدة بنظيراتها من الفرنسية، لأن المعلمة قالت إنه من الأفضل أن نستخدم بعض الفرنسية بين الحين والآخر.

لقد وجدت كلَّ هذا ضربًا من الغباء. «أليس هناك شيء خاطئ في كل ذلك؟» سألت نفسي، «أليس هناك شيء خاطئ أن يضيِّع المرءُ عُمرَه في تعلُّم ذلك الهراء». لم أكن أرى أي فائدة لكل تلك الدروس. وبالطبع لم أفهم لِم كان على الشابَّات الصغيرات أن يضعن عيونهن في الأرض إذا قابلن أحد الرجال في الشارع، ولماذا يجب على النساء ألَّا يتحدثن في وجود الرجال إلَّا إذا كان للرد على سؤال قد وُجِّه لَهُنَّ. كانت تلك المدرسة بمثابة كابوس بالنسبة لي.

شعرت أنني كلما مكثت هنا كلما ازدادت مستويات الغباء عندي، وبعد أسبوعين فقط قرَّرتُ أن أترك المدرسة.

ومهما حاولوا في المنزل أن يقنعوني بالعكس، لم يكن لشيء أن يمنعني عن تنفيذ ذلك القرار والعودة مرة أخرى لذلك الكابوس.

لقد كان أبواي أمام معضلة حقيقية: ماذا الذي سوف يفعلانه معي؟ وبعد مشاورات طويلة قرَّرا أنه خلال النهار سوف تقوم أمي بتعليمي كيفية القيام بأعمال المنزل، وفي المساء سوف أتعلَّم الفرنسية والألمانية. لقد أحببت كثيرًا تلك الدروس المسائية، وتحسَّنَت لغتي الألمانية بشكل سريع، لدرجة أنني استطعت في وقت قصير أن أقرأ الألمانية بطلاقة. وفي تلك الأوقات كان لديَّ دائمًا كتاب بالألمانية في يدي، كنت أستعير تلك الكتب من مكتبة أبي الضخمة لكي أقرأ تلك الأعمال الكلاسيكية كلَّما سنحت الفرصة لذلك. حاولت القراءة بينما كنت أنظِّف المنزل وأزيل الغبار، وبالطبع تسبَّب ذلك في إهمال كبير، وجوانب مختلفة من الغُرف كان التراب يتراكم حولها. كانت أمي تغضب مني لذلك السبب، وغالبًا ما كانت توبِّخني بسبب ذلك الإهمال. وفي تلك الفترة تناقص حبي واحترامي لأمي؛ كانت ببساطة عاجزةً عن فهم ما أريد أن أفعله بحياتي، لم تفهم يومًا سبب عدم اهتمامي بتلك الأعمال المنزلية، وانعدام طموحي في أن أصبح مجرَّد ربَّة منزل. وبالنسبة إليَّ فقد شعرت بالكثير من الحزن على مصير الحياة التي تنتظر الشابات غير المتزوجات في القرية، والتي كانت تشمل الأعمال المنزلية والخياطة وتجاذُب الحديث في نزهات ما بعد الظهيرة. وهكذا سوف تمرُّ السنون بالنسبة لي؛ ولذلك كنت عازمةً على تجنُّب ذلك المصير بأي شكل كان، ولكن كيف؟ لقد قضيتُ الكثير من الساعات أجلس بلا حراك في ركن مُظلِم من السقيفة؛ حتى يمكنني التفكير في كيفية تغيير مسار تلك الحياة. بدأت أفكر في البحَّارة التُّجَّار الذين كانوا يعيشون في القرية معنا، وكان بعض منهم أصدقاء لي.

لو أن واحدًا من هؤلاء البحَّارين يمكنه أن يُهرِّبَني إلى أمريكا. يمكنني أن أرتدي ملابس الصِّبية وأعمل كحمَّال في الميناء هناك في

أمريكا. لم أكن أخاف من الأحصنة، أو من العربات التي تجرُّها الأحصنة؛ وبالتالي بعد عمل شاق لمدة عدد من السنين يمكنني أن أدَّخِر بعض المال - بالطبع فسوف أكسب المال في أمريكا - وحينها يمكنني أن أدرس في الجامعة. بدت تلك خطَّةً منطقية وبسيطة. كانت المشكلة الوحيدة أنني ما زلت صغيرة جدًّا في السن، ولكن بتفاؤل الأطفال كان لتلك المشكلة حلٌّ في رأسي، لقد اعتقدت أنني سوف أكبر سريعًا وأصبح قادرة على العمل في خلال شهور.

لقد أصبحت مفتونةً كلِّيًّا بتلك الخطط، لقد أصبحت مهووسةً بها لدرجة أنني كنت أفضِّل الجلوس بمفردي لساعاتٍ بعيدًا عن الأصدقاء، أخطِّط لتلك المكيدة في رأسي. وبالطبع لاحَظَت الأسرة ذلك التَّغيُّر عليَّ. كانت تلك الطفلة النشيطة والحيوية والصاخبة قد أصبحت فجأةً هادئة. بدأ أبي في القلق، وحذَّر أمي من التعامل معي بقسوة خلال الأيام القادمة.

«ربما ينبغي علينا أن نجعلها تدرس خارج المنزل»، قالتها أمي في نبرة يائسة. لقد فكَّرا لوهلة قصيرة في تلك الفكرة، كانت أمي تعتقد أن لديَّ موهبة وحسًّا جيِّدًا في خياطة الفساتين؛ وبالتالي كانت تعتقد أن ذلك العمل يمكن أن يؤمِّن لي معيشة ما في المستقبل. أقنع أبي نفسه بتلك الفكرة على مَضَض، وأمَّا أنا فقد رضيت بها، لم يكن هناك شيء أسوأ من الكنس وإزالة الغبار وغسيل الأطباق التي لا تنتهي. ماذا يمكن أن يحدث أسوأ من هذا؟ كان الأمر بالنسبة لي مؤقَّتًا، لأسابيع قليلة فقط، ريثما أرتِّب أمري وأذهب إلى أمريكا.

لذلك تمَّ إلحاقي بصانع الفساتين في القرية. كانت تقاليد الأزياء في عام 1868، تقتضي أنَّ التَّنانير يجب أن تمتدَّ من أعلى لأسفل، مع

رباط ضيِّق على الظَّهر. كنت أنا مسؤولة في البداية عن وضع ذلك الرباط باليد. أشعرتني تلك الرتابة المطلقة لذلك العمل بالاكتئاب أكثرَ من أي وقت مضى، ومع الوقت أدركت أن خطَّة السفر لأمريكا محكوم عليها بالفشل. لكن ما الذي يمكنني أن أفعله؟ لم أستطع التفكير في مَخرَج من الحياة. أُصِبتُ بالفتور والاكتئاب في كل يوم يمر، وأصبحتُ شديدةَ الضَّجَر من كل شيء في تلك الحياة. عادت الملاريا إليَّ مرة أخرى، وعانيت من الكثير من الصداع، والذي تحمَّلتُه كلَّه في صمت. كان المرض - أو حتى الموت - أفضل بالنسبة لي من هذا البؤس المقيم.

لم يكن أبي بعيدًا عن التفكير في أطفاله، لقد كان شديدَ الانشغال بمستقبلي في تلك الفترة، بطريقةٍ لم يكن يمكنني أن أتخيَّلها. وفي أحد الأيام قرَّر أن يستدعيني فجأة خلال زيارة عائلية لمفتِّش الصحة في جرونينجن، الدكتور ل. ألي كوهين، والذي كان صديقًا مُقرَّبًا من العائلة. «دَعي الدكتور ألي يرى كراساتك المكتوبة» قالها أبي، عرضتُ عليه الكراسات، والتي تصفَّحها الدكتور ألي وأعرب عن سعادته بما وجده. كان ذلك المديح غير المنتَظَر كثيرًا بالنسبة لي.

غضبت كثيرًا، وقرَّرتُ أن أقطع تلك الكراسات إلى قطع صغيرة في غضب شديد، وقلت: «مَن هناك ليهتمَّ: هل أجتهد في الدراسة أم لا؟ لن أحصل على شيء لأنني فقط بنتٌ».

أخَذَت أمي بيدي لترافقني إلى خارج الغرفة. وسمعتها تقول لأبي: «لقد شهدت الآن واحدة فقط من نوبات غضبها المتعددة، تلك الطفلة لا يمكن تربيتها».

بعد وقت قصير استدعاني أبي مرة أخرى للغرفة. وقال لي في هدوء

إنني لن أعود مرة أخرى لمدرسة الخياطة. سوف نجعلك تتعلَّمين اليونانية واللاتينية، وبعدها سوف أناقش مستقبلك مع صديقي الدكتور ألي كوهين.

لكي يهدِّئ ذلك الغضب أخذني أبي في جولة للمشي، وخلال الطريق عانيت من صداع شديد، وبعدها شعرت بإعياء شديد جعلني أذهب للنوم على الفور. كانت أعصابي في حالة مزرية وكنت أيضًا أعاني من الأنيميا. كان الحل هو الطعام الجيد وبضعة أشهر من الراحة، وخلال ذلك المرض غالبًا ما كان يزورني أخي الأكبر لي، والذي كان يعمل طبيبًا في المدينة، ويعمل كمساعد للبروفسير روزنشتاين.

لقد كان يتحدث كما لو أن دراستي للطب قد أصبَحَت بالفعل أمرًا واقعًا. لقد قضينا الكثير من الساعات ونحن نبني أحلامًا، ونتحدث عمَّا سوف نفعله حين أنضمُّ إلى جانبه كطبيبة في جرونينجن. وفجأة أصبحت الحياة تستحقُّ العيش مرة أخرى. فعلتُ كلَّ ما بوسعي كي أُشفَى من ذلك المرض سريعًا، وبالفعل بعد بضعة أشهر كنت بصحة جيدة ومستعدَّه للبدء في دروس اليونانية واللاتينية. كان أبي هو معلِّمي الخاص، بينما كان جوليوس يأتي من حين لآخر ليتابع مدى تقدُّمي. لقد درست باجتهاد شديد، وقضيت وقت فراغي في الخارج أقفز وألعب القفز بالحبال والتجديف، وغيرها من التمارين الرياضية. فعلت كل شيء كي أستردَّ صحَّتي وعافيتي سريعًا؛ لأن أبي كان قد قال لي: «تذكَّري أن تلك المهنة المستقبلية التي تريدينها تتطلَّب قَدرًا كبيرًا من العافية والصحة البدنية».

في خريف عام 1869، جاء الدكتور ألي كوهين إلى منزلنا ليخبرنا أنه - وللمرة الأولى - سوف يسمح لفتاة بأن تأخذ امتحان القبول

لتصبح مساعِدَة صيدلي. اعتقد الدكتور ألي، أن عليَّ أن أتقدَّم لذلك الامتحان، وإذا نجحت فإن ذلك سوف يُثبِت جدِّيَّتي في دراسة الطب، وبالطبع سوف أكتسب بعض المعرفة اللازمة في المستقبل. وافق أبي على ذلك المقترح، وقرَّرتُ أن أخوض ذلك الامتحان في السنة المقبلة. كانت لغتي اللاتينية جيدة بما يكفي، ولكن منهج الامتحان احتوى على موضوعات أخرى لم يكن بمقدرتي أن أدرسها في المنزل. ولحسن الحظ، كان أخي الثاني، سام، قد بدأ ممارسة الصيدلة في أرنهيم في السنة الماضية، وكانت تشارلوت أختي - والتي سوف تصبح لاحقًا أوَّل صيدلانية أنثى - في هولندا تمكث معه هناك لتهتمَّ به. كان الحل الواضح هو أن أذهب لأسكن معهم، وأكتسب بعض الخبرة والمعرفة اللازمة من أجل الامتحان العملي. وافق أخي سام على أن أذهب للعيش معهم، ولكن تحت شرط واحد؛ وهو ألَّا أشغله عن عمله، بحيث يجد نفسه مضطرًّا لمساعدتي في التحضير للامتحان. كان سام كمعظم الرجال في ذلك الوقت؛ يفضِّلون أن أصبح خيَّاطةً بدلًا من أن أصبح مساعدة صيدلانية. لكن تلك الآراء لم يكن يشاركها معه مساعد الصيدلي الذي يعمل معه في الصيدلية، لقد ساعدني في الكثير من الأشياء من أجل التحضير للامتحان.

تعرَّضَت دراستي في ذلك الوقت لانتكاسة مفاجئة بعد أشهر قليلة من بدايتها. كان ابنَا أختي المتزوِّجة الاثنان يعانيان من الحصبة والكحة الشديدة، وكانت أمُّهما في نفس الوقت في انتظار المولود الثالث، وبالطبع لا يمكنها أن ترعى الطفلين وتلتزم ببقية الأعمال المنزلية. كانت أختي، والتي عادةً ما تساعد في مثل تلك الأعمال، مشغولةً في ذلك الوقت؛ ولذلك، في عمر السادسة عشرة، أُرسِلتُ إلى مدينة درينتي كي أوفِّر الرعاية اللازمة لبيت أختي. خلال تلك الشهور التي قضيتها

في بيت أختي، وجدت نفسي أؤدِّي الكثير من الأعمال التي لم أتخيَّل أنني قادرة على تأديتها في الأوقات الماضية، ومع ذلك قرَّرتُ عدم تأجيل دخولي لامتحان الصيدلة لعام آخر. سجَّلتُ لحضور الامتحان مع عدد آخر من النساء، ولاحقًا اتَّضح أن الامتحان سوف يقام في أمستردام في السادس والعشرين من يوليو 1870.

في تلك الأيام كانت الرحلة من سابمير إلى العاصمة مليئة بالكثير من الكلام عن مخاطر المدينة الكبيرة والسفر، لكنني لم ألتفت كثيرًا لتلك النصائح. حجز أبي لي غرفة في أحد الفنادق في دامراك، والذي كان قد رُشِّح إليه من قِبَل أصدقائي، وبهدوء، وبالكثير من السكينة، بدأتُ رحلتي إلى تلك المدينة الكبيرة وغير المعروفة كلِّيًّا بالنسبة لي.

من بين كل المرشَّحات الإناث لخوض الامتحان لم أكن الأصغر سنًّا فقط، لكن أيضًا كنت الأصغر في الحجم.

الحقيقة أنني كنت أقف أثناء الامتحان العملي على أحد المقاعد الصغيرة، كي أقدر على تحضير الوصفات. عاملتني الزميلات الأخيرات بازدراءٍ شديد. كنت مجرَّد فتاة قروية بتنُّورة قصيرة جاءت بمفردها للامتحان، حتى بدون أن يحضر أبوها أو أخوها أو أي شخص معها. لقد كنت أتعرَّض للتجاهل الشديد أثناء أوقات الاستراحة، من الجميع، ولكن لحسن الحظ كان الأساتذة الذين يمتحنوننا ودودين بشكل كبير، وحتى الآن، بعد مرور ما يقرب من خمسين عامًا على تلك الأحداث، ما زلتُ أتذكَّر طيبة هؤلاء بالكثير من الشكر والتقدير.

كان الامتحان نجاحًا كبيرًا بالنسبة لي. لم أنجح فقط، بل شجَّعني الأساتذة بحماس على الدراسة لأصبح صيدلانية؛ ممَّا يعني أنه سيُسمَح للنساء أيضًا بإجراء الجزء الثاني من الامتحان.

عُدتُ على عجل إلى سابمير، ومتسلِّحة بتلك الدبلومة التي قد نجحت فيها، كانت خططي المستقبلية قد نوقشت بالفعل في المنزل. شعر المؤيِّدون لي - بما فيهم الدكتور ألي كوهين والبروفيسور روبنشتاين - أنه يجب عليَّ اتباع نصيحة الأستاذة في امتحان مساعدة الصيدلة، وأستمر في الدراسة. وبالطبع، فقد تمسَّكتُ بتلك الخطة «إذا تمكَّنَت المرأة من أن تصبح صيدلانية، فهي أيضًا قادرة على أن تكون طبيبة». لم يحاول أحدٌ أن يفعل ذلك من قبل، ومَن يعلم، ربما لم يكن الأمر مستحيلًا كما صوَّره الجميع.

في النهاية استطعت أن أكسب جوليوس إلى صفِّي. أمَّا بقية الرجال - بما فيهم أبي - كانوا خائفين أنني أضعف بدنيًّا من تلك المهنة الشاقة، وأن التَّخرُّج في كلية الطب سوف يأخذ مني سنوات، وسوف تضيع سنوات شبابي بين الامتحانات والتدريبات. لقد حاولت الرد على كل تلك الاعتراضات، وبالفعل نجحت في النهاية؛ وبالتالي كان السؤال في النهاية هو كيف سوف أحضر لامتحان الدخول للطب.

كان عليَّ أن أحصل على دروس خاصة لمدة سنتين، وكانت تلك العملية بالطبع مكلفة للغاية، وفي النهاية لا يمكننا التأكد هل سوف يتمُّ قبولي في الجامعة بعد سنتين أم لا. إذا فشلتُ، فإن ذلك يعني ضياع قَدرٍ كبير من المال، ولا حاجة للقول، لقد شعرت أنني يجب أن أبدأ الآن بالفعل في التحضير لتلك الدراسة.

كانت معظم المواد التي ينبغي عليَّ دراستها تُدرَس بالفعل في المدرسة الثانوية المحلية، ولكن تلك المدرسة كانت حصرًا فقط على الأولاد. لكن مدير المدرسة السيد رينسن لم يكن لديه أي اعتراضات على حضوري للفصول. كانت المدرسة تقبل فقط الطلاب الذكور، لكن لم يكن هناك مانع قانوني صريح من قبول الإناث؛ وبالتالي - مع

وجود الوزير ثوربيك - قرَّر السيد رينسن أن يأخذ تلك المخاطرة.

وبذلك أصبحتُ أوَّلَ بنت تحضر في مدرسة ثانوية للأولاد. لقد كنت أعرف معظم الصبية من المدرسة الإعدادية، وكانت أموري جيدة مع المعلِّمين أيضًا.

بينما كنت في جرونينجن من أجل عطلة أعياد الميلاد، أخبرني البروفيسور روزنشتاين أن ابن زميل له قد تخطَّى امتحان الصيدلة، وأنه سوف يستخدم الدبلومة التي حصل عليها من أجل أن يحصل على إذن من الجامعة باستثنائه من الاختبارات من أجل أن يدرس الرياضيات والفيزياء. كانت تلك أخبار جيدة جدًّا بالنسبة لي، أصبح الآن بإمكاني أن أبدأ الجامعة بشكل أفضل، ومَن كان أفضل من أن أطلب منه ذلك غير الوزير الليبرالي ثوربيك، والذي كان في السلطة في ذلك الوقت؟

لقد قرأنا بتمعُّنٍ قانون التعليم العالي، وتوصَّلنا إلى أنه لا يوجد مانع قانوني من أن تذهب المرأة للجامعة. كان ذلك يعني أن موافقة الوزير ثوربيك على طلبي لم تكن تتطلَّب تغييرًا في القانون، لكنَّنا قرَّرنا أن ننتظر حتى نعرف ما تؤول إليه نتيجة التماس ابن صديق البروفسير روزنشتاين.

يبدو أن الوزير ثوربيك لم يكن يولي الكثير من الاهتمام لمسألة امتحانات القبول في الجامعات؛ ولذلك منح الطالب الذي تقدَّم بطلب الاستثناء الإذنَ لذلك بعد عدَّة أيام فقط، بعد ذلك مباشرة قرَّرتُ أن أتقدم بطلب الاستثناء، وعُدتُ إلى سابمير وقد ملأني الأمل. لكن الآن، وبعد أن قارَبَت كل أحلامي أن تصبح حقيقةً، عاد أبي مجدَّدًا ليؤكد على مخاوفه واعتراضاته السابقة على ذلك. كان أبي شديدَ القلق أنني

أضعف بدنيًّا من أن أكمل ذلك التدريب الطبي المكثف في الجامعة، وأنه لا يمكنني أن أمتهن الطب لأنني أضعف بدنيًّا من تلك المهنة. وبالطبع كانت دراستي للطب تتطلَّب الكثير من المال، ماذا سوف يحدث لو أنه بعد عدد قليل من السنوات قرَّرتُ أن أُغيِّر رأيي حول الموضوع. لقد تجادلنا سويًّا لأيام، وخلال تلك الفترة انتظرت بالكثير من التَّوتُّر ردَّ الوزير.

وأخيرًا، بعد انتظار أكثر من المتوَقَّع، تلقَّيتُ خطابًا من لاهاي. لكن في ذلك الخطاب لم أجد ردًّا على طلبي، بل بضعة أسئلة كان عليَّ الإجابة عليها. كان الوزير ثوربيك يريد أن يعرف عمري، ولماذا أريد أن أدرس الطب، ولأيِّ سبب لم أتقدم للامتحان الثاني في الصيدلة، ولماذا تقدَّمتُ بطلب الحصول على الاستثناء من اختبارات القبول في الجامعة.

انتظرت حتى التاسع من فبراير حتى أستطيع الرد على تلك الأسئلة؛ وذلك حتى يكون عمري سبعة عشر عامًا. وقمت بالرَّدِّ على خطاب الوزير بكل صدق ممكن، لكنني لم أخبر أبي بكل هذا إلَّا بعد أن أرسلت الخطاب. على الرغم من أن أبي قد وبَّخَني على تلك الفعلة، وبالأخص لأنني لم أذكر أي شيء عن خطاب الوزير، لكنه احترم بشدَّة قراري بالاعتماد على نفسي في ذلك المسعى.

بعد عدة أسابيع جاء ساعي البريد إلى بيتنا يحمل خطابًا آخر من لاهاي. كان الخطاب في هذه المرة مُوجَّهًا إلى أبي. في الخطاب كتب الوزير له عن المراسلات السابقة بيننا، وعبَّر عن رأيه أنه يرى أنني صغيرة جدًّا لأتحمَّل مسؤولية تلك القرارات، وربما من الأفضل له أن يرفض طلبي، وأنه يمكنني أن أدرس لعددٍ من السنوات قبل أن أغيِّر

رأيي في النهاية حول مهنة الطب.

وبالطبع بدأ ذلك الخطاب بأن الوزير سوف يوافق على تلك الخطط إذا علم بموافقة أبي عليها؛ وبالتالي فإن القرار يتوقَّف على الرجل الذي كان منذ وقت قريب يدافع عن خياراتي المستقبلية. تردَّد أبي، لم يكن يعرف ماذا يمكنه أن يفعل، وطلب من جوليوس أن يأتي إلى جرونينجن من أجل التشاور، وطلب مني أن أعيد التفكير في كل شيء مرة أخرى.

«ليس هناك فائدة من إعادة التفكير» رددتُ عليه في حزم، «أعرف بدقَّةٍ ما الذي أريده منذ سنوات مضت».

وصل جوليوس إلى البيت وتمَّ استدعائي من أجل مواجهة الثلاثي: أبي وأمي وجوليوس. في البداية وصف أبي وأخي كل الجوانب السلبية والأقل جمالًا في الحصول على التدريب الطبي، ودراسة الطب، بما في ذلك دروس التشريح، والقيام بالتشريح، والأمراض الجلدية، والأفعال غير الأخلاقية التي يقوم بها بعض المرضى في المستشفيات. لكن كل ذلك لم يكن ليصدمني. ومن ثمَّ بدأ جوليوس يسألني هل أعتقد أنني مؤهَّلة فعلًا لكي أتقدم لامتحانات القبول في كلية الطب؟ ولذلك قمت بتذكرته بالكثير من الطلاب الأغبياء الذين أعرفهم والذين تقدَّموا للامتحان، وقلت: «إذا كان هؤلاء الطلاب استطاعوا اجتياز تلك الاختبارات، فلِمَ لا يمكنني ذلك، خاصَّة أن لديَّ الكثير من الطموح والعزيمة من أجل الدراسة؟».

وبعد أن انتهيت أنا وأبي وجوليوس من ذلك النقاش، بدأت أمي على الفور في الإعلان عن اعتراضاتها ومخاوفها الخاصة، وبالطبع كانت تلك الاعتراضات أصعبَ في الردِّ عليها. لقد كانت أمي مقتنعة

أن السبب الوحيد الذي يجعلني أرغب في دراسة الطب، هو أن ذلك سوف يوفِّر لي الخروج من هذا البيت والتَّنصُّل من أداء الأعمال المنزلية، وشعرت أنه يجب على كل النساء أن يتعلمن كيف يَقُمن بمثل تلك الأعمال المنزلية. وفي النهاية وافَقَت على أن أختار الطب كمهنة مستقبلية، بشرط أن تكون أيام الإجازات مُخصَّصة لتعلُّم كيفية أداء تلك الأعمال المنزلية، وأنه بناء على ذلك يجب أن أتلقَّى نفس المعاملة التي يعاملها أبي لإخوتي من البنات، على سبيل المثال، إذا احتجتُ إلى فستان جديد، فإنهم سوف يعطونني المال لشراء القماش، ومن ثم يجب عليَّ أن أقطع القماش وأقوم بخياطته بنفسي.

بالطبع كنت في ذلك الوقت مستعدَّة للموافقة على أي شيء، وكل شيء. ما الذي يمكن أن يهمَّني في ذلك الوقت غير أن أحقق هدفي؟ لقد وعدت أمي أنني خلال الإجازات سوف أفعل أي شيء تطلبه مني. ربما يمكنني الآن إضافة أن ما تعلمَّته في النهاية من أمي كان بالتأكيد خيرَ عون لي في حياتي بعد ذلك.

كانت نتيجة ذلك النقاش المطول أن كتب أبي إلى الوزير ثوربيك يخبره أنه يوافق على خططي؛ من أجل أن يعطيني الوزير الإذن بالدراسة في جامعة جرونينجن في بداية إبريل من عام 1871. تلقَّيتُ لاحقًا خطابًا من ثوربيك بإعفائي من امتحان القبول، وأنه يمكنني أن أحضر المحاضرات في الجامعة لمدة سنة واحدة. كتب الوزير أنه بعد تلك السنة التجريبية يمكنني أن أطلب إذنًا دائمًا بدراسة الطب في الجامعة؛ لذلك، وبعد كل شيء، أصبح انفتاح الجامعات الهولندية على قبول المزيد من النساء يعتمد على ما يمكنني أن أفعله في تلك السنة الأولى التجريبية.

بعد الحديث مع البروفيسور روزنشتاين، والذي كان رئيس الجامعة في تلك السنة، قرَّرنا أن أبدأ حضور المحاضرات الطبية بعد إجازة عيد الفصح مباشرة. ومن ثم يمكنني أن أعتبر الفترة القصيرة قبل إجازة الصيف كفترة تجريبية.

كان كل شيء يبدو جيدا، مع الوقت، إذا استمرَّ ذلك، يمكن للطلاب الآخرين في الجامعة أن يتعوَّدوا على حضوري مع بداية السنة الأكاديمية الجديدة. كان لديَّ أسبوعان فقط من أجل التحضير، وتضمَّن ذلك بالطبع الحصول على فستان جديد، لم يكن يمكنني أن أحضر المحاضرات بتلك الملابس الطفولية. اشتريت من الأموال التي أعطاها لي أبي قطعةً من القماش سوداء، وقمت بتصميم فستان سادة وغير مُزَخرَف بأي شيء، على الرغم من أن الموضة في ذلك الوقت كان يمكن أن يكون بها الكثير من الزخرفة. وأيضًا قمت بإخلاء الخزانة التي أمتلكها في غرفة اللعب من أجل إفساح المجال للكتب الجديدة، وقمت بتسليم ألعابي إلى الأطفال الأصغر سنًّا، لكنني احتفظت بدُمية جميلة قد صنعت ملابسها بنفسي في السابق.

وبما أنني غالبًا ما أتلقَّى ذلك السؤال المتعلق بهل كنتُ على وعي كامل بما يمثِّله دخولي الجامعة في ذلك الوقت بالنسبة لبقية النساء في هولندا؟ هل كنت أعلم أن دخول المرأة للجامعة والتعليم العالي كانت مسألةً ساخنة ومَحطَّ نقاش كبير في كثير من الدول الأخرى؟

على الرغم من أن العكس تمامًا قد تَمَّ نَشرُه في الكثير من المقالات التي تناوَلَت حياتي، فإنه يجب عليَّ الآن أن أُصحِّح الأمور بالقول بأنه عندما ذهبت إلى جامعة جرونينجن لم يكن لديَّ أي فكرة عن تأثير ذلك. كيف يمكن بالأساس أن يكون لديَّ أي فكرة عمَّا يُمثِّله ذلك؟ لقد تربَّيتُ في قرية، وكنت أعلم القليل عن ذلك العالم الكبير. صحيح

أنني تربَّيتُ في بيتٍ ليبراليٍّ إلى حدٍّ كبير، لكن الصحافة فقط كانت هي ما يربطنا بما يحدث في ذلك العالم الواسع. يجب أن أشير أن الجرائد التي وصلتنا في ذلك الوقت كانت نسخةً واحدة نتشاركها مع ثلاث أُسَر أخرى، وبالكاد كان يمكن للأطفال أن يحصلوا على فرصة لقراءة أي شيء في الجريدة.

أضِف إلى ذلك حقيقة أن الحركة النسوية الهولندية في ذلك الوقت كانت ما تزال وليدةً، وأعتقد أن القارئ الآن سوف يقدِّر مقدار الجهل الذي كانت عليه امرأة قروية في السبعين من عمرها في ذلك الماضي.

كان طموحي الوحيد في ذلك الوقت هو أن أكمل تعليمي، وأبدأ في ممارسة الطب لاحقًا مع أبي وجوليوس.

عندما بدأت الدراسة كنت مجرَّدَ طفلة، كنت ضعيفةً وغير واعية جندريًّا بالشكل الكافي. كان الفارق الوحيد بيني وبين الأطفال الآخرين هو العزيمة والسعي المستمر للعلم والمعرفة. استمرَّ الأمر كذلك إلى بعد التَّخرُّج من الجامعة، وحينها أدركت أشياء كثيرة، وبدأت الانخراط في النضال من أجل تحرير المرأة.

لكي أنهي ذلك الفصل الأول من تلك المذكرات، ربما ينبغي عليَّ أن ألفت الانتباه إلى جزء مهم من تلك القصة، كانت له تأثيرات مُهمَّة على سابمير. كانت أختي الأصغر فريدريكا في الرابعة عشرة من عمرها حين غادرت إلى الجامعة في جرونينجن. كانت قد أنهت للتَّوِّ المدرسة الإعدادية، وأرادت أن تستكمل تعليمها، وعلى الرغم من أنها لم تكن استقرت على المجال التي تريد أن تعمل به في المستقبل. ومجدَّدًا واجهنا حقيقة أنه لا وجود للفرص التعليمية في التعليم الحالي في الجامعات في القرية. لكن فريدريكا قد قرَّرَت أن تحذو حذوي، وذهبت للمدرسة

الثانوية، ولكن في تلك المرة بتكلفة مرتفعة للغاية. حيث كان إخوتي الصبية الأصغر في نفس المدرسة، لأن تكاليف إرسال طفلين إلى نفس المدرسة كانت أقل. لكن على الرغم من ذلك كان على أبي أن يدفع الكثير من المال، لأن الأولاد قُبِلوا كتلاميذ عاديين في المدرسة، لكن فريدريكا لم تكن كذلك.

وبشكل ما علم الوزير ثوربيك بذلك، وتمَّ قبول طلب أبي في 1871، وفتَحَت المدرسة الثانوية في القرية أبوابها أمام البنات بنفس شروط قبول الأولاد. بقي الأمر كذلك حتى عام 1901، كانت سابمير هي المدرسة الثانوية الوحيدة التي تقبل البنات حتى ذلك العام، والذي سُحِب فيه هذا الاستثناء بقرار من الوزير إبراهام كويبر. ولكن في النهاية، بحلول 1905، أعلن الوزير رنك أن تلك التفرقة يجب أن تنتهي، وبالفعل استكمل عمل الوزير ثوربيك الذي بدأ في سابمير.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

الفصل الثاني

سنوات الدراسة

(أصبحت طالبةً للطب. تجاربي الجامعية. الإذن المؤقَّت أصبح إذنًا دائمًا. منافس في الرياضيات والعلوم الفيزيائية. اجتزت اختباري الثاني مع مَرتَبة الشرف. التَّدرُّب على الحياة. خيبة أمل. أمل جديد. بدأت ممارسة الطب. أمستردام. حقَّقتُ هدفي. التدريب الوطني. الحصول على الدكتوراه. لندن).

كان يوم العشرين من أبريل 1871، واحدًا من أكثر الأيام الاستثنائية في حياتي. ذلك اليوم الذي دخلت فيه إلى جامعة جرونينجن، مع أخي جوليوس، الذي قدَّمني إلى أساتذتي المستقبليِّين وزملاء الدراسة. آنذاك، لم يكن في وسعي سوى حضور محاضرات الرياضيات والفيزياء، ودروس في المنطق.

وصف البروفيسور سالفيردا أسابيعي الأولى في الجامعة، وكان وقتها رئيس قسم علم الحيوان والتشريح المُقارن في جامعة جرونينجن[1] عندما كتب في عدد 7 مايو 1817 من مجلة «Ons Streven» مُعلِّقًا:

4- وصف مقال «أليتا جاكوبز في جرونينجن» تأثير كتاب استعباد النساء لجون ستيورات ميل. والذي نُشِر بالهولندية في عام 1870 على الدوائر الليبرالية في جرونينجن. في ذلك الوقت كان ثمة نقاش حيوي على صفحات الجرائد - وفي المجتمع بشكل عام - حول تعليم النساء. كان كتاب ميلز شديد الراديكالية بالنسبة لتلك الدوائر الليبرالية في جرونينجن. وهو ما ساهم في إثراء وتعميق النقاش حول حق النساء في التعليم.

«هل واجهت الآنسة جاكوب الكثير من المصاعب؟ كان يجب أن تسألني ذلك قبل أن يُقدِّم شقيقها، الدكتور جوليوس جاكوبز، تلميذتنا الجديدة لأول مرة، ثم تأخذ مقعدها بجانب بقية الصف. لم أكن لأخفي سرًّا، حقيقةً إنني شعرتُ أن الخطوة الأولى كانت ستحتاج إلى التَّحلِّي ببعض الشجاعة، لكنها لم تتردد أبدًا للحظة، إذ جرت الأمور على نحوٍ فاق أفضل تصوراتي. أنا على قناعة بأن حرج البدايات سُرعان ما سيزول بيننا قريبًا. وأعتقد أنه من المهم بمكان أن أضيف أن سلوك الآنسة جاكوبز كان عظيمًا للغاية».

«غنيٌّ عن الذكر أنكِ تحتاجين إلى الكياسة في معاملتك مع المواضيع التمهيدية في قاعة المحاضرات التي تحضر في جنباتها طالبة، وينطبق هذا بصفة خاصة على قسم علم الحيوان. لكن وبصرف النظر عن حقيقة (’) هذه هي النغمة التي تصنع الموسيقى، فإن دروسي في التشريح المُقارَن سوف تنطوي على التعامل بطريقة خاصة مع بعض الجوانب؛ ما يعني أنه في مناسبات معيَّنة ستُنصح الآنسة جاكوبز أَلَّا تحضر هذه المحاضرات، والتي سوف تُدرس لها على مستوى فردي».

«بالطبع سوف نحاول جعل حياة الآنسة جاكوبز سهلةً وبسيطةً قدر المُستطاع، سوف تقضي استراحة لمدة خمس عشرة دقيقة بين المحاضرات، في قاعة فارغة، أو في غرفة مُجاورة، ثم تنتقل بعد ذلك إلى الصف التالي، حيث تمَّ تخصيص مكان خاص لها».

«هذا كل ما أستطيع قوله في الوقت الراهن، وفي حال جرت الأمور على ما هي عليه الآن، فلا يسعنا سوى أن نأمل ونثق أن ما تفعله الآنسة جاكوبز سوف يكون مُلهمًا هنا وفي كل مكان آخر».

نادرًا ما قمت باستغلال الامتيازات المُتعلقة بالحُصص المنفصلة.

بعد ثاني دروسي الفردية في التشريح المُقارن، قرَّرت أنه يجب عليَّ التحدث إلى البروفيسور سالفيردا، الأكثر لطفًا وصبرًا بين المعلمين. لقد توصَّلتُ إلى استنتاج مفاده أنني منذ اللحظة الأولى وجب عليَّ أن أعدَّ نفسي مكافئة للشباب الذين أودُّ مشاركتهم في الحقوق والواجبات الطلابية؛ إذ سيكون من الأفضل دومًا على كافة الأصعدة لو أن الجميع تقبَّل - فورًا - وجودي في المحاضرات، حيث - رغم كل شيء - هي مواد علمية يتم تناولها بطريقة علمية، إذ لا أرغب في أي معاملة تفضيلية إطلاقًا؛ وهذا كان السبب وراء أنني بدلًا من قضاء وقت استراحتي في القاعة الفارغة، سرعان ما انضممت إلى الطلاب الآخرين لمناقشة الجوانب الأكثر إثارة من محاضراتنا.

في هذا السياق، ولحسن الحظ، لم يكن فقط الأساتذة مُهذَّبين وباعثين على التفاؤل، ولكن أيضًا الغالبية العظمى من الطلاب. هذا السلوك بُرهِنَ عليه كذلك من خلال المقال المنشور في عدد 5 يونيو 1871، بدورية «ستودنتن ويكبلاد». كتبه طالب بجامعة جرونينجن ردًّا على قطعة سطَّرها المدعو «ثيودور»، طالب بجامعة ليدن، كان «ثيودور» ألقى بتلميحات صريحة عنِّي، ونصح طلاب جرونينجن على أن يجعلوا حياتي مأساوية للغاية حتى أُضطَرَّ لترك الجامعة، حتى تؤدي مغادرتي المُفاجئة إلى إحباط كل النساء اللواتي على وشك اتباع نهجي. وكفارسٍ بلا جواد، قرَّر «واو» أن يناصرني؛ فكتب:

«نحن ممتنُّون للثقة التي منَحَتنا إيَّاها الآنسة جاكوبز. فلقد أوضَحَت جليًّا أنه لا يوجد ثيودور في جامعة جرونينجن. فحقيقة أننا لم نَخُن ثقتها بنا شيء يبعث على الافتخار بجامعة جرونينجن؛ لذلك كانت كلماتك مُهينة لنا، وهو ما جعل من الضروري أن أحمل التحدي بالنيابة عنها».

أصبح كاميرلينج أونس[5] فيما بعدُ بروفيسورًا بجامعة ليدن، وبحثه في الفيزياء كان ذا صيت عالمي. وظن على ما يبدو أنه لا أحد أسوأ مني، وذلك بعد أعوام، عندما شكرته على الملأ على طريقته كطالب شابٍّ في حماية مصالحي والدفاع عن حقوقي.

على الرغم من أنني لم أعانِ من أي عنف مباشر في الجامعة، إلَّا أن مجرد رؤيتي فقط في حرم الجامعة كانت غالبًا ما تُسبِّب نوعًا من الغضب. حتى إن الصحف الليبرالية في ذلك الوقت غالبًا ما كانت تسخر وتعارض تلك القضية، حتى إنهم كانوا في الصفحات الأولى للصحف ينشرون أي آراء للطلاب الذكور تسخر من فكرة دخول النساء للجامعة. وبالطبع يبدو من نافلة القول الحكي عمَّا كانت تفعله الصحافة الدينية والمحافِظة في ذلك الوقت. كانت تلك الصحف تروِّج أنني فقط أردتُ أن أدخل الجامعة حتى أستطيع أن أرى وأقابل الزملاء من الطلاب الذكور. وعلى الرغم من استحالة وصف طريقة ارتدائي للملابس في ذلك الوقت بأيٍّ نوع من التَّكلُّف، فقد كنت أرتدي ملابس شديدة التواضع والبساطة، إلَّا أنهم استطاعوا على الرغم من ذلك أن يجدوا ثغرةً لانتقاد طريقة لبسي البسيطة، وكتبوا أنني أرتدي تلك الملابس فقط لكي أجذب انتباه الطلاب الذكور.

كان أسوأ ما في تغطيات الصحافة في ذلك الوقت أنها استهدفت أسرتي؛ من أجل تغيير موقفهم مني. كان أخي سام قد تبرَّأ ممَّا أحاول أن أفعله عندما مكثتُ معه لبعض الوقت في أرنيم، ومن ثم بدأ في اتهام أبي بأنه يستجيب لأي طلب أطلبه منه.

5- مُنِح السيد كاميرلنج أونس، المدافع عن السيدة جاكوبز، لاحقًا، جائزة نوبل في الفيزياء عام 1913، عن بحثه عن خصائص المواد تحت درجات الحرارة المنخفضة.

وبالتالي شعرت العائلة كلها بعبء ثقيل من جرَّاء ما كنت أحاول أن أنجزه في ذلك الوقت. قال أخي سام للصحافة: «لقد دمَّرَت طفلة واحدة - من ضمن أحد عشر ابنًا في تلك الأسرة - مستقبَلَنا جميعًا، وكذلك سُمعَتنا. كان ينبغي عليك (ويقصد الأب) أن تجعلها تغسل الملابس، بدلًا من أن تحمل حزمةً من الكتب إلى الجامعة تحت إبطيها وتسير بها في الشوارع».

كتب أخي يوهان أيضًا إليَّ. كان في ذلك الوقت ضابطًا صغيرًا في الجيش، متمركزًا في كامبن. وفي خطابة قال لي: «إن أفعالك قد جعلت حياتي لا تُطاق». كان زملاؤه من الضباط يخترعون كل أنواع الإهانات الممكنة لي، وبما أنني أخته؛ فقد اعتقدوا أنه يتَّفق معي في وجهات النظر. كان الأمر سيِّئًا للدرجة التي جعَلَته يتبرَّأ أمام دفعته - على العلن - مني، ومن أفعالي الشائنة، على حدٍّ تعبيره. لقد استمر على مقاطعته لي طوال سنة ونصف، لم يسأل عليَّ في أيٍّ من خطاباته، وحينما كان يأتي إلى المنزل كان يتعامل معي على أنني غير موجودة أصلًا. كنت في تلك الفترة - وللأسف - محاطة بالكثير من الرجال الذين يقولون باستمرار: «حمدًا لله أن بناتي وأخواتي لَسنَ مثلك».

لم تكن الحياة سهلة في ذلك الوقت. كنت أستيقظ كل يوم في الخامسة والنصف صباحًا؛ حتى أستطيع أن ألحق بالقطار في محطة سابمير في السادسة والنصف. كنت غالبًا ما أسير للمحطة في معظم الأيام، في أيام عاصفة ومتربة، وكان الأمر يصبح مستحيلًا إذا كان الجوُّ سيئًا، وتحديدًا إذا هطلت الثلوج.

لو سِرتُ بسرعة فإنه يمكنني بلوغ المحطة في خمس عشرة دقيقة، وفي بعض الأيام كنت أرى القطار يقترب من المحطة بينما ما زلت

أسير لأصل إليها، لكن، وبفضل إحسان ناظر المحطة، الذي كان يتأكَّد أن القطار لن يغادر بدوني- استطعت أن أركب في معظم الأوقات، وبفضل كرمه، وشهامة جامع التذاكر، كنتُ غالبًا ما أركب في الدرجة الأولى في هذا القطار، على الرغم من أن تذاكري كانت للدرجة الثالثة. عندما كنت أصل إلى جرونينجن كان الوقت ما يزال مبكِّرًا على ميعاد بدء الدروس. إذا كان الجو سيئًا كنت غالبًا ما أقضي ساعةً على الأقل في غرف الانتظار في الجامعة، لكن إذا كان الجوُّ جيدًا كنت غالبًا ما أجلس في إحدى الحدائق النباتية القريبة، والتي تعلَّمتُ فيها الكثير عن النباتات من بُستانيٍّ يعمل في تلك الحدائق.

كانت المحاضرات تنتهي في الغالب بحلول الرابعة مساءً. كنت أُسرِع عائدة إلى سابمير لأحصل على وجبة غداء ساخنة، ثم أكمل اليوم بأخذ بعض الدروس الخاصة في الرياضيات أو الفيزياء، أو غيرها من المواد، وبعد ذلك أراجع الملاحظات التي كتبتها أثناء محاضرات اليوم، ومن ثم كنت أرتاح ما تبقَّى من اليوم.

في بعض الأيام كان الصداع الشديد يمنعني من النوم لأيام متواصلة. وبقدر كبير من الحب والعطف كانت أمي تجلس بجانبي في كل ليلة لتضع «الكمادات الباردة» على مقدِّمة رأسي من أجل خفض درجة الحرارة. وعلى الرغم من عنايتها الفائقة بي أثناء المرض - فنادرًا ما كانت تغادر سريري - إلَّا أنها كانت غير راضية عمَّا أفعله، وتقول دائمًا إن سبب ذلك المرض هو القرارات الخاطئة التي اتَّخذتُها لحياتي بمساعدة أبي. وكلما كنت أتعافى من المرض كانت تترجَّاني أو تحاول إقناعي أن أترك الدراسة.

بدأت الإشاعات تنتشر في ربيع 1872 بأن الوزير ثوربيك قد مرض

مرضًا شديدًا، وأن حياته أصبحت في خطر مُحدِق بالموت. كان موت الوزير في ذلك الوقت يحمل الكثير من التأثيرات الكارثية المحتملة بالنسبة لي؛ لأنني لم أكن حصلت على التصريح الدائم باستكمال تعليمي. ما الذي كان من الممكن أن يحدث إذا كان خليفة ثوربيك يرفض أن يمنحني الإذن باستكمال تعليمي؟ بعد التشاور مع عدد من أساتذتي، قرَّرتُ أن أتقدَّم بسرعة للامتحانات في تلك المواد التي لديَّ معرفة جيدة بها. وبعد أن انتهيت من تلك الامتحانات، أرسلت مستنداتٍ تُثبِت أنني تخطَّيتُ الامتحانات، مع خطاب للسيد ثوربيك بأن يمنحني الإذن النهائي لاستكمال تعليمي.

بعد يومين من وفاة ثوربيك، في الخامس من يونيو في عام 1872، تلقَّيت خطابًا رسميًّا يتضمَّن الإذن الدائم لاستكمالي التعليم. كان الخطاب به شارة حداد سوداء على جانبه، ومُؤرَّخًا بتاريخ الثلاثين من مايو عام 1872. في الخطاب كتب أن التوقيع على الإذن الدائم الخاص بي لاستكمال التعليم كان واحدًا من آخر القرارات الرسمية التي اتَّخذها الوزير ثوربيك قبل وفاته.

لقد ملأني ذلك الخطاب بإحساس كبير بالراحة والطمأنينة، وأصبح الآن متاحًا بالنسبة لي أن أستكمل الاستعدادات للدخول للاختبارات الأكاديمية في سنتي الأولى، والتي اجتزتها مع مرتبة الشرف، في السابع عشر من أكتوبر من نفس العام.

كان ذلك الإذن النهائي يعني أيضًا أنني من اليوم أصبحتُ رسميًّا مُرشَّحةً للحصول على درجة علمية في الرياضيات والعلوم الطبية.

كتبت السيدة إتش جي شاب، والتي كانت زوجة أخي الرسام الشهير جوزيف إسرائيل، في صحيفة «المسعى» ons striven في

العاشر من أكتوبر عام 1872 عن ذلك، حيث كتبت:

«اليوم، في الثانية بعد الظُّهر، كانت القاعة الصغيرة في الأكاديمية على موعد هام وحدث فريد، حضره جمع بسيط من الناس. كانت القاعة مسرحًا للامتحان الذي خاضته إحدى الشابات الصغيرات، التي تُدعى السيدة أليتا جاكوبز من سابمير.

دخلت السيدة جاكوبز جامعتنا بوصفها طالبة في مدرسة الطب في 1871، وحضرت محاضراتها بالكثير من الحماس، كانت السيدة جاكوبز محظوظة بإرادتها الحديدية. لقد نجحت السيدة جاكوبز بالكثير من الإصرار أن تكون رائدة في هذا المجال، وأن تكون مثالًا يُحتذَى به لبقية النساء في هذه البلد. لقد نجحت اليوم في أن تحصل على الإجازة الرسمية في الفلسفة، والتي تُعتبَر مُقدِّمة لدراستها للطب.

ليس من قبيل الغرابة أن ذلك الامتحان الذي خاضته السيدة جاكوبز اليوم قد استرعى انتباه عدد من الطلاب الذكور، كانت هناك امرأتان فقط في تلك القاعة، إحداهما هي كاتبة تلك السطور.

بعد أن غادرنا الباحة الأمامية للقاعة، والتي كانت ممتلئة بالطلاب الذكور، دخلنا إلى غرفة صغيرة، حيث انتظرت السيدة جاكوبز مع والدها قبل أن يُقرَع الجرس ليعلن بدء الامتحان. كانت السيدة جاكوبز في غاية الهدوء، وتكلَّمَت، وضحكَت كما كانت عادتها. رنَّ الجرس ودخَلَت السيدة جاكوبز مع أبيها لقاعة الامتحانات، ودخلنا جميعًا خلفها. وبهدوء شديدة جلست في مقابل الأساتذة من كلية الفلسفة، جلس جميع الحضور، وبدأ الامتحان على الفور.

من أجل أن ألخِّص القصة، كان هناك أربعة أساتذة يمتحنون

السيدة جاكوبز، أربعة تخصُّصات مختلفة في علم النبات، والرياضيات المتقدمة، والفيزياء، والكيمياء. لم تفقد السيدة جاكوبز في أثناء إجابتها على أسئلة الأساتذة طريقتها المباشرة والواضحة في الإجابة. لقد أجابت على كل الأسئلة بطريقة مُختصَرة، بدون إطناب، لكنها إجابات صحيحة شديدة الدِّقَّة.

وبعد أن استمرَّ الامتحان لقرابة الساعة والربع، طُلِب من الآنسة جاكوبز أن تغادر القاعة لدقائق معدودة، والتي قرر خلالها الأساتذة مَنحَها الدرجة العلمية عن جدراة. وبعد وقت قصير أعلنت تلك الطبيبة المستقبلية عن فرحها الشديد أنها أصبحت أخيرًا مُرشَّحة للحصول على الدرجة العلمية في الرياضيات والفيزياء. والتي تُعدُّ مرحلة تمهيدية قبل دراسة الطب، لقد تُوِّجَت مجهودات السيدة جاكوبز بهدية إضافية، وهي أنها حصلت على الشهادة مع مرتبة الشرف.

امتلأت القاعة بالكثير من التصفيق والبهجة من زملاء السيدة جاكوبز في الدراسة، والذين عبَّروا عن فرحتهم بنجاح زميلتهم، ويكأنَّه إنجاز جماعي لهم جميعًا.

دعونا نأمل أن تقتدي الكثير من النساء بالسيدة جاكوبز، وألَّا يصبح حدث أن تدرس امرأة الطب هو الاستثناء في تاريخ هذا البلد».

بعد أن اجتزت الاختبارات الأولية، تلقَّيتُ الكثير من خطابات التهنئة من كل أنحاء البلاد. تلقَّيتُ الكثير من خطابات من ناس لم أسمع عنهم من قبل، ولن أسمع عنهم حتى بعد ذلك. غالبًا ما كان هؤلاء الناس يقدِّمون الدعوة إليَّ في خطاباتهم كي أمكث عندهم في بيوتهم لكي أستريح من عناء الدراسة. كتبت خطابات ردٍّ لكلٍّ منهم

أشكرهم بأدب على تلك الدعوات، وأخبرهم أنني لا أنوي أن أستريح في ذلك الوقت، وأن هدفي القادم هو الحصول على شهادة الطب، وكلما حصلت على تلك الشهادة مبكِّرًا كان ذلك أفضل بالنسبة لي.

ومن بين كل تلك الخطابات، كان هناك خطاب جذب انتباهي أنا وأبي مرَّةً واحدة. كان على الخطاب طابع بريد من أرمسفورت، ومُوقَّع باسم سي. في. جريتسن، لم يكن خطُّ الكتابة أو أي شيء آخر في الخطاب يشير إن كان كاتب الخطاب رجلا أو امرأة. لكن الخطاب احتوى على شعور كبير بالفرحة بأن امرأة من هولندا استطاعت أن تثبت أن النساء يمكنهم النجاح في الجامعة، وقد تمنَّى لي الخطاب الكثير من النجاح في دراستي المستقبلية، لكي أثبت الكثير لنفسي ولكل النساء في هولندا.

كشفت لي إحدى العائلات التي أتت من أرمسفورت، والتي كانت تعيش في جرونينجن في ذلك الوقت، لُغزَ كاتب هذا الخطاب. كان الخطاب مكتوبًا من قِبَل رَجُل، وأخبرتني تلك العائلة أن ذلك الشاب صاحب الثلاثة وعشرين عامًا، والذي كتب هذا الخطاب، قد سبَّب الكثير من المتاعب لأسرته. أخبروني أنه ينحدر من أسرة شديدة التَّديُّن، ومع ذلك يرفض الذهاب مُطلَقًا إلى الكنيسة. وأن الكاتب المثير للجدل في ذلك الوقت، مالتاتولي، قد حلَّ عليه ضيفًا في إحدى المرات، وأنهم قد شوهدوا سويًّا أكثر من مرة في العلن[6]. كان أيضًا هناك الكثير من الشائعات حول السيد جريتسن، والذي يُقال إنه كتب

6- كان مالتاتولي هو الاسم المستعار للكاتب إدوارد دوي ديكر (1820-1887) وهو كاتب هولندي مرموق. كانت راويته max havlaar نقدًا صريحًا للممارسات الاستعمارية الهولندية في تلك الفترة. كان مُلحِدًا. صاحب آراء صادمة للمجتمع الهولندي حول الكثير من القضايا التي شغلت المجتمع الهولندي في ذلك الوقت. لكن تلك الآراء غالبًا ما جلبت له الكثير من الإعجاب. وخاصة من الشباب الهولندي في تلك الفترة.

كتيِّبًا صغيرًا يحثُّ الطبقة العاملة في هولندا على الإضرابات، وأن ذلك الكتيِّب قد وُزِّع على كل الأحزاب المهتمة بالعمال بالمجان.

على الرغم من أن أبي لم يكن يملك الكثير من الاعتراضات على ذلك النمط من الحياة، إلا أنه نصحني - ومن باب الحصافة - ألَّا أردَّ على ذلك الخطاب. اختلفت معه في الرأي حول ذلك؛ فما الذي يضرُّ ألَّا يذهب شخص ما إلى الكنيسة لأنه ليس متديِّنًا، سوف يكون من النفاق أن يذهب للكنيسة كل يوم أحد فقط من أجل إرضاء أبويه. أيضًا كان كثير من الرجال المرموقين في هولندا يعجبون بالكاتب مالتاتولي، وعلى الرغم من أنني لم يسبق لي قراءة أيٍّ من مؤلَّفاته، إلَّا أنني كنت أعرف أن كثيرًا من الشباب يعجبون به في ذلك الوقت. أمَّا فيما يتعلق بالعُمَّال فإن أبي نفسه غالبًا ما كان يقول: «إن ظروفهم الحياتية لن تتحسَّن سوى بعد أن يشعروا أن الأمور لا يمكن أن تُطاق على ذلك النحو».

بعد تفكيرٍ متأنٍّ، وعلى الرغم من نصيحة أبي بالعكس؛ قرَّرت أن أرد على ذلك الخطاب. لم أشكَّ للحظة أن ذلك الرد قد يؤدِّي لعلاقة حبٍّ وصداقة عميقة.

عندما أفكر الآن في تلك السنوات، والتي قضيتها في التحضير لامتحانات الحصول على شهادة الطب، يُخيَّل لي أن تلك الفترة كانت من أصعب فترات حياتي. في تلك الفترة، كنت أشعر دائمًا بانعدام الرضا عن الذات، وأتساءل إذا كان من الأفضل أن أتبع نصيحة أمي وأصبح سيدة منزل. لم أكن أواجه صعوبات كبيرة في الدراسة، ولم تكن فكرة أن أصبح سيدة منزل بديلًا مناسبًا لي. كانت هناك أسباب أعمق لهذا الإحساس الدائم بالسوء. كان في مقابل منزل أبويَّ على

الجانب الآخر لضفة قناة وينشوترديب، مَرسًى صغير، به عددٌ من المباني. كان يسكن في أحد تلك المباني المتواضعة زوجان صغيران في السِّنِّ. كان يمكنني أن أراقبهم دائمًا أثناء المذاكرة. بعد الظهيرة، حينما كان عقلي يتشتَّت بفعل ملاحظات علم التشريح، التي كانت شديدةَ الصعوبة، كنت أنظر لأجد الزوجة الصغيرة تقف وهي تحمل ابنها في انتظار عودة الزوج. وعندما يقترب الزوج كانت تضع الطفل على الأرض برفق كي يستطيع أن يحبو تجاه أبيه. كان الأب يرفع الابن من على الأرض في ابتسام ويضعه على كتفه، ثم يدخل الزوجان والابن السعداء معًا إلى المنزل. إن امتلاك طفل كهذا، أن تحصل على طفل خاص بك، بعيدًا عن كل هذا العالم، كان يمثِّل لي أعظم سعادة يمكن الحصول عليها في ذلك الوقت، ولكن بما أنني قرَّرتُ أن أصبح طالبة فقد كنت دائمًا ما أقرأ وأسمع العكس عن كوني عكس كل النساء، ولكن أدركت مع الوقت أن عليَّ أن ألتزم بالاختيار الذي قرَّرتُه من البداية.

بعد فترة طويلة، أدركتُ أنه في تلك المرحلة كنت في طور البلوغ، والتَّحوُّل من طفلة إلى امرأة ناضحة. كانت أحاسيس النشاط الجنسي قد بدأت تظهر عليَّ، ومن ضمن تلك الأحاسيس كان الرغبة القوية في الأمومة. وذلك على الرغم من أنني لم أفكر في الطرف الآخر لتلك العلاقات؛ الزوج أو أبي الطفل الذي أريده. اكتشفت لاحقًا أن تلك الأحاسيس التي مررت بها غالبًا ما كانت تجعل الكثير من النساء تُقرِّر ترك التعليم، غالبًا ما كان هؤلاء النساء لا يُدرِكن أن تلك الأحاسيس المستمرة بانعدام الرضا لا علاقة لها بالدراسة، فحتى النساء اللاتي يُقرِّرن أنهن لن يذهبن للمدارس، غالبًا ما يجتاحهن هذا الشعور في مرحلة ما من حياتهن، ففي النهاية كل النساء يُرِدن أن ينجبن أطفال

في مرحلة ما من حياتهن. كانت حقيقة أن تلك الرغبة لا يمكن تلبيتها تُسبِّب الكثير من المعاناة، والتي لن تحدث في أي من المجتمعات المنظمة بشكل جيد. كان مفهومنا غير الأخلاقي عن الجنس يعني أن الأمومة المحترمة يجب أن تُلبَّى فقط في مؤسسة العِفَّة المسمَّاة بالزواج.

لقد وجدت علمَ التشريح شديدَ الملل، خاصة ذلك الجزء الأول المتعلِّق بالعظام والعضلات. لكنني أدركت أن عليَّ أن أتخطَّاه بسرعة، وبأي شكل كان. كان الجزء الخاص بالدورة الدموية أكثرَ إثارة بالطبع بالنسبة لي، لكن ما شد انتباهي حقًّا كان المخ. لقد أردت التَّعلُّم عن المخ بقدر أكبر ممَّا كان يتطلَّبه ذلك القدر الخاص للحصول على شهادة طبية. لكن في ذلك الوقت لم يكن هناك الكثير من التفاصيل حول تشريح المخ؛ وبالتالي أضحت أسئلتي الكثيرة بدون إجابة، أو ببساطة؛ لم يكن العلم قد تطوَّر في ذلك الوقت ليوفِّر إجابات على تلك الأسئلة.

لقد ظلَّت اللحظات الأولى المرعبة لي في المشرحة عالِقةً في ذهني طوال حياتي. كنت في ذلك الوقت أتصوَّر الجثث الميتة المجهولة التي يأتون بها إلينا أنها أشخاص أحياء؛ ولذلك كان تشريح تلك الجثث بمثابة فِعل القتل عندي. عندما كان يُعهَد إليَّ بذراع إحدى الجثث كي أحضرها للتشريح، كنتُ غالبًا ما أستجمع كل قواي حتى لا يظهر عليَّ أيُّ نفور، أو على وجهي أيٌّ من الأحاسيس التي شعرت بها في ذلك الوقت. لقد رأيت كوابيسَ في الصباح والليل تتضمَّن تلك الجثث والأذرع المبتورة. لقد ظللت عاجزة عن أكل اللحم في تلك الفترة، وأينما ذهبت كنت أشعر أن رائحة الجثث النَّتِنة تسير معي. كان عزائي الوحيد في تلك الفترة أن لا أحد من زملائي في درس التشريح قد شعر

بما كنت أُضمِره في داخلي. لقد توقَّع هؤلاء أن يغمى عليَّ لمرة على الأقل بمجرَّد أن أنزل معهم لغرفة التشريح، وأقرُّوا جميعهم لي بالشجاعة في ذلك الوقت، وأنني اجتزت كل ما حدث في المشرحة بالكثير من الشجاعة والتصميم الرجولي.

لم يكن عِلم التشريح أبدًا واحدًا من موادِّي المفضلة، إلا أنني كنت مفتونة بشكل كامل بمحاضرات علم وظائف الأعضاء البشرية. كنت أودُّ أن أكمل دراسة هذا العلم حتى بعد أن أحصل على درجتي العلمية، ولكنني وجدت أنه من الصعب التوفيق بين خططي المستقبلية وهذا الشغف. علاوة على ذلك، كنت أجد صعوبة في التأقلم مع أمور التجارب على الحيوانات الحية، كانت مستحيلة للغاية، مثل قطع رقاب الضفادع. لحسن الحظ، كان سيد بلج، المساعد اللطيف، يقوم بهذه الأجزاء من التدريب نيابةً عنِّي كلَّما احتجت ذلك.

في 23 أبريل 1874 (وهكذا خلال السنتين) دخلت أول اختباراتي التأهيلية، ومرة أخرى اجتزتها مع مرتبة الشرف.

حتى الآن كان الوقت مناسبًا لكي أحصل على راحة. درجة حرارتي كانت ترتفع مرة كل ثلاثة أيام؛ ما أفسد كلَّ نظامي تمامًا.

طُلب مني أن آخذ «راحة تامَّة وهواءً مُنعشًا». بعد وعود صادقة ألَّا أفعل أي شيء حتى شهر سبتمبر، غادرت إلى «لوخيم»، حيث يقوم أخي جوليوس بممارسة الطب منذ عدة سنوات (في أواخر 1871)، إلا أني أحضرت كتبي الدراسية في حال أنني تعافَيتُ في وقت أسرع ممَّا هو مُتوقَّع.

كل شيء صار كما تمنَّيتُ، إذ هدأت نوبات حرارتي ببطء، وبعد

ثلاثة أشهر تلاشت هذا النوبات. وبفضل هواء جِلدر لاند شعرت بأنني أكثر قوة وعافية، مقارنة بما كنت عليه حين جئت لـ «لوخيم». أحيانًا كنت أستطلع كتبي. ساعدني جوليوس في عملي، ومع الوقت عدت إلى المحاضرات مرة أخرى في سبتمبر، وباتت لديَّ فكرة جيدة عمَّا يكمن لي في المستقبل.

انتقلت إلى «جرونينجن» مع بداية الفصل الدراسي. بيتي الجديد كان غرفة خلفية صغيرة، أعلى باحة للأعمال الخشبية في «تورفتورنسترات». يمكنني الآن أخيرًا أن أبدأ بالجزء الأكثر جاذبية بالنسبة لي في تدريبي: الدروس العملية على مرضى حقيقيِّين. لكي أكون صادقة، كنت بوجه عام مهتمَّةً بالمرضى أنفسهم ممَّن أُصِبت بنفس أمراضهم. وبشكل خاص، كنت منبهرة بحيوات النساء التي كنت أعالجهنَّ.

من الممكن أن هذه هي المرحلة التي بدأت تترسَّخ خلالها أفكاري النسوية والديمقراطية لأول مرة. وبلا شكٍّ حظيت بفرص عديدة لأشهد المصاعب التي تعاني منها نساء الطبقة العاملة، ولأرى إلى أي مدى تدنَّى الدعم الحكومي والخيري المتاح للأُسَر عندما تغيب الزوجة والأم بسبب مرضها. من ناحيتي، حاولت أن أخفِّف من معاناة مريضات المستشفيات عبر التواصل مع أُسَرهنَّ، وفي حال كان ضروريًّا أقدِّم لهنَّ الدعم الفعَّال. بهذه الطريقة، أصبح العمل مع المرضى لا يعلمني فقط عن مرضهم، بل يُعلمني الكثير عن المجتمع نفسه. فقد تعلَّمت كيف أن قوانين الزواج العبثية أنتجت لا مساواة فجَّة بين الأزواج والزوجات. اكتشفت الظلم الاجتماعي؛ فبالرغم من النمو العام في معدلات المعيشة، فإن الكثير من الأُسَر لا يمكنها أن تتعدَّى مستوًى معيَّنًا من الرفاهة. لقد واجهت تبعات إهمال الأطفال،

وبدأت أدرك لماذا العديد من الأولاد والبنات، رغم القدرة على الانجاز، حُكِم عليهم بالعيش تحت براثن الفقر. وأصبحت، تدريجيًّا، على وعيٍ بالظلم الكامن في مجتمعاتنا الحديثة، والذي على الرغم من أنني لم أستطع إلى الآن أن أستكشف كل جوانبه، إلَّا أن هذا الظلم استحوذ عليَّ، وقرَّرتُ أن أحاول فهم كل ما أستطيع من تلك المظالم.

كذلك بدأت في إدراك كيف يبدو الأمر حين تكون المرأة عاملة بالجنس في مجتمعنا، وذلك من خلال معالجة امرأة في الثامنة والعشرين من العمر، أُدخِلَت إلى المستشفى بينما كانت تعاني من مراحل متأخِّرة من مرض الزُّهري. فقد كُتب على الورقة التي عادة ما تتضمَّن تفاصيل حالة المريض كلمة «Meretrix»، وهي كلمة لم أسمع بها من قبل. ولم يُفدني في شيء تعريفها في القاموس: «امرأة الشوارع»؛ لذا استعنت بصديقي الدكتور ألي كوهين لكي يشرح لي هذا الأمر. كان، فيما مضى، يبذل قُصارى جهده لكي يُرضي فضولي، ولكن هذه المرة إجابته كانت مُراوغة، ونصحني بأنه يجب عليَّ ألَّا أقوم بأي شيء لهذه المرأة. لا أستطيع التَّذكُّر ما إذا سمعتُ نصيحته أم لا في البداية، ولكنني أتذكر جيدًا أنه لم يأتِ أحدٌ على الإطلاق لزيارة هذه الفتاة الشاحبة والجميلة. في النهاية، شعور بالتعاطف دفعني إلى أن أُقدِّم لها بعض الزهور. كلما رأيتها كلما شعرَت أنها تستطيع الوثوق بي. وعندما أدركت أنني حقيقة أهتمُّ لأمرها، بدأت تسرد عليَّ قصة حياتها، التي اكتشفت لاحقًا أنها تُطابق قصص حياة كثيرات من العاملات في الجنس. فهي كانت فتاة يتيمة تعيش في أمستردام، أُغويَت وهي في عمر الثامنة عشرة على يد أحد النُّبلاء. وجهلًا بأي طريقة للهرب، انتقلت من حال سيِّئ لأسوأ، ومن بيت دعارة إلى آخر، حتى انتهى بها المطاف في المستشفى، حيث وجدت ملاذًا آمِنًا وهادئًا،

لم تكن لتغادره وهي على قيد الحياة.

مرَّت زياراتي الخفية دون أن يلاحظها أحد، وذات يوم نصحني مساعد الطبيب بأن أنهي كلَّ تواصُلي مع الفتاة، وإلَّا سأصبح هدفًا للشائعات المُغرضة والمشاعر السيئة. رددتُ عليه بإخباره القليل عن حياة هذه المرأة، وأكَّدتُ له أن لا شيء سوف يمنعني عن مساعدتها خلال الأيام الأخيرة من حياتها. كلماتي أثَّرَت فيه بشكل واضح، فوعدني أنه لن يقدِّم لي المساعدة فقط، بل أيضًا سيحرص على أن يُفهِم بقية الطلاب وجهة نظري. وبعدها بفترة وجيزة تخلَّصَت مريضتي التعيسة من معاناتها المميتة.

شكل آخر من أشكال الاستغلال التي استرعت انتباهي على نحوٍ أكثر فجاجة؛ ذات يوم طلب مني أحد الأساتذة أن أصطحبه هو ومساعده إلى غرفة خلفية في المستشفى، حيث تسع نساء بملابس رثَّة ينتظرن وصولنا. طُلب منهنَّ واحدةً تلو الأخرى بشكل فظٍّ أن يتجرَّدن من ملابسهنَّ وأن يستلقين على طاولة خشبية. كِلَا الرجلين عامَلَ هؤلاء النسوة كما لو كُنَّ أشياء، وفحصاهُنَّ دون أن يكلِّفا أنفسهما عناء لمسهنَّ. وأعقَبَت ذلك مناقشة وجيزة، بعدما أُبلِغَت سبع نساء أن يغادرن، بينما المرأتان الأخريان صدرت تعليماتٌ لهما بدخول المستشفى. غادرت النساء السبع بصحبة شخصٍ يبدو وقحًا كان ينتظرهنَّ. شعرت بالحنق جرَّاء التَّهكُّم والسخرية التي تمَّت بها معاملة هؤلاء النسوة (فحصهنَّ بالكامل لم يستغرق أكثر من عشرين دقيقة)، والطريقة الغريبة التي تمَّ بها طرد النساء السبع. أردت أن أعرف ما الذي يحدث بالضبط، ولماذا تمَّت معاملة هؤلاء النسوة بهذه الطريقة، ولماذا احتُجِزت اثنتان منهنَّ، وماذا يحدث للأخريات. مستشعرًا ذُعري، اعتذر مني البروفيسور على طلبه حضوري لهذا

الفحص. لأنني تحدَّثتُ كثيرًا مع المومس التي كانت في العنبر؛ افترض البروفيسور أنني تلقائيًّا سأكون على دراية بما يجري. لقد شعر أنه سيكون مُساعدًا لي في عملي المستقبلي أن أعرف شيئًا عن القواعد المنظِّمة للبِغاء.

كان البروفيسور مُحقًّا للغاية، بالنسبة لأنني لاحقًا أصبحت أكثر انخراطًا في المعركة ضد بيوت الدعارة وضد القواعد المنظِّمة للدَّعارة في هولندا. في ذلك المساء، أُثبت لي أن القواعد المنظِّمة لا تضمن عدم العدوى، وأن الإجراءات الطبية المتَّبعة برُمَّتها تهين المريضة والطبيب، وأنه لا ينبغي على بلاد مُتحضِّرة أن تتسامح مع بيوت الدعارة بأكثر ممَّا يُسمح به في أسواق النخاسة.

متسلِّحةً بمعرفة متزايدة عن الطب والمجتمع، كانت خطَّتي أن أبدأ العمل لأجل امتحاناتي النهائية السريرية. لسوء الحظ، أُصِبتُ بأعراض الملاريا، وبدأت الأعراض الثانوية في الظهور عليَّ في مطلع ربيع العام 1876. شعرت بالشحوب والفتور، وعانيت من السعال الجاف المتواصل. قلِقًا بشأن أعراضي؛ قرَّر أحد أساتذتي أن يُجري لي فحصًا شاملًا. كانت لديَّ الكثير من الصعوبات في الكلام وفي التَّنفُّس في تلك الفترة. حاول هذا البروفسير إقناعي بأن أتخلَّى عن دراستي، حتى لو نجحت في اختباراتي؛ لأنني لن أكون بالقوة الكافية لمواصلة ممارسة الطب النشط. ألن يكون من الحكمة، بالنظر إلى حالتي الصحية، أن أركِّز على الاستمتاع بالحياة؟

كان جليًّا أن البروفيسور قد شخَّص حالتي بالسُّلِّ الرئوي، كما أعلَمَ أبي لاحقًا في خطاب مكتوب. في ذلك الوقت لم يكن أحد يعتقد إمكانية الشفاء من هذا المرض، حتى لو تمَّ اكتشافه في المراحل المبكرة. كلمات البروفيسور كانت لا تزال ترنُّ في أذني، عدت إلى غرفتي، حزمت

حقائبي، وغادرت إلى « سابمير» لكي أخبر والديَّ عن حالتي.

وصلت المنزل في حالة من الضعف الشديد. كنت قد بالَغتُ في تقديري لقوتي، وحاولت أن أفعل أكثر بكثير ممَّا كنت قادرة عليه. متمدِّدةً على فراشي تلك الليلة، ما الهدف من إطالة حياة فارغة وبدون معنى؟

في جُنح الظلام، وبحلول الساعة الثانية، تسلَّلتُ إلى صيدلية والدي، باحثةً عن مفتاح غرفة السموم. ولم أكد أضع يدي على المفاتيح، حتى فُتِح الباب ووجدت أبي يقف أمامي بكامل ملابسه. وقال في صوت هادئ: «هذا ما اعتقدت أنكِ ستفعلينه، ولكن علينا أولًا أن نتحدث عن الأمر»، ثم أخبرني عن كيف أن بعض الحالات يمكنها تحدِّي التشخيص، حتى في عمله. وذكر الصعوبة الحالية في تحديد المراحل الأولى من المرض، واقترح أن نذهب إلى البروفيسور روزنشتاين، في مدينة «ليندن» لأخذ رأيه. وفي حال توافَق تشخيصه مع تشخيص بروفيسور جرونينجن، حينها لا يزال لديَّ الوقت لأقرر ما أريد أن أفعله بشأن مستقبلي.

أَخَذَت الترتيبات من والدي يومين بسبب عمله، ثم غادرنا إلى ليندن. لاحقًا اكتشفتُ أن هذين اليومين كانا ضروريين أيضًا للبروفيسور روزنشتاين حتى يتلقى خطابًا تفصيليًّا من والدي يصف فيه أعراضي. قام روزنشتاين بفحصي دبدقه، ثم أعلن أنه لم يجد بي شيئًا خطيرًا. سعالي كان سعالًا عصبيًّا. يجب أن أعود إلى العمل لكي أستطيع أن أخوض الجولة الثانية من الامتحانات في أقرب وقت ممكن. وبعد ذلك، نصحني البروفيسور بأن أغيِّر الهواء عاجلًا؛ لأعطي لنفسي أفضل فرصة ممكنة للتعافي من الملاريا، واستعادة صحتي وعافيتي. هذه

النصيحة أسعدتني إلى ما لا نهاية. بدأت دراستي مرَّةً أخرى بحماس شديد، واجتزت اختباراتي قبل أن تبدأ عطلات الصيف. وبعد يومين، غادرت إلى لوتشيم، وفي هذا المرة بقيت كتبي بأمان في المنزل. فأنا أريد أن أتأكَّد أنني استعدتُ كامل صحتي.

حتى خلال هذه الأيام، أدركت كيف أن الناس تتأقلم سريعًا مع فكرة أن يُعالَجوا على يد طبيبة امرأة. وكثيرًا ما كنتُ بديلًا لأخي في الطوارئ، ولم يكن هناك أي مشكلة، وبغضِّ النظر عمَّا إذا كان المريض امرأةً في المخاض، طفلًا صغيرًا، أو شخصًا من كبار السن. كنت مقبولةً بثقة تامة، وكان أحيانًا يُطلب مني متابعة علاج المريض. ذات مرة، بعد سنوات عدة، عندما كنت ألقي محاضرة عن حقِّ النساء في التصويت في «لوخيم» قدَّم لي شابٌ باقةً من الزهور بالنيابة عن والديه؛ لشكري على معالجتهم في صيف العام 1876.

بسبب أخي جوليوس، الذي كان حينها متزوجًا، وغادر بعد زيارتي في جزر الهند الشرقية الهولندية، إذ لم أحصل مجددًا قطُّ على فرصة لممارسة الطب في لوخيم.

الآن، وقد تحسَّنَت صحتي بشكل عظيم مع تغيير الهواء، فقد تقرَّر أنه عليَّ أن أجتاز الاختبارات النهائية الإكلينيكية في جامعة أخرى. في بادئ الأمر، فكَّرنا في «ليندن» بسبب البروفيسور روزنشتاين. ولكن ما إن تسرَّبَت أنباء عن خططنا حتى أبلغني اثنان من الأساتذة المحليين - بفظاظةٍ - بأنهما يمكنهما العيش بطريقة أفضل في غيابي. لم أدَع هذا التصريح يؤثر على قراري. لكنني على الرغم من ذلك شعرت بجاذبية أكبر تجاه أمستردام، حيث المستشفيات أكبر والحياة الاجتماعية أكثر حيوية. ومع ذلك تمَّ تنبيهي أن صفوفي

الدراسية يحضرها كذلك طلاب العسكرية، حيث يتمرَّنون ليصبحوا ضباطَ فِرَقٍ طبية، ويذيع صيت هؤلاء بوقاحتهم المتشددة. فشل هذا التحذير في أن يخلق تأثيرًا كبيرًا عليَّ، ويجب عليَّ أيضًا أن أضيف ذلك أن الأمر لم يمثِّل أي مشكلة في الممارسة العملية. بمجرد أن حصلت على تأكيدات من مجلس مدينة أمستردام بألَّا تعترض بأي شكل من الأشكال على حضوري بالجامعة، استأجرتُ غرفة صغيرة من أرملة تعيش قرب المستشفى.

في الثاني من شهر أكتوبر 1876، قام عميد جامعة أمستردام، البروفيسور جوريسن، بتسجيلي طالبةَ طبٍّ في مدرسة «أثينيوم إيلوستر». في نفس اليوم ذهبت لألتقي بأساتذة الطب الذين سأحضر محاضراتهم.

في البداية ذهبت لرؤية البروفيسور «ستوكفيس»، وبسرعة بدا واضحًا أن زيارتي كانت أكثرَ من مجرد مجاملة[7]. حيَّاني البروفيسور وهو في شدَّة الدهشة، وواحد من أسئلته التي بادر بسؤالها كان يتعلَّق بحداثة عمري. لقد وجد أنه من الصعب تصديق أن تجارب امرأة في الثالثة والعشرين استطاعت أن تقودها إلى أن تجد مرادها في حقل صعب مثل الطب.

الآن كان دوري لأن أشعر بالذهول، هذا الذهول تنامى في اللحظة التي سمعت فيها القصص المتداولة في أمستردام، حول قصة الحب التعيسة التي بسببها بدَّلتُ تدريبي الطبي. عبَّر أيضًا الأساتذة الآخرون عن دهشتهم لحضوري. أحدهم سألني بتعاطُفٍ ما إذا كان

7- بارند جوزيف ستوكفس (1834-1902) كان طبيبًا متعدِّد التَّخصُّصات. شديد الشهرة في المجتمع الطبي الهولندي. كان متميِّزًا في الطب الكيمائي والصيدلة والطب الاستوائي.

من الممكن أن أكون شابَّةً صغيرة وأرملة. أكَّدتُ على الأساتذة أنه ليس فقط أنني لست أرملة، ولكنني لم أقع في الحب بعدُ.

في صباح اليوم التالي، قوبلت بحشود من الطلبة عند مدخل المستشفى. هؤلاء الشباب شكَّلوا صفَّين متوازيين، حيث كان عليَّ أن أعبر بينهما. ربما ظنُّوا أنهم بهذه الطريقة سيرهبونني. تصرَّفتُ كما لو أنني لم أفهم ماذا يجري. فألقيت التحية على الطلاب ومشيتُ بهدوء بين الصفَّين باتجاه قاعة المحاضرات. كُسر الجليد أخيرًا. قدَّم طالب نفسه وعرض عليَّ المساعدة.

حذا الآخرون حذوه، وسريعًا كان كلٌّ من الأساتذة والطلاب معتادين على وجودي. وإلى نهاية سنوات دراستي، لم أصادف من الجميع سوى التهذيب والمساعدة، سواء في غرفة التشريح أو جناح الولادة ليلًا.

علَّمَتني أمستردام كيف أقف على كلتا قدميَّ. في جرونينجن كنت كما لو أنني لا زلتُ مُقيَّدة بِمئزَر أمي. علاوة على ذلك، دومًا كان هناك أصدقاء ومعارف ممَّن أستطيع استشارتهم كلما احتجت نصيحة. ولكن في بداية حياتي في أمستردام كنت أعتمد كلِّيًّا على نفسي؛ لأنه لا يوجد أحد يمكن الاعتماد عليه. وكانت الحياة في المستشفى أكثر بدائية منها في جرونينجن. حيث لا يوجد شيء من قبيل ممرضات متدرِّبات جيدًا. بعد أن يقوم الأطباء بجولاتهم، تُترك المريضات الإناث إلى خادمات المستشفى، والمرضى والذكور إلى خُدَّام المستشفى. هؤلاء الخادمات هنَّ نساء ذوات خلفيَّات تمنعهنَّ من الدخول في الخدمة المنزلية العادية. فهُنَّ وقِحات وفَظَّات، وكائنات مستهترة، وإلى الآن يتم اعتبارهنَّ جيدات بما يكفي للعمل في مستشفى؛ لذا، غنيٌّ عن

الذِّكر أن هذه الظروف منحت سكَّان أمستردام سببًا وجيهًا لاختيار تعلُّم مهارات التمريض. في بعض الأحيان أتحمَّل مسؤولية شخصية لرعاية المرضى المصابين بالأمراض الخطيرة، وأقضي ليالي عديدة في المستشفى مع كتبي الدراسية. وبسرعة تعلَّمت بالتجربة أنها كانت فكرة جيدة أن أبقى في العنابر ليلًا؛ إذ إن المشاهد التي تحدث في الممرات بين الخادمات والخدم تفوق الوصف. باختصارٍ، كانوا مثيرين للاشمئزاز[8].

كان شتاءً قاسيًا في ذلك العام (1876/ 1877). حيث كست الثلوج، لأيَّام، الأحواض المائية في حديقة «فونديل بارك».

ولأنني كنت قد تعلَّمتُ التَّزلُّج منذ صغري، مثل غالبية الأطفال في «جرونينجن» و«فرايزلاند»، كنتُ قادرة على الاستمتاع من كل قلبي بهذه الرياضة الصحية الشتوية.

لقد تسبَّبتُ في ضجَّةٍ كبيرة للغاية؛ ذلك لأنه في هذا الوقت لم تكن النساء يتزلَّجن في أمستردام. كان هناك دومًا مجموعة من الفضوليين في كل مساء أذهب فيه إلى للتَّزلُّج في فونديل بارك، مع مجموعة من الطلاب أو أخوات الزملاء المنحدرين من الشمال كذلك. حتى إن الأمر وصل إلى الصحف؛ ما أدى إلى أن نساء أمستردام أيضًا ذهبن للتزلج.

وبرويَّةٍ بدأت أتعرف على قليل من العائلات الذين دعوني إلى منازلهم في مساءات الأحد، لكي أستطيع بعد عناء الدراسة أن أسترخي

8- كطبيبة كانت جاكوبز تهتمُّ كثيرًا بتحسين حالة التمريض. وخاصَّةً فيما يتعلق باختيار الممرضات وتدريبهم. ساهَمَت لاحقًا في تأسيس مؤسسة «المشفى». وهي مؤسسة مخصَّصة لذلك الغرض. كما كتبت الكثير من المقالات عن حالة التمريض في دول مختلفة زارتها لاحقًا. منها سويسرا. والبرتغال. ومصر. وجنوب إفريقيا والفلبين.

في محيطٍ سارٍّ مثل أي شابَّة في عمري. عاملني معارفي من أمستردام بدفء شديد، ولا زلت أتذكر الكثير من الأوقات السعيدة التي قضيتها مستمتعة في ضيافتهم.

أحد الأسباب التي جعلتني أختار أن أكمل تدريبي في أمستردام كان مجلسَ الامتحانات الحكومي للاختبارات الطبية. حيث كان يُعاد تشكيله كاملًا في كل عام، ويجتمع في مدينة جامعية مختلفة. في 1877 انتقل المجلس إلى أمستردام، وتَشكَّل بالأساس من أساتذة محليين من المدينة. بدأت مجموعات الطلبة في التحضير للامتحان النهائي في الربيع من ذلك العام.

سجَّلت بالفعل في المجموعة الأولي من الطلاب التي سوف تتلقى الامتحانات، حتى أستطيع أن أكمل الجزء الثاني من الامتحانات في الخريف أمام نفس اللجنة. تطلَّعتُ ليوم الثاني عشر من أبريل، حيث كان مُقرَّرًا أن أحضر الامتحان التحريري الأول للامتحانات النهائية لنيل شهادة الطب. في ذلك الوقت، لم أكن خائفة من الفشل، ولكن قبيل الامتحان بأيام قليلة بدأت أشعر ببعض القلق، بدأت أخاف ممَّا يمكن أن يخبئه القدر لي. كانت هناك فجوة لبعض الأيام بين الامتحان التحريري والامتحان الشفوي، والتي بدأت فيها أشعر بمزيج من الحزن، مع عدم الارتياح، رغم تأكيد الجميع لي أنني على الطريق الصحيح. كنت أعلم أن الخوف ليس مشكلتي في تلك المرحلة. فقبل الامتحان الشفوي بأيام شعرت بضعف شديد، حتى إنني طلبت من أحد أعضاء اللجنة أن أؤجِّل ميعاد الامتحان الشفوي بعض الوقت.

لقد شعر هذا البروفسير بالكثير من الغبطة حينما طلبتُ ذلك، وردَّ سريعًا: «لا يمكن أن نفعل ذلك»، وقال: «تمالكي نفسك وتعالي غدًا

للامتحان كما تمَّ الاتفاق من البداية». وبالفعل في اليوم التالي ذهبت إلى الامتحان، على الرغم من شعوري بالمرض.

في تلك المرحلة، لم تكن الدرجات تهمني بهذا القدر. حصلت على الدبلومة، وتلقَّيتُ التهاني من الزملاء والأساتذة بلا مبالاة كاملة. وبدون تفكيرٍ ذهبت للعشاء في منزل السيدة جودفروي، والتي كانت صديقة مُقرَّبة، ودَعَتني للعشاء في منزلها من أجل الاحتفال. لكن وبمجرد أن وصلت لمنزله شعرت بإعياء شديد، للدرجة التي جعلتهم يدخلونني للراحة على السرير، ويرسلون في طلب طبيب. كان الطبيب قَلِقًا من حالتي المرضية، للدرجة التي جعلته يطلب استشارة الدكتور ستوكفيس.

بدا البروفسير ستوكفيس أيضًا شديد القلق، أصرَّ على أنني أحتاج لرعاية طبية على مدار الساعة، ونجح في أن يستقدم لي ممرِّضةً لتمكث معي من أحد المستشفيات الخاصة. في اليوم التالي، تمَّ تشخيصي بأنني على الأرجح مصابة بالتيفوس.

أرسلوا تلغرافًا إلى أبي على الفور. لم أكن مستعدَّةً للانتقال إلى أحد المستشفيات في تلك الحالة، وبالتالي كان عليَّ أن أظل في منزل السيدة جودفروي. جاء أبي بمجرد أن سمع الخبر، وأحضر معه أختي شارلوت، والتي كانت قد عادت إلى سابمير بعد زواج أخي سام؛ للتَّدرُّب على أن تصبح صيدلانية، وكانت بالفعل أنهت الامتحان الأول للحصول على شهادة الصيدلة.

مكثتُ في منزل السيدة جودفروي لأربعة أشهر كاملة. لم يكن ذلك يزعجها ذلك على الإطلاق، وكانت سيدةً مضيافة حرصت على أن أحصل على الراحة والسلام الذي يتطلَّبهما مرضي. مكثت شارلوت

معي، وقامت بتمريضي خلال تلك الأشهر، وكان الدكتور ستوكفيس بمثابة طبيبي الخاص طوال فترة المرض.

في أثناء فترة المرض تعرَّضتُ لأكثر من مرة من نزيف في الأمعاء، وعددٍ من الانتكاسات المتكررة. كانت التليغرافات ترسل بالاستمرار إلى سابمير لأبي، الذي كان عليه أن يقطع كل تلك المسافة إلى العاصمة أكثر من مرة. بينما جلست أمي في المنزل في حزن شديد، لا تدري ماذا يمكنها أن تفعل من أجل طفلتها. كان الأصدقاء والمعارف كثيري التردُّد عليَّ أثناء مرضي. وكان من بينهم شاب صغير يأتي أكثر من مرة في الأسبوع، وعندما كان يُسأل عن اسمه كان يردُّ: «إنها لا تعرفني بعدُ». لم أكتشف سوى بعد فترة أن ذلك الشاب لم يكن سوى كاريل فيكتور جريتسن، من مدينة أميرفوست.

لقد مرضت في منتصف أبريل، ولم يسمح لي البروفسير ستوكفيس بالسفر إلى سابمير إلا في أغسطس. كنت في شدة الإعياء والضعف، وصلعاء بالكامل. وصلت إلى سابمير كي أجد البلدة بأكملها في انتظاري. كان الجميع قَلِقين عليَّ وعلى أبويَّ، وعمَّت الفرحة بمجرد وصولي وتأكُّد الأخبار أنني بصحة جيدة.

وعلى الرغم من أن شَعري قد بدأ في النمو مرة أخرى، وبدأت في استعادة صحَّتي شيئًا فشيئًا، إلَّا أنه كان لا يمكنني استكمال الدراسة في الوقت الحالي. لم أستطع العودة إلى أمستردام من أجل الدراسة سوى بعد انتهاء عطلات الشتاء، وذلك من أجل التحضير للجزء الثاني من الامتحانات النهائية، والتي سوف تُعقَد في أوتريخت. كنت آمل أن أُمتَحن مع الدفعة المتأخرة في المدرسة؛ لكي آخذ بعض الوقت للتحضير للامتحان، ولكن لم يحدث ذلك. ففي الخامس عشر من

مارس من عام 1878 تم إخباري أن لديَّ ميعادًا بعد خمسة أيام فقط مع لجنة اختبار الأطباء في أوتريخت.

في ذلك الامتحان، كانت المرة الأولى التي أقابل فيها أساتذة معارضين لفكرة أن تكون هناك طبيبة امراة. لقد عاملني أستاذان من أعضاء اللجنة بطريقة سيئة، أو أقلَّ ما يقال عنها إنها غير عادلة. ولحسن الحظ، كان هناك من الأساتذة في أوتريخت وفي أمستردام حيث درستُ، مَن يوفِّرون لي الحماية من بطش هذين الأستاذين. وبالطبع كانت تلك الحماية سببًا مهمًّا في اجتيازي لهذا الامتحان.

شعرت بسعادة غامرة حينما حصلت أخيرًا على شهادة الطب في الثاني من أبريل عام 1878. لم تعُد هناك امتحانات أخرى، وإن كان ما يزال عليَّ أن أكتب الأطروحة، فإن ذلك يبدو سهلًا، لقد مرَّت احتمالات الفشل في عدم الحصول على شهادة الطب. لقد كانت الأسرة في غاية السعادة بالطبع. كان أبي سعيدًا للغاية، للدرجة التي جعلته - ولأول مرة في حياته - يمسك بقلم وورقة لكي يكتب لي قصيدة شِعر. لقد قدَّم تلك القصيدة لي بمجرد أن وصلت للمنزل، واحتفظت بها طيلة كل تلك السنوات في حالة جيدة، ويكأنَّها نصٌّ مُقدَّس:

«لابنتي أليتا هنريت جاكوبز

بمناسبة اجتياز الاختبارات النهائية للحصول على شهادة الطب

الثالث من أبريل 1878

لم يكن يليق بكِ دَور ربَّات البيوت

لم يكن يليق بكِ واجباتهم ولا طموحاتهم

لقد سعت روحك إلى هدفٍ أسمى،

في المعاني والغايات.

ظلَّ الهدف البعيد بالنسبة إليك مُمكِنًا

لقد ركَّزتِ على هدفك وكنتِ تَستحقِّين الفوز به

بعزيمتك التي لا تَكلُّ ولا تتوقف عن القتال

أصبح هدفك الوحيد في الحياة تحت قدميك

وكنتُ أنا مَن سمعت عن هذا الوعد

كنتُ مَن قرَّر الوقوف بجانبك ودعمك

كنت مَن ساعدك على الدراسة

وأعطيتُ إيَّاكِ الشجاعة من أجل النجاح

اليوم، بعد أن أكملتِ تعليمك

وحصلتِ على شهادة الطبْ

من خلال التصميم والتفاني

فقد حقَّقتِ كلَّ ما يمكن لامرأة أن تحلم به

إنقاذ النساء والأطفال الصغار

من ألم المرض المزمن

أصبح اليوم مَهمَّتَك ومعركتك المقدسة

أصبح ذلك اليوم حافِزَكِ الأساسي وطريقك المختار».

عندما عُدت للمنزل، كنت أخطِّط أن أحضِّر للدكتوراه في الطب في جرونينجن، يتضمَّن ذلك كتابة الأطروحة. لكن خاب أملي لأنني لم أجد المواد اللازمة والإرشاد اللازم لكي أكتب أطروحة في مجال اهتمامي العملي. ربما لم أفعل ذلك لأن البروفسير كويكر قد طلب أن يكون هو المشرفَ الشخصي على رسالة الدكتوراه الخاصة بي؛ لذلك قرَّرتُ في النهاية أن أكتب عن موضوع «تحديد الأعراض الجسمانية والمرضية التي تؤثِّر على المخ»[9].

بدأت أتصفَّح الأدبيات السابقة في الموضوع في المنزل، وبالفعل تمكَّنتُ من كتابة معظم أجزاء الرسالة. كان كل شيء يسير جيِّدًا في المنزل، حتى ظهر أحد الأيام المشمسة في شهر أغسطس من العام 1878، عندما أصيب أبي فجأة بسكتة دماغية سبَّبَت شللًا مؤقَّتًا في نصف جسده، وفقدان البصر في إحدى عينيه.

لقد سبَّبَت تلك السكتة الدماغية الكثيرَ من الذُّعر في الأسرة. كان أبي ذا دورٍ محوريٍّ في حياة كلٍّ منَّا، كان لا يزال العائل الأول للأسرة، وكان لديه الكثير من المرضى. شعرت أن عليَّ أن أتولى تلك المسؤولية نيابة عنه مهما طال الأمر، شجَّعتني على ذلك حاجة الفلاحين في سابمير لطبيب مقيم في البلدة. لقد عومِلتُ بالكثير من الاحترام في البلدة أينما ذهبت. كانت لديَّ سُلطة وكلمة مسموعة على المرضى السابقين لأبي؛ ممَّا أتاح لي ممارسة دوري كطبيبة بحزم. أتذكر في صبيحة أحد أيام الآحاد في شهر سبتمبر، أنني قد استُدعيتُ لمساعدة أمٍّ على ولادة طفلها الأول. كانت المزرعة التي تسكن فيها الأم على

9- هيدنريك ألبريت كويكر (1832-1904) كان المشرفَ على أطروحة الدكتوراة الخاصة بأليتا جاكوبز. كان أستاذَ عِلم التشريح والطب الشرعي في جامعة جرونينجن. وقد أصبح رئيسًا لقسم الجراحة حينما انتقل سابقه البروفسير روزنستابن إلى ليدن.

بُعد عدة ساعات، وقد جاء زوجها ليأخذني في عربة مكشوفة يجرُّها حصان، وبينما نحن نسير على الطرق الضيقة بين المزارع، إذا به يخبرني أن زوجته قد بدأت في الولادة منذ يومين كاملين، وأن إحدى الجارات حاولت مساعدتها على أن تضع طفلها، لكنَّ شيئًا ما كان يتدلَّى من جسد زوجته، ولم تعرف الجارة ماذا يكون ذلك الشيء المتدلِّي من جسد الزوجة. حاولت الجارة شدَّ ذلك الشيء كثيرًا، لكنه لم يكن يريد أن يخرج من الجسد. أدركتُ على الفور أنني أمام حالة ولادة متعثرة معقَّدة؛ وبالتالي كنت ممنونة لأن أبي نصحني أن آخذ حقيبة المعدَّات الطبية معي.

ظللت أتحدث مع الزوج طيلة الطريق، وحين وصلت دخلت بسرعة إلى البيت، حيث كانت الزوجة مستقلية في سرير مربَّع من الطراز القديم. كان الجو في الغرفة خانقًا، وبالطبع كان الرجال يدخِّنون والنساء يحتسين البراندي حول المرأة. كان هؤلاء الرجال والنساء جالسين في الغرفة لمدة يومين، بدون أن يفكِّر أحدهم أن يفتح نافذة من أجل أن يدخل بعض الهواء النقي إلى تلك الغرفة. كان عليَّ التَّصرُّف بسرعة وحزم، فطلبتُ منهم جميعًا - سواء الأسرة أو الأصدقاء المتجمِّعين - الخروج من الغرفة، وأن يأخذوا زجاجات البراندي معهم خارج الغرفة إلى القبو. فتحت كل شبابيك البيت على مصراعيها؛ وهو ما جعل مَن هم موجودون في حالة ذهول من ذلك الفعل. نظَّفتُ الطاولة ووضعتُ عليها بعض الشراشف لكي تصبح بمثابة سريرٍ؛ لأن السرير التي كانت المرأة ترقد عليه كان مرتفعًا للغاية بالنسبة لطولي. وبمجرَّد أن بدأت في فحص الحالة، وجدت أن ذراع الطفل التوت وتورَّمَت وخرجت من رحم الأم متدلِّيةً بالكامل. رأت القابلة أنني أحاول إدخال الذراع المتورِّمة مرة أخرى إلى الرحم،

فحاوَلَت منعي. ربما شعرت لأنها امرأة تمتلك الكثير من الخبرة، أن عليها أن تُملي عليَّ - أنا الطبيبة حديثة التخرُّج - ما يجب أن أفعله في تلك الحالة؛ لذلك طلبت من المزارع زوج السيدة أن يُخرِجَها فورًا من الغرفة. خرَجَت في النهاية من الغرفة في حالة من الغضب وهي تحذِّرني أن ما أحاول أن أفعله يقع تحت مسؤوليتي المباشرة. أخيرًا انتهت عملية الوضع في المساء من نفس اليوم.

كان الطفل ميِّتًا، لكن على الأقل حافَظتُ على حياة الأم أثناء تلك الولادة الصعبة.

المثال القادم أيضًا هو خير دليل على الممارسة الطبية التي اضطررت للقيام بها في تلك المدينة:

في أحد المساءات تمَّ استدعائي إلى نزل خارج القرية لأن رجُلًا فيه كان قد تعرَّض إلى حادث ما. هرعت إلى المكان على الفور، وإذا بي أفاجأ بأحد البارات المزدحمة التي لا يمكن لي أن أنسلَّ من بين الرجال فيها؛ بسبب رائحة الدخان التي تعبئ المكان.

ومرة أخرى كان عليَّ أن أصرخ في جميع الحاضرين أن يخلوا المكان المزدحم لكي أفتح النوافذ لبعض الهواء النقي. كان هناك رجل ممدَّد على الأرض ومغطًّى بالدماء. على ما يبدو، فقد كان يقود إحدى العربات الفارغة إلى القرية في حالة سُكرٍ كامل، ثم سقط من على العربة. كان من الواضح أنه قد سقط قريبًا من الفندق، وظلت العربة تجرُّه على الأرض لمسافة ما حتى وصل إلى ذلك الفندق. فحصت حالته بهدوء، ولم أجد أي كسور في الجسد، لكن بعض الجروح التي طهَّرتُها، ثم ضمَّدتها جيدًا، وبعد ذلك قرَّر بعض الفلاحين أن يضعوه في عَرَبته وهو في حالة إغماء ويذهبوا به إلى منزله.

بالمعايير الطبية، لم يكن هناك أي شيء صعب أو مميز في تلك الحالة، لكن التجربة نفسها والموقف قد أمدَّني بالكثير من الثقة في النفس لاحقًا. لقد أمدَّني الموقف بالكثير من الثقة، حينما رأيت هؤلاء الرجال المخمورين كيف ينظرون إليَّ بالكثير من الخوف والتقدير، وكيف أنني امرأة وقرَّروا أن يطيعوا أمري بدون ذَرَّة تردُّد.

وبالطبع، لم يكن لديَّ أي وقت للعمل على أطروحة الدكتوراه الخاصة بي في ظلِّ مرض أبي. وتساءلت عن جدوى أن أستمرَّ في الأطروحة، ففي النهاية كان أي طبيب عادي يكفي لممارسة الطب في تلك القرية. كتبتُ أشرح وجهة نظري للبروفيسير ستوكفيس وبعض الأصدقاء في أمستردام. وأضفت أنه بما أن مرض التيفوس قد انتهت كل أعراضه عندي، فأنا الآن قادرة جسديًّا على ممارسة الطب في الريف. لقد تملَّك الخوف من أصدقائي، ففكرة أن كل الدراسة التي درستها والتدريب الطبي الذي حصلت عليه سوف ينتهي به الحال إلى ممارسة الطب في الريف، كانت مرفوضةً بالنسبة ليهم. لقد أصرُّوا في ردِّهم على تلك الخطابات أن عليَّ أن أحصل على الدكتوراه في الطب، وأبدأ في ممارسة الطب في أمستردام على الفور. كان لدى البروفيسير ستوكفيس اقتراح إضافي، كتب لي أن «عليَّ أن أحصل على الدكتوراه، ثم أسافر للخارج لاكتساب المعرفة الضرورية عن هذا العالم الشاسع». لقد شعرت بالتقدير لكل تلك الاقتراحات والنوايا الطيبة التي قدَّمها أصدقائي، ولكن ببساطة، في ذلك الوقت، لم تكن لديَّ الموارد المالية اللازمة للاستمرار في حلمي.

مع ذلك، بعد فترة قصيرة تلقَّيتُ الكثير من المال. كان أحد مرضى البروفيسير ستوكفيس، والذي كان مصابًا بحالة متقدِّمة من مرض السُّلِّ قد طلب زيارتي. وعندما ذهبت لزيارته قرَّر إعطائي ألف

جِلدر، استخدمتها لاحقًا في القيام برحلة للخارج بعد حصولي على درجة الدكتوراه.

أخذت الإذن من أبي أن أترك ممارسة الطب في سابمير، وأكمل أطروحتي للدكتوراه، وقد وافق بالطبع على ذلك. وفي الثامن من مارس من عام 1879، وأمام جمع غفير من الناس، حصلتُ على الدكتوراه. كتَبَت جريدة جرونينجن في عدد العاشر من مارس تقريرًا عني، جاء فيه: «السبت الماضي. كانت جامعتنا مسرحًا لحدث استثنائي، لقد حصلت الطبيبة أليتا هنريت جاكوبز على الدكتوراه بعد سنة واحدة من اجتيازها للامتحانات النهائية في الطب. لقد حصلت الدكتورة جاكوبز على درجة طبيب بعد أن دافَعَت بنجاح عن أطروحتها عن «تحديد الأعراض الجسمانية والمرضية التي تؤثِّر على المخ» أمام اللجنة. لقد تمَّ إهداء الرسالة مع لوحتين إلى الأمير هندريك أمير البلاد. وقبل أن يقرأ مشرف الرسالة البروفيسير كويكر القرار. قرَّر نائب رئيس الجامعة البروفيسير فان بيل، أن يلقي خطابًا بالنيابة عن رئيس الجامعة البروفيسير فان دير فيك، والذي أكَّد فيه على أن حقيقة أن أول امرأة في هولندا تحصل على الدكتوراه في الطب كانت من جامعتنا لشرف كبير لها. وأكَّد أيضًا أن قوة العقل التي أبدتها السيدة جاكوبز لَهِيَ دافع كبير للزملاء من الذكور الذين يدرسون الطب في الجامعة. وبالطبع لقد جذب الاحتفال الكثير من الناس من كلا الجنسين، والتي لم تسع القاعة الرئيسية في الجامعة لهم جميعًا».

لقد كان من بين الذين أتوا للتهنئة ومصافحتي بعد الاحتفال، حاكِمُ منطقة جرونينجن، السيد ل. جراف فان هيدن. قال السيد هيدن لي إن الوزير ثوربيك قد طلب منه بشكلٍ شخصي أن يهتمَّ بي، وينقل له كل أخبار تطوُّري في ممارسة الطب في أمستردام، وكذلك يهتمُّ بي

بشكلٍ خاص. لقد أخبرني السيد هيدن أنه ينوي أن يكمل ذلك الطلب حتى بعد وفاة الوزير ثوربيك. «لقد كنت دائمًا ما أتابع أخبارك» قالها، ثم أضاف: «لديَّ الشرف اليوم أن أحيِّيَكِ على ذلك الإنجاز الذي أعرف كم كان صعب التحقيق».

لقد كتبت الصحف الليبرالية في ذلك اليوم الكثير من التفاصيل والتعليقات على تلك الأحداث التي أحاطت حصولي على درجة الدكتوراه في الطب.

كنت قد قرَّرتُ مسبقًا أن أذهب إلى لندن بمجرد حصولي على الدكتوراه. لقد اخترت العاصمة البريطانية بدلًا من فيينا أو باريس؛ لأنه في ذلك الوقت كنت قد قرأت في المجلات النسوية الإنجليزية أن الأساتذة والأطباء الذكور يحاولون دائما التضييق على محاولات النساء البريطانيات ممارسة الطب. أيضًا كنت أعرف من قراءة الصحف أن النساء من روسيا والولايات المتحدة فقط مَن يدرسن الطب في فيينا وباريس؛ ولذلك قرَّرتُ أن أختار لندن[10].

لم يكن أبواي سعيدين بتلك الخطوة الجريئة للسفر إلى لندن؛ فكلاهما لم يسبق له أن رأى البحر، وكان لديهم شعور بالهلاك الوشيك تجاه تلك الرحلة. كانا مرعوبَيْن من فكرة أن ابنتهم ستعيش وحدها في تلك المدينة الشاسعة التي لا يعرفان عنها أي شيء. وقد حاولا بالفعل تغيير رأيي حول السفر بكل الطرق الممكنة، لكني رفضت؛ لأنني لم أكن مستعدَّةً للتَّخلِّي عن أيٍّ من خططي الأصيلة.

10- على الأغلب فقد كانت جاكوبز تقرأ مجلة المرأة الإنجليزية. والتي ظهر بها الكثير من المقالات عن معاناة النساء في مهنة الطب في إنجلترا. أيضًا كانت أغلب النساء الروسيات اللاتي يُردن دراسة الطب في تلك الفترة يذهبن إلى سويسرا وليس إلى فيينا أو باريس كما تشير جاكوبز. لم تقبل فيينا دخولَ النساء لدراسة الطب سوى في عام 1900.

لقد عرَّفني البروفسير ستوكفيس على السيدة رينفلد، وهي أرملة مدير مدرسة أمستردام للدراما المسرحية، وطلب منها أن تجد لي غرفة للمكوث فيها أثناء إقامتي في لندن. وأعطاني أيضًا خطابات تعريف للكثير من الأساتذة في لندن. وفي نفس الوقت كان كاريل. ف. جريتسن قد اكتشف من خلال الصحف أنني سوف أسافر إلى لندن؛ ولذلك كتب إليَّ يعرض عليَّ أن يعرِّفني على أصدقائه الكثيرين في لندن. لقد تلقَّيتُ خطاب جيرستن قبل يوم واحد من السفر إلى لندن، وكانت السيدة رينفيلد قد قامت بتأجير الغرفة بالفعل عند أرملة كانت تعيش في نفس الشارع التي تقطن فيه؛ لذلك رددت على خطاب جريتسن وأعطيته عنواني في لندن، وقلت له إنني أنتظر منه خطابات للتَّعرُّف على أصدقائه الإنجليز.

قبل السفر إلى لندن قضيت عددًا من الأيام في أمستردام، أزور الأصدقاء، وفي نفس الوقت أبحث عن منزلٍ لأبي وأمي لكي يمكثوا فيه في أمستردام. كان أبي قد قرَّر أن يبيع منزلنا في سابمير، وأن يترك ممارسة الطب هناك وينتقل للعاصمة في الربيع. لأسباب كثيرة؛ شعرنا أنا وإخوتي بالارتياح تجاه ذلك القرار الحكيم. لقد تعرَّض أبي لعدد من الجلطات، وبالرغم من أنها لم تكن سيئة كالمرة الأولى التي تعرَّض فيها للسكتة الدماغية، إلَّا أن تلك الجلطات المتكررة أنهت قُدرَتَه على أن يستمرَّ في ممارسة الطب. كانت أختي تشارلوت أيضًا في طور التحضير للحصول على شهادة الصيدلة، وكانت أمستردام هي المكان المناسب لذلك. كان أخي الصغير إدوارد (والذي أصبح لاحِقًا عُمدَة مدينة لونيكر وأمليلو) في ذلك الوقت ضابطَ مشاة في العاصمة. كنت أيضًا أنوي الاستقرار في أمستردام بعد العودة من لندن. كانت الأخت الأصغر لي - فريدريكا - قد اجتازت امتحان الحصول على شهادة الرياضيات والمحاسبة وبدأت عملها في كلية البنات في لاهاي.

وبمجرد أن ينتقل أبواي إلى أمستردام فإنها سوف تكون قادِرةً على أن تزورهم عددًا من المرات كل أسبوع، وباستثناء إيما، والتي ما زالت تعيش مع أبي وأمي في سابمير، فإن كل إخوتي قد ذهب كلٌّ منهم في طريقه في الحياة، معظمهم كانوا قد تزوَّجوا بحلول ذلك الوقت. في ذلك الوقت كان من السهل إيجاد منزل جيد في أمستردام؛ وبالتالي رحلت إلى لندن في الرابع عشر من مارس من عام 1879 وأنا مطمئنَّة على إقامة أبي وأمي في أمستردام.

ودَّعني الكثير من الأصدقاء في روتردام، وبدأت رحلتي إلى لندن، يحدوني الكثير من الأمل في المستقبل. مرَّ كل شيء بشكل سَلِس خلال الرحلة البحرية، حتى إنه تمَّ إعطائي كابينة كاملة خاصة بي في ميناء فليسجين. وبالرغم من الرحلة البحرية إلَّا أنني استطعت أن أنام جيِّدًا في تلك الكابينة، وفي الصباح كانت المرة الأولى في حياتي التي تطأ فيها قدمي أرضًا أجنبية.

الفصل الثالث

الإقامة في لندن

(الوصول إلى لندن. أصدقاء جدد. الإقامة والاسترخاء. العودة لهولندا. المؤتمر الطبي في أمستردام. ممارسة الطب في العاصمة).

في سابمير كان عقلي يعجُّ بالقصص المرعبة حول سائقي عربات الأحصنة (الحوذيَّة) في لندن، تلك القصص عن هؤلاء السائقين الذين يرمون البنات الصغيرات في العناوين الخاطئة في الشوارع المهجورة. لكن تلك القصص لم تكن لتؤثِّر عليَّ بشكل كبير، لكنني أخذت الحذر من خلال دراسة تفصيلية لخريطة العاصمة البريطانية قبل السفر. وبذلك حينما وصلت إلى لندن كانت لديَّ معرفة كافية بكيفية الوصول للفندق الذي كان السيد رينفيلد قد حجزه من أجلي. وعلى أيٍّ حال، كان السائق الذي وقَعَت عيني عليه بشكل عشوائي حين وصلت إلى لندن، يبدو شخصًا جيِّدًا لا يحمل أي نوايا سيئة تجاهي. لقد سار بي عبر أقصر طريق ممكن للعنوان الذي أعطيته إيَّاه، وبالكاد وصلت إلى الجهة المقابلة من الشارع الذي يقع به منزل السيد رينفيلد، حتى هرعَت زوجته لإلقاء التحية ومساعدتي في حمل حقائبي وترتيبها بالطريقة الأفضل لترتيب الحقائب.

بعدها ذهبنا لمقابلة عائلتها، التي رحَّبَت بي بأكبر قدر ممكن من الدفء والحفاوة.

مكثت بقية اليوم في بيتهم، وقابلت في ذلك اليوم الرسام العالمي ألما تاديما[11]. تأقلمت بسرعة كبيرة معهم جميعًا، وحين عدت للفندق في مساء ذلك اليوم شعرت أنني في وطني، وكأنني كنت أعيش في لندن منذ زمن سحيق.

في الصباح التالي، رحَّبَت لندن بي من خلال مفاجأة سارة أخرى. كنت أتناول فطوري حينما جاءت سيدتان صغيرتان في السن لتُلقيَا التحية. قالَتَا لي إنهما كانتا طالبتين للطب لدى الدكتور سي. في. كريستين، في أميرفورت، والذي بعث إليهم ببرقية يوضِّح فيها مجيئي ويطلب منهما مرافقتي والاعتناء بي؛ ولذلك أتَيَتَا لعرض خدماتهما عليَّ، وتقديم أي مساعدة ممكنة. لاحقًا أصبحنا أصدقاء مقرَّبين، وذهبنا معًا لمدرسة الطب النسائية في شارع هنريتا، حيث قدَّمتاني للمزيد من الأساتذة الذكور في المدرسة، والمزيد من الطَّالبات من النساء اللواتي يدرسن الطب[12]. وخلال تلك الزيارة للمدرسة تمَّت دعوتي لأكثر من مرة لحضور المحاضرات في المدرسة. بعد نهاية الزيارة للمدرسة ذهبنا لزيارة د. درايسدال، والذي، على الرغم من مرافقتي القليلة له في تلك الزيارة للندن، إلَّا أنه سوف يلعب دورًا مهمًّا في حياتي المستقبلية، وسوف يكون ذا تأثير كبير على مستقبلي

11- السير لورانس (ألما تاديما) كان رسَّامًا هولنديًا. استقرَّ بشكل دائم في لندن. كان مشهورًا بلوحاته عن الرموز اليونانية والرومانية القديمة بالإضافة لبعض اللوحات عن الحضارة المصرية. في 1879، وهي السنة التي زارت فيها جاكوبز لندن، تمَّ انتخابه كعضو في الأكاديمية الملكية البريطانية. كانت زوجته الإنجليزية الثانية السيدة لورا تريزا أيضًا إحدى أشهر الرَّسَّامات في ذلك العصر.

12- كانت تلك المدرسة هي مدرسة لندن للطب النسائية، والتي افتُتِحَت في العام 1874 تحت قيادة السيدة صوفيا- جيكس بلايك.

المهني لاحقًا، ومن خلال السيد دريسدال تعرَّفتُ على آنا بيسانت، والتي كانت في ذلك الوقت تتعاون مع تشارلز برادلو في نشر ثقافة الفكر الحرِّ في المجتمع البريطاني، ولاحقًا التقيت بتشارلز نفسه وببناته الرائعات.

لهؤلاء الذين لا يعرفون كم كان هؤلاء الأشخاص الذين قابلتهم في هذا اليوم مُهمِّين في ذلك العصر. قد كان تشارلز برادلو (1833-1891) هو الرجل الذي قد حمل على عاتقه صليبه الخاص، في معركة ضد المسيحية، منذ كان في السابعة عشرة من العمر، حين كتب كتيِّبًا صغيرًا بعنوان «كلمات صغيرة حول الجشع المسيحي»، في 1850، وبينما كنت في لندن، كان برادلو مع الدكتور درايسدال من أشدِّ النُّشَطاء دفاعًا عن النظرية المالتوسية. ومن خلال الاثنين استطعت التواصل مع رجال ونساء آخرين من حملات «تنظيم الأسرة» والأمومة المخططة في تلك الفترة. كان هؤلاء يدافعون عن «الخفض الطوعي لأعداد الأسر»، والتي تسبَّبَت في كثير من اللغط والغضب في المجتمع الإنجليزي المحافظ، مُدِّعي المثالية في ذلك الوقت.

لذلك، وقبل أن أجد فرصة كي أفهم أو أقرِّر أي شيء، وجدت نفسي محاطة بكثير من الراديكاليين في المجتمع العلمي والسياسي والأخلاقي البريطاني، والذين كان هدفهم الوحيد هو مواجهة النزعات المحافظة والنفاق في المجتمع البريطاني. لقد حضرت كثيرًا من الاجتماعات التي كان فيها برادلو يتناقش فيها مع جَمعٍ من أصدقائه، عن السياسة البريطانية المعاصرة.

في أيام الآحاد كنت أذهب لمجتمع الفابيِّين، والذي كان في تلك الفترة ما زال في بداياته، وحضرت اجتماعات وتجمعات عديدة للطبقة العاملة الإنجليزية.

ربما ينبغي هنا الإشارة إلى أنه على الرغم من أن المجتمع الفابيَّ كان اشتراكيًّا في رؤيته للأمور، إلا أنه لم يؤجِّج يومًا أو يشجِّع على الاضطرابات العمالية. كان معظم أعضاء هذا المجتمع يأتون من خلفيات الطبقة الوسطى المثقفة، وعلى الأغلب ما زالوا كذلك. كانوا يؤمنون برفع الوعي الاشتراكي لدى الطبقة الحاكمة، حتى إن تسمية المجتمع نفسه مستوحاة من اسم فابيوس كونكتاتورد، وهو المستشار الروماني الذي اشتهر بالتخطيط الحكيم أثناء حرب روما مع حنبعل[13].

لقد كانت أمسياتي في تلك الأيام تعجُّ بالاجتماعات المختلفة، والتي حضرتُ أغلبها بعد ساعات من العمل الشاق. كنت أمضي صباحات تلك الأيام في مستشفى الأطفال الكبير في شارع أرموند، والتي عملت فيها كطبيبة استقبال في العيادات الخارجية المزدحمة، وبعدها بدأت في مرافقة الأطباء في الجولات على المرضى في المستشفى. بعد الظهيرة، كنت أذهب إلى المستشفيات النسائية، حيث أحضر العديد من الدروس النظرية للكثير من الأساتذة المشهورين في ذلك الوقت، وأحظى بوقت لممارسة الطب أيضًا في تلك المستشفيات. كان شيئًا يثير الغرابة وقتها أن طالبات الطب الإنجليز كان لديهن الكثير من العقبات للدخول لتلك المستشفيات، لكنني على العكس من ذلك، وجدت الكثير من الأبواب المفتوحة للدخول لتلك المستشفيات وممارسة الطب فيها.

في ذلك الوقت، كان هناك الكثير من التَّوتُّر بين الطبيبات الإنجليز

13- كانت تلك الأربعه شهور التي قضتها جاكوبز في لندن فترة مليئة بالنمو في التفكير وتفتح العقل. حيث أنها لم تكن قد غادرت من قبل بلدها الأم هولندا. لكنها أيضا بدأت في دراسة معمقة لمراحل النقاهة والاستشفاء من عدد من الأمراض الخطيرة. بحسب مذكراتها الشخصية لأنه -لا توجد حتى الأن دراسة أكاديمية معمقة لتلك المرحلة من حياتها- فإنها قد قابلت في تلك الفترة العديد من المصلحين المثيرين للجدل.

القليلات وبين نُظَرائهنَّ من الذكور. كانت النقابة العامة قد رفضت أن تعترف بالنساء كأعضاء فيها، وكنتيجة لذلك مُنِعَت هؤلاء الطبيبات من حضور الاجتماعات الخاصة بالنقابة. على العكس من ذلك، لم أقابَل سوى بالكثير من الود والترحاب أينما ذهبت. كان الأطباء الذكور المتزوجون يدعونني لزيارة أُسَرهم كلما التقيت بواحد منهم، وكان الأطباء العُزَّاب لديهم الكثير من الاحترام لي. لم أفهم مطلقًا سبب ذلك الاختلاف في المعاملة بيني وبين الطبيبات الإنجليزيات. ربما كان تفكيرهم أنني في النهاية سوف أعود لهولندا؛ بالتالي لست منافِسةً مُحتَمَلة لهم في مجال الطب، لأنهم كانوا أيضًا يعاملون النساء الأمريكيات اللاتي أتين للندن لاستكمال تدريبهم الطبي بقدر جيد من الحفاوة.

ربما حظيت ببعض المعاملة التفضيلية بفضل سنِّي الصغيرة، وحقيقة أنه على الرغم من صِغَر سِنِّي فقد كنت متفانية في العمل لأقصى درجة ممكنة.

ومن بين كل المستشفيات التي زُرتها في لندن، كان المفضَّل بالنسبة لي هو مستشفى النساء الجديدة في شارع ماري ليبون[14].

كان ذلك المستشفى يدار بواسطة السيدة جاريت أندرسون، والتي كانت - للصُّدفة - هي أول طبيبة إنجليزية، كانت الطبيبات اللاتي عملن معها في المستشفى من النساء الإنجليزيات اللائي درسن الطب بالخارج، معظمهن قد درسن الطب في باريس.

14- تشير جاكوبز للمشفي الجديد للنساء والذي أسسته إليزابيث جاريت أندرسون في الطابق العلوي لمصحة النساء والأطفال في طريق ماري ليبون في 1872. انتقلت المستشفى لمقر أوسع في 1874. وهو المكان الذي زارته جاكوبز خلال زيارتها إلى لندن.

وبينما كانت أصغر تلك الطبيبات اللاتي يعملن في المستشفى في بداية الأربعينات، كنتُ أنا ما زلت بنتَ الخامسة والعشرين ربيعًا. على الرغم من ذلك كان هناك الكثير من الحفاوة بي في ذلك المستشفى، وشعرت بأنني في وطني بالفعل بين هؤلاء النساء. لقد أحببت بشكل الخاص السيدة جاريت أندرسون، والتي لم تكن مهتمَّةً فقط بالطب، لكن كان لديها نظرة متفتِّحة تجاه المجتمع ككلٍّ في ذلك الوقت. لقد أعجبتني أيضًا أخت السيدة أندرسون، السيدة ميلسانت فاوست، والتي كانت في ذلك الوقت رئيسة جمعية حقِّ الانتخاب للنساء الإنجليزيات. وبفضل صداقتي مع هؤلاء النسوة، كانت تتم دعوتي باستمرار لاجتماعات جمعية الحق في الانتخاب، والتي كان يتم فيها إلقاء محاضرات في غرفة صغيرة للرسم أمام حشد من النساء يقارب في كل مرة أربعين أو خمسين سيدة من هؤلاء السيدات المكافحات[15].

بالطبع لم أكن أحتاج لأي إقناع، كان الأمر بالنسبة لي واضحًا جليًّا، ومنذ سنوات، كنتُ أؤمن أن للنساء الحق الكامل في الحقوق السياسية كما للرجال، لكني على الرغم من ذلك أحببت مثل تلك التجمُّعات لأنها أعطتني الفرصة كي أشحذ حججي النقاشية وأقدِّمها بالشكل اللائق، من أجل الوصول للأهداف المرجوَّة. كانت تلك الاجتماعات هي بداية تعرُّفي على حركة «حق الانتخاب الإنجليزية»، ونشأ عنها وتطوَّرَت عبر السنوات صداقات عديدة، منها صداقات مقرَّبة حتى الآن. كتبت لاحقًا مقالًا عن تلك الفترة من حياتي في الكتاب التذكاري 1894- 1919، والذي صدر عن جمعية حق النساء في الاقتراع الهولندية[16].

15- على الرغم من عدم ذكر تجربة جاكوبز الكاملة مع السيدة أندرسون وأختها في 1879. فإن هناك إشارات على تلك التجربة في مذكِّرات جو مانتون للسيدة أندرسون. ومذكِّرات دافيد روبنستين عن السيدة فاوست.

16- الكتاب التذكاري ص 41 - 42.

قررت العودة إلى هولندا مبكِّرًا عمَّا كنت قد خططت. كان هناك مؤتمر في الفترة ما بين 8- 15 سبتمبر في أمستردام عن آخر المستجدات في علم الطب، والذي كان يحضره العديد من الأطباء والأساتذة الإنجليز الذين أعرفهم[17]. قررت بناء على نصيحة هؤلاء الأساتذة أن أعود لأمستردام لحضور المؤتمر، ثم أعود لاستكمال الدراسة في لندن بعد انتهاء المؤتمر. وخلال المؤتمر تلقَّيتُ الكثير من الطلبات من العائلات الهولندية كي أقوم بالعمل مكان الأطباء الذكور في رعاية زوجاتهم، وأيضًا طلبت الكثير من الأمهات مني أن أرعى صحة أطفالهنَّ الصغار؛ وبالتالي كان من الحكمة ألَّا أعود مرة أخرى للخارج وأستمر في أمستردام.

وبفضل ذلك المؤتمر كان اسمي قد أصبح على كل لسان، تراءى لي في تلك الفترة أن عليَّ أن أستفيد من مميزات الدعاية المجانية التي وفَّرها لي المؤتمر، والسمعة الطيبة التي اكتسبتها من خلال المشاركة فيه- بأن أبدأ على الفور في ممارسة الطب في أمستردام.

كنت حاضرةً بشكل مميز في المؤتمر، كانت إدارة المؤتمر تمتدح الوجود النسائي الوحيد في المؤتمر. كان رئيس المؤتمر في ذلك العام هو البروفسير دونرز، والذي كان لا يترك فرصة في المؤتمر حتى يمتدح وجودي بين الحاضرين. كتبت صحيفة «التجارة اليومية» Algemeen Handsblad في عددها في التاسع من سبتمبر 1879، مقالًا تحت عنوان «أطباء في قاعة المدينة»، عن الاستقبال الحافل

17- كتبت مراجعة لهذا المؤتمر في الجريدة الطبية البريطانية the lancet. يصف التقرير الصادر ضمن عدد 20 سبتمبر 1879 الترحيب الحار الذي قام به الجرَّاح الهولندي الشهير في ذلك الوقت دوندرز للحضور. ويلخِّص المحاضرة التي ألقاها السير جوزيف ليستر عن التعقيم الجراحي. بالإضافة للمحاضرة التي قدَّمها أستاذ أليتا جاكوبز: روسنتين. عن الالتهاب الكلوي الحاد.

للأطباء المشاركين من قِبَل مجلس المدينة في القاعة الأكبر في البلاد، وهي قاعة برينسهوف. جاء في المقال: «لقد أعلن الحاجب عن أسماء المدعوِّين في صوت رخيم، وبدأ السادة الأطباء في التعارف وغيرها مع الرسميات مع عمدة المدينة وبقية أعضاء مجلس المدينة. امتلأت القاعة بحلول الـ 9 مساءً، لكن الضيوف استمروا في التوافد للقاعة... ثم كان هناك اسم قد جذب أنظار الجميع، إنها الدكتورة أليتا جاكوبز، أول طبيبة هولندية، والتي كان دخولها للقاعة في منتهى التواضع حدثًا جلَلًا، غير أن العمدة استقبلها بطريقة مختلفة عن بقية الضيوف. لم ينحنِ فقط لها، بل رحَّب بها بصفته الرسمية كرئيس لمجلس المدينة، وأعرب عن سعادته بأن تكون السيدة جاكوبز حاضرةً في مجلس مدينة أمستردام».

بعد أربعين عامًا، لا تزال تلك الليلة محفورة في ذاكرتي، وهي مختلفة عن أي ليلة أخرى. تضمَّن برنامج الليلة عرضين للصور الحية، كان الأول يمثِّل الحاضر والماضي، حيث عرض مقارنة بين ليستر (الجراح الحربي الإنجليزي)، وبين أمبروسي باري (الجراح الفرنسي الشهير). بدأت القاعة بالتصفيق، والذي تحوَّل مع الوقت للوقوف لتحية الجراح الإنجليزي، الذي كان بين الحضور، أخذ الأطبَّاءُ في الهتاف والتصفيق لـ«ليستر»، الذي طوَّر علم الجراحة بشكل كبير حتى وقف على المسرح لكي يستقبل ذلك الهتاف بكل تواضع[18].

18- الجراح البريطاني السير جوزيف ليستر (1827-1912) مؤسس طب التعقيم الجراحي. والذي كان مُهمًا لمنع انتقال العدوى أثناء العمليات الجراحية. اكتسب شهرة عالية في تلك الفترة لاستخدامه حمض الكاربوليك من أجل منع انتقال العدوى أثناء الجراحة.

- أمبروسي باري (1510 - 1590) كان جرَّاحًا فرنسيًّا شهيرًا في عصره. وخدم في بلاط 4 ملوك فرنسيين في تلك الفترة.

كان العرض الثاني عن المستقبل، والذي كان عرضًا للوحة التشريح الشهيرة لرامبرانت، مع اختلاف رئيسي؛ وهو استبدال الوجوه الذكورية في اللوحة بأخرى أنثوية. وصفت صحيفة التجارة اليومية ذلك - لاحقًا - في عدد 16 سبتمبر 1879 بـ «أن الدكتور تولب في اللوحة، والذي كان يعلِّم بقية الجراحين الجراحةَ، جرى استبداله بوجه طبيبة امرأة. جرى استبدال الوجه والملابس في اللوحة بوجهٍ كان الجميع قادرًا على تخمينه، وهو وجه الطبيبة أليتا جاكوبز، والتي حصلت على الكثير من التصفيق الحار أثناء عرض اللوحة».

ظهرتُ أيضًا في الصحافة الأجنبية، وصفني الدكتور بيتثان، والذي كتب تقريرًا عن المؤتمر في الجريدة الطبية الفرنسية le scalpel، كما يلي:

«في الاستراحة الرابعة في المؤتمر انتهزت الفرصة لكي أعبِّر عن امتناني لهؤلاء النساء اللاتي بدأن التدريب من أجل ممارسة الطب، وبالطبع لممثلتهم في المؤتمر الدكتورة أليتا جاكوبز. أقول هذا لأنه من واجب النساء الطبيبات في هذا العصر أن يعلمن أخواتهن حول قوانين النظافة الشخصية، والتي أضحت أكثر إلحاحًا في الوقت الحالي من أن يتمَّ تجاهلها».

«كان من الصعب تخيُّل طبيبة أكثر سحرًا وجَمالًا من تلك الشابة اليهودية ذات الـ 25 ربيعًا، والتي تابعت النقاش في أكثر المواضيع صعوبة بكل دقَّةٍ وصرامة، ومع ذلك ظلت أنيقةً ورقيقة طوال المؤتمر، وكبادرة على الاحترام قدَّمَت لي نسخة من أطروحتها للدكتوراه».

الآن، وبعد أن أصبحت هَرِمَة ويمتلئ وجهي بالتجاعيد، أودُّ التأكيد

لكل قُرَّائي من النساء أنني خلال المؤتمر وبعده تلقَّيتُ العديد من عروض الزواج من كل أنحاء أوروبا، وعليَّ أن أعترف أن تلك العروض قد ساهمت في جعلي أكثر ثقة بالنفس، لكن قلبي لم يتحرك نحو أيٍّ من هؤلاء الأطباء.

الفصل الرابع

السنوات المبكِّرة لممارسة الطب

(رائدة في كل المجالات. كيف كانت أمستردام منذ 40 عامًا. قابلت كارل فيكتور جريتسن. صداقات جديدة. طبيبة الطبقة العاملة. ضربة قوية).

بدأت في ممارسة الطب بمجرد انتهاء المؤتمر، بدأت في عيادة تطلُّ على قناة هيرنجراختHerengracht بالقرب من ميدان كونينجسبلين (koningsplein) في بيت أرملة كنت قد استأجرت منها بضع حجرات. وفي كل مساء، حوالي الساعة السادسة مساءً، كنت أسير عائدةً إلى بيت أسرتي، في شارع فيردناند بولسترات، حيث نأكل العشاء سويًّا في البيت.

منذ اليوم الأول، كان يتردد على العيادة الكثير من المرضى، وشعرت حينها بالاطمئنان والثقة تجاه المستقبل. كانت ساعات العيادة بين الواحدة ظهرًا وحتى الثالثة، وكنت أذهب للزيارات المنزلية في الصباح وبعد الظهيرة.

لكي أستطيع متابعة المجلات الطبية الأجنبية؛ قرَّرتُ الاشتراك في متحف القراءة في روكين، كنت قد بدأت في زيارة متحف القراءة في جرونينجن بشكل منتظم في السابق، وحينما كنت في لندن كنت أحرص

على تقضية وقت فراغي في زيارة متحف لندن للقراءة؛ لذلك كلما سنح لي الوقت كنت أذهب للمتحف، لأجد متعتي في تصفُّح الكتب والمجلات والاطِّلاع على المطبوعات التي لم أكن أمتلكها في ذلك الوقت؛ لذلك، وفي أحد الأيام ذات الطقس الجيد، ذهبت لمتحف القراءة في روكين كي أسأل عن القواعد المنظِّمة لأن أصبح عضوة في المتحف. كيف يمكن لسؤال بسيط كهذا أن يثير الكثير من الجدل، أخبروني أن هذا المتحف مخصَّص للرجال فقط، وأنني أول امرأة تحاول أن تحصل على عضوية هذا المتحف. حاول موظفو المتحف إقناعي بأن أتخلى عن خططي للانضمام للعضوية، متحجِّجين أن ذلك يمكن أن يعرِّضني للرفض من قِبَل اللجنة الخاصة بالعضويات؛ بما أنني امرأة. وحتى لو - بعكس السائد - قبلَت اللجنة عضويتي، فإن كثيرًا من الرجال في المتحف سوف يستقيلون من العضوية؛ حتى لا يتعرَّضوا للكثير من «النكد» من زوجاتهم في المنزل. يجب الآن أن أعترف أنني لم أفهم الرابط بين الشيئين؛ ما الذي يجعل دخولي لعضوية المتحف سببًا «للنَّكد» في بيوت هؤلاء الرجال؟! بعد ذلك شرح الموظفون لي أن عضويتي سوف تغير منظور زوجات الرجال الأعضاء عن هذا المتحف، وسوف يعتقدون أنه بما أنه مكان يُسمَح فيه بدخول النساء فإن أزواجهم سوف يذهبون لمقابلة نساء أخريات في المتحف. رغم كل تلك الاعتراضات، قرَّرتُ أن أمضي قُدُمًا في التقدم بطلب العضوية، وصمَّمت أن لا شيء يمكنه أن يوقفني عن ذلك المسعي. تعرَّفتُ على بعض أعضاء المتحف وقرَّرت أن أشرح لهم كم هو مهمٌّ الاطِّلاع على الكتب والمجلات العلمية في المتحف؟ وكيف سوف يصبح ذلك عونًا كبيرًا لي في تطوير مسيرتي المهنية في الطب. ولحسن حظي فقد تفهَّم معظمهم ما أقوله، وقرَّروا أن يدعموني ويعرضوا الأمر للتصويت على بقية الأعضاء.

في الوقت الحالي، لا تواجه أيٌّ من النساء الصغيرات في السِّنِّ أيَّ مشكلة تُذكَر في زيارة المتحف، وبالتالي يصعب عليهنَّ تصديق أن عددًا غير قليل من نساء المدينة، أقصد أمستردام، قد كتبوا لي الكثير من الخطابات والتي في الأغلب لم تكن موقعة، والتي يصفونني فيها بالوقاحة لأنني قرَّرتُ التقدم لعضوية مؤسَّسةٍ - على حدٍّ تعبيرهم - أُنشئَت من قِبَل الرجال، وظلت طوال عقود حصرًا عليهم. حتى إن الأمر وصل بسيدتين منهم أن تَظهرَا على عتبة منزلي، لتواجهاني بشكل مباشر بتلك الاتهامات. تجاهلت بهدوء كل تلك الاتهامات ولم ألتفت لها، ولم أستغرب، حتى لاحقًا حينما علمتُ أن طلب الالتحاق بمتحف القراءة الخاص بي قد تمَّ قبوله. ربما ينبغي لي القول الآن إنني وطوال الفترة في المتحف لم أتعرَّض للمضايقة، بل قضيت هناك الكثير من الساعات السعيدة.

بمجرد أن بدأت في ممارسة الطب، بدأ الأطباء الزملاء في زيارتي، وعرضوا عليَّ تقديم المساعدة، وكانوا بالفعل صادقين في عرض مساعدتهم، ولكن يا للأسف! كان ثمة خلاف كبير بيننا في وجهات النظر، كانوا مختلفين معي فيما أريد أن أفعله، وبالفعل حينما أدركوا عمق الخلاف بيننا في وجهات النظر، تلاشى مع الوقت اهتمامهم بتقديم المساعدة. ربما كان من الأفضل أَلَّا أصرفهم عني أو أرفض مساعدتهم، لكنني لم تكن لديَّ في تلك الفترة ولا بعدها قُدرَة كبيرة على الادِّعاء أو الرياء بأي شكل ممكن، ربما أيضًا كنت سأوفِّر على نفسي الكثير من المتاعب في تلك الفترة لو قرَّرتُ أن أحتفظ بأفكاري لنفسي بقدر أكبر.

الآن، وبعد مرور كل هذا الوقت، يمكنني أن أتذكر بوضوح كيف كان دمي يغلي من تلك الزيارات. كان هؤلاء الأطباء الزائرون لي في

العيادة يقدِّمون نصائح من قبيل: «عليكِ التَّخصُّص في طب النساء»، وذلك على الرغم من أن أحدًا منهم لم يكن طبيبًا للنساء، ويؤكِّدون لي أنني لو أصبحت طبيبة نساء، فإن ذلك سوف يضمن لي الحصول على الدعم والمساعدة من كل طبيب في أمستردام. كان آخرون ينصحونني بأن «أجعل أجري أو فاتورة الزيارات الطبية لي أدنى من السعر الموجود بالسوق للأطباء الرجال؛ حتى لا يظنَّ الزملاء الأطباء من الرجال أنني أحاول أن أجعل من نفسي طبيبةً مثلهم». كان هؤلاء الناصحون تفغر أفواههم بمجرد أن أؤكِّد لهم أنني أريد أن أجعل من نفسي مساويةً لكل طبيبٍ ذَكَر في أمستردام، وسرعان ما تتحول تلك الدهشة لغضبٍ بمجرد أن أؤكِّد أكثر من مرة على الهدف السابق. وكان ذلك الغضب يصبح واضحًا أكثر حينما أحكي أنني تربَّيتُ مع ذكور، وذهبت للمدرسة مع ذكور، ولم أشعر يومًا بأن الذكور أكثر ذكاءً من النساء.

وفي ذلك السياق أريد أن أحكي لكم تجربة ممتعة حول إحدى فواتيري الطبية في بدايات عملي بالطب في أمستردام، كنت قد بدأت في علاجٍ طويلٍ لزوجة أحد نُبَلاء المدينة، والتي قد ظلَّت لسنوات تعاني من مشكلة طبية كبيرة متعلِّقة بأمراض النساء، وبعد نجاح العلاج الطويل أرسلت الفاتورة لبيتهم مع بداية العام كعادتي مع أي مريض آخر. بعد أيام قليلة، فوجئت بزيارة من زوج السيدة، وقد دخل غاضبًا لغرفة الكشف في العيادة وهو يحمل الفاتورة بين يديه في غضب شديد، وأخذ يلوِّح بها في وجهي. يمكنني الآن أن أتذكر الغضب الشديد على وجهه، وإعلانه الشديد عن الامتعاض أنني أرسلت لهم فاتورة مرتفعةً مثل أي طبيب ذَكَر في المدينة.

«ما الذي دار في عقلك وأنتِ ترسلين تلك الفاتورة؟!» صاح بشكل

هستيري، ثم أكمل: «يمكنني أن أؤكِّد لك أن لا أحد يمكنه فقط أن يحلم أن ندفع للنساء في هذا المجال مثل الرجال».

بالنسبة لي كان الأمر يبدو سخيفًا لأقصى درجة؛ أن يقرِّر أحد رجال مجتمع الأعمال في أمستردام أن يعترض على أن أتلقى نفس أجر نظرائي من الذُّكور، كان الأمر مُضحِكًا وسخيفًا للدرجة التي فشلَت فيها نبرة صوته الغاضبة أن تخيفني.

رددتُ بكل هدوء: «هل كنتَ لتطلب أن يعالج زوجتَك طبيبٌ أقل في السُّمعة وأرخص في الثمن؟ أشكُّ في أن تلك الفكرة قد خطرت على عقلك بالأساس؛ كنتَ مهتمًّا بالعلاج الفعَّال، بغَضِّ النظر عن التكلفة؛ ولذلك جئت لتستشير أول طبيبة في هولندا كلها عن حالة زوجتك».

ثم أكملت: «وبما أنك قد قرَّرتَ أن تأتي لي اليوم لتشتكي من الأسعار، التي بالمناسبة قد وضعها وأرسى قواعدها الزملاء الأطباء من الذكور، فعليك أن تفكر جدِّيًا وتعتبر نفسك محظوظًا أنني لم أقرِّر أن أستغلَّ وضعي الاستثنائي في البلد كلها، وأقرِّر أن أكلِّفكَ المزيد لكي أعالج زوجتك».

لا أتذكر، كيف تفاعل بقية الموجودين في العيادة في ذلك اليوم مع ذلك المشهد الغاضب، الذي قرَّر الرجل أن يفعله في العيادة، لكنني أتذكر أن زوجته جاءت بعد أيام قليلة لتدفع الفاتورة وتعتذر مطوَّلًا عمَّا فعله زوجها قبل أيام.

لا يمكنني أن أُعدِّد كل العقبات التي قابلتها في سنوات الممارسة المبكِّرة للطب كطبيبة مستقلَّة، ولا كم مرة أُجبِرتُ على مواجهة وتخطِّي تلك العقبات. لو أنني قررت المقارنة مع العصر الحالي، بعد

أربعين عامًا، فإنني على يقين من أن الشابات في هذا العصر سوف يَجِدن ذلك صعبًا للغاية. أفكر الآن في كل الحوادث، والتي لم تكن سوى خلافات حول تفاصيل صغيرة، لكنها أمدَّتني بشعور دائم بالسعادة حينما انتصرت على كل الظروف. يوفِّر ذلك شعورًا جيدًا ومستمرًّا من الرضا والسعادة.

على سبيل المثال، أفكر اليوم أن مئات النساء اللاتي يتنزَّهن اليوم في شارع «كافرسترات» Kalverstraat، لم يتوقَّفن للحظة ويفكرن أنه منذ أربعين عامًا فقط، لم يكن هذا المكان مُتاحًا للنساء لكي يمشين فيه بين الساعة الثانية عشرة ظُهرًا وبين الرابعة عصرًا. كان ذلك الوقت حصريًّا على السماسرة الذين يدخلون ويخرجون من مبنى البورصة في ذلك الشارع، وكانت أي امرأة تُرى في الجوار، يُظَنُّ أنها عاهرة تعمل في الشوارع الضيقة المتفرِّعة من شارع «كافرسترات». لم تكن أي امرأة ذات سُمعَة تجرؤ أن تسير في هذا الشارع بعد الظهر حتى لا تتلطَّخ سُمعتها. كانت النساء في ذلك الوقت يعلمن أن فعلةً مثل تلك، سوف تُعرِّض سُمعتهن أن تكون مادَّةً للسَّمر والكلام في حفلات الشرب للرجال، وحفلات النميمة النسائية. وبالطبع كنت ثائرةً ضد هذا التصنيف من البداية، طالبتُ بحقِّي أن أسير في هذا الشارع وقتما أريد وكيفما أريد. ربما لا يمكننكم اليوم أن تستغربوا أن أفعل ذلك؛ فالمتابع الجيد لقصة حياتي يعلم أن هذا الفعل لا شيء بالنسبة لي، لكنني كنت أحرِّض النساء على أن يفعلوا مثلي. كنت أقنعهم أنه بتلك الطريقة، بالمشي في شارع كافرسترات بعد الظهيرة، يمكننا أن نوقف الفعل الشائن، والذي لا يمكننا تصنيفه إلَّا بأنه «يتمُّ بيع وشراء النساء في وضح النهار في وسط العاصمة». كانت الدعارة تجلب الكثير من العار للنساء، والكثيرَ من المخاطر للرجال؛ لذلك – على الأقل ومن قبيل

الذوق العام - فقد كنت أشعر أن على النساء اللاتي كُنَّ يتجنَّبن السير في شارع «كافرسترات» أن يذهبن إلى هناك في ساعات العمل الرسمية في بورصة أمستردام.

اليوم، الكثير من النساء العاملات والشابات يعتَبِرن أن التجول في شوارع المدينة في أي وقت شيء مفروغ منه، سواء كان في الليل أو في النهار. وسوف يجد هؤلاء النسوة صعوبة في تصديق ما كان عليه الحال منذ أربعين عامًا فقط، سوف يَجِدن صعوبة في تصديق ما الذي كان يحمله التجول في شوارع العاصمة من عواقب بالنسبة للنساء منذ أربعين عامًا. كان العامة والشرطة يستغربون كثيرًا من تجوُّل امرأة في الشارع في أوقات مُعيَّنة، بل إنه حتى الشرطة الرسمية، التي عيَّنتها الحكومة من أجل حفظ الأمن في الشارع، غالبًا ما كانت تتجاهل واجباتها في هذا الصَّدد حينما تُرَى امرأة تسير في أحد الشوارع.

كل مساء، بعد العشاء، في حدود السابعة أو الثامنة مساءً، كنت أغادر منزل الأسرة متَّجِهةً نحو مكان سكني، وفي مرات كثيرة كان يتبعني أحد الرجال، بل إنه في مرَّةٍ قرَّر أن يجذبني من ملابسي ويتحرَّش بي بشكل فجٍّ. وللأسف حدث ذلك أمام شرطي، من المفترض أن وظيفته هي حماية الناس، وبالفعل سرعان ما توجَّهتُ إليه بالشكوى، لكنه أشاح بنظره عني قائلًا: «لو أردتِ ألَّا تتعرَّضي لمواقف مثل تلك، فما كان عليك الخروج للشارع في مثل هذا التوقيت». وعلى الرغم من سخطي الشديد من الموقف فقد قرَّرتُ أن أترك الأمر لبعض الوقت. ولكن لاحقًا لاحت لي فرصة مثالية للتنفيس عن هذا الغضب والظلم الذي تعرَّضتُ له جرَّاء ذلك الموقف.

في أحد المساءات، وبينما كنت عائدة بعد منتصف الليل من زيارة لأحد المرضي، توقَّفَت العربة التي أقلَّتني أمام المسكَن، وقبل أن أصعد

بضع درجات لأجد خطابًا على الدَّرج يطلبني لزيارة حالة طفل مصاب بالحمى القرمزية، كانت العربة التي أقلَّتني قد غادرت بالفعل، والعنوان المكتوب في الخطاب هو في شارع هيرنجراخت القريب من مقهى «ثوربيكبالاين» Thorbeckeplein.

لم يكن الهاتف قد تمَّ اختراعه في ذلك الوقت؛ لذلك لم تكن هناك طريقة لطلب توصيلة. وعلى كل حال، كان المشي من منزلي نحو هذا العنوان لن يستغرق أكثر من خمس دقائق؛ لذلك قرَّرتُ الذهاب إلى هناك سيرًا على الأقدام. كان الشارع شديد الهدوء بلا أثر لأي بشر إلى حدٍّ كبير. الشخص الوحيد الذي قابلته كان شرطيًّا يمشي، وبالطبع ينظر إليَّ بكثير من الدهشة.

كان ذلك الشرطي هو نفس الرجل الذي رأيته حينما كنتُ عائدةً من منزل الأسرة، وقد تحرَّش بي، وكان من الصفاقة أن يجذبني إليه. دافعتُ عن نفسي، وصرختُ أنني طبيبة، وأنني سوف أبلغ رئيس الشرطة عنه. وبالفعل في الصباح طلبت مقابلة رئيس الشرطة، وذهبتُ للقائه، وحكيت له عن تجربتي السيئة مع الشرطي، ومع شرطة أمستردام. كان الرجل في غاية الاحترام، وأكَّد لي أن مَهمَّة الشرطة هي حماية كلِّ سكان أمستردام، وأن ذلك بالطبع يشمل النساء. وبالفعل غادرت مكتبه في ذلك اليوم مع وعدٍ أنني لن أواجه أي مشكلات أخرى مع شرطة أمستردام، وهو وعدٌ أستطيع القول إن شرطة أمستردام حفظته معي حتى اليوم.

إن تذكُّر تلك الأشياء والعادات من تلك العصور الماضية، والتي تبدو الآن عتيقةً بفعل تغيُّر الزمن يُذكِّرني بعادة لا يمكنني أن أنساها؛ وهي أن النساء لم يكن مسموحًا لهنَّ أن يجلسن في قاعة

المسرح الرئيسية، وإنما في الغرف الجانبية أو في بلكونة العرض. لم يكن هناك أي قاعدة مكتوبة حول أكواد جلوس النساء في المسرح، لكن موظفو المسرح غالبًا ما التزموا بتلك القاعدة غير المكتوبة أشد التزام.

كان الرجال الجالسون في قاعة المسرح يتدرَّبون على النظر بنظارات الأوبرا الخاصة بهم في الاستراحات بين العروض، أو في الفاصل بين فصول المسرحية، لينظروا للأعلى نحو البلكونات، وكانوا - حتى - يتنقَّلون بين الكراسي لرؤية أفضل زاوية يمكنهم من خلالها كشف كل النساء في الأعلى. لا أعلم هل اشتكت النساء من ذلك التَّطفُّل والتلصص في يوم من الأيام، لكنني أعلم أنه في أحد الأيام قرَّرَت إدارة المسرح ألَّا تسمح بدخول سيدات بمفردهن؛ يجب أن تكون السيدة بصحبة زوج أو أب أو أخ حتى تستطيع الدخول للمسرح. وبناء على ذلك القرار بدأت النساء في توظيف وصيف لهنَّ أو مُرافِق عند الذهاب للمسرح، وغالبًا ما كان هؤلاء المرافقون من الحمَّالين في ميناء أمستردام. كان أجر هذا الحمَّال بالساعة، ويختلف بحسب نوع القبعة التي سوف يلبسها، هل سوف يلبس قبَّعةً عادية أو قُبَّعة رأسية طويلة. شعرت تلك المرة أنني مُجبَرة على تحدِّي هذا الإجحاف، ليس كطبيبة، بل كامرأة في المقام الأول، وذلك على الرغم من أنني لا أذهب للمسرح كثيرًا، لكنني لم أكن أريد أن تكون زياراتي القليلة للمسرح بصحبة أحد الحمَّالين، وخاصة أنني أستطيع الاعتناء بنفسي منفردةً.

كتبت على الفور خطاب اعتراض قويًّا، ثم أرسلته لإدارة المسرح، لكي أبيِّن لهم كيف أن هذا القرار هو قرار غير منطقي وسخيف، وأنه ليس هناك منطق في فصل الجنسين في مسرح المدينة. وكان ردُّ إدارة المسرح أن هذا القرار ليس المقصود به شخصي، ولكن هؤلاء النساء

غير المحترمات اللاتي يأتين للمسرح بملابس غير محتشمة.

ذلك الغباء المطلق اتَّضح لاحقًا، حينما كانت زوجة أحد الرجال النافذين في المدينة على وشك أن تُطرَد من المسرح، بسبب أن بعض الحاضرين رأوا أن ملابسها غير محتشمة. تعرَّض هؤلاء المعترضون للتوبيخ من إدارة المسرح نفسها، ومنذ ذلك الحين - وعلى حدٍّ عِلمي - أصبح للنساء الحقُّ في أن يَزُرن مسرح المدينة بدون أي بلبلة أو ضجيج.

بعد فترة قصيرة من ممارستي للطب، تلقَّى والدي زيارة من شاب كان صديقًا جيدًا لي، على الرغم من أننا لم نلتقِ بشكل شخصي. جاء كاريل فيكتور جريتسن لكي يسأل أبي عمَّا إذا كان يمانع أن يتعرَّف عليَّ. وترك ذلك الضيف انطباعًا جيِّدًا لدى أبي، والذي قرَّر أن يقابله بودٍّ ويعرض عليه أن يأتي للبيت في أي وقت. كان ظنُّ أبي أنني سوف أكون سعيدة بأن أشكر الشخص الذي قدَّم لي الكثير من المساعدات عبر السنين الماضية. وبما أنني كنت آتي لبيت أبي في أوقات الوجبات، اقترح أبي أن يأتي السيد جريتسن لكي يزورنا في البيت في المساء أو بعد الظهيرة.

لكي أكون صريحة، لم أفكِّر في جريتسن بذلك الشكل، كنت قد كتبت مسبقًا للسيد جريتسن أشكره على التهاني التي كان يرسلها لي بعد الامتحانات في كلية الطب، وذلك لأنني كنت شديدة التقدير للسيد جريتسن الذي عرَّفني على الكثير من الأصدقاء الذين كانوا خيرَ عَوْنٍ لي خلال إقامتي في لندن.

كنت على العكس، ضمن اهتمامات جريتسن في الحياة. كان يتتبع مراحل تطور دراستي للطب، وكان حاضرًا خلال الامتحان الشفوي

الذي خُضتُه من أجل الدكتوراه. كان تواضُعه - أو من الممكن القول: نَقصُ ثقته بالنفس - هو الذي منعه من أن يهنِّئني بعد الدكتوراه بنفسه. ولكن على الرغم من كل ذلك فرحتُ لأنني أخيرًا سوف أقابل ذلك الشاب الذي أبدى الكثير من الاهتمام بي وبعملي. لكن الأمر سوف يتطلَّب بعض الوقت من أجل أن تنمو تلك الصداقة وتتفتَّح لتصبح زهرة الحب التي تجمعنا.

وبالطبع، توسَّعَت دائرة معارفي وأصدقائي كثيرًا منذ أن انخرطت بشكل أكبر في الحياة العامة. طلبت كلٌّ من هيلين ميرسير، وكاترينا ألبريدنجك وكورنيلي هيجينز وإليسا هايجتون- مقابلتي. كنت قد عرفتهنَّ في السابق من خلال كتاباتهن، لكنني لم أقابلهنَّ شخصيًّا، ولم تسنح الفرصة للصداقة أن تترسَّخ سوى لاحقًا، واستمرَّت صداقتي بهؤلاء النساء مدى الحياة.

في الحقيقة، لم تهتمَّ بي النساء فقط في ذلك الوقت، بل الرجال أيضًا. تلقَّيتُ الكثير من الترحاب من رجالٍ مثل بي إتش هيلدت، والذي كان رئيس الاتحاد التجاري العام في هولندا، وأيضًا الدكتور دورنبوس، والذي كان الأبَ الروحيَّ لحركة 1880 الأدبية، والكثير من الرجال الذين يصعب ذِكر أسمائهم جميعًا، والذين أدين لهم بالكثير من التَّطوُّر الذي حدث لي على الجانب السياسي والاجتماعي، والذي لم يكن ليحدث لولا اختلاطي بمثل هؤلاء الرجال والنساء.

تعرَّفتُ من خلال السيد هيلدت على الكثير من أعضاء النقابات التجارية والعمالية، والكثير من الشخصيات البارزة في تلك النقابات، وتعرَّفتُ أيضًا في ذلك الوقت على زوجات هؤلاء الرجال. ومن خلال انخراطي مع هؤلاء النساء أدركت على الفور أن الطبقة العاملة في

هولندا تحتاج للكثير من التثقيف حول مسائل النظافة الشخصية وتربية الأطفال. لقد ساعدني السيد هيلدت كثيرًا، ففي شتاء عام 1880 أتاح لي عددًا من الحجرات في مبنى النقابة، والذي كان يقع فوق بار شهير في تقاطع شارعَيْ «سبوزسترات» و«كاترجيت». قدَّمتُ الكثير من الدروس للنساء في تلك الحجرات. كنت أقدِّم دروسًا مرتين في الأسبوع حول مُتطلَّبات النظافة الشخصية، وكيفية الاعتناء بالأطفال الصغار؛ وهي دروس استمرَّت معي كعادة لأربعة عشر عامًا قادمة. كانت تلك الجهود من أجل تثقيف نساء الطبقة العاملة محطَّ تقدير مستمرٍّ من مجلس إدارة الاتحاد. وعندما انتقل مقر الاتحاد إلى مبنى أكبر يُدعَى «جيلفنك» ويقع في ضاحية «سنجل»، قدَّموا لي غرفتين واسعتين بهما ما يكفي من الإضاءة للدروس المسائية التي كنت أعطيها. ولكن على الرغم من ذلك، كان موقع هاتين الغرفتين في الطابق العلوي للمبنى يعني الكثير من المشكلات في الصعود بالنسبة للنساء والأطفال المرضى؛ لذلك عندما عرضَت عليَّ إحدى الأرامل غرفتين رخيصتين في شارع «تيشي لسترات» قبلتُ على الفور. فقد رأيت فرصةً جيدة في ذلك العرض، الذي من الممكن أن يُسهِّل على الكثير من النساء المرضى. لكن بعد ذلك انتقلت إلى «جوردان»، إحدى ضواحي أمستردام، ومنذ تلك اللحظة بدأت أفقد تواصلي الدائم مع اتحاد العمَّال.

لمدة أربعة عشر عامًا، ومرَّتان في الأسبوع كنت أعالج النساء الفقيرات من كل أمراض الحياة، وكان الطلب على تلك الخدمة العلاجية المجانية. وفي النهاية قرَّرتُ أن أغلق العيادة بعد أن أصابني مرضٌ عُضالٌ أقعدني لأسابيع في المنزل ومنعني من ممارسة الطب. بعد أن عدت وجدت أن بنت الأرملة التي استأجرتُ منها الغرفتين قد

جاءت لتعيش مع والدتها؛ وبالتالي لم تَعُد الغرفتان متاحتَيْن للعيادة.

بعد فترة قصيرة من بداية ممارسة الطب في أمستردام، بدأت تتأسَّس الجمعيات والأحزاب من أجل تدعيم المشاركة في الحياة السياسية والاجتماعية وتحقيق مصالح فئات متعدِّدة من المجتمع. في ذلك الزمن كانت تلك الجمعيات تُدعَى الاتحادات العامة. ومرة أخرى كنت في طلائع مَن أرادوا الاشتراك في مثل تلك الاتحادات، وقد مرَّ بعض الوقت قبل أن تقتدي بي نساء أخريات. كانت تلك الاجتماعات المستمرة للاتحادات هامَّةً بالنسبة لي؛ فقد عرَّفَتني عن قُربٍ على كثير من المشكلات الاجتماعية المختلفة. وفي تلك الفترة، كان غريبًا على النساء أن يحضرن الاجتماعات العامة، حتى إن تغطية الصحف عن تلك الاجتماعات غالبًا ما كان يُذكَر فيها أن امرأة (المقصود شخصي) قد حضرت الاجتماع. للدرجة التي جعلتني أطلب من الصحفيين لاحقًا عدم ذِكر اسمي بعد بعض الوقت، فقد وجدت في ذلك شيئًا غير مريح.

كانت عياداتي المجانية في منطقة جوردان مهمَّة لأنها جعلتني أرى وأتعامل مع الفئات الأفقر في مجتمع أمستردام. وإذا كانت النساء أو الأطفال الفقراء يصعب عليهم القدوم في ساعات العمل في العيادة، فكنت عادةً ما أذهب لزيارتهم في منازلهم الخاصة. من خلال تلك الزيارات المنزلية، عرفت معنى البؤس للمرة الأولى، وحتى بعيدًا عن الفقر المدقِع التي كانت تلك الأُسَر تعيش فيه، فقد دُهِشتُ من حالة الأحياء الفقيرة في عاصمة دولتنا. كيف يستطيع هؤلاء الفقراء النجاة في تلك العشوائيات؟ كيف يمكن للحكومة أن تسمح لمثل تلك الظروف المعيشية أن تكون موجودة؟

في النهاية، فإن خليطًا من التعاطف والسخط الشديد قد جعلاني

أحكي عن تلك المشاهد لهيلين ميرسير، والتي كنت أعرف أنها شديد الاهتمام بقضايا الفقراء. فخلال مرضها الشديد قرأت هيلين الكثير من الكتب حول ظروف العمل والفقر، وكوَّنَت من خلالها وعيًا اجتماعيًّا ناضجًا. لكنه على الرغم من اطِّلاعها على الكثير من الكتب حول الفقراء فإنها لم تكن قد رأت شيئًا ممَّا رأيته. بعد أن استمعت لقصصي عن الفقراء والأحياء الفقيرة، سألتني هل يمكنها أن تأتي معي في زياراتي القادمة إلى هناك. وافقت على الفور، على الرغم من خوفي من تأثير التلوث والروائح على صحة هيلين - صديقتي - ذات المشكلات الصحية الكثيرة. كان الهدف من أن تأتي معي لترى بنفسها هي أن تكتب لاحقًا عن تلك الظروف المأساوية، وهو ما فعَلَته لاحقًا بالفعل، حيث بدأت تكتب سلسلة من المقالات في مجلة «المجتمع الأسبوعية». وبدأت بالفعل الظروف المعيشية تتحسَّن في تلك الأحياء، ولكن ببطء شديد، بفعل كتابة هيلين ميرسير عن تلك الأحياء.

في مايو 1881 تلقَّيتُ ضربة عنيفة، سلَبَت مني الإرادة والقوة من أجل العمل لشهور، وسلَبَتني أيضا روحي المتَّقِدة والساعية دائمًا للتطور.

لقد توفي أبي العزيز فجأة، وبدون إنذار. لقد تعرَّض لأزمة قلبية ومات في غضون ثوانٍ معدودة. لن أنسى ما حييت شعوري وأنا أقف بجانبه على سرير الموت، كم كانت خسارتي شديدة المرارة في ذلك الوقت، وكيف شعرت أن عالمي قد انهار تمامًا.

كنت أناقش الحالات المرضية التي تأتي لي مع أبي، وكنَّا نتناقش في الكثير من القضايا الاجتماعية. كنت كثيرًا ما أختلف معه في الرأي، وعلى الرغم من أن كلًّا منَّا كان يحمل وجهتَيْ نظر على النقيض، إلَّا

أنني غالبًا ما كنت أستمتع بالمناقشات المستمرة بيننا. كنت أعلم أنه في أحيان كثيرة ما كان يعارضني من قبيل العَمْد، لكي يثنيني عن بعض الأفكار التي اعتقد أنها سوف تجلب لي المزيد من الصعاب والمتاعب. كان يحبني - أنا طفلته الصغيرة - مهما كبرت، كان يراني طفلةً، عليه أن يُحجِّمها ويعارضها في الكثير من الأشياء حتى يستطيع حمايتها.

غالبًا ما كنت أتجاهل اقتراحات أبي، لكن فكرة أنه موجود من أجلي في تلك الحياة غالبًا ما كانت توفِّر لي الكثير من الراحة، كان مَصدرًا للنصيحة الجيدة الخالية من الأنانية، والتي كانت بلا شك تعطيني الكثير من القوة. لقد مرَّ الكثير من الوقت حتى استطعت أن أتأقلم في النهاية مع حقيقة أن تلك الخسارة لا يمكن تعويضها.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

الفصل الخامس

تنظيم الأسرة

(معاناة النساء. وجدنا الحل. التجديف عكس التيار. ساعات من الشك وأيام من النضال. الجهود تؤتي ثمارها).

عندما كنت أدرس الطب، وبالتحديد حينما كنت أعمل في مستشفى أمستردام، دهشت وأصبت بالرعب من كثرة المشاكل الصحية التي يُسبِّبها الحمل المتكرر بالنسبة للنساء، والذي، ولأسباب عديدة، يمكنه أن يؤثر بشكل كبير على صحة وحياة المرأة.

وخلال محادثاتي المطوَّلة مع النساء في غرف الولادة، عبَّرن لي عن استحالة منع الحمل بدون التَّوقُّف عن ممارسة العلاقة الجنسية، لم يكن متاحًا في ذلك الوقت أي طرق أخرى لمنع الحمل. كانت النساء اللائي يَلِدن أطفالًا غير أصحَّاء أو أطفالًا متوفِّين عند الولادة يعانين الكثير، ويَذُقن في كل مرة مسحة من ألم الموت، ومع ذلك يَعُدن مرة أخرى للحمل. كانت الأسر الكبيرة - والتي لا تَقدر فيها الأم على الرعاية الصحية بالأبناء، ولا يقدر فيها الأب على توفير المال - تستمرُّ في النمو. ظلَّت فكرة تنظيم الأسرة تراودني وأصارعها في رأسي لساعات وساعات بدون أن أجد حلًّا. ناقشت تلك المشكلة وأنا طالبة في كلية الطب كثيرًا مع زملائي الأطباء، وفي الغالب ما كانوا يردُّون «نعم»، ويعطفون عليها بجملة «هذا هو الهدف من وجود المرأة».

وكانوا يقولون في أحيان أخرى: «حمدًا لله أنه ليس هنالك من طريقة لمنع الحمل، وإلا لكان هذا العالم سوف يقع في خطر انهيار أعداد السكان».

تلعب الصدفة دورًا كبيرًا في حياتنا جميعًا، تلك الصدفة التي قادتني للتَّعرُّف على مجموعة من الأشخاص في لندن، والذين كانوا مهمومين بالمشكلة التي شغلتني لكثير من الوقت، بينما كنت في لندن كان هناك أناس - مثل آن بيزانت والدكتور دريسدال والناشر ترولوف - يخاطرون بالكثير، بل ويخاطرون بأن يتعرَّضوا للمحاكمة لمناقشتهم قضية تنظيم الأسرة في العلن. قبل ذلك بسنوات، نُشِر كتاب من قِبَل طبيب بشري تحت عنوان «مكوِّنات علم المجتمع»، مع عنوان فرعيٍّ «الدين الطبيعي والجنسي والفيزيائي». تُرجِم هذا الكتاب لاحقًا للفرنسية، والألمانية، والهولندية، والإيطالية، والبرتغالية. كان المؤلف، وهو أحد تلامذة مالتوس وجون سيتورات ميل، يحاول أن يثبت أن أعداد البشر تتضاعف على أساس أُسِّيٍّ (متوالية أُسِّيَّة) 1.2.4.8.16.32، وهكذا، بينما الموارد الطبيعية للكرة الأرضية تتضاعف على أساس خطِّيٍّ فقط (متوالية عددية) 1.2.3.4.5 وهكذا. وبالتالي كان مؤلِّف الكتاب متعاطِفًا مع نظرية مالتوس وتنبؤاته التشاؤمية حول مستقبل الأسرة والمجتمع، لكنه كان على خلاف مع نظرة مالتوس لحل تلك المعضلة، فلم يكن يؤمن بالزواج المتأخِّر أو التَّعفُّف عن الجنس من أجل تقليل أعداد البشر، ولكنه لأسباب اجتماعية وطبية كان يدعو لتقديم موانع الحمل.

عندما قرأت لأول مرة ذلك الكتاب، كنت على معرفة بالناشر ومؤلِّف الكتاب، وكذلك كنت على دراية بالمدافعين عن تلك الفكرة والذين روَّجوا لها بحماس شديد في تلك الفترة. كان لديَّ الكثير من الاحترام

والتقدير لهؤلاء النساء والرجال، والذين كانوا يرون أن هدف البشر في الحياة هو جعل العالم مكانًا أفضل، حتى ولو كان ذلك على حساب سعادتهم الشخصية.

أعجبت بتلك المثل والأفكار المثالية، والتي كان لديها منطق قويٌّ حول العدالة الاجتماعية.

على الرغم من أنني كنت مختلفة مع النظرية الاقتصادية التي تقف خلف تلك المبادئ المالتوسية، ربما لأنني لم أكن على دراية كافية بالجوانب الاقتصادية في تلك الفترة، أو لأنني كنت أعرف قليلًا بشكل عام عن النظرية. لكنني أيَّدتُ - من وجهة نظر طبية واجتماعية - ما يدعو إليه هؤلاء. لقد آمنت أن هناك أهمية قصوى للبشرية جميعها أن تحاول حلَّ ذلك المرض الاجتماعي المتمثل في الإنجاب الزائد. إن توفُّر موانع الحمل كان ليمنع الكثير من المعاناة التي تتعرَّض لها النساء، لقد عايشت ورأيت بعيني تلك المعاناة والحزن في أعين النساء الحوامل اللائي رأيتهن في مشفى أمستردام، لقد رأيت تلك المعاناة في مشهد الأطفال حديثي الولادة غير المرغوب فيهم، والذين كانوا يُستَقبَلون بالكثير من الحزن وليس الفرح، والتي كانت تلك الأُسَر تنظر لوجودهم في الحياة على أنها عبء كبير على الأسرة بشكل خاص، وعلى المجتمع بشكل عام. وبالتالي بقي السؤال حول ما هي موانع الحمل الأكثر فعالية في منع الحمل غير المرغوب فيه. شعرت أنني غير قادرة على الإتيان بطريقة واحدة فعَّالة أو إجابة نهائية لذلك السؤال. كنت أشكُّ في مدى قدرة الموانع الموجودة في ذلك الوقت على تحقيق الغرض، بل وحتى أشك في ملاءمتها للاستخدام. كنت غير قادرة على تحديد ضَرَرها الذي كان موجودًا بالفعل بالنسبة للنساء المستخدِمات لها. في النهاية، أجبرت نفسي على الاعتراف أنني فشلت

في الإجابة على ذلك السؤال. كنتُ على اتِّصال دائم بتلك المجموعات من المثقفين، والتي كان من بينهم مؤلِّفُ الكتاب سالف الذِّكر، كانوا يصفون أنفسهم بالنيو- مالتوسية (المالتوسية الجديدة) والتي من خلالها يتبعون أفكار مالتوس، ولكن يستخدمون طرقًا أخرى من أجل تحقيق أهدافه. قدَّم هؤلاء المثقفون إليَّ الكثير من المعرفة النظرية حول الموضوع، لكن لم تكن لديَّ طريقة لكي أحوِّل تلك المعرفة النظرية إلى ممارسة.

عندما عدت من لندن إلى هولندا، وفي البداية ظهرت الكثير من المشكلات الأخرى التي جعلتني أضع مسألة تنظيم الأسرة وموانع الحمل في موقع متأخِّر من أولوياتي، وذلك على الرغم من هَوَسي الشديد بالموضوع في لندن. لكن بعد فترة، وبفضل العيادات المجانية التي كنت أقدِّمها للفقراء في الأحياء الفقيرة؛ فقد طَفَت المشكلة على السطح مرة أخرى. بعد اختلاطي بالأوضاع المعيشية في تلك الأحياء الفقيرة، رأيت كيف يمكن أن تكون التأثيرات السيئة للحمل غير المرغوب، وكيف أن هؤلاء الأطفال المولودين من حمل غير مرغوب يمثِّلون عبئًا ليس فقط على الأُسَر، ولكن على المجتمع ككل.

وخلال بحثي عن علاج لمثل تلك المشكلة قرأت مقالًا في بداية عام 1883 في المجلة الطبية الألمانية. كان المقال للدكتور مينسنجا، من «فلنزبرج». لقد أوصى الدكتور مينسنجا باستخدام الفرزجة المهبلية (السَّدَّادة المهبلية) كحلٍّ غير ضار لمنع الحمل. كان لذلك المقال العلمي الكثير من الأثر عليَّ، وبدأت بالفعل في مراسلة الدكتور مينسنجا، وتبادَلنا الخطابات التي شرح لي بالتفصيل فيها كيف يمكن استخدام الفرزجة من أجل منع الحمل، حتى إنه أرسل لي عددًا من العيِّنات التي يمكنني تجربتها. وعلى الرغم من أن الدكتور ميسيجنا قد أكَّد لي

على فعاليتها وعدم تأثيرها بالسلب على صحَّة النساء، إلا أنني قرَّرت أن أجرِّبها قبل أن أقوم بتوصيتها للنساء اللواتي أعالجهن.

كانت العديد من النساء من خلفيات اجتماعية وطبقية مختلفة يسألنني عن موانع للحمل لأسباب أخلاقية أو طبية أو اجتماعية، وفي الغالب كنت أرفض أن أرشِّح لهنَّ أحد الموانع بدون إبداء أسباب؛ ولذلك قرَّرتُ حينما عرفت بموضوع الفرازج أن أرسل إلى بعض منهنَّ خطابات، قلت لهن إنني أعتقد أنني قد وجدت طريقة آمِنةً لمنع الحمل، لكن عليهن أن يخضعن للفحص في الشهور الأولى من استخدام تلك الطريقة. وفي النهاية وافق بعضهن على تلك التجربة، وكانت النتائج جيدة للدرجة التي جعلتني أعلن أنني اليوم أستطيع أن أكتب للنساء مانِعًا للحمل آمِنًا على صحتهنَّ، وشديد الفعالية. وعلى الرغم من أنني وجدت بعض الحرج في الإعلان عن قدراتي الطبية، إلَّا أنني وجدت أنه من الواجب أن أعلن ذلك للنساء اللائي قد يرغبن في تجربة مانع الحمل للأسباب الاجتماعية والطبية والأخلاقية.

لم أتخيَّل بالطبع في ذلك الوقت - ولو للحظة واحدة - أنني سوف أحظى بأي دعمٍ مُمكِن من قِبَل زملائي الأطباء؛ ليس فقط لأنني أعرف أن معظمهم أطباء محافظون وتقليديُّون، ولكن أيضًا لأن لديهم جهلًا عميقًا بتلك المشكلة الاجتماعية؛ بالتالي لم أتوقع أي قدر من الدعم. لكنني لم أتوقَّع أيضًا أن يُستقبَل الموضوع بمثل هذا الغضب الكبير من قِبَل كل المؤسسة الطبية في هولندا. حتى هؤلاء الذين كانوا يتفقون معي في مسعاي، أُجبِروا على أن ينتقدوني في العَلَن؛ خشية أن يتعرَّضوا لنفس الغضب الذي تعرَّضتُ له. كانت تلك أوقاتًا عصيبة بالنسبة لي، وكنت لسوء الحظ أفتقد للشخص الوحيد الذي يمكنني أن أحكي له عن تلك المصاعب والأحزان. كان هذا الشخص هو أبي، الذي توفِّي،

أمَّا بقية الأصدقاء المقربين فقد كانوا يفتقدون للفهم الكافي للجوانب الطبية والاجتماعية لما أحاول أن أفعله، وكيف سوف يؤثِّر هذا العمل على مستقبل البشرية. ناقشت مع كثيرٍ منهم تلك الحملة التي أتعرَّض لها، وكانت نصيحتهم - النابعة من حُسن النِّيَّة - بالطبع هي أن أخرج للعلن وأعترف أنني أخطأت، وأنني لن أقدِّم موانع الحمل مستقبلًا للنساء. كنت لأتبع تلك النصيحة لولا أنني رأيت مسبقًا كمَّ المآسي التي تُسبِّبها كثرة الإنجاب؛ ولذلك كنت أعتقد أن عملي ذلك من أجل مصلحة الإنسانية بشكل عام.

كنت الطبيبةَ الوحيدة في هولندا؛ وبالتالي وجدتُ صعوبات كثيرة في التجديف عكس التيار السائد، ذلك التيار السائد من الأكاذيب والتلفيقات التي تلقَّيتُها من زملاء المهنة الذكور. ولكن كان اقتناعي الشديد بأنني أفعل الشيء الصحيح هو ما يدفعني للأمام، كذلك كان وعيي التام بأن تلك المشكلة لا تخصُّ فقط المعاناة الفردية التي تتعرَّض لها كل امرأة، ولكن مصلحة المجتمع الجمعية هي ما تمدُّني بالقوة من أجل أن أظل أدافع عن فكرتي. وعلى الرغم من ذلك، في بعض الأحيان كانت تنتابني الشكوك. كنت أتجوَّل بلا هدف في منتزه فوندل، غير واعية بما يدور حولي، حيث كنت أصارع أفكارًا سيئة حول الأمر، كنت أفكِّر أنه على الرغم من كل شيء يمكن أن أكون مخطئة. هل يؤدِّي توَفُّر موانع الحمل بكثرة لفناء البشرية؟ وأن نعيش في النهاية في عالم بلا أطفال؟ هل سوف يؤدِّي ذلك لانتشار الفواحش؟ وهل لو انخفض معدل الولادة فإن الاقتصاد سوف يعاني؟ كنت مشغولةً بتلك الأسئلة وغيرها. لم أعرف عن الاقتصاد أيَّ شيء أكثر ممَّا يعرفه الرجل العادي، لكنني فكَّرتُ أن الغريزة الطبيعية بالأمومة، والتي توجد عند أغلب النساء، هي التي سوف تدفعهنَّ لأن ينجبن الأطفال

في النهاية، ويستمررن في إنجاب الأطفال؛ وبالتالي إذا كُنَّ لا يُردن أن ينجبن الأطفال فلا بُدَّ أن سببًا قويًّا يمنعهنَّ من ذلك. بالطبع، كانت موانع الحمل سوف تُقلِّل أعداد الأطفال غير المرغوب فيهم، لكن ذلك كان ليكون في سبيل تَقدُّم وسعادة البشر في مجموعهم. وبعد دراسة وتفحُّص لتلك المعضلة اقتنعتُ أنني قد اتَّخذتُ القرار السليم. شعرت أنني أقرب لما كتبه نيتشه بطريقة أدبية «ليس تكاثر العِرقِ البشري هو المعنى من الوجود، ولكن زيادة الإنسانية لدى كلِّ فردٍ منهم هي المعنى».

لقد أثَّرَت تلك الخبرة التي عايشتها في ظل المعارضة الشديدة لوسائل منع الحمل بشكل عميق على ثقتي بالناس. لقد عرفت بالطبع من البداية أن هؤلاء محدودو التفكير، والرَّافضين لأي تغيير سوف يختلفون مع طريقة تفكيري، ومع ما أدعو إليه. لقد اعتقدت أيضًا أنه من الطبيعي أن يكون من بين معارضي الفكرة المؤمنون والمحافظون دينيًّا، والذين يجهلون المشكلات الاجتماعية. لكن كل ذلك لم يزعجني، على العكس؛ كنت أحاول فيما أكتبه وأقوله أن أقنعهم بالعقل لتغيير آرائهم حول الموضوع. لكن ما لم أتوقَّعه هو كم العدائية والرفض الشديد لكل ما أحاول أن أقوله في تلك المسألة، والتي - يا للأسف! - واجهتها من زملائي الأطباء قبل أي فئة أخرى. لقد واجهت الكثير من العداء من أطباء النساء والتوليد، والتي كانت موانع الحمل تؤثِّر على مصدر رزقهم بشكل أساسي. لو أن هؤلاء الأطباء فكَّروا لثوانٍ كانوا سيجدون أن هناك الكثير من التأثيرات الاجتماعية، لو أنهم فكَّروا كان من الممكن أن يكون هناك نقاش حُرٌّ حول الموضوع بدون تلك العدائية. لقد أصبحت مسألة موانع الحمل محلَّ جدال دائم على صفحات المجلات الطبية في وقت لاحق، وفي كل مرة كنتُ جزءًا من

هذا النقاش الطبي، وكنت في كل مرَّةٍ أنتصر بالعقل في ذلك النقاش، وهو ما جعل معارضي الفكرة يلجؤون لنشر الكثير من الشائعات حولي؛ من أجل تعويض هزيمتهم في النقاش العقلي حول تلك المسألة. لقد اتَّهموني بأنني أشجِّع على الإجهاض، وأنني أحثُّ النساء على أن تعيش حياة الفسق. تمنَّيتُ لو أتيحت لي الفرصة لنقاش تلك الاتهامات في العَلَن، لكن - يا للأسف! - لم تُتَح لي الفرصة. وكانت تلك الشائعات غير موجَّهَة لي بشكل شخصي أيضًا. وفي مناسبات قليلة تمكَّنتُ من اكتشاف المجرم الذي يقف خلف تلك الشائعات، وعرفته، وواجهته أكثر من مرَّة، حيث كان طبيبَ توليد أعرفه، لكنه كان يهزُّ كتفيه في كل مرة، ويقول لي إن موانع الحمل مثل الإجهاض؛ لا فرق بينهما. كان ذلك منطقًا شديد الغرابة، وكان الكل يعلم ذلك، فموانع الحمل كانت شيئًا قانونيًّا، بينما الإجهاض هو فِعلٌ مُحرَّم في القانون. بالنسبة للكثير من الأشخاص الذين كانوا على خلاف في الرأي معي، فقد حرصوا على عدم طرح وجهات نظرهم غير المنطقية على العامَّة.

كلما توسَّعتُ في ممارستي للطب، أصبحتُ في موقع المنافس الشَّرِس للأطباء الذكور؛ وبالتالي كان الكثير منهم ينضمُّون لقائمة المعارضين لاستخدام موانع الحمل. ولأنني أدركت بعد فترة أنه لا يمكنني الاستمرار بالانشغال في الدفاع عن نفسي؛ فقد قرَّرتُ أن أعيش حياتي وأستمرَّ في أداء عملي على أفضل نحو ممكن.

كان ذلك العصر هو عصر النفاق الكامل. أتذكَّر حاليًّا هؤلاء الأشخاص من رجال الدين الذين كانوا يرفضون موانع الحمل في العلن من على منبر الكنائس في الدروس الدينية في الصباح، بينما في المساء أجدهم مع زوجاتهم في العيادة عندي يطلبون مني أن أعطيهم موانع للحمل. ما زلت أتذكر النساء اللائي كُنَّ أكثر من سعيدات

لاستخدامهن مانع الحمل الذي وصفته لهنَّ، لكنهنَّ كُنَّ يهاجِمنَني في جلسات السَّمر الخاصة. وبينما كان بعض الأطباء يشوِّهون عملي وما أقوم به في العلن، كانوا يسألونني في السِّرِّ لكي أعطيهم نصائح لكيفيَّة استخدام موانع الحمل مع مرضاهم. لحسن الحظ كانت تلك التجارب السيئة تتلاشى، بفعل التقدير الهائل الذي تلقَّيتُه من الكثير من النساء اللاتي عالجتهن، وبالصداقات التي اكتسبتها بين نساء ورجال نافذين في الدولة جرَّاء تلك الحملة المنظَّمة لتشويه سُمعَتي.

في تلك الفترة تعرَّفتُ بشكل أعمق على كارل فيكتور جريتسن، كنت أعرفه مسبقًا، لكن صداقتنا بدأت تتطوَّر في تلك الفترة.

كنت قد قابلته بعد عودته من لندن، والتي نقل إليَّ منها الكثير من التحيات من أصدقائي هناك، لكن نادرًا ما التقينا بعد ذلك اللقاء. لكن بفعل الحملة الشديدة عليَّ؛ قرَّر أن يدعِّمني ويدافع عن الحق في استخدام موانع الحمل، أبدى أيضًا إعجابه الشديد بشجاعتي في مواجهة تلك الحملة عليَّ في ذلك الوقت. كان كارل هو الرجل الهولندي الأول والوحيد الذي أستطيع أن أناقش معه تلك الحملة بشكل صريح، وكان يعبِّر عن رأيه ويعطيني النصيحة بشكل صادق، وبمعرفة مسبقة منه أنه لن يفعل كما يفعل الآخرون في النقاش معي.

في ذلك الوقت أيضًا كانت بداية تأسيس اتحاد النيو- مالتوسيِّين (المالتوسيين الجُدُد) في هولندا للمرة الأولى. وبالطبع كان الاتحاد - كنظيره الإنجليزي - متأسِّسًا على مبادئ اقتصادية، وفي رأيي ذلك ما جعل المجموعة شديدة الحصرية والسرية على العامة؛ وبالتالي لم أكن متحمِّسةً للمشاركة. لم تكن لديَّ الحماسة لما يحاول هؤلاء المالتوسيُّون الجُدُد فِعلَه، وعلى الرغم من أنني قرَرت الانضمام في البداية، إلا أنني

سرعان ما انسحبت من المجموعة، وبالتالي لم أشعر أنه يجب عليَّ دعمهم في زيادة عدد عضويتهم ونشر الفكرة. لكن بالطبع لم يغيِّر ذلك من وجهة نظري حول موضوع موانع الحمل، وعلى العكس من ذلك، أثبتت الأيام صحة وجهة نظري حول موانع الحمل في تلك الفترة، وهي أن تلك الوسائل كغيرها من الأدوية لأي مرض عضوي أو اجتماعي، عليها أن توصَف من قِبَل المختصِّين بشكل قانوني، وبالتالي على الأطباء أن يقفوا وراء الحق في استخدامها، بدلًا من أن يتحول ذلك لاستخدام سرِّيٍّ لتلك الموانع، وهو ما يحدث للأسف حتى يومنا هذا، حيث يقدِّم تلك الموانعَ أشخاصٌ غير أطباء وغير متخصِّصين.

اليوم، وبعد أن وصلت لنهاية حياتي، لديَّ الكثير من الرضا والسعادة وأنا أرى الكثير من الرجال المحترمين والنساء ذوات الشأن، وهم نجوم مجتمعنا العلمي في هذا الزمان، يدركون في النهاية أهمية تنظيم الأسرة والتحكم في أعداد البشر، ليس فقط من المدخل الاقتصادي، ولكن أيضًا من المدخل الطبي والاجتماعي، والتفكير في جينات الجنس البشري. خلال السنوات التي تلت تقاعدي عن الممارسة النشطة للطب، زارني الكثير من الأطباء والعلماء يطلبون مني النصيحة، ويريدون الاستفادة من الخبرة التي اكتسبتها في ذلك المجال. على سبيل المثال، في العام 1920، وبمناسبة عيد الميلاد نشرت مجلة «Review Pictorial» الأمريكية مقالًا عن حياتي وأعمالي؛ ونتيجة لذلك تلقَّيتُ الكثير من الرسائل من أمريكا الشمالية والجنوبية وكندا وأستراليا. كانت تلك الرسائل كثيرة للدرجة التي لم تسمح لي بأن أردَّ على كلٍّ منها، وأطلب المساعدة في ذلك من مُحرِّري المجلة.

لقد منعني المرض من حضور مؤتمر تنظيم الأسرة السنوي، والذي أقيم في لندن في الفترة ما بين 11 يوليو وحتى 15 يوليو من عام

1922، ولكن بمجرد أن انتهى المؤتمر زارني الكثير من الأجانب في «هاج»؛ حتى يعرفوا أكثرَ عن التزامي المبكِّر تجاه تلك القضية. رجال عظماء مثل: جون مينارد كينز، وهافوليك إليس، وإدوارد كاربنتر، وهارولد كوكس، ونوت ويسكل، وإدوارد ويبستر، ومارك، وإتش جي ويليس- قد حضروا المؤتمر، وأثنوا على ما قدَّمته لقضية تنظيم الأسرة. كان الحضور الطبي في هذا المؤتمر أيضًا كبيرًا جدًّا، فقد حضر ما يقرب من 164 طبيبًا من مختلف البلدان، ومن ضمن الحضور كان اللورد داوسن؛ الطبيب الشخصي لملك إنجلترا، والسير أربثنوت لاين؛ واحد من أوائل الجرَّاحين في لندن. دعَّم هؤلاء جميعًا استخدام موانع الحمل متى كان ذلك ضروريًّا لتنظيم الأسرة. لقد أصبحت في النهاية القضيةُ موضِعَ اهتمام من الجميع.

دعوني أنهي هذا الفصل بالتأكيد أنه، وبعد كل تلك السنوات، ليس هناك مانع للحمل أفضل من الفرزجة المهبليَّة (السَّدَّادة المهبلية) التي كنت أوصي بها منذ سنوات كثيرة مضت.

الفصل السادس

الحملة من أجل حق النساء في التصويت

(كيف بدأت الحملة. نشاطاتي العامَّة. طلبي تمَّ رفضه. التواصل مع المناضلات الأجانب. تأسيس الجمعية الهولندية لحق النساء في التصويت. أولى كلماتي العامة. تأسيس التحالف الدولي لحق المرأة في التصويت. أولى جولاتي الخارجية).

في الفصل السابق وصفتُ لكم الحملة الصعبة لتسليط الضوء على بعض المشكلات الطبية، التي كانت النساء تعاني منها. أنوي أن أخصِّص هذا الفصل للحديث عن انخراطي في الحركة الاجتماعية من أجل منح النساء حق التصويت. لقد ذكرت مسبقًا أنني قد كتبت مقالًا في كتاب الذاكرة (1894-1919) والذي نُشِر بواسطة الجمعية الهولندية لحقِّ النساء في التصويت. لكنني في ذلك الفصل أريد أن أسرد - بقدرٍ من التفصيل - كيف شغل النضال من أجل حقٍّ المرأة في الانتخاب قلبي وعقلي طوال تلك السنوات الماضية، وكيف أثَّر هذا النضال على حياتي بشكل مميَّز لا يمكن إنكاره.

على الرغم من أن بعض القرَّاء اليوم قد يجدون ذلك صعبًا على الفهم، فقد كنتُ داعِمةً لحق المرأة في التصويت منذ كنت في الرابعة

عشرة من عمري. كان ذلك بسبب أبي، والذي كان لا يدَّخر جهدًا في أن يقرأ لأمي وإخوتي الأكبر سنًّا في جلسات السمر في سابمير الكتبَ والجرائد في المساء. كانت النساء (نحن وأمي) نحيك الملابس بينما نسمع أبي يقرأ مقالًا مثيرًا للاهتمام، أو كتابًا جديدًا نُشِر للتَّوِّ. وفي أحد الأيام في عام 1868 كان أبي يقرأ الترجمة الهولندية لكتاب جون ستيوارت ميل «استعباد النساء»، وعلى الرغم من أن كُتبًا مثل ذلك لم تكن مناسِبةً لسِنِّي في ذلك الوقت، ولا لقدرتي على الفهم، لكنني على الأقل استمعت لبعض الأجزاء الجيدة في الكتاب. في الواقع لقد أعجبني الكتاب للدرجة التي جعلتني أحضر كراسة من على أحد الأرفف في السقيفة، وأكتب فيها كلَّ الجُمَل التي قالها أبي وأحتاج لتذكُّرها والتفكير فيها لاحقًا. ليست لديَّ معرفة كم من مبادئ وأفكار جون ستيوارت ميل فهمتها في ذلك الوقت، لكنني أعلم الآن أنني كنت معجبة بالرسالة الأهم للكتاب، وهي أن «المرأة بمثابة العبد للرجل، يضع الرجال القوانين وتطيعها النساء». كنت شديدةَ الاهتمام في الطفولة بالحرية والاستقلالية؛ لذلك لم يكن مُستغرَبًا أن عنوان الترجمة الهولندية للكتاب قد أرعبني، حيث كان العنوان «عبودية النساء». كان الكتاب بمثابة الحجر المقدَّس بالنسبة لي، فقد كان يكثِّف الكثير ممَّا عانيته طوال السنوات اللاحقة. النساء لا يمكنهن أن يصبحن أطباء، النساء لا يمكنهن أن يدخلن للجامعات، الجامعات حصرية فقط على الرجال. عندما فكَّرتُ في كل هذا أدركتُ أن الرجال لا يضعون القوانين فقط، لكن لديهم كل القوة والقدرة على جعل النساء مستمرَّات في دورهنَّ التابع للرجل. في ذلك الوقت كنت أعرف أن على ذلك أن يتغيَّر، لكنني لم أكن أعرف كيف يمكن لهذا التغيير أن يحدث.

حتى يومنا هذا، أنسخ وأحتفظ بكل شيء يُكتَب عن حق النساء

في التصويت، وكل ما يخصُّ النساء من قوانين أخرى. عندما قرَّر السياسي الطليعي الوزير ثوربيك أن يمنح حق الدخول لجامعة جرونينجن للنساء، دُهِشت أنه ما زال عليَّ أن أتخطَّى فترة اختبار لمدة سنة لبيان مدى قدرتي على دراسة الطب، وهو شيء لم يكن للرجال أن يخوضوه في ذلك الوقت. سألت نفسي: «لماذا؟»... «لماذا على أحدهم أن يسائل قدرتي على دخول كلية الطب، بينما أغبى الشباب في البلد يمكنهم دخول كلية الطب بمجرد أن يطلبوا ذلك».

بعد فترة قصيرة من دخولي لجامعة جرونينجن، كان أحد أساتذتي - الدكتور دي. إتش. تيلجين - ينشر كتيِّبًا بعنوان «مستقبل النساء». في هذا الكتيب الصغير وصف الرجل باقتضابٍ الإخضاعَ القانوني الذي يمارَس على النساء، وتحديدًا النساء المتزوجات، ودعا إلى تبنِّي تشريعات عادلة تجاه النساء. لقد أثَّر ذلك الكتاب فيَّ بشكل عميق، حتى اليوم ما زلت أحتفظ بنسخة منه، والتي غالبًا ما أقتبس منها عندما تتمُّ دعوتي لإلقاء كلمة عن حق النساء في التصويت.

خلال فترة الدراسة، لم يكن لديَّ الكثير من الوقت لأنخرط في الحركة الصاعدة حول حق النساء في التصويت، والتي كانت شديدةَ التأثير على مساري المهني. إلا أنني كنت أجمع في ذلك الوقت كلَّ ما يُكتَب حول حق النساء في التصويت في الصحف.

قبل أن أذهب للامتحان النهائي من أجل الدكتوراه، وجدت مقالًا مؤرَّخًا بتاريخ 27 أبريل 1877، كتب فيه الكاتب أن الجزء الدستوري الخاص بالحق في التصويت يجب أن تتمَّ مراجعته. كانت الفكرة هي التوسع في حق التصويت بالنسبة للرجال، وأن حقَّ التصويت يجب أن يشمل كل الرجال من خلال تعديل دستوري. وعلى الرغم من

أنني كنت لا بُدَّ أن أعمل بجد، وأستغرق وقتي كله في المذاكرة من أجل الامتحان، إلا أنني لم أستطِع أن أُخرج ذلك المقال من عقلي. ما هي الفكرة من استثناء كل النساء من التَّوسُّع الدستوري في الحق في التصويت، على الرغم من أنهم لا يمكنهم فعليًّا التصويت؟ بعد انتهاء فترة التدريب على ممارسة الطب سافرت إلى لندن، والتقيت للمرة الأولى بأعضاء في حملة حقِّ النساء في التصويت الإنجليزية، والتي سوف يكون لهم عظيم الأثر في إلهامي لاحقًا حول تلك القضية.

بعد العودة لهولندا في 1879، لاحظت أنه يوميًّا تقريبًا في الصحافة هناك مقالات تنادي بالتَّوسُّع في الحق في التصويت. حتى في ذلك الوقت كانت هناك الكثير من الأصوات تنادي بالحق الكامل في التصويت لكل المواطنين من رجال ونساء. لكن على الرغم من ذلك كان هناك اهتمام قليل من العامَّة حول تلك المشكلات السياسية والاجتماعية؛ وبالتالي لم يكن هناك من منظَّمات كبيرة أو اجتماعات عامة حول الموضوع. وكلما سنَحَت الفرصة في ذلك الوقت، كنت أسعى لحضور الاجتماعات العامة لمناقشة القضايا السياسية والاجتماعية. كنت، ولفترة طويلة، المرأة الوحيدة من بين الحضور في تلك الإجتماعات. وغالبًا ما كنت أسأل في تلك التَّجمُّعات ما إذا كان حق التصويت الكامل يعني حق النساء في التصويت أيضًا، لكنَّ أحدًا لم يزعج نفسه بالإجابة على تلك التساؤلات، بل وفي الغالب ما كان يتمُّ التعامل بسخرية مع هذا السؤال بالتحديد. وفي الحقيقة، كان المتحدثون في تلك الجلسات يجيبون على كل الأسئلة بجدية، لكن حين يأتي دور سؤالي، وبمجرَّد أن يُقرأ على العامة، أشعر وكأنني قلتُ على مسامع الجميع نكتة مضحكة.

في عام 1882 نُشِر كتيِّب لرئيس الوزراء الهولندي جي هيمسكريك، وهو والد وزير العدل الحالي. في الكتاب جادل رئيس الوزراء أن

الدستور لم يمنع النساء على وجه التحديد من الحق في التصويت. لقد أعطتني تلك المعلومات دفعة جديدة من أجل البحث في الأمر. إذا كان القانون والدستور لم يمنعوا النساء من التصويت، لماذا لا يمكننا ممارسة ذلك الحق الدستوري. لماذا إذا توفَّرَت في الشروط الدستورية من أجل التصويت لا يمكنني الذهاب لمركز الاقتراع كنُظَرائي من الرجال؟

بعثت بتلك الأسئلة للعديد من رجال الدولة، وفي أغلب الأحيان كنت أتلقَّى إجابات متضاربة حول نفس الأسئلة. قادني ذلك للإحباط؛ فقد كنت أعلم أن لديَّ وجهة نظر سليمة حول الأمر. وفي النهاية، في 30 نوفمبر 1882، استشرت السيد فان هوتين، وهو عضو في البرلمان الهولندي معروف بآرائه المساندة للنسوية.

نصحني السيد فان هوتن أن «أذهب بتلك القضية لأعلى السلطات في البلاد، كانت تلك القضية مهمَّةً بالنسبة للمحكمة العليا، التي لم تحسم قرارها فيها طوال سنوات». لقد أعجبتني تلك الفكرة؛ لذلك عندما شرح لي السيد فان هوتين الإجراءات المطلوبة، قرَّرتُ أن أبدأ في التنفيذ على الفور. عندما صدر التعداد الانتخابي الجديد في 1883 تفحَّصتُه من أجل التأكد إن كان اسمي فيه أم لا. كنت أعرف بالطبع مسبقًا أنني لن أجد اسمي، لكن كان عليَّ أن ألتزم بالإجراءات الرسمية. عندما تأكَّدتُ بأن اسمي لم يكن موجودًا في التعداد، أرسلت على الفور خطابًا بتاريخ 22 مارس 1882، إلى عُمدة المدينة ومجلس مدينة أمستردام. طلبت في الخطاب أن يُضَمَّن اسمي ضمن القوائم الانتخابية بما أن لديَّ كل الشروط القانونية من أجل التصويت.

وبعثت بكل الأوراق التي تثبت أن شروط التصويت تنطبق عليَّ.

في نفس اليوم اجتمع مجلس المدينة مع العمدة، وكل منهم رأى في خطابي الكثير من المرح والتسلية، لقد قرأ العمدة الخطاب على الجميع بصوت عالٍ، كنوع من المرح. لم يقدِّر أيٌّ من أعضاء المجلس الخطابَ، واعتبروه غيرَ مهمٍّ على الإطلاق. لقد رأوا أن مجرد إرسالي للخطاب شيئًا لا يستحق عناء السير في الإجراءات الرسمية المعتادة في الرد على مثل تلك الخطابات، والتي يجب أن يكون الرد الرسمي فيها يحمل ختمًا رسميًّا من المدينة.

بعد مرور أسبوع على إرسالي للخطاب، تلقَّيتُ الرد مكتوب فيه: «لقد تمَّ رفض طلبك؛ لأن المتقدِّم بالطلب تقدَّم بطلب غريب، وحسب روح دستورنا فإن الحق في التصويت لا يشمل النساء. وإذا أراد أحدهم أن يتحدَّى روح القانون فإن السؤال هو: هل تتمتَّع النساء بمواطنة كاملة مثلهن مثل نظرائهن الرجال، وبالتالي يمكنهن ممارسة كامل حقوقهن المدنية أم لا؟ وبما أن القانون لا يعطي حق الوصاية للنساء سوى على أبنائهنَّ؛ فإن الحقوق المدنية لهُنَّ منقوصة بواقع الدستور».

لم يَقُم أي من أعضاء مجلس المدينة بالاعتراض على ذلك الخطاب، والذي لم يكن يحمل أي أُسُسٍ قانونية صحيحة. لقد تعرَّضتُ للهجوم في الصحافة من قِبَل الصحف الكبيرة والصغيرة، والتي قالت إنني «أتحدَّى مجلس المدينة حتى يتمَّ ذِكر اسمي في الصحافة، وأحصلَ على الشهرة المطلوبة»، ادَّعت صحف أخرى أنني «أسأت فهم وتقدير واقع النساء في هولندا»، وأضافت الصحيفة: «إن النساء الهولنديات سعيدات بمَهمَّتهن في الحياة، ولا يريدون أن يتمَّ الزَّجُّ بهنَّ لمعترَك السياسة»، حتى إن صحيفة «التجارة اليوم» ذهبت لأبعد من ذلك، بالقول بأنه «قبل أن تطالب المرأة بالحق في التصويت، فإن عليها في

البداية أن تتعلم كيف تحترم القانون».

صُعِقتُ في تلك الفترة لأن أيًّا من المجلات التي كانت تصدر للنساء لم تعرف أهمية الحق في التصويت، بدون استثناء قامت تلك المجلات النسائية بالتشهير بي وبالاعتراض على جهودي من أجل الحق في التصويت، حتى إن بعض المجلات كتَبَت أنني بذلك الفعل «أسيء إساءةً حقيقية لكل النساء في هولندا»، بل وقالوا – في مهزلة حقيقة – «كما لو أنه لم يَكفِها الضَّرر الذي سبَّبَته للنساء الهولنديات بالفعل».

لقد تلقَّيتُ خطاب الرفض من العمدة ومن مجلس المدينة متأخِّرًا للغاية، للدرجة التي لم يسنح لي فيها التحضير جيِّدًا للنقض الذي قدَّمتُه أمام محكمة أمستردام، قدَّمتُ الطلب أمام المحكمة متأخِّرًا، لكنه كان ضمن الفترة المنصوص عليها في القانون. وبالفعل، أصدرت المحكمة حكمها في 13 أبريل 1883، وجاء فيه «أنه لا يمكن أن تكون نيَّة المشرِّع الهولندي هي أنه يمنح حق التصويت للمرأة بموجب الدستور». شمل الحُكم أيضًا إلزامي بدفع كامل التكاليف الخاصة بالقضية.

لم تكن الصحافة فقط هي مَن تهاجمني في ذلك الوقت، فقد تطوَّع الكثير من الأفراد من نساء ورجال ليقوموا بهذا الدور.

شعر هؤلاء الأشخاص بضرورة أن يرسلوا لي خطابات وبطاقات تحمل أسوأ الشتائم والإهانات. تلقَّيتُ فقط في تلك الفترة خطابًا وحيدًا للدعم. كتب ثلاثة رجال لي خطابًا يدعونني فيه إلى تكملة تلك المعركة القانونية، ويشجِّعونني على الاستمرار في طريقي ويَعرضون عليَّ تَحمُّل كافة التكاليف القانونية للقضية. لقد مسَّ ذلك العرض قلبي، لكنني رفضت بكَياسَةٍ، وقلت لهم إن التكاليف القانونية للقضية

متواضعة للغاية، وأنني أستطيع أن أتحمَّلها بسهولة. أمَّا بالنسبة لبقية المعترضين على القضية، فقد كنت حزينة من كيف يمكن لطلبٍ صغير كهذا أن يُنتِج هذا الغضب العام مني. لقد شعرت بالحنق الشديد من ردَّة الفِعل تلك، لكن كان عليَّ أن أستمر في الطريق أمام المحكمة العليا، والتي أصبَحَت القضية معروضة عليها في ذلك الوقت، في انتظار إبداء الرأي فيها.

في 18 مايو 1883، رفضت المحكمة العليا الهولندية النَّقضَ الذي قدَّمتُه لرفض الحكم الذي أقرَّته محكمة أمستردام.

رفَضَت المحكمة الطعن لنفس الأسباب التافهة التي قدَّمها إليَّ مُسبقًا هؤلاء القضاة النُّزهاء في محكمة أمستردام. كان السبب الأول الذي قدَّمَته المحكمة العليا لرفض الطعن الخاص، ومنعي من ممارسة حقي الانتخابي؛ هو أن النساء «ليست لديهنَّ مواطنة كاملة؛ وبالتالي ليست لديهنَّ حقوق كاملة للمواطنة»؛ ولذلك «ليس لديهنَّ الحق في التصويت»؛ وبالتالي «يجب أن نفهم كلمة المواطن الهولندي في الدستور على أنه يعني الرجال فقط، ولو أراد المشرِّع أن يُضمِّن النساء ضمن لفظ المواطن، لكان ذَكَر النساء في النَّصِّ صراحةً»، وفي النهاية فإن «الأزواج والآباء يدفعون الضرائب عن زوجاتهم وبناتهم القاصرات، وعدم دفع الضرائب حقيقة يجب أن تستثني النساء من حق التصويت». لقد أهمل هذا التحذلق القانوني حقيقةَ أن الكثير من النساء الأرامل وغير المتزوجات يدفعن الضرائب عن أنفسهنَّ وعن أطفالهنَّ غير البالغين. لكن على كلٍّ، لقد كانت تلك الأسباب هي سبب رفض الطعن الذي قدَّمتُه في المحكمة العليا الهولندية.

بعد فترة قصيرة من حكم المحكمة العليا، تواصل معي أحد أعضاء

المحكمة الذي أعرفه بشكل شخصي، وشجَّعَني أن لا أعتبر هذا الحكم نهاية المطاف بالنسبة لقضيتي. ونصحني بأن أتَّخذ نفس الإجراءات القانونية التي قمت بها في العام القادم، ولكن بالتعاون مع نساء هولنديات من دافعي الضرائب، ومن مدن مختلفة في الدولة. لقد شعر هذا القاضي أن لديَّ فرصة جيدة في المكسب إذا فعلت ذلك، وراقت لي الفكرة بالطبع، لكنني واجهت صعوبة كبيرة في العثور على نساء يمكنهن أن يدخلن معي في القضية بالتضامن، ومن ثم الدخول في معركة تعديل الدستور في ذلك الوقت، والتي كانت تتضمَّن أن إضافة لفظ «الرجال» قبل لفظ «المواطن الهولندي» حينما يُذكَر الحق في التصويت. لو مرَّ هذا التعديل الدستوري بذلك الشكل فبالتأكيد سوف يكون الأمر أصعبَ أن تحصل النساء على حقِّ التصويت في المستقبل القريب.

في ذلك الوقت، حتى يمكن لأحدهم التصويت فإنه كان يجب عليه أن يدفع ضرائب مرتفعة، وبما أنه النساء المتزوجات كان يُنظَر لمشاركتهن في الاقتصاد القومي على أنها ضئيلة جدًّا، فكان من الصعب إيجاد نساء تناضل معي من أجل حق التصويت. لقد كتبت رسائل على مدار العام إلى كل النساء التي أعرف أنه يمكنهن أن يتضامَنَّ معي في السنة القادمة، من أجل قضية حق التصويت، لكنني لم أحصل على أي إجابات مشجِّعة؛ وبالتالي سرعان ما تخلَّيت عن تلك الاستراتيجية وفي داخلي إيمان عميق بأن الرفيقات من النساء لم يفهمن أهمية حق التصويت بعدُ.

في مارس 1885، أعلن الوزير هيمسكريك خطته للتعديلات الدستورية المقترحة، تضمَّنَت تلك التعديلات - كما أسلَفتُ - تغييرًا دستوريًّا في الحق في التصويت، والذي تمَّت الموافقة عليه. أصبح

الدستور الجديد محلَّ تطبيق بعد سنتين، في العام 1887. ومنذ ذلك التاريخ أصبح منع النساء من حقِّهنَّ في التصويت أمرًا واقعًا على كل النساء الهولنديات. لقد أقرَّ الدستور الجديد صراحةً أن المواطنين الرجال الهولنديين - أو المقيمين، الرجال فقط - هم مَن لديهم حق التصويت في الانتخابات.

كانت الصحافة قد أثارت ضجَّةً كبيرة على محاولاتي للحصول على حق التصويت في ظل الدستور القديم، حتى إن الصحافة الأجنبية قد كتبت كثيرًا عن الموضوع. جعلتني تلك الشهرة أتواصل مع كثير من الشخصيات الطيبة في العالم القديم والجديد. لقد وضعتني تلك الضَّجَّة في تواصُل مع نساء من مختلف بقاع العالم، كُنَّ مثلي؛ نساءً مناضلات حريصات على حقوقهن، واللواتي كتبن لي مُعبِّراتٍ عن دعمهنَّ وتقديرهن لما أحاول أن أفعله. كانت أولى تلك النساء هي البارونة ألكسندرا فان جريبنرج، من هيلنيسكي في فنلندا، وجينا كروج من أوسلو في النرويج. لقد سألَتَاني أن أمدَّهما بالمعلومات حول الحركة النسوية في هولندا، وحول الخطط المستقبلية فيما يخصُّ الحركة من أجل الحق في التصويت للنساء.

لقد حثَّني الرفاق في الحركة النسوية الإنجليزية، والذين كنتُ قد قابلت معظمهم أثناء زيارتي للندن، أن أستكمل النضال من أجل الحق في التصويت، وألَّا أترك ذلك النضال إلَّا بعد أن أحقِّق هدفي. لم تكن هؤلاء النسوة يعرفن أنه بالدستور الجديد لم يكن هناك أي فرصة للإصلاح في المستقبل القريب، وخاصة أنه ليس هناك الكثير من النساء ليدعِّمن تلك الحملة، لقد كان عرضًا فرديًّا من قِبَلي في تلك الفترة. لاحقًا، تواصلت معي النسويات من أمريكا الشمالية، واللواتي من خلالهن أصبحت قادرةً على التواصل مع نسويات من العديد من

البلدان. ولاحقًا قابلت معظم هؤلاء النساء حينما ذهبت أنا وزوجي للمؤتمر العالمي الأول للنساء في لندن عام 1899. وخلال الأسبوعين اللذين قضيناهما في لندن خلال المؤتمر، مكثنا مع الشاب هربرت صامويل وزوجته. لم نكن نعرف أن هربرت صامويل سوف يصبح لاحقًا السير هربرت صامويل؛ المندوت السامي في فلسطين.

خلال المؤتمر العالمي للنساء في 1899، تلقَّيتُ الكثير من الثناء والتحية لما قدَّمته للحركة النسوية، لكن من خلال نساء لم يكنَّ قد رأوني من قبل، وقد اندهشن من صِغَر سنِّي. على سبيل المثال، سوزان. ب. أنثوني، والتي كانت في تلك الفترة في عامها الثمانين، كانت أوَّل مَن سألَت هل أنا فعلًا أليتا جاكوبز، التي تابَعَت أخبارها في الصحافة حينما كانت ما تزال تشقُّ طريقها في الطب في هولندا قبل عشرين عامًا؟ وعندما جاوَبتُ بنعم أخذت تسألني عن كل التفاصيل الخاصة بالتدريب الطبي وبممارستي للطب، وبالحملة من أجل الحق في التصويت؛ لكي تتأكَّد من شخصيتي. سوف أكتب لكم عن ذلك المؤتمر بالتفصيل في فصل لاحق من هذا الكتاب، لكنني الآن أريد أن أركِّز على عملي من أجل الحق في التصويت بالنسبة للنساء.

في العام 1893 أعلَنَت سبع نساء من مجلس قيادة حركة المرأة الحرة أنَّهنَّ ينوين تأسيس جمعية من أجل الترويج لحق التصويت للنساء. في تلك الفترة، كنت قد خرجتُ للتَّوِّ من تجربة قاسية للولادة، والتي عاش طفلي فيها لمدة يوم واحد فقط.

وكنتيجة لتلك الولادة الصعبة كان عليَّ أن أخضع لعملية جراحية في القريب العاجل. وعلى الرغم من شعوري العام بالمرض والضعف قرَّرتُ أن أرسل لهؤلاء النساء رسالة دعم، وقرَّرن الردَّ عليها بأن دعوني لأن أنضم للَّجنة التي سوف تضع القواعد المؤسسة للمنظمة،

في البداية رفضت ذلك الدور القيادي؛ لأنني شعرت أنني في وضعٍ لا يسمح بذلك بسبب الظرف الصحي، لكن لاحقًا، في 1895، قبلتُ أن أكون سكرتيرة فرع المنظمة في أمستردام، ولاحقًا، في 1903، قبلتُ أن أصبح قائدةَ المنظَّمة.

بالنسبة لي كانت قيادة المنظمة بشكل كامل وأن أصبح سكرتيرة عامًّا للمنظَّمة في أمستردام أدوارًا سهلة؛ يمكن تأديتها بكل سهولة. لم أجد صعوبة في كتابة مقالات للصحف والمجلات بشكل مستمر عن الحق في التصويت، أو إرسال العرائض وخطابات الاعتراض للحكومة والأشخاص المؤثِّرين في المجتمع حول تلك القضية. لكن كلَّما اضطررت لإلقاء الخطابات العامة على الجمهور كان عليَّ أن أبذل الكثير من المجهود من أجل التَّغلُّب على الخجل الطبيعي لدي أمام الجمهور. لقد ألقيت خطابي الأول أمام أعضاء الجمعية في شتاء 1894 - 1895. كان فرع روتردام في المنظمة قد طلب من زوجي أن يلقي محاضرة هناك، وقد وافق على ذلك، لكنه قبل يوم واحد اكتشف أن عليه أن يذهب إلى الشمال في رحلة عمل عاجلة. وقال لي إنه «للأسف، لا يمكنه الذهاب إلى نوتردام من أجل المحاضرة»، قبل أن يهمَّ بالمغادرة سألته: «هل أرسل إليهم تلغرافًا بإلغاء الاجتماع؟»، قال مستنكرًا: «إلغاء، لا بالطبع، سوف تذهبين إلى هناك بدلًا مني».

لم أكن متحمِّسةً لتلك الفكرة، لكنني فكَّرتُ أن عليَّ في وقت ما أن أتغلَّب على شعوري الدائم بالخجل أمام الجمهور. ربما يكمن الحل بأن أذهب وأضع نفسي أمام الجمهور وأبدأ في الكلام فقط. بعد تفكيرٍ قررت أن أرسل لفرع روتردام أُعلِمهم أن السيد كارل فيكتور جريتسن لن يستطيع الحضور من أجل إلقاء المحاضرة المقرَّرة له، وبأنني سوف أحضر بدلًا منه لإلقاء تلك المحاضرة. على الرغم من

توتُّري الشديد في تلك الأمسية، إلا أنها كانت جيدة جدًّا في النهاية، جيدة للدرجة التي جعلت عضوًا في البرلمان يقول لي بعد نهاية الاجتماع: «دكتورة جاكوبز، لقد أقنعتِني اليوم بالفكرة، ومن الآن فلاحقًا يمكنك الاعتماد عليَّ كحليفٍ قوي في الحركة من أجل منح النساء حق التصويت».

كانت الأحاديث العامة التي ألقيتها لاحقًا شديدة النجاح أيضًا، ومع ذلك ما زلت أعتقد أن الأحاديث العامة والمناقشات العامة كانت أصعبَ شيء عليَّ خلال رحلتي الطويلة في النضال من أجل حقوق النساء. في المحاضرات، على سبيل المثال، كنت غالبًا ما أرتكب الخطأ المتكرر بالنسبة لي بأن أبالغ في تقدير الجمهور. أفكِّر في ذلك تحديدًا في المحاضرة التي ألقيتها في عام 1900، والتي كانت عن ترجمة كتاب شارلوت بيركنز جيلمان «النساء والاقتصاد»، في هذا الكتاب دفَعَت الكاتبة بأن الكثير من المشاكل الاجتماعية والاقتصادية تأتي من أن النساء المتزوجات غير مستقلَّاتٍ اقتصاديًّا. واجهتُ بسبب تلك المحاضرة الكثيرَ من المقاومة وسوء الفهم من قِبَل الجمهور أثناء مناقشتي لأفكار الكتاب، كثير من المقاومة للأفكار للدرجة التي جعلتني أتخطَّى الموضوع كله أثناء النقاش. أيضًا، وفي إحدى المحاضرات الأخرى، حاولت أن أوضِّح تأثير العسكرة ودورها في استمرار تبعية النساء، وهو ما جعلني أتلقَّى الكثير من الاعتراضات، وصَلَت لسَيلٍ من رسائل الكراهية التي أُرسِلَت إليَّ في تلك الفترة.

وكما ذكرت مسبقًا، فقد أصبحت الزعيمة الفعلية لجمعية حق النساء في التصويت في 1903، وبقيت في ذلك الدور حتى تمَّ منح النساء الحق القانوني في التصويت.

كان النضال من أجل حق النساء في التصويت عملية شديدة

الصعوبة في هولندا كما في بقية دول العالم. في البداية كانت المؤسسات الرسمية تعاملنا بالكثير من الاستهزاء والسخرية. كانت الصحف والرأي العام يحرِّفون آراءنا، بل ويُحرِّفون الحقائق نفسها، وبعد ذلك بدأت الإشاعات والتلميحات حولنا شخصيًّا تظهر في الكثير من الصحف. وبعد أن أكملنا طريقنا في الحملة دون تردُّدٍ بعد كل تلك العقبات وجدنا نفسنا محاطين بالكثير من الصمت والإهمال لكل ما نحاول أن نفعله أو نقوله. وفي النهاية كان على الصحافة أن تقوم بدورها مع اتِّساع الحملة، وحقَّقنا هدفنا في النهاية، وحصلنا على الاعتراف من الصحافة والرأي العام. حتى إن كل الصحف - بغَضِّ النظر عن الاتجاهات السياسية - أعلنت أنها كانت مع حملة حق النساء في التصويت منذ البداية.

استمرَّت منظمة حق النساء في التصويت في حملتها لخمسة وعشرين عامًا كاملة، قبل أن يتم منح النساء الهولنديات الحقَّ في التصويت في النهاية. وخلال ذلك الربع قرن سافرنا البلاد من شمالها لجنوبها، ومن شرقها لغربها؛ من أجل الترويج للفكرة.

لقد زُرنا أكثر الأماكن البعيدة والنائية في هولندا من أجل الترويج لقضيتنا.

لقد قرَّرتُ سريعًا أن إحدى العضوات الأصغر سنًّا في المنظمة يجب أن تصحبني في تلك الزيارات المتكرِّرة لشتى البقاع في البلاد. كنت أتركها تتكلَّم في البداية لبضع دقائق في الاجتماعات العامة، قبل أن أتركها لاحقًا تتكلَّم لفترات أطول.

ولاحقًا قرَّرتُ أن أجعلها تردُّ على أسئلة الحضور في الكثير من المرات. هكذا أردت أن أدرِّب الشابات الصغيرات على الحديث دون

خجل أمام الجموع، ولحسن الحظ، كَبُرَت الكثيرات منهنَّ ليصبحن أفضل مني في ذلك. كان الأمر بالنسبة إليَّ هو محاولة مساعدة تلك الشابات على التَّغلُّب على رهبة الجمهور من خلال مساعدتهن في التغلب على الخجل، وتزويدهنَّ بالحجج المنطقية التي تمكِّنهنَّ من إدارة نقاش مثمر حول القضايا النسائية. وفي النهاية كانت تلك الشابات تتمكَّنَّ في وقت قصير من الاعتماد على أنفسهن في النقاشات، وكنت شديدة السعادة بأن أضيف كل يوم عضوة جديدة في حملة حقوق النساء. لقد كان تدريب النساء الصغيرات على العمل يعطينا الرضا الكامل عمَّا نفعله، وأن رسالتنا الآن، والتي خُضنا من أجلها المعارك، أصبحت في عقول النساء الشابات التي سوف ينشرنها إلى أقصى مدى ممكن. يمكن للقرَّاء المهتمِّين بمعرفة الكثير من التفاصيل عن تلك المرحلة أن يرجعوا للكتاب التذكاري «1894-1919» والذي صدر بمناسبة اليوبيل الفضي لتأسيس الجمعية الهولندية للحق في الانتخاب، وهناك يمكنكم أن تجدوا الكثير من التفاصيل حول ذلك النضال المستمر.

وبعيدًا عن الدعوات والحملات في هولندا، شاركت أيضًا مع التحالف النسائي الدولي للحق في الانتخاب، وذلك على الرغم من عدم حملي أي منصب رسمي فيه. خلال عام 1899 في المؤتمر الدولي للنساء في لندن، ألهَمَت المندوبتان الألمانيتان الدكتورة أنيتا أوكسبرج وليدا جوستاف هيمان العديد من النساء التقدميات من جنسيات مختلفة بتأسيس مؤسسة أخرى تكون حصرية للحق في التصويت. كان الهدف الرئيسي للمنظمة الجديدة هو تقديم حق النساء في التصويت لكل بلد يحكمه نظام حكومة دستورية.

لقد تمَّت دعوتي لحضور النقاش الأوَّليِّ لتلك المؤسسة كممثِّلة عن هولندا، وخلال هذا النقاش تأكَّدَت الحاجة إلى منظمة عالمية للحق في التصويت. واتَّفق الجميع على البقاء على اتصال من أجل إنشاء تلك المنظمة.

وبعد ثلاث سنوات، تأكَّدَت الحاجة إلى إنشاء مثل تلك المؤسسة في المؤتمر العالمي للنساء في واشنطن. واتفقت جميع الممثلات عن الدول المختلفة على التضامن لتأسيس تلك المنظمة وجعلها واقعًا. تمَّ تكليف السيدة كاري تشابمان كات بمسؤولية التواصل مع المنظمات المحلية لحق النساء في التصويت، وكان من بين مسؤولياتها كتابة تقارير عن الأوضاع المحلية لحق النساء في التصويت لعرضها في المؤتمر العالمي للنساء.

منذ ذلك الحين، كان عليَّ كتابة تقرير رُبع سنوي عن وضع حق النساء في التصويت في هولندا وإرساله للسيدة تشابمان. كنت أيضًا مسؤولة عن نشر جميع الأخبار الواردة من الخارج في المجلة الشهرية التي تصدرها الجمعية الهولندية لحق النساء في التصويت. في عام 1904، تأسَّس التحالف الدولي لحق النساء في التصويت في برلين، وكانت هولندا واحدةً من الأعضاء المؤسسين لهذا التحالف الدولي.

قبل ذلك بعام واحد، في 1903، رافَقتُ زوجي في رحلة إلى فيينا، حيث كان يحضر الاجتماع السنوي للاتحاد البرلماني الدولي.

لقد قرَّرتُ أن أجعل تلك الزيارة فرصة للتواصل مع النساء النمساويات المهتمَّات بالحق في التصويت. ولقد كان الوضع الخاص بالنساء في النمسا شديد البؤس، لم تكن النساء النمساويات ممنوعات فقط من الدخول للأحزاب السياسية المختلفة، بل حتى ممنوعات من

الحضور في الاجتماعات العامة أو الاجتماعات التي تناقَش فيها أي قضايا متعلقة بالسياسة.

لكن في تلك الفترة كانت كل الأشياء تبدو بسيطة بالنسبة إلينا، كانت بسيطة بمعنى أنه «حينما توجد الإرادة فهناك دائمًا طريقة ما لإنجاز الأمور». لقد قرَّرَت الرفيقات النمساويات أن يستفدن من وجودي في المدينة، وطلبن مني أن أعطي محاضرة خاصة لمجموعة مختارة من الناشطات حول الجهود التي تقوم بها جمعية حق النساء في التصويت الهولندية؛ حتى يمكنهنَّ الاطِّلاع على التجربة والتأكيد على أهمية حق النساء في التصويت. وخلال تلك المحاضرة ذكرت التأثير الذي قامت به جمعية تَقدُّم النساء، وخاصَّةً فيما يتعلق بمكافحة الدعارة النسائية، ولم تكد كلمة «الدعارة» لتخرج من فمي حتى خرجت امرأة من وسط الجمع في مشهد غاضب وهي تمسك بناتها الصغار في يدها، على الرغم من ذلك المشهد إلَّا أنه يبدو أن تلك المرأة كانت تقدُّميَّة بما يكفي لكي يتمَّ دعوتها لاجتماع مثل ذلك! بعد نهاية المحاضرة، طلب مني عدد من الرفيقات أن أساعدهن في تأسيس لجنة من أجل حق النساء النمساويات في التصويت، كانت فكرة اللجنة بديلة عن الجمعية؛ لأن تأسيس الجمعيات السياسية كان غير قانوني في ذلك الفترة في النمسا.

بعد ذلك غادرنا النمسا نحو بودابست، وهناك التقيت بروسيكا شويمر، والتي كنت أعرفها من قبل من كتاباتها في الصحافة، كانت صغيرة في السِّنِّ، ومع ذلك كانت زعيمة جمعية النساء العاملات، كانت معظم عضوية الجمعية من المعلمات والموظفات والبائعات. كانت تلك الجمعية تهدف لخلق شبكة من النساء العاملات تدافع عن مصالحهن المادية والثقافية المشتركة.

طلبت مني بروسيكا أن ألقي محاضرة لأعضاء الجمعية عن وضع النساء العاملات في هولندا، وهو ما تحدَّثتُ عنه في المحاضرة، ثم أردت أن أضيف التأكيد على الحق في التصويت بالنسبة للنساء، وكيف أن جهود تلك الجمعية سوف تصبح أفضل وتؤتي ثمارها، إذا كان للنساء حقوق مدنية متساوية مع الرجال تمكِّنهن من صياغة مصالحهنَّ الجمعية في تشريعات وقوانين كما يفعل الرجال ذلك. لم تمر محاولاتي لأن أرفع من وعي النساء المجريَّات بتلك القضية دون نتائج. كان من بين الحضور في مؤتمر برلين في عام 1904، والذي ذكرته مسبقًا، نساء ناشطات من النمسا والمجر، وعندما تأسس التحالف العالمي من أجل حق النساء في التصويت أصبحت اللجنة النمساوية من أجل حق النساء في التصويت واللجنة المجرية أيضًا مؤسَّسات تابعة للتحالف.

لقد عُقد المؤتمر الأول للتحالف العالمي حديث التأسيس في 1906 في الدنمارك. لقد تقرَّر في المؤتمر أن تُرسَل اثنتان من المندوبات إلى الإمبراطورية النمساوية المجرية؛ من أجل مساعدتهن على النضال من أجل الحق في التصويت، وتم إسناد تلك المهمة إلى السيدة تشابمان كات رئيسة التحالف الدولي وإليَّ شخصيًّا؛ ولذلك في سبتمبر من نفس العام ذهبنا معًا إلى الإمبراطورية النمساوية المجرية.

كانت «براغ» هي أولى محطات تلك الرحلة، كنت أعرف المدينة وأعرف أنها مدينة ودية مع الكثير من الناشطات النسائيات البارزات في ذلك الوقت. ولأنني كنت أعرف ذلك أيقنت أنني ورفيقة سفري السيدة تشابمان سوف نقضي أوقاتًا جيدة في المدينة. لكنني لم أتوقع أن تكون تلك الزيارة مليئة بالمقابلات الكثيرة، والتي قابلت خلالها الكثير من النساء والرجال، ولمدة ثلاثة أيام في المدينة لم نكن للحظة

واحدة بمفردنا، بصراحة، لم يكن لدينا أي وقت لالتقاط الأنفاس.

لقد توقَّعنا بالطبع أن يأتي مرافقون لنا من محطة القطار للفندق، لكن بعد ذلك قابلنا عددًا من النساء من اللجنة النمساوية، واللاتي يتحدثن الألمانية، وقدَّمن إلينا النصيحة بالتحدث بالألمانية فقط، مع التأكيد على صفات غير مُحبَّبة في نظرائهنَّ من التشيك. بعد ذلك بقليل وصلت مجموعة من الناشطات التشيكيات مع دوافع واضحة بأن نبتعد عن نظرائهنَّ النمساويات من المعسكر المقابل، ولا نستمع لأيٍّ ممَّا يَقُلنه حول القضايا النسائية.

لم يكن من السهل أن نوصل الرسائل التي قَدِمنا لتقديمها، وأن نبقى على الحياد بين تلك المجموعات المختلفة طوال الوقت، رفضنا بالطبع الانحياز لأيٍّ منهنَّ، وكنَّا متعبين من النقاشات المستمرة حول تلك الاختلافات بين التشيك والنمسا. ومن ثم في اليوم الثاني نظَّمنا اجتماعًا حاولنا التأكيد فيه على الحاجة لتقرير حق النساء في التصويت من أجل الاعتراف بدور المرأة وتحقيق الأهداف السامية للحركة النسوية.

لقد اتضح أن طرح حق التصويت كان موضوع الساعة، فقد كانت النقاشات مستعرة في البرلمان حول حق التصويت الكامل لكل الرجال. لقد جلسنا على المنصة بجانب امرأة ورجلين، وكانت القاعة مليئة عن آخرها بالجمهور، ولم نكن نعرف لماذا يؤخِّر رئيس الجمعية - وهو أستاذ جامعي - بداية الاجتماع بأن يصعد ليلقي الخطاب الافتتاحي. بعد ذلك رأينا أحد كبار المسؤولين في الشرطة يصعد للمنصة ببدلته الكاملة، قدَّم نفسه إلينا بشكل رسمي، ثم جلس إلى جواري، ومن ثم بدأ رئيس الجمعية في الحديث، وقدَّم المتحدثين، ودعا السيدة تشابمان لأن تبدأ في إلقاء محاضرتها.

«ما الذي يفعله هذا الشرطي هنا؟» تساءلت في تعجُّب، من الواضح أنه لا يتحدث الإنجليزية مُطلقًا؛ لأنه، وعلى الرغم من خفَّة دم الخطاب الذي تلقيه السيدة تشابمان، فإن وجهه ظلَّ مُتجهِّمًا طوال الجلسة. لقد كان جالسًا بدون أي مشاعر ولا تعبيرات على وجهة، مُحدِّقًا فقط في الجمهور الجالس أمامنا. لكن عندما صعدت على المنصة وبدأت ألقي محاضرتي باللغة الألمانية، أدركت سبب وجوده في القاعة، كان الرجل يكتب كل ما أقوله ويعتقد أنه قد يُسبِّب إثارة للبلبلة في الدولة، بحماس شديد. لقد كان يكتب كل شيء تقريبًا، وبالكاد استطعت أن أرفع عيني من عليه أثناء إلقاء الخطاب، لقد ذكَّرني ببيكميسر من مسرحية «المغني الرئيسي» لفاجنر.

خلال تلك الإقامة في براغ اجتمعنا مع الرفيقات التشيكيات على انفراد، كما فعلنا مع الرفيقات النمساويات؛ حتى لا نترك أي حقد لدى الطرفين. وقبل أن نغادر المدينة نحو «برون» ودَّعنا الجميع. كان لدينا محاضرة في برون في اليوم التالي، ولذلك قرَّرنا أننا بحاجة للقليل من الوقت مع أنفسنا. انصرفنا مبكرًا في الليلة السابقة، مع التأكيد للرفيقات ألَّا يدخلن في أي مشكلات مع الحكومة بسببنا. في الصباح التالي وصلنا للمدينة، والتي كانت مليئة بالمناظر الخلابة، ومن ثم غادرنا المدينة نحو محطة القطارات مع عربة حوذيٍّ. لم أكتشف حتى اليوم هل تَلاعَب بنا هذا الحوذي (سائق العربة) وأخبر الحَمَّال بالقطار الخاطئ لنا، أم أن الحمال نفسه لم يفهم كلام الحوذي. المهم أن الحَمَّال حمل أمتعتنا ووجدنا أنفسنا في القطار الخاطئ، والذي غادر بمجرد أن دخلنا لعربة القطار؛ لذلك لم نكتشف الخطأ إلا حينما جاء مُحصِّل التذاكر ليفحص تذاكرنا، وكان يجب علينا الانتظار للمحطة التالية على بُعد ساعة كاملة بهذا القطار السريع.

وبعد مرور الكثير من الوقت في محطة صغيرة لا يوجد بها أي شيء يمكننا أن نشتريه من أجل الطعام، اضطررنا لأن نُقلِّل من جوعنا بأكل كل الشيكولاتة التي كانت معنا في الحقائب. وأخيرًا وصل القطار في الساعة السادسة، وعُدنا إلى براغ بحلول الثامنة مساءً. سألنا هل يذهب هذا القطار إلى برون، ولكن لسوء الحظ لم يكن القطار الليلي يذهب بعيدًا إلى تلك المدينة، لكنه على الأقل يمكن أن يُخرِجَنا من براغ. ويا للغباء! فقد قرَّرنا أن نذهب بعيدا عن براغ. وبمجرد أن دخلنا لحجرتنا في القطار نمنا بسبب الإرهاق، لم نستيقظ إلَّا في الواحدة صباحا على صوت مكابح القطار المتكررة، وفجأة توقَّف القطار بشكل كامل. انتظرنا لخمس دقائق وخرجنا لنستطلع الأمر، كان الليل شديد الظلام والقطار خاليًا من كل الركاب، ولا توجد محطة على مرمى النظر. لمحنا من بعيدٍ رجلًا يحمل مصباحًا ويمشي على رصيف القطار، ومن ثم أخبرنا الرجل أن القطار أصبح الآن مركونًا في الجراج الخاص.

«هل يمكننا أن نبيت الليلة في عربة القطار» سألْنا في قلق.

«مستحيل» ردَّ الرجل، يجب أن يتم إخلاء القطار كلِّيًّا، بالإضافة لأنه لا يعرف أين سيتوجَّه هذا القطار في الصباح. كان الرجل متحضِّرًا بما يكفي أن حمل عنَّا أثقل الحقائب، وحملنا نحن بقية الحقائب كي نسير خلفه على ضوء المصباح، على رصيف القطار حتى أقرب محطَّة، والتي كانت بعيدة. كانت المحطة مغلقة، ولم يكن هناك أثرٌ لأي شخص في المحطة، لحسن الحظ أرشدنا الرجل لمكان يمكننا فيه أن نترك الحقائب فيه. بعد ذلك وصلنا إلى نُزُلٍ صغير، فتح عامل السكة الحديد الباب ووجدنا أنفسنا أمام بار كبير ممتلئ بالدخان الأسود والرجال الذين يحملون أقداح الجعة. كان المنظر شديد التَّجهُّم.

اقترب الرجل المرافق لنا من امرأتين خلف البار، واللتين نظرتا إلينا نظراتٍ مُتفحِّصة، وحين سألهما عن إمكانية مكوثنا الليلة عندهما ردَّتا بالإيجاب. وبينما كنا نفكر في جدوى وصلاحية تلك الفكرة من الأساس، طلبت منَّا إحدى المرأتين أن نتبعها.

ذهبنا من الباب الخلفي حيث أشارت إلى سُلَّمٍ نصعد منه إلى سقيفة كان بها ستَّة أسِرَّة. كانت الغرفة شديدة السوء، وبها وعاءان من الماء على طاولة خشبية مع عدد من المناشف القذرة. كانت تلك هي أكثر غرف الفنادق البدائية التي رأيتها في حياتي، وبالطبع لم يكن هناك أي قفل يمكِّننا من غلق الباب علينا في أثناء النوم. كانت الأسِرَّة تبدو وكأن شخصًا كان نائمًا عليها لمدة أسابيع أو شهور متواصلة، وفي تلك اللحظة لم نكن نعرف هل علينا أن نشكرهما، أم نتساءل عمَّا سوف يحلُّ بنا إذا قررنا المكوث في هذا المكان.

قرَّرت على الفور أن أظل بقية الليل متيقِّظة، لكن السيدة تشابمان كانت شديدة الإرهاق للدرجة التي جعلتها تستلقي على أحد الأسِرَّة، وتغطي نفسها بشكل كامل من الرأس لأصبع القدم بأحد الأغطية البالية على السرير. مع حلول الفجر كانت السيدة تشابمان قد حصلت على قسط جيد من الراحة؛ وبالتالي قرَّرنا المغادرة. غسلنا أنفسنا قدر الإمكان، ونزلنا السُّلَّم.

كان الوقت مبكِّرًا جدًّا، وكان البار خاليًا تمامًا من الزبائن، تجوَّلنا في المكان حتى ظهرت إحدى النساء في مظهر فوضوي.

وعندما أخبرناها بأننا نريد المغادرة الآن، قالت ليس هناك جدوى من المغادرة مبكِّرًا كذلك، وقالت إنه حتى محطة القطار ستكون ما تزال مُغلَقة في هذا الوقت. اقترحت علينا أن ننتظر وسوف تذهب

لإحضار الخبز الطازج بمجرد أن يفتح المخبز وتقدِّم لنا القهوة. وبالفعل قدَّمَت لنا الخبز والقهوة، وبمجرد أن فتحت باب البار ودخل الهواء النقي العليل في الصباح لم يصبح البار مقيتًا كما كان عليه في الليل.

أكملنا اليوم على نحوٍ جيد، فبمجرد أن انتهينا من تناول الخبز الطارخ والقهوة، ذهبنا إلى المحطة وركبنا القطار المتجه إلى برون في التاسعة صباحًا. كان من المفترض أن نصل في منتصف النهار؛ ولذلك أرسلنا تلغرافًا سريعًا للمجموعة التي كانت مسؤولة عن تنظيم الاجتماع نُعلِمهم بقدومنا. كنا نعلم أن موعدنا هو عند السادسة مساء؛ لذلك كان أمامنا الكثير من الوقت للاستراحة والاسترخاء. قرَّرنا ألَّا نقابل أيَّ أحدٍ قبل السادسة، في الاجتماع، ويبدو أن ذلك كان مجرد تمنٍّ، فبمجرد أن وصلنا إلى برون وجدنا الكثير من النساء في استقبالنا. كان هناك الكثير من العربات الخشبية المفتوحة التي سارت معنا في جولة في المدينة، كلها من أجل الترويج لاجتماع المساء. وبجانب النساء اللاتي رافقننا في تلك الجولة، كان هناك رجل من أصول نمساوية ألمانية يعمل الآن كقنصل هولندا في المدينة؛ قرَّر مرافقتنا أثناء التجول في المدينة وتسهيل حركتنا، وهو شيء حفَّزتنا على القيام به لجنة النساء في المدينة. كانت الصحافة في اليوم السابق قد نشرت تقريرًا مفصَّلًا عن الخطاب الذي ألقيته في براغ، والذي كان يحتوي فيما يبدو على بعض الفقرات التي يمكنها أن تُعرِّض الأشخاص للمساءلة القانونية في الإمبراطورية النمساوية المجرية. لم يكن هناك أي ذِكرٍ لخطاب السيدة تشابمان؛ ربما لأن خطابها كان بالإنجليزية التي لم تكن معروفة لمعظم الصحفيين في «براغ» في ذلك الوقت؛ وبالتالي اكتفى هؤلاء الصحفيون بإشارات عابرة لخطاب

السيدة تشابمان. نصحنا صديقنا القنصل الهولندي بأن نكون أكثر حَذَرًا في اجتماع اليوم، وقال: «لقد قلتما الكثير من الأشياء الجدلية بما يكفي في براغ».

«مثل ماذا؟» سألتُ وأنا أريد فعلًا أن أعرف.

أخبرني ردًّا على هذا السؤال أنني أهنت رئيس الوزراء النمساوي، في الاجتماع السابق في براغ اقتبستُ كلام تقرير صحفي نُشِر عن مناقشات حق النساء في التصويت في البرلمان النمساوي، والتي ردَّ عليها رئيس الوزراء بأنها أشياء جديدة لم يسمع بها من قبل.

كان تعليقي على ذلك أنه «يجب أن نتوقَّع أن رؤساء الوزراء على دراية كافية بما يتحدثون عنه، لكن يبدو أن رئيس الوزراء النمساوي هو استثناء على تلك القاعدة، وخاصة أنه يبدو أنه لم يلحظ أن أستراليا وبعض الدول في أمريكا الشمالية قد أقرَّت حق النساء في التصويت في الانتخابات».

مع كل الذكاء والإرادة في العالم، فشلت في أن أفهم سبب أن تمثِّل تلك الجملة خطرًا على الدولة النمساوية، لكن القنصل اعتقد غير ذلك، ونصحني بألَّا أكرِّر مثل تلك الجمل في اجتماع اليوم.

ظهرت أمامنا مشكلة أخرى بعد نهاية الجولة في المدينة، أصرَّ القنصل وعائلته على أن نتناول الغداء معهم في هذا اليوم. لقد قابلنا ذلك بتقدير شديد، لكنني أنا والسيدة تشابمان كنا قد اتفقنا أن نتجنَّب مثل تلك الواجبات في هذا اليوم، لقد كنَّا في أشد الحاجة لحمَّام ساخن، ومن ثم الاسترخاء قليلًا على سرير أو أريكة من أجل أن نريح أطرافنا المرهقة من تلك الرحلة الشاقة. لكن رفضنا الكيِّس لعرض

القنصل قوبل بالرفض، ولم تفلح المحاولات في إقناعه بخطة الرحلة المفترضة. بعد نصف ساعة جاء القنصل مع سيارته أمام الفندق ليأخذنا لكي نتناول الغداء. كان الغداء جيِّدًا، وكل فرد من عائلته ساحِرًا بشكل متفرِّد. كانت صحبةً جيدة، لكننا كنَّا شديدي الاجهاد للدرجة التي منعتنا من الأكل أو الكلام بشكل كافٍ على الغداء.

الآن، وأنا أكتب تلك الكلمات، يمكنني أن أسترجع تلك الجلسة بكل تفاصيلها. كانت إحدى بنات القنصل أمًّا لعدد من الأطفال، قد قرأت للتَّوِّ رواية «القرن المخصَّص للطفل» لإيلين كاي، والتي كانت رواية مشهورة في ذلك الوقت، وبدأت في سؤالنا عن رأينا في كل فصل من الفصول. كانت بقية العائلة متشبِّعين أيضًا بأفكار المؤلفة، ويسألوننا عن رأينا في الكتاب، ولأنني كنت شديدة الإرهاق لمثل ذلك النقاش فقد قرَّرتُ أن أتَّفق مع آرائهم وفقط. بعد سنوات، ما زلت أشعر بالكثير من الغضب بمجرَّد ذكر إسم إيلين كاي أمامي، أو روايتها «القرن المخصص للطفل». كلَّما ذُكِر اسمها أتذكر ذلك اليوم المشؤوم في برون.

بدأ الاجتماع في السادسة وانتهى قرابة التاسعة مساءً، وعلى الرغم من أن أملي بعد تلك الساعة كان أن أكون بمفردي لكي أستريح، لكن لم يتحقَّق ذلك الأمل؛ لقد دعتني الجمعية لعشاء بسيط في إحدى القاعات، وهناك وجدنا العديد من الرجال والنساء التشيكيات الذين بدؤوا في الشكوى من الطريقة التي يعاملهم بها النمساويُّون. بمجرد أن وصلنا للفندق في ذلك اليوم بعد العشاء، قرَّرنا أن نأخذ أول القطارات المتجهة صباحًا إلى فيينا، وقررنا أن نفعل ذلك متخفِّين عن الأنظار. كانت تلك هي الطريقة الوحيدة التي يمكننا بها الحصول على أي قدر من الراحة في تلك الرحلة.

لحسن الحظ، فقد نظَّمَت الرفيقات النسويات في فيينا لنا برنامجًا غير مرهق؛ ممَّا أعطانا الفرصة أن نتجول في المدينة لنرى معالمها. في ذلك الوقت، كان البرلمان النمساوي يناقش توسيع حق التصويت، ولكن حتى في أكثر البرلمانات تقدُّميَّة في ذلك الوقت لم يكن يناقش إشراك النساء في ذلك الحق، لقد تركت جميع البرلمانات النقاش حول إدماج المرأة، وسعت لتوسيع حق التصويت للرجال فقط. لقد تحدثت حول ذلك الأمر في اجتماع حضره الكثير من أعضاء البرلمان، وحرَّضتُ النساء على رفض الاشتراك في دعم توسيع حق التصويت للرجال، ما دُمنَ لا يحصلن على نفس الحق. حاولت أن أشرح أنه بمجرد الوصول لحق الرجال الكامل في الانتخاب، فإن نضال النساء من أجل الحق في الانتخاب سوف يصبح أصعبَ بكثير؛ لأنه في تلك الحالة لن يكون لديهن أيُّ دعم من هؤلاء الرجال المهمَّشين، الذين حُرِموا من حقوقهم المدنية والسياسية ويخوضون معركة من أجل رفع الظلم عنهم. وعلى الرغم من أنه في ذلك الوقت كان الرجال النمساويون يَعِدون بالاشتراك في النضال من أجل حق النساء في التصويت، إلا أنني كنت متأكِّدةً - ومن خبرات سابقة في دول أخرى - أنه بمجرد أن يصبح للرجال الحق الكامل في التصويت بموجب القانون فإن تلك الوعود سوف تصبح في الهواء وكأنها لم تكن موجودة من الأساس.

لقد استفزَّ ذلك الحديثُ الكثيرَ من الأشخاص في الاجتماع. كان الجميع يريد النقاش حول تلك الفكرة. لا أتذكر على وجه التحديد كم من الرجال والنساء أراد أن يتناقش في تلك الليلة. لكنني أتذكر فيكتور أدلر، وهو عضو تقدمي في البرلمان النمساوي وداعم كبير لقضايا النساء، جاء فيكتور ليجلس بجانبي أثناء العشاء في نهاية الاجتماع، من أجل أن يكمل النقاش معي حول تلك الفكرة. لم يكن الرجال

فقط هم مَن يرفضون تلك الفكرة، لكن النساء النمساويات أيضا كنَّ يدافعن عن الرجال بمنطق أنهم استثناء على القاعدة في الدول التي ذكرتها، وبمنطق أنهم سوف يحفظون وعودهم ويستمرون في النضال من أجل حق النساء في التصويت.

في النهاية أثبت التاريخ صحَّةَ وجهة نظري، وبعد دعوات وزيارات كثيرة لجمعية حق النساء النمساويات في التصويت، ذهبت في العام 1913 من أجل محاضرة كنت سألقيها في الجمعية، وبالفعل ذكَّرتُهم بالتنبُّؤ الذي قُلته في 1906، كان حق الرجال الكامل في التصويت قد أصبح قانونًا منذ ما يقرب من سبع سنوات سابقة على 1913، بينما النساء ممنوعات من الاشتراك في السياسة بأي شكل ممكن، ممنوعات من إنشاء الجمعيات أو حضور الاجتماعات السياسية. لقد حفَّزَت تلك الكلمات عاصفة من التصفيق الحاد من قِبَل النساء الحاضرات في ذلك الاجتماع، بينما قوبِلَت بالسخط من قبل البعض، ومعظمهم من الرجال. في الصباح بدأت الصحافة تتكلم عن ذلك الاجتماع، وعرضت وجهتي النظر، الأولى: التي ترى أن الرجال النمساويين المناضلين من أجل حقهم في التصويت قد نقضوا عهودهم، والثانية: التي ترى فيَّ مجرَّد أجنبية على هذا البلد، تريد فقط أن تزرع بذور الفتنة بين الرجال والنساء.

سوف أعود حاليًّا إلى الجولة التي قمت بها في 1906، حيث إننا ذهبنا بعد فيينا إلى بودابست، والتي أقمنا فيها الكثير من الاجتماعات العامة. في البداية اعتقدنا أن تلك سوف تكون مَهمَّة شاقة، لكن، وبفضل حسن التنظيم والمثابرة من المجموعات النسوية في رومانيا، استطعنا تحقيق أهدافنا من تلك الزيارة. كانت واجباتنا في تلك الزيارة تبدأ في يوم الأحد، حيث قضينا فترة بعد الظهيرة في التحدث

لنساء ورجال الطبقة العاملة في قاعة مجلس المدينة. لقد تحدثنا في اجتماعات متتالية كان عليها تخفيض في تذاكر الحضور، وتحدَّثنا أيضًا في اجتماعات كان على الحضور أن يدفعوا سِتَّة كورونات من أجل الحضور، وهو مبلغ كبير في ذلك الوقت. لقد قبلنا دعوة من جمعية البنَّائين الأحرار «الماسونيِّين»، من أجل أن نشرح لهم وجهة نظرنا حول توسيع الحق في التصويت ليشمل كلًّا من النساء والرجال على قدم المساواة. توجَّهنا بالقضية أيضًا للكثير من الحفلات، والتي كنَّا نعرف أنه سوف يحضرها نساء لا يُفضِّلن حضور الاجتماعات العامة. وبالطبع لقد تحدَّثنا كثيرًا مع الصحافة، مع كل الصحف تقريبًا في ذلك الوقت، وكل يوم تقريبًا. لم نكن نتحدث فقط عن قضايا النساء، ولكن عن غيرها من القضايا التي كانت تشغل العامة في رومانيا في ذلك الوقت. بالطبع كان الهدف من تلك الزيارات والاجتماعات والأحاديث هو جذب الانتباه للقضية الأساسية. لقد نشرت الصحافة في بودابست الكثير من المقالات حول السيدة كات وحولي، وكانت تلك المقالات غالبًا ما ترافقها الرسومات التوضيحية والكاريكاتيرات التي تظهر فيها شخصيتنا. انتشرت بعض المقالات ولاقت نجاحًا كبيرًا، ولاحقًا حينما كنَّا على وشك مغادرة المدينة، جمعت النساء الشابات كلَّ ما نُشِر في الصحافة وأعطتنا إيَّاه في حافظة جلدية، كتذكار عن الوقت الذي قضيناه في المدينة.

بعد العودة من الحملة الخارجية الأولى لي، بدأت على الفور في التحضير للمؤتمر العالمي للنساء، والذي سوف يقام للمرة الأولى في هولندا في يونيو من العام 1908.

الفصل السابع

عملي بالنيابة عن البائعات

(تأثير الوقوف لمدة طويلة. محاولاتي الأولى في تقديم التحسينات. اللقاء مع مفوَّض الدولة. رفض الزملاء للعمل معي. طلب من النساء الهولنديات. الرأي العام. تحقيق الأماني).

انتقلت إلى أمستردام، وبما أنني كنت أول امرأة في هولندا تمارس الطب؛ فسرعان ما ازدهرت ممارستي للطب. كان يأتي للعيادة الكثير من النساء خلال ساعات العمل الرسمية، وخلال ممارستي للطب بدأت ملاحظة أن كثيرًا من هؤلاء النساء لديهن أعراض مرضية متشابهة. كانت تلك الأعراض المرضية بسبب إجبار هؤلاء النساء على الوقوف لفترات ممتدَّة طوال اليوم. في تلك الأوقات، كانت المحلات في المدن الكبرى تظل مفتوحة حتى الحادية عشرة مساء، مع العلم أن ساعات العمل تبدأ من الثامنة صباحًا. لم يكن لدى هؤلاء البائعات أي خيار آخر بدلًا من الوقوف خلف طاولات المحل لُمَدَدٍ طويلة من الزمن، ويحصلن فقط على استراحات قصيرة من أجل الطعام.

في كل مرة كنت أرى تلك الحالات، والتي كان من الممكن أن تمنع أعراضهن المرضية، والتي تتضمَّن أوجاعًا تستمرُّ مدى الحياة، كنت أرى أن عليَّ فِعل المزيد من أجل تحسين ظروف عمل هؤلاء البائعات. كنت ساذجة للدرجة التي جعلتني أعتقد أن أصحاب المحلات

وأصحاب الأعمال، يمنعون النساء من الجلوس فقط لأنهم لا يدركون المخاطر الصحية التي ينطوي عليها الوقوف لفترات طويلة أثناء اليوم. شعرت أنه من واجبي أن أقول لأولئك النساء عن السبب وراء الأعراض المرضية النسائية التي كانت لديهنَّ، لم يكن لديَّ شكٌّ في أنني سوف أنجح في توعية النساء وأصحاب الأعمال بتلك المخاطر الصحية.

وكم كنت مخطئة في ذلك التصوُّر.

لقد قضيت الكثير من الوقت كل يوم، بعد الظهيرة، في زيارة أصحاب المحلات والأعمال، وإخبارهم، ببساطة، أن الجسد البشري ليس مُصمَّمًا أن يبقى واقفًا وساكنًا لفترات طويلة من الوقت. لم تجد تلك الرسالة البسيطة أي آذان صاغية من أصحاب المحلات. كان أغلب أصحاب الأعمال يرفضون ذلك الاقتراح، ويعترضون بكل الطريق الممكنة؛ ما جعلني أصرُّ على محاربة ذلك الشر. لقد أدهشني كمُّ الأحكام المسبقة والرفض المسبق لكل ما أقوله وأقترحه، للدرجة التي جعلتني أدرك أنه لا سبيل للنجاح في إقناع هؤلاء بالنقاش؛ وبالتالي قرَّرتُ أن أغيِّر استراتيجيتي وأذهب للمسؤولين لعرض الأمر عليهم.

في البداية كتبت مقالًا لصحيفة «المجتمع اليومية»، والذي ضمَّنتُ فيه وصفًا للحالات المرضية من النساء اللاتي رأيتهن، وبالطبع لم أذكر أسماء هؤلاء البائعات أو أسماء المحلات والأماكن التي يعملن فيها، لكنني أسهبت في التوضيح أن سبب تلك المعاناة المرضية يمكن منعه بكل بساطة.

خاب أملي كثيرًا حينما أعاد المحرر لي المقال بعد أيام قليلة، والذي كتب إلى أنه عرض المقال على طبيبين مختلفين، واللذين أكَّدا أن تلك

الأعراض المرضية التي أصفها في المقال لا يمكن أن تكون نتيجة الوقوف المطوَّل لهؤلاء البائعات، وأنه - المحرر - لا يستطيع نشر المقال ما لم أقدِّم توضيحات حول أسماء النساء والمحلات اللاتي يعملن بها، لو قرَّرتُ أن أفعل ذلك، فإنه من الممكن إعادة النظر في المقال، ولو قررت العكس فإنه ببساطة لا يمكنه نشر المقال.

بالطبع لم أكن لألبِّي تلك المطالب، تحت أي ظرف لم يكن يمكنني أن أكشف أسماء النساء ولا المحلات اللاتي يعملن بها.

لم يكن لديَّ خيار سوى الصبر لكي تتطوَّر تلك المطالب، وانتظار الفرصة المناسبة لتغيير الأوضاع. لم أكن أيضًا أنتظر أن تتحرك هؤلاء البائعات؛ فهُنَّ بلا قوة تقريبًا في علاقات العمل تلك، ولم يكن قد تأسَّسَت في تلك الفترة أي نقابات للدفاع عن حقوق النساء العاملات، كيف يمكن لهؤلاء البائعات أن يحضرن اجتماعات ويؤسِّسن جمعيات وهُنَّ يعملن حتى الحادية عشرة مساء كل يوم تقريبًا؟

لقد جاءتني الفرصة في عام 1886، في ذلك الوقت كانت عبارة «العدالة الاجتماعية» قد أصبحت عبارة دارجة في السياق الاجتماعي الهولندي. لا يمكنني الجزم هل تمَّ تخليق ذلك المصطلح، أم أنه كان بالفعل يعكس طريقة جديدة في التفكير في المطالب الاجتماعية؟ على كل حال، أصبحت العبارة موضة في ذلك الوقت. وحينما قرَّرَت الحكومة أن تؤسس لجنة لدراسة أحوال العمال في المصانع وأماكن العمل الأخرى، شعرت أن على تلك اللجنة أن تتحقق من ظروف العمل الخاصة بالبائعات، كانت اللجنة تلك تحت قيادة السيد فيرنير فان در لوف، والسيد جيومين بيركسس. تقدَّمتُ للَّجنة بتقرير يوضح المشاكل الصحية التي تعاني منها النساء البائعات جرَّاء العمل في

المحلات وأماكن البيع المختلفة.

في البداية لم يبدُ لي أن اللجنة تولي أهمية لهذا التقرير، وفي الرد على التقرير ذكروا أن محلات وأماكن البيع لا يمكن أن ترقى لكي تكون مكان عمل، أو على الأقل كان هذا تفسيرهم للأمر. ولكن بعد مرور بعض من الوقت تلقَّيتُ خطابًا من اللجنة أنها مستعدَّة لأن تسمع مني حول تلك المشكلة، وبالطبع استجبت لذلك الخطاب على الفور.

خلال حديثي مع اللجنة في 7 يناير 1887 أدركت سريعًا أن اللجنة ليست مهتمَّة بظروف العمل للبائعات في المحلات. بل كانوا مهتمِّين أو يأملون أن أقدِّم لهم بعض المعلومات الإضافية والمبررات؛ لكي يقوموا بإقصاء النساء من أماكن العمل الأخرى مثل المصانع. وهي حملة كان رائجة في ذلك الوقت. وبالطبع، رفضت أن أتعاون معهم. خلال الاجتماع، سألني رئيس اللجنة: «هل ذهبتِ لمفتش الصحة لكي تناقشي احتمالية أن يقدِّم لهؤلاء البائعات نوعًا من الكراسي للجلوس عليها أثناء العمل؟». لم أكن فعلت ذلك، وطرح هذا السؤال على ذهني الفكرةَ للمرة الأولى؛ وبالتالي قرَّرتُ أن أعرض الأمر على مفتش الصحة وأنتظر أن ينظر فيه، لم أكن أعتقد بالطبع أن أي قرار لمفتش الصحة يمكن أن يُفضي إلى إصلاح قانوني أوسع لوضع البائعات في تلك المحلات.

خلال ذلك الوقت صادَفتني حالات مرضية أخرى من هؤلاء البائعات، كالتي قمت بتشخيصها من قبل، أيضًا تلقَّيتُ الكثير من الخطابات من أُسَر هؤلاء البائعات تحثُّني فيها على عدم ترك قضيتهن؛ لأن ظروف العمل لهؤلاء البائعات يجب أن تتحسَّن. حتى إن مجموعة من هؤلاء الشابات الصغيرات كتبت لي بعض الكتابات يشرحون فيها

ظروف العمل التي لا يمكن احتمالها في المحلات.

قررت أن أتواصل مع مفتش صحة أمستردام على الفور، والذي ردَّ عليَّ بأنه «لا يمكن إجبار أصحاب المحلات على تقديم كراسي للجلوس أثناء ساعات العمل، وفقط تقليل عدد ساعات العمل يمكن أن يُقدِّم لهؤلاء البائعات فرصة من أجل الاستراحة قليلًا من الوقوف المطوَّل».

في خطابه طلب مني مفتش الصحة أن أكتب لمفتش العُمَّال في المدينة، كتبت لمفتش العمال على الفور، وبالفعل كانت استجابته شديدة الرضا بالنسبة لي، حتى إنه عرض أن يفعل كل ما بوسعه من أجل المساعدة في حلِّ تلك المشكلة. ولأن مفتش العمال كان يعرف أن أصحاب المحلات لن يستجيبوا بسهولة لتلك المطالب، ولن يكسروا دائرة التقاليد بأن على البائعات الوقوف؛ فقد طلب مني أن تكون تلك الجهود التي أبذلها مُدعَّمة بحجج وفريق قانوني قوي. ومن أجل تحقيق ذلك، طلب مني المفتش بأن أبدأ في حملة عامة من أجل البائعات، وأن أطلب من زملائي الأطباء أن يقدِّموا الدعم لي من أجل الصحة العامة لهؤلاء البائعات. وبالفعل، بمجرد أن طبعت عددًا من النسخ من الخطابات التي أرسلتها لي البائعات، قرَّرتُ أن أرسلها لزملائي من الأطباء الذين رأيت أنهم قد يستجيبون لهذه الحملة. وأرفقت بتلك الخطابات مُطالَبة بأن ينضموا إلينا في تلك الحملة لاتخاذ ما يلزم من الإجراءات. أيضًا في الخطاب المرفق أطلعتهم على ما قاله مفتش العمال عن الحملة، وأن هذا النوع من العمل الجماعي يمكن أن ينجح بكثير من الطرق في تحسين ظروف العمل بالنسبة لهؤلاء البائعات.

ومرة أخرى باءت كل المحاولات لإشراك زملائي الأطباء في النضال

من أجل تلك القضية الاجتماعية بالفشل، ولكي أكون دقيقة؛ كتب لي طبيبان فقط ردًّا بأنهما ليسا مستعدَّين للاشتراك في الحملة، أما باقي الأطباء فلم يردُّوا على مخاطباتي من الأساس.

في يناير من العام 1894 نشرتُ طلبًا لكل النساء الهولنديات في كل الصحف، وأرسلت نسخًا من ذلك الطلب أو العريضة إلى فروع الجمعيات النسائية في كامل هولندا:

إن أصحاب المحلات يدَّعون أن صحة وسلامة الكثير من الشابات الصغيرات، اللاتي يعملن كبائعات، يتمُّ التضحية بها من أجل إرضائكم أنتم؛ الزبائن.

يؤكِّد هؤلاء أنه بمجرد أن تطأ أقدامكم لتلك المحلات، فإنكم تنتظرون المساعدة الملائمة من خلال هؤلاء البائعات اللواتي يقفن لفترات طويلة.

ومن أجل تجنُّب سوء المعاملة أو التراخي، فإن أصحاب المحلات لا يريدون أن يضعوا الكراسي خلف الطاولات التي تقف خلفها هؤلاء البائعات؛ وبالتالي فإن هؤلاء البائعات مُلزَمات بالوقوف الدائم طوال ساعات العمل الطويلة، وبالتالي فإن هؤلاء البائعات مُلزَمات بالوقوف يوميًّا لمدة من 12 لـ 14 ساعة يوميًّا، مع أوقات قليلة جدًّا من الراحة من أجل الوجبات.

إن تلك التأثيرات المدمِّرة للوقوف لفترات طويلة على جسد المرأة قد تمَّ إثباتها مسبقًا من خلال حثِّ مفتشي الصحة للوزير بأن يسمح لمعلِّمات المدارس بأن يعطين دروسهن وهنَّ جالسات، وذلك على الرغم من أن هؤلاء المعلِّمات يعملن لخمس ساعات في اليوم، مع ساعتين على الأقل من الاستراحة من أجل الغداء.

ينبغي عليكم الرجوع لطبيبكم المختص لمعرفة ما يمكن أن يحدث لجسد المرأة جرَّاء الوقوف لساعات طويلة.

لقد بدأت ممارسة الطب في أمستردام منذ سنوات عديدة، وخلال تلك السنوات كنت أرى بشكل مستمر حالات مرضية سببها الوحيد هو الوقوف لساعات طويلة في اليوم، ورأيت بعيني كيف دمَّر الوقوف لساعات طويلة صحَّةَ واستمتاع هؤلاء النساء الشابات بالحياة.

لقد عبَّرَت البائعات عن تلك المعاناة التي يتكبَّدنها جرَّاء الوقوف لفترات طويلة، ومخاطر ذلك، في خطاب استقبلته مؤخَّرًا، وهو كالآتي:

«سيدتي العزيزة،

هذا الخطاب هو اعتراض من قِبَل النساء والشابات اللاتي يعملن على خدمة الزبائن في المحلات، من الثامنة صباحًا وحتى التاسعة أو الحادية عشرة مساء، كل يوم. نحن مُجبَرات على الوقوف طوال ساعات العمل، باستثناء نصف ساعة فقط في اليوم يُسمح لنا بالراحة. بالنسبة للكثير من الناس فإن التجوال لفترات قصيرة بين فترات الجلوس المطوَّل هي متعة لا يضاهيها شيء، وبالنسبة إلينا أيضًا فإن تحريك أقدامنا والتجوال والسير بعد ساعات الوقوف الطويلة هو كذلك. ولكن بمجرد المشي بعد ساعات طويلة من الوقوف، فإننا نعاني من ألم مُبرح لا داعي لشرح أسبابه الطبية. لا يوجد الكثير من النساء في مجال عملنا لا يعانين من تلك المشكلات الطبية ومن الألم، والذي نعتقد أنك على دراية كاملة به بحكم عملك كطبيبة. وبالطبع، لم تستجِب الكثير من النساء البائعات لخطاباتك ومَطالِبك بالتَّحرُّك؛ خوفًا على لقمة عيشهن.

بسبب جهل أصحاب المحلات بطبيعة جسد المرأة، فإنهم لا يفرِّقون بين

النساء والرجال في هذا العمل. يمنعنا هؤلاء الرجال من الجلوس، وينفذون ذلك المنع من خلال رفضهم تقديم كراسي للجلوس عليها، وبالطبع ندرك أن علينا الوقوف في الفترات التي يصبح المحل به زبائن، وحتى قبل أن يدخل الزبائن للمحل، بمجرَّد وجودهم فقط على الباب. إن سير العمل هو شيء أساسي، لكن منعنا من الجلوس حينما لا يكون هناك زبائن، ولا يكون هناك أي شيء يمكن عمله هو شيء ظالم. لا تمثِّل تلك القاعدة طُغيانًا فقط على حقوقنا، بل إنها حرفيًّا تقلتنا من الألم. إن تلك الظروف التي نعانيها يوميًّا تجعلنا نخاف كثيرًا من المستقبل، وعلى الرغم من ذلك فإن أصحاب الأعمال مصرُّون على نفس النظام في العمل.

نعتقد أنه يمكنك أن تُقدِّمي لنا يد العون، ليس فقط لكونكِ طبيبة، بل والأهم من ذلك لكونك امرأة. يمكنك أن تقدمي لنا المساعدة في استعادة عافيتنا المفقودة، ونعرف أنه يمكنك أن تقدمي لنا يد العون؛ لذلك نلمتس منك أن تقبلي هذا التظلم؛ لأنه من خلال حملتك يمكن لأصحاب الأعمال أن يسمحوا لنا بالجلوس أخيرًا، وأن يقدِّموا لنا بعض المقاعد لكي نستريح. لقد كان أصحاب المحلات دومًا عصيِّين على الإقناع في تلك المسألة، لكن اليوم يمكن مواجهتهم بأن مصالحهم الخاصة تُسبِّب الكثير من الألم الجسدي للكثير من النساء. نرجو أن تصدقينا في مسعانا، إن كل ما نطلبه هو الدعاية اللازمة، من أجل جعل نساء هولندا تقاطع تلك المحلات التي لا تقدِّم للبائعات فيها مقاعدَ للجلوس في ساعات العمل، وبعد ذلك يمكن حلُّ تلك المشكلة تمامًا. لا نرى أهمية كبيرة لإجراء استطلاع رأي خاص بالبائعات؛ لأن الكثير منهنَّ لن يكتبن ولن يعبِّرن عن آرائهن الحقيقية، خاصة هؤلاء البائعات الأُمِّيَّات، واللاتي يُفضِّلن الموت على خطر تهديد معيشتهن أو حرمانهن من العمل.

سيدتي، يمكنك فعلًا أن تقدمي لنا يد العون. يمكنك أن تقنعي السيدات اللائي يتسوَّقن في تلك المحلات أن هناك شيئًا يمكن فعله من أجلنا. يمكننا أن نستفيد من تلك المقاعد، ليس لأننا كسالى أو أننا نريد حياة الراحة والدعة؛ بل لأننا أصبحنا شديدات الإرهاق من الوقوف لفترات طويلة، وهو ألم لا يمكن للرجل العادي أن يتحمَّله، لكننا نخشى من أن إخبار أصحاب المحلات بتلك المطالب قد يؤدي إلى فصلنا من العمل. إن الجلوس على المقاعد مسموح به في المحلات التي تديرها وتملكها النساء؛ وبالتالي يمكن لهؤلاء النساء أن يَحكُمن على أداء البائعات فيها على الأقل. سيدتي، مرة أخرى، نريد منك أن تقدِّمي لنا يد العون... إلخ».

«يا نساء هولندا، لقد فشلت الكثير من المحاولات لإنهاء ذلك الظلم الواقع على هؤلاء النساء الفقيرات؛ لذلك أطلب منكنَّ التَّدخُّل. دعونا فقط نؤكد أنه ليس الهدف من تلك الحملة أن نروِّج للعادات البربرية كما يدَّعي أصحاب المحلات.

وبالتالي حين تدخلن إلى أحد المحلات التي لا يوجد فيها مقاعد مخصَّصة للبائعات خلف الطاولة، فقط يمكنكن إعلام أصحاب تلك المحلات أن تسوَّقكنَّ المستقبلي من هذا المحل مرتبط بتوفير تلك المقاعد للبائعات.

بتلك الطريقة، يمكنكن أن تسعدن لاحقًا بأنَّكنَّ ساهمتُنَّ في إنهاء أحد أشكال الظلم والاضطهاد الواقعة على كثير من النساء في هذا البلد.

الدكتورة: أليتا جاكوبز

أمستردام. 18 يناير 1894».

لقد نجحت نلك العريضة في رفع الوعي الخاص بتلك المشكلة، في كثير من المدن والبلدان أعلنت الكثير من النساء عن دعمهن للحملة من أجل توفير مقاعد للنساء البائعات في المحلات.

في روتردام، وقَّعَت مائتا سيدة على خطاب لدعم الحملة، وقُمن بإرساله لكل أصحاب المحلات في المدينة، كان الخطاب كما يلي:

«بالتأكيد قد مرَّ عليكم عريضة الدكتورة أليتا جاكوبز، والتي نُشِرَت في الكثير من الصحف اليومية، لقد جعلتنا تلك العريضة ندرك مرة أخرى عُمقَ المشاكل الصحية التي يمكن أن تعانيها النساء جراء الوقوف لفترات مطولة.

لقد جادل بعضنا أنه يجب أن نتبع نصيحة السيدة جاكوبز، بمقاطعة المحلات التي لا توفِّر للبائعات فيها كراسي للجلوس، ولكن بعد تفكير مطوَّل قرَّرنا أن تلك الخطوة ليست ضرورية أو مستحبَّة في ذلك الوقت.

تلك المقاطعة ليست ضروريَّةً لأن الكثير من أصحاب المحلات بالفعل يُقدِّمون للعاملات كراسي للجلوس، وليست مستحبَّة لأننا نشعر أن حرية أن نطلب شيئًا ما يجب أن تمتد للجميع.

وبالتالي نرى أن أصحاب المحلات، سوف يسمحون - عن طيب خاطر - للبائعات بالجلوس طالما أنهم قد علموا أن ذلك هو ما يسعد الزبائن.

إن هدف هذا الخطاب هو أن نُظهر دعمنا وتعاطفنا مع مطالب البائعات في مدينة روتردام، بأن يتم توفير مقاعد للجلوس لهنَّ. أيضًا نعتقد أن الضرورة المِلحَّة لتوفير تلك المقاعد قد عبَّرَت عنها السيدة

جاكوبز في مرات عدة، وغيرها من الخبراء في مجال الطب؛ لذلك لا نرى حاجة للكثير من الشرح، ونثق في المقابل في تعاونكم الكامل معنا ومع مطالب هؤلاء البائعات».

ناقشت المجلة التجارية «المصنع» المانيفستو الذي تقدَّمَت به من أجل البائعات النساء، رأت المجلة أن تبنِّي القضية من قبل الدكتورة جاكوبز يأتي ضمن سلسلة من النجاحات في القضايا المماثلة. وعلى الرغم من أن تغطية المجلة كانت موضوعية إلى حدٍّ كبير، إلا أن مُحرِّر المجلة شعر أن المسألة يجب أن تُناقَش من جميع الزوايا. فمع الأخذ في الاعتبار الاعتراضات التي قدَّمها أصحاب المحلات، فإن المجلة رأت أن العامة ببساطة يطلبون ما هو أكثر من اللازم، بمعنى أن المطالبات بالجلوس كانت أكثر من اللازم؛ لأنه ببساطة يتوقَّع الزبائن أن تكون البائعات في تلك المحلات في انتظارهم من أجل خدمتهم، وبالإضافة لذلك فإنه لا توجد مساحات كافية خلف الطاولات من أجل وضع كراسي عليها.

ظهرت العريضة التي تقدَّمتُ بها أيضًا في عدد كامل من مجلة «الشرطة»، في عدد 25 يناير 1984، وفي صفحة كاملة أعلن محرر المجلة عن دعمه للمطالب، وكتب أنه بما أن البائعات خائفات من اتِّخاذ أي إجراء، فإن على الحكومة أن تقوم بالتدخل وتغير قوانين العمل، من أجل توفير حماية وظروف عمل جيدة لهؤلاء البائعات في عموم هولندا. ولكي تظهر المجلة دعمها لتلك الحركة، قرَّرَت إرفاق صورة لعدد من البائعات وهُنَّ يُسلِّمن خطابًا للملكة الهولندية، والذي يتضمَّن طلبًا بدعم الحكومة للمطالب التي بدأتها السيدة أليتا جاكوبز.

ومرة أخرى فشلت الصحف القومية في التجاوب مع تلك المشكلة المِلِحَّة. نشرت صحيفة «أمستردام» في 29 يناير 1894 أنه، وبسبب العريضة التي تقدَّمتُ بها، قرَّرَت الصحيفة أن تحقق في الأمر وترى إلى أي مدى يمكن أن تكون اقتراحاتي مجدية، لكن في الحقيقة تحدَّثَت الصحيفة فقط مع مُلَّاك المحلات الكبرى، ولم تُولِ أي اعتبار لآراء البائعات أنفسهن. الآن، بينما أكتب تلك الكلمات، أرى أمامي ذلك العدد من الجريدة، والذي وصف فيه الرجالُ من مُلَّاك المحلات تلك الحركةَ بأنها «حركة مُقزِّزة، بها قدر من المبالغة، للدرجة التي تجعل اشتراك أي شخص عاقل يدعِّمها يهدر الكثير من الوقت». أعلن أحد أصحاب المحلات في ذلك التقرير بفخرٍ شديد أن البائعات في المحل الذي يمتلكه يعملن من التاسعة صباحًا حتى الثانية عشرة ظهرًا، ثم يأخذن استراحة لنصف ساعة كاملة، يعملن بعدها من الثانية عشرة والنصف إلى الرابعة والنصف، ثم يأخذن نصف ساعة استراحة، بعد ذلك يعملن من الخامسة حتى السادسة ويأخذن نصف ساعة استراحة، ومن ثم يعملن حتى التاسعة مساء، وهو موعد غلق المحل، «وبالطبع ذلك لا يمكن بأي حال من الأحوال أن نسمِّيه عملًا شاقًّا».

كتب أحد رجال الأعمال: «ببساطة، لا أصدق تلك الحكايات والادعاءات من السيدات العجائز، حول البائعات والآلام التي يتعرَّضن لها من الوقوف في المحلات. إن البائعات في محلِّي أصحَّاء جدًّا، وأنا أرى ذلك كل يوم. وإذا قالت لي إحدى السيدات إنها لن تأتي للمحل لكي تشتري منَّا البضائع، فببساطة سوف أخبرها أن تذهب إلى مكان آخر؛ لأن هؤلاء السيدات لن يُملِلن علينا كيف ندير أعمالنا، نحن نفعل ما هو في صالح الزبائن، والبائعات، وأنفسنا في نفس الوقت».

كتب أحد أصحاب المحلات الآخرين، مُشكِّكًا في الخطاب الذي

أرفقته في العريضة وقلت إنه من البائعات، ووصف ذلك بأنه نوع من الدعاية الرخيصة.

بعد كل ما سمعته من البائعات ومن الكثيرين غيرهم، لم أندهش حقيقة من ردِّ فِعل أصحاب المحلات، لكن ما أدهشني وجعلني أغضب هو شهادة طبيبَيْن لم يُعلِنا عن أنفسهما، واللذين وصفتهما الصحيفة بأنهما طبيبا نساء. أحدهما قال بصفاقة: «إن المرضى الذين ذكرتهم الدكتورة جاكوبز جميعهن نساء متزوجات ولديهن طفلان أو ثلاثة؛ وبالتالي ليس هناك مخاطر صحية كارثية كالوضع التي تصوِّره الدكتورة جاكوبز، وإلا ماذا سوف نفعل مع الممرِّضات وغيرهن من صاحبات المهن التي تتطلَّب الوقوف لساعات طويلة، مع العلم أن الممرضة هي مهنة أكثر إرهاقًا من مَهمَّات البائعات في المحلات». كتب الطبيب الآخر: «لكي نصل إلى أي استنتاج منطقي حول تلك الحالات المرضية، يجب أن ندرس الأعراض المرضية عند مجموعة كبيرة من البائعات، ونقارن بينهن وبين مجموعات أخرى من النساء اللاتي لا يقفن لفترات طويلة، لكي يمكننا المقارنة بين المجموعتين، ومعرفة إذا ما كانت تلك المشكلات الصحية ناتجة بالفعل عن الوقوف لفترات طويلة أم لا».

وعلى الرغم من الجهل الظاهر في تلك الردود، فإنني قرَّرتُ ألَّا أترك المسألة، وأن أعود للتأكيد على أنه من حقِّ البائعات الحصول على فترات مناسبة من الراحة من الوقوف المطول.

في تلك الأثناء، كان عددٌ متزايد من أصحاب المحلات يستجيبون للمطالب التي قدَّمتها، وعدد من المجموعات النسائية كانت تقوم بالحملات من أجل وضع قانون للإغلاق المبكِّر، أو لتقنين وضع مقاعد

خلف الطاولات في المحلات. استمرت تلك الحملات حتى عام 1902، حينما أعلن وزير الداخلية عن خطط لتقديم قانون يُلزِم بوضع مقاعد للجلوس للبائعات في المحلات.

في «أمستردام»، فإن بعض النساء قد شكَّلن لجنة من أجل الضغط لإقرار القانون الذي يلزم المحلات بالإغلاق المبكر، وفي ديسمبر من العام 1902، نشرت اللجنة إعلانًا في صحيفة «التليجراف» والذي أقتبس منه الآتي:

«لقد قرَّرت لجنتنا الحصول على رأي العديد من الأطباء الخبراء من أجل الوصول للدليل القاطع بأن الوقوف لفترات طويلة يؤثِّر على صحة النساء. ولكن يجب علينا أن نقول الآتي عن استجابة الأطباء في أمستردام للاستبيان الذي أرسلناه لهم من أجل الفهم. لأنه بالرغم من المحاولات المتكررة، فشلنا في الحصول على ردٍّ كافٍ من الأطباء، كانت استجابة أطباء أمستردام للاستبيان غير مفهومة، ونحن هنا نستخدم اللفظ الأدق. فحينما تمَّ عمل استبيان مماثل للأطباء في برلين، فإن أطباء برلين قاموا بالرد بالكمِّ المناسب، ونشرت نتائج هذا الاستبيان في عدد من الصحف البرلينية.

وبالتالي، من أجل الوصول لدليل قاطع كان علينا أن نأخذ بنتائج الاستبيان الذي أجرته النساء الألمانيات، والذي يظهر بما لا يدع مجالًا للشك التأثيرات الكارثية على الصحة جرَّاء الوقوف لفترات طويلة. وبالتالي فإن الزملاء الألمان اعترفوا بأهمية أن يتم توفير المعايير الصحية اللازمة لهؤلاء البائعات، والتي تتمثَّل في مقاعد للجلوس عليها في الفترات التي لا يقُمن فيها مباشرة بخدمة الزبائن».

إن ما سبق يؤكد على نفس الوعي الاجتماعي لدى الأطباء في

أمستردام، وعدم اكتراثهم الكبير بالقضايا الاجتماعية، والتي يمكن أن تخدم هدفهم الأساسي في منع المرض والعِلَل من الانتشار. لقد عملت لسنوات طويلة لتحقيق مطالب تلك القضايا، وفي النهاية، في 1902، بدأت الحكومة تُعبِّر عن اهتمامها بالقضية، وطُلب مني أن أقدِّم خطابًا لأعضاء البرلمان من أجل تبيان أهمية تقديم قانون صحي للآلاف من البائعات الشابات في هولندا. لقد أكملت مَهمَّتي، وسعدت أنه بعد عشرين عامًا من جذب الانتباه لتلك القضية، لأول مرة قامت الحكومة أخيرًا بإقرار قانون ينصُّ على وجود مقاعد في تلك المحلات من أجل البائعات.

الفصل الثامن

الانخراط مع الحركات السلمية ومكافحة العسكرة

(الانخراط مع الحركات السلمية. التواصل مع بيرثا فون سوتنر. لقاءات مع وليام ستيد ويونستجين يونسن. حرب البوير. خيبة أمل. المؤتمر الدولي للنساء لعام 1915 في لاهاي. الاتصال بحكومات العديد من البلدان. السفر في أوقات الحرب. زيارة الولايات المتحدة. مؤتمر زيوريخ (مايو 1919). رحلة كاشفة إلى ألمانيا. العمل باسم أسرى الحرب في سيبيريا. انطباعات عن ألمانيا في عام 1920. الإصلاح المقترح لمعاهدة السلام. المؤتمر الدولي للمرأة لعام 1922 في لاهاي).

على الرغم من أنني بالكاد أستطيع الادعاء بأنني قمت بعمل ريادي، سواء من أجل الحركة السلمية أو مكافحة العسكرة، إلا أنني أستطيع القول صراحةَ إنني أمقت الحرب وأرى الجيوش على أنها شرٌّ لا يمكن تهوينه. ربما استقيت هذه الآراء من والدي، ففي الوقت الذي كنت فيه طفلة علمتُ أنه بعد حصوله على شهادة الطب، أنهى والدي عقده الحكومي للعمل كطبيب عسكري في أسرع وقت ممكن. كان السبب الوحيد الذي دفعه للتسجيل في المقام الأول، هو الأمل في أن يتمكَّن من تسريع خطط زفافه، لكن نظرًا لآرائه وآراء السلطات العسكرية التي

يعارضها تمامًا؛ قرَّر المغادرة في أول فرصة.

يبدو غريبًا بالنسبة لي أنه على الرغم من أفكاره المناوئة للعسكرة التي حاول غرسها في أطفاله، اختار ثلاثة من أبنائه الستة وظائف في الجيش، ومع أنه قد أتاح فرصة كبيرة لأبنائه الستة جميعهم لمواصلة تعليمهم بعيدًا عن الجيش. بدأ الأمر بيوهان، الذي كان جنديًّا بالفطرة، وتنازل عن الفلسفة لصالح الجيش. كما حاول إقناع إخوته وأخواته الصغار بأن رفاهية الأمَّة تعتمد إلى حدٍّ كبير على قوتها العسكرية، وبالتأكيد ألهمت كلماته إخوتي الأصغر. أدَّى مزيجٌ من تأثير يوهان والكتب المدرسية التي صوَّرت الجنود على أنهم الأبطال الوحيدون الجديرون بالاهتمام، إلى الاعتقاد بأنه لا توجد مهنة أفضل أو أكثر شرفًا من المهنة العسكرية.

كما ذكرت في بداية هذا الكتاب، بدأ أحد إخوتي التدريب كمهندس معماري، قبل التحول إلى الأكاديمية العسكرية في كامبن، حيث انضمَّ إليه لاحقًا أخي الأصغر. غالبًا ما كنت أتناقش مع الاثنين، وأعترض بحماس شديد على الكثير من آرائهم. شعرت بأنني مضطرَّة للتعبير عن غضبي تجاه الانضباط العسكري المهين، الذي يتطلب طاعة غير مشروطة من الضباط الأصغر ناحية القادة، حتى عندما يكون واضحًا أن الرُّتَب الأقل هي الأكثر أخلاقية وإنسانية من هؤلاء القادة والرتب العليا في الجيش.

تلك الطاعة العمياء، وذلك التفاني غير الذاتي، يناقضان تمامًا إحساسي باحترام الذات. لقد استفزَّا مشاعر شديدة التأييد للديمقراطية في الأساس، وعلى الرغم من أنني لم أكن قادرة في ذلك الوقت على توصيفها على هذا النحو، أيضًا لقد أساءت تلك الطاعة

العمياء إلى إيماني الثمين بالحرية؛ ما جعل دمي يغلي لرؤية الرقيب يختبر طاعة العرِّيف، وهو أمر حدث أمامي في منزلنا نحن.

أدركت تدريجيًّا الصِّلَة بين العسكرة المتزايدة والحرب، خلال الصراع الفرنسي- البروسي (1870 - 1871)، عندما قضيت - مثل العديد من الأطفال الآخرين - أمسيات لا نهاية لها، في ملابس كتانية قديمة، حتى يمكن إرسال الوبر إلى المستشفيات العسكرية لكلتا الدَّولتين، فيتم استخدامها لتضميد الجنود الجرحى. في ذلك الوقت كان الطب بدائيًّا للغاية، مقارنة بما كان متاحًا خلال الحرب العالمية الكبرى لاحقًا. ومع ذلك، لا يزال رجال العلم عاجزين عن فعل الكثير للتخفيف من آثار القوة العسكرية الغاشمة.

في ذلك الحين كان لديَّ شعور قوي بأن الحرب في أساسها غير إنسانية، عندما قصفت هولندا «آتشيه»، أعربتُ علانيةً عن تعاطفي مع السكان المحلِّيِّين، ورفضت تصوير تلك الحرب بأنها مُبرَّرة بأي شكل من الأشكال. هنا أودُّ أن أُحيِّي أخي الراحل الدكتور جوليوس جاكوبز، الذي توفِّي عام 1885 في ماكاسار (أوجونج باندانج). حيث كان يعمل طبيبًا عسكريًّا، لقد كان متورطًا في حرب آتشيه. ولكن على الرغم من هذه التجربة، أو على الأرجح بسببها، كان جوليوس في الأصل من دعاة السلام، وفي الوقت الذي كان يُشار فيه دائمًا إلى شعب آتشيه باسم «الخنازير القذرة»، لقد رآهم على أنهم قوة معادية بطولية، وأظهر احترامًا واضحًا لهم في الكتب التي كتبها؛ مثل كتاب «بين الباليِّين»، 1883، بل وأكثر من ذلك؛ في عمل إثنوجرافي طبي رئيسي نشرته الجمعية الجغرافية الملكية الهولندية، تحت عنوان «حياة الأسرة والكامبونج في آتشيه الكبرى»، ليدن: إي جي بريل،

1894. لم أره مطلقًا بعد انتقاله إلى الخارج[19]، لكن بما أننا تراسلنا بانتظام، كنت على دراية بتفكيره جيدًا، حيث كان مقتنعًا أن تلك الحرب غير المبرَّرة مع «آتشيه» بمثابة وصمة عار على بلدنا، وأنه تمَّ إطلاقها فقط كوسيلة غاشمة للدفاع عن المصالح الهولندية.

لقد قلت من قبل، لا أستطيع أن أدَّعي أنني من روَّاد دعاة السلام. لم تطلب جمعيات السلام الهولندية من أعضائها أكثر من مساهمة سنوية صغيرة، وكان هناك القليل من الحملات النشطة[20].

في العام 1898 استضافت هولندا المؤتمر الدولي الأول للسلام، اخترت المشاركة فيه هنا، قابلت رائدة السلام النمساوية، بيرثا فون سوتنر، التي كنت أراسلها لبعض الوقت، خلال هذا الاجتماع اقترحت فون سوتنر على أن أكرِّس نفسي بنسبة مائة في المائة للعمل من أجل السلام، وأن أفوِّض حملةَ حقِّ التصويت لشخص آخر؛ لأنها اعتبرت أن هذا العمل لا يليق بي.

في المقابل، أشرتُ إلى أن المُثُل العليا لبيرثا فون سوتنر لا يمكن أن تتحقَّق إلا عندما تحصل المرأة على حقوقها المدنية الكاملة. إن فلسفة السلام ستكسب اعتراف الحكومة عندما يتم التعبير عن آراء النساء بالبرلمانات في كل مكان. في رأيي، كان على النساء تحقيق التَّحرُّر الكامل قبل أن يتمكَّنوا من تقديم مساهمة ذات مغزى في حملة السلام.

19- ابتداء من عام 1873، خاض الهولنديون حربًا دموية طويلة لإخضاع شعوب آتشيه، مقاطعة في شمال سومطرة (الآن جزء من إندونيسيا).

20- في دراسته للسياسة الاستعمارية الهولندية، يضع كويتينب روير كتابات جوليوس جاكوبز عن آتشيه في سياق النشاط العسكري المستمر، الذي كان يولِّد جدلًا حادًّا ويورد روير في دراسته أن جاكوبز كان متأثِّرًا بتربيته الدينية في الكتابة عن تلك الشعوب، وبالطبع أشار الكثير من الإشارات الإيجابية عن الأخلاق لشعب آتشيه، على عكس الحاكم العسكري الهولندي.

أي شخص على دراية بعمل بيرثا فون سوتنر وبعملي سيدرك أننا فشلنا في إقناع بعضنا البعض، فهي استمرت في اعتبار الدعوة للسلام العالمي مَهمَّتها المختارة، وأنا واصَلتُ العمل من أجل حق المرأة في التصويت. في صيف عام 1889. رافقت زوجي إلى كريستيانيا (أوسلو) لكي يحضر اجتماع الاتحاد البرلماني الدولي. انتهى بنا المطاف بالبقاء في نفس فندق التي تقيم فيه السيدة فون سوتنر، وواصَلت المناقشة التي بدأناها في لاهاي حول أيِّهما أهميته أكثر إلحاحًا: حق المرأة في التصويت أم الدعوة إلى السلام؟ أخيرًا، اقترحت حلًّا وسطًا، «عندما تقومين بحملة من أجل السلام يمكنك إثبات موقفك الداعم لحق المرأة في التصويت، وبينما أنا أدافع عن حقِّنا في المساواة السياسية، سأقوم بدوري بالتأكيد على الروابط ذات الصِّلة بين هذه القضية ومسألة السلام العالمي[21]».

لكن السيدة سوتنر - خصمتي البارزة - وجَدَت أنه من المستحيل قبول اقتراحي. في رأيها الأمر يتعلَّق بالخلط بين مسألتين منفصلتين تمامًا، «يمكنك العمل إمَّا من أجل تحرير المرأة أو من أجل السلام العالمي، لا لكليهما في نفس الوقت. كل قضية تتطلَّب التزامًا تامًّا ومن المهم جدًّا التعامل مع مجرياتها». ثبت أنه من المستحيل سدُّ الفجوة التي تفصلنا. وعندما خاطبت خلال الاجتماع مجموعة من الداعين إلى السلام ورجال الدولة المؤثِّرين حول موضوع حق المرأة في التصويت،

21- الواقع أن حركة السلام الهولندية كانت صغيرة وهادئة حتى عام 1898. حين حفَّزتها الأرستقراطية يوهانا واسكليويتش فان شيلفجاردي (1850-1937)؛ وقد ألهمتها جزئيًّا دعوة القيصر نيكولاس الثاني في ذلك العام إلى مبادرة دولية لنزع السلاح. في مؤتمر لاهاي الأول في عام 1899 (كتب تاكوبس 1898) أنفَقت بسخاء. وحوَّلت بيتها الواسع إلى مكان حيث كان لنشطاء السلام أن يختلطوا بالدبلوماسيين والمواطنين الهولنديين.

سرعان ما وجدت نفسي في مواجهة نسخة فون سوتنر الغاضبة[22].

في عشاء وداع الضيوف الأجانب الذي أقامته اللجنة النرويجية في الاتحاد البرلماني الدولي، كان من حسن حظِّي أن أرافق وزير الداخلية السيد كوام، والذي أعطاني امتياز التَّعرُّف على السيدة كوام، زعيمة الحركة النرويجية لحق المرأة في التصويت، ربما لهذا السبب طُلب مني الرد على النَّخب الذي قدَّمه رئيس البرلمان السيد هورستن الذي قال: «نخب المرأة التي لم يكن حضورها تأكيدًا على أهداف هذ الاجتماع فحسب، بل وأضفى الكثير من المرح على الاجتماع»[23].

لقد حاولت بالفعل، ودون جدوى، إقناع بيرثا فون سوتنر بأهمية ما أقوم به، لكن رسالتي التي طلبتُ فيها تقديم الشكر باسم جميع النساء الحاضرات قوبِلَت برفض قاطع؛ لذلك لم يكن هناك بديل سوى أداء هذا الواجب بنفسي. بدأت بشكر السيد هيرست على كلماته اللطيفة، كما شكرت اللجنة النرويجية نيابةً عن النساء اللواتي استمعن إلى المؤتمر من الشُّرُفات ووجدن مقاعدهن مُزوَّدة بصناديق بها ألذُّ الحلوى. ثم أشرت إلى أنه في التخطيط لتحقيق السلام العالمي، لم يتوقف أيٌّ من المشاركين في المؤتمر للنظر في المساهمة المنتظرة التي ستُقدَّم في حال تحرير المرأة. تابعت «كنَّا نحن النساء سوف نستغني بكل سرور عن الحلويات المجانية الخاصة بنا، إذا تمَّ السماح

22- كانت بيرثا فون سوتنر (1843-1914) جزءًا من لوبي زعماء السلام في مؤتمر لاهاي الأول في عام 1899. ومن أشهر النساء في عصرها. كتبت بشكل مطوَّل. وألقت محاضرات باسم السلام في جميع أنحاء أوروبا والولايات المتحدة. وكان لها دور قيادي في إنشاء جمعيات السلام وعقد المؤتمرات على الصعيد الدولي. وروايتها «ضع ذراعيك». 1899. كانت مشهورةً عالميًا. تُرجِمَت بحلول وفاتها عشية الحرب العالمية الأولى إلى ست عشرة لغة. وقرأها الملايين. ومع مرور الوقت. طوَّرَت علاقة أكثر إيجابية مع الحركة النسوية وحركة حق الاقتراع بالنسبة للنساء.

23- ساعددت ماري كوام (1843-1935) في الحصول على حق الاقتراع للنساء في النرويج. وشغلت منصب نائب رئيس المجلس النرويجي للمرأة في الفترة من 1904 إلى 1913.

لنا بالمشاركة في مناقشتكم على قدم المساواة معكم سياسيًّا».

وانتهيت بالتعبير عن الأمل في أن تكون النرويج قدوةً لبقية أوروبا من خلال منح المرأة حق التصويت، والذي لو أُقِرَّ بموجب قانون في النرويج، فإن من شأن هذا القانون أن يُدخل عنصرًا جديدًا في الحياة السياسية من شأنه أن يؤدي إلى تسوية النزاعات الدولية من خلال الحكمة بدلًا من استخدام القوة.

قوبل خطابي بتصفيقٍ مُدَوٍّ. ومع ذلك، أوضحت بيرثا فون سوتنر استياءها من استخدامي عشاء مؤتمر السلام كمنصَّة لحركة حق المرأة في التصويت. شعرَت بأنني قد تماديتُ قليلًا بالتأكيد. لكن يجب أن أشير إلى أن أولئك الذين عرفوا بيرثا فون سوتنر شخصيًّا أوضحوا لي أن استياءها لم يَدُم طويلًا. في الواقع، بعد عدد من الأحداث السنوات القليلة المقبلة، اعترَفَت لي حتى أنه لن يتم منع الحروب إلَّا عندما يكون للمرأة تأثير مباشر على منظومة الحكم في العالم.

أتيحت لي الفرصة لاحقًا للحضور مع بيرثا فون سوتنر في مؤتمر السلام في هولندا عام 1913[24]. كان هذا قبل عام من وفاتها، وكانت صحَّتها بالفعل في حالة تدهور واضح للجميع. ومع ذلك، كانت مستعدَّةً تمامًا لكي تتصدر طليعة المشاركين في اجتماع العام للجمعية الهولندية لحق المرأة في التصويت، وإلقاء خطاب مبهر حول التحرر السياسي للمرأة، ما زال هذا الخطاب ذكرى جيدة لجميع الحضور. سيتذكر الجمهور أيضًا إيمانها المطلق بالقدرة على منع الحرب من

24- ربما كان هذا هو نفس المؤتمر الذي أشار إليه جاكوبز في الفصل الثالث عشر. والذي تزامن مع افتتاح قصر السلام في لاهاي في أغسطس 1913. وقد عقد كل من الاتحاد البرلماني الدولي ومؤتمر جامعة السلام مؤتمراتهما لعام 1913 لتتزامن مع هذا الاحتفال.

خلال قوة سيتم إطلاق العنان لها بمجرد حصول المرأة على حقوقها المدنية والسياسية.

كان أحد الأشخاص الذين أثنوا على خطابي في كريستيانيا (أوسلو) هو الصحفي العالمي الشهير وليام ستيد[25]. على مَرِّ السنين، تابع عدد كبير من القراء في الداخل والخارج حملته العنيفة والواضحة من أجل السلام الدائم، ومقالاته حول تحسين قانون العقوبات، ومقالاته عن النسوية. كان من المفترض أن يصبح ستيد صديقًا مقرَّبًا لي: بدأنا في المراسلة والكتابة لبعضنا البعض منذ أول مرة التقينا فيها. يتذكر العديد من القرَّاء أن رسول السلام العظيم هذا كان واحدًا من العديد من الركاب الذين أبحروا إلى العالم الجديد في عام 1912 على العلامة التجارية الشهيرة في ذلك الوقت - سفينة تيتانيك الجديدة للمحيطات - والتي غرقت نتيجة اصطدامها بجبل جليدي، ووجد ركَّابُها موطنَ راحتهم الأخير في قاع المحيط.

إن الكتابة عن الرجال والنساء الذين حضروا عشاء الوداع في كريستيانيا (أوسلو) يذكِّرني حتمًا بيونستيان يونسن النرويجي العظيم، الذي ألقى في عشاء الوداع نفسه خطابًا يستند إلى القول: «أولئك الذين يرغبون في مقاومة الحرب، يجب أن يبدؤوا بالكفاح المستمر لأكاذيب السياسة والدبلوماسية».

لقد تشرَّفتُ أنا وزوجي في ذلك المساء بمقابلة السيد والسيدة

25- كان المحرر الإنجليزي الشهير ويليام ت. ستيد (1849-1912). المحرر السابق لصحيفة «بال مول غازيت» الشهيرة. ومؤسِّس مجلة «ريفيو أوف ريفيو» المؤثِّرة. قد حضر لتَوِّه مؤتمر لاهاي للسلام في مايو 1899. وهناك. نشر هو وصحفيان آخران تقريرًا يوميًّا أصبح لا غِنى عنه للصحفيين الآخرين والدبلوماسيين. وقبل المؤتمر قام برحلة مثيرة للجدل. وحظِيت بتغطية إعلامية كبيرة إلى العواصم الأوروبية: لضمان عقد الاجتماع وتعزيز التركيز على الحدّ من الأسلحة. وتعدُّ رحلته تلك سابقة في مجال «دبلوماسية المواطنين» عن الرحلات التي قامت بها جاكوبز وغيرها من النساء بعد ذلك. في مؤتمر لاهاي لعام 1915.

بيورنسون شخصيًّا. وقد أخبرناهم بشكل عابر أننا ننوي البقاء لبعض الوقت في النرويج بمجرد انتهاء المؤتمر. أردنا أن نتجوَّل في هذا البلد المذهل المعروف لنا من زيارة سابقة، وما إن سمعوا ذلك حتى دعانا آل بيورنسون للإقامة في منزلهم الريفي، الواقع بمزرعة في أوليستاد؛ لذا عندما قرَّرنا زيارة «غاوسدال» حيث تقع أوليستاد، كتبنا إلى السيد والسيدة بيورنسون نخبرهم بأننا نودُّ زيارتهم.

يمكنك أن تتخيَّل قدر الدهشة من الترحيب ليس فقط من خلال علم هولندا الذي يرفرف عاليًا فوق المنزل، ولكن أيضًا من قبل اثنين من أحفاد مضيفنا الجالسين عند المدخل لاستقبالنا باللغة الهولندية. لقد استمتعت كثيرًا بهذا الاستقبال وإقامتي مع عائلة بيورنسون. أعطتنا هذه الزيارة فرصة للتَّعرُّف على الرجل الذي كان محور الحياة في كريستيانيا (أوسلو) بل وأعجبنا به أشد الإعجاب. تحدثنا لساعات عن الموضوعات التي تشغلنا. في ذلك الوقت حدث الكثير ممَّا أثَّر بعمق على هذا الرجل الذي كان يُقدِّر الحقيقة قبل كل شيء. أثارت تصرفات إنجلترا في الترانسفال غضب كل الذين يعملون من أجل الحقيقة والسلام، وفي رين، كان إميل زولا يجادل في قضيته بشأن دريفوس، الضابط اليهودي الذي اتُّهِم خطأً بالخيانة. عدة مكالمات هاتفية طوال اليوم كانت تجلب آخر التطوُّرات لبيورنسون من رويترز في كريستيانيا (أوسلو).

ماذا يحدث في رين؟ سألته ذات مرة وكان قد أغلق للتو واحدة من هذه المكالمات. لقد انفجر بغضب: «لا أحد من هؤلاء الجنرالات أو الوزراء السابقين لديه الشجاعة الأدبية للاعتراف بأنه قد تمَّ تضليله أو ارتكب خطأً. هم فقط يحاولون إنقاذ أنفسهم من خلال إطالة عمر كل تلك الأكاذيب».

شعر بيورنسون أن قضية دريفوس[26] تقوم على الكذب، وكذلك الصراع غير المتكافئ بين بريطانيا العظمى ودولة البوير الصغيرة. ما زلت أتذكَّر باعتزازٍ إقامتي مع السيد والسيدة بيورنسون، وغالبًا ما أطالع الكتب التي منحها لي عندما غادرت.

الحرب بين إنجلترا وجنوب إفريقيا سرعان ما اندلعت بعد عودتنا لهولندا، وقد أعلنتُ مباشرةً دعمي لجماعة البوير الشجعان، وكلَّما أتيح لي تحدَّثتُ أو كتبتُ نيابةً عنهم. عندما نظَّمَت **جمعية «السلام من أجل العدالة»**[27] اجتماعاتٍ عامَّة في كل المدن الهولندية الرئيسية؛ للاحتفال برسالة القيصر الروسي للسلام، طُلب مني إعداد وقيادة أحد هذه التجمُّعات في أمستردام، وهي فرصة انتهزتها للتنديد بأفعال إنجلترا المستمرة، ونتيجة لذلك الأمر الحكومة الإنجليزية منعتني من الدخول إلى جنوب إفريقيا، في الوقت الذي كنت فيه عازمة على تقديم مساعدة طبية للنساء والأطفال في المخيمات الدولية، وكنت أخطط لدفع ثمن تلك المساعدات من جيبي الخاص، والسفر بدون أي ضمانات على سلامتي. تساءلت لاحقًا عمَّا إذا كان من الحكمة أن أعبِّر عن آرائي بتلك الحِدَّة، كي أكون قادرة على مساعدة النساء والأطفال في ترانسفال Transvaal، لكن على الأغلب كانوا سيمنعونني من الدخول على أي حال. إنجلترا لديها جميع الأسباب في إبعاد الغرباء من الوصول إلى تلك المخيمات الدولية، في ظل ظرف إنساني شديد

26- في هذه المرحلة، كان درايفوس يخضع لمحاكمة ثانية. حُوكم لأول مرة بتهمة الخيانة في عام 1895، وأدانته محكمة عسكرية وسُجن في جزيرة الشيطان. وأعيد إلى فرنسا في عام 1898 على أساس أدِلَّة جديدة واحتجاج عام ضخم. كان فيه الروائي إميل زولا مشاركًا رئيسيًّا.

27- كانت منظمة «السلام من أجل العدالة» منظمة قائمة، تأسَّسَت في أعقاب الحرب الفرنسية البروسية، والتي قامت جوانا واسزكلوبتش-فان شيلفغارد بتطويرها ودمجها مع شبكة السلام النسائية العالمية الخاصة بها لاحقًا.

الخطورة، ألحق عارًا لا يُمحَى بالإمبراطورية البريطانية[28].

لم أبذل الكثير من الجهد من أجل السلام في السنوات التي أعقبت الحرب، على الرغم من أنني كنت أرافق زوجي دائمًا كلما حضر اجتماعات الاتحاد البرلماني الدولي. لكن هدفي الرئيسي كان الاتصال بأعضاء برلمانات مختلف الحكومات من أجل تعزيز قضية حق المرأة في التصويت. الرحلات والحفلات التي كانت امتدادًا لهذه الاجتماعات منحتني فرصًا مثالية لذلك التواصل.

ولكن كان هناك سبب آخر لعدم مشاركتي المباشرة في حملة الدعوة إلى السلام، شعرت ببساطة أن هناك عملًا أكثر أهمية وعجالة يتوجَّب القيام به في أماكن أخرى. وفي رأيي القوى الكبرى لن تجرؤ على إعلان الحرب إذا شعرت أنها لا تستطيع الحصول على دعم شعوبها. في ذلك الوقت كنتُ مثالية لدرجة أنني اعتقدت أنه في ألمانيا - وهي دولة عسكرية بامتياز - الشعب متطوِّرٌ للغاية، بحيث - ببساطة - لن يسمح بمشاركتها في حرب أوروبية. وأن تلك الحرب التي اندلعت بين الحين والآخر في البلقان أو في الشرق الأقصى، كانت في رأيي بسبب واقع هذه المناطق التي لا تزال في مرحلة التنمية المبكرة؛ لذا لم يكن من المرجَّح أن يكون لدعوات السِّلم تأثير كبير إذا لم يحقق السكان المحليون مستوى أعلى من التطور الحضاري.

يا للأسف! أثبت لي التاريخ خطئي. لم أكن أتصوَّر ولو للحظة أننا قد نكون على شفا حرب عالمية، حتى إن صديقةً كتبت لي في أبريل

28- لم يتم إعلان الحرب حتى 1 أكتوبر 1899؛ ولكن في الأشهر التي سبقت ذلك الإعلان، شاركت بريطانيا العظمى في عدد من التحركات الدبلوماسية والعسكرية العدائية ضد جمهوريتي بوير: وهما ترانسفال ودولة البرتقال الحرة. هذا ما تشير إليه جاكوبز هنا. وردًّا على ذلك، قام البويرز بتسليح القوات وتعبئتها. في الصراع الذي أعقب ذلك، والمعروف باسم حرب البوير، والحرب الأنجلو بوير، أو حرب جنوب إفريقيا، هزم البريطانيون البوير. انتهت الحرب في 31 مايو 1902

1914 من روسيا تخبرني أن بلدها في طور التعبئة، وأن هناك حالة من الخوف والتوتر في الدوائر السياسية التي تتردد عليها، وكان ردُّ فعلي على توقعاتها السوداوية عفويًّا، لدرجة أنني كتبت إليها مرة أخرى أدعوها لزيارة شاطئ شيفينج معي.

«نسيم البحر القريب سوف يلقي بعيدًا كلَّ خيوط العنكبوت تلك!»، وكتبت شيئًا مشابهًا لهذا عندما تلقَّيتُ في الوقت نفسه تقريبًا نصيحة من فيينا بالتخلص من أي وثائق نمساوية قد أمتلكها بسبب التهديد الوشيك بالحرب، افترضت أن هذا إعلان روتيني وليس تحذيرًا خطيرًا.

شعرت بالخوف لأول مرة بعد حضوري مؤتمر المجلس الدولي للمرأة في روما، وإلى جانب مندوبين آخرين، تمَّ تحذيري من التحدث باللغة الألمانية أو أي لغة شبيهة في الأماكن العامة؛ لأنني سأكون عُرضةً لكل أنواع الكراهية والعنف.

بعد المؤتمر أمضيت عدة أسابيع في كابري وأناكبري مع الواعظة الأميركية البارزة الآنسة آنا هوارد شو، التي خاطَبَت نساء هولندا في عدة مناسبات لا تُنسَى، ورفيقتها، الآنسة لوسي أنتوني، آخر شيء كنت أعتقد أنه من الممكن أن يحدث في ذلك الوقت، هو الحرب[29].

بعد نهاية عطلتي المنعشة في إيطاليا، عُدت إلى المنزل لفترة وجيزة قبل أن أغادر إلى لندن، حيث كان من المقرر أن يجتمع المجلس الدولي لتحالف حق المرأة في التصويت مع رؤساء الجمعيات الوطنية التابعة

29- كان للخطيبة والراهبة والمدافعة عن حق الاقتراع آنا هوارد شو (1847-1919)، المذكورة عدَّة مرات في السيرة الذاتية- علاقة ثرية وقوية بجاكوبز. استمرَّت حتى وفاة شو. كانت لوسي أنتوني، ابنة أخت سوزان ب. أنتوني، صديقة شو الحميمية منذ عام 1890 فصاعدًا، في قرية بوش. شو هي واحدة من خمس نساء في «التحالف الدولي لحق المرأة في التصويت» - الأخريات هُنَّ: جاكوبز، وكات، وروزا مانوس، وروزيكا شويمر - تمَّ استكشاف العلاقات المتبادلة: رسائلها إلى جاكوبزفي تلك المجموعة توضِّح اللمحات في هذه المذكرات.

في بداية يوليو. لم يأتِ أحدٌ على ذِكر احتمالات الحرب، ولا حتى عندما دعانا نواب بريطانيون لتناول الشاي على شرفة البرلمان البريطاني.

عدت من لندن لأجد برقية من أوليف شراينر، المؤلِّفة جنوب الإفريقية، صاحبة الكتب المشهورة عالميًّا، مثل قصة «مزرعة إفريقية والأحلام»، كتبت لي تخبرني بأنها عائدة من ألمانيا، وترغب في البقاء معي لبضعة أيام. وبلا شك سيتذكَّر قرَّائي القدامى الدور الحيوي الذي لعبته أوليف شراينر في تاريخ بلدها، فشهرتها لا ترجع فقط إلى كتاباتها، ولكن أيضًا إلى موقفها الشجاع خلال حرب البوير، والذي أكسبها الكثير من التعاطف، ولكنها أثارت حفيظة الحكومة الإنجليزية؛ ممَّا أدَّى لنفيها إلى منطقة نائية غير صحِّيَّة في أحد أجزاء البلاد، وأُجبِرَت على العيش كسجين فِعليٍّ، وهو وضع كان له أثر كارثي على صحتها في وقت لاحق[30].

كان من المتوقَّع أن يصل قطارها إلى محطة امستردام بين العاشرة والحادية عشرة صباحًا، لكن بدلًا من ذلك وصلت الساعة الواحدة صباحًا، بدت ضيفتي في حالة ذهول شديد، حتى إنني اضطررت إلى التساؤل عمَّا إذا كانت تعاني من انهيار عصبي. اتَّضح أنه في كريساو (سيليزيا)، حيث كانت تقيم مع الكونت والكونتيسة فون مولتك، عكف الناس على التحدث عن الحرب الوشيكة داخل منزل مضيِّفها، وهو ابن أخي ووريث أهم جنرال ميداني في ألمانيا، كان الجميع مهووسًا بالأحداث المروعة التي بدت حتمية، وأيضًا تأخر

30- تنقسم إشارات جاكوبز إلى النسوية البريطانية/ جنوب الإفريقية والفيلسوفة وداعية السلام: أوليف شراينر (1855-1920) في ثلاثة فصول مختلفة. للاطلاع على تعليقات جاكوبز على كتاب «المرأة والعمل» لشرينر. والتي ترجمتها إلى اللغة الهولندية. انظر الفصل 11. للتَّعرُّف على مسارها البري الطويل لزيارة شرينر في جنوب إفريقيا في عام 1911. انظر الفصل 12. زيارة جنوب إفريقيا موصوفة على نطاق أوسع في (خطابات السفر 102- 108).

القطار المتجه إلى هولندا مرارًا وتكرارًا بسبب التعبئة، ومن الواضح أن هذا الحال يذكِّر صديقتي بكل الأهوال التي خاضتها مؤخرًا في جنوب إفريقيا.

لقد أعادت أمستردام والجو الهادئ في بيتي الطمأنينة لـ«أوليف شرينر»، حتى جاء يوم 31 يوليو 1914، وأعلنت الصحف المسائية أنه سيتم تعبئة الجيش الهولندي، فقرَّرَت على الفور المغادرة إلى لندن، وأيضًا تخوُّفها من ألَّا ترى وطنها مرة أخرى، في وقت مبكر من صباح اليوم التالي أخذتها إلى المحطة للحاق بالقطار المتجه إلى فليسينجين. في العادة كانت المحطة لتكون خالية في هذه الساعة، لكنها كانت تعجُّ بالرجال الذين أنهوا خدمتهم العسكرية قبل سنوات، والأزواج والآباء الذين لبُّوا نداء الحكومة للتجنيد، مغادرين منازلهم نحو الحدود، كان هناك خطر مُحدِق بتلك العائلات التي يتم توديعها ربما للمرة الأخيرة، والتي في أغلب الظن ستُترَك لتُدبِّر أمور حياتها وحدها.

وبمجرد أن توارى القطار عن الأنظار حاولت مواساة بعض النساء اللواتي وقفن هناك يبكين، وبمجرد إدراكهنَّ صدق قلقي على صالحهنَّ انهالوا عليَّ بالأسئلة، الكثير من العائلات، كان أزواجهن، وآباؤهن وأطفالهن، قد أخذوا أجورهم التي تقاضوها في الليلة السابقة معهم إلى الجبهة؛ اعتقادًا منهم أن الحكومة ستعول أُسَرهم. وبحسن نيَّةٍ تمامًا كانت هؤلاء النساء يسألنني إلى أين نذهب للحصول الأموال المنتظرة من قِبَل الحكومة. وتساءلت أخريات عمَّا إذا كان الخبَّاز، أو الجزار، أو بائع الحليب، أو البقال سيقدِّم لهم السلع على الحساب أثناء انتظارهنَّ لأجورهنَّ من الحكومة. أدركت في ذلك الوقت أنه لا يوجد وقت للراحة، لا بُدَّ من إيجاد الوسائل لتوفير الضروريات الأساسية لهؤلاء النساء.

لقد تأثَّرتُ بشدَّة بما رأيته وسمعته في ذلك الصباح، عدت إلى المنزل لعقد اجتماع طارئ لمجلس إدارة جمعية حق المرأة في التصويت. لقد وصفت لهم ما رأيته قبل ساعات ماضية، واتفقنا جميعًا على أنه يجب محاولة تقديم شكل من أشكال المساعدة المباشرة. كنا نعلم مسبقًا أنه حتى لو تمَّ اتخاذ إجراءات أولية على الفور فسيظل هناك بعض الوقت قبل أن تصل المساعدات الحكومية للجميع.

كان أول تحرك قمنا به هو إرسال رسالة إلى اللجان التنفيذية لمختلف فروع جمعية حق المرأة في التصويت. نحثُّ فيها على أن من واجبنا تخفيف المعاناة التي بدت واضحةً نتيجة للأعمال العدائية في أوروبا قدر الإمكان، واقترحنا تنحية عملنا في مجال حق التصويت جانبًا في الوقت الحاضر من أجل توفير الدعم اللازم لكل النساء. كما ضَمَّنَّا تلك الرسالة إجراءات مقترحة لأعضاء اللجنة، وعلى الرغم من أنه كان يوم الأحد، نجحنا في إرسال الرسالة لكل الفروع على الفور.

وفي اليوم التالي طَبعنا منشورًا ووزَّعناه على الفور في مناطق الطبقة العاملة بواسطة فتيان وفتيات الكشافة، حاملًا إعلانًا موجَّهًا إلى النساء اللائي يواجهن صعوبات مالية نتيجة لتجنيد عائل الأسرة، أبلغنا هؤلاء النساء أنهن يستطعن الاتصال بنا للحصول على المشورة والدعم، وأننا على استعداد للمساعدة المالية.

وفي صحف اليوم نفسه، أعلنَّا أن العديد من النساء والأطفال بحاجة ماسَّة إلى المساعدة، إلى أن تتمكَّن الحكومة من تنظيم شكل منتظم من أشكال الرعاية الاجتماعية. طلبنا تبرُّعات للمساعدة في تقديم هذا الدعم. وطلبنا من الخبَّازين ومحلات البقالة والحليب والأشخاص الذين يديرون مطابخ الحساء والمؤسسات المماثلة- قبول الإيصالات التي

وقَّعناها، بدلًا من النقود، على أساس أننا سنسوِّي تلك الديون في وقت لاحق.

لقد عملنا حتى وقت متأخر من هذا اليوم، وفي صباح اليوم التالي، بينما كنَّا على وشك استئناف مهامنا، اتَّصلَت بنا مجموعة من النساء المشاركات في حملات مماثلة لمناقشة اندماج مُحتمَل، وهو ما اتفقنا عليه على الفور طبعًا. ولبضعة أشهر كرَّستُ كل طاقتي لتلك الجمعية النسائية الكبيرة، وعلى الرغم من أنني لا أستطيع إنكار أنها ساعدت في تخفيف المعاناة، فإنني لست في الحقيقة مؤيِّدةً للعمل الخيري طويل الأجل، «بالمساعدة في تخفيف عواقب الحرب، ألسنا نساهم أيضًا في استمرارها، في ظلِّ الرعب والتَّدهوُر الذي تُسبِّبه؟» كان هذا السؤال دائمًا ما يجول بخاطري في يأس واضح.

ثم فكرت في الكاتدرائيات القديمة والكنوز الفنية والمكتبات التي لا تُقدَّر بثمن، والتي دُمِّرَت في ظل هذا الجنون. وفكرت في أنه لا زال هناك المزيد من القتلى والمشوَّهين من آلاف العائلات التي تمَّ تقسيمها، من الأطفال، والزوجات، الذين تم التضحية بآبائهم وأزواجهم من أجل كبرياء هؤلاء الذين يحكموننا. لقد أدركت بشكل جَليٍّ أنه في الوقت الذي ساعد تجنيد هؤلاء الرجال في جعل هذه المأساة ممكنة، كان بإمكاننا نحن النساء إنهاء تلك المذبحة من خلال الرفض الجماعي التام لتلبية الاحتياجات التي أوجدتها الحرب، وتجاهُل الضغط بأن نستمر في الحياة كأن شيئًا لم يحدث. إذا لم توافق النساء على تولِّي المسؤولية حينما يضطرنا الحكام لذلك، وإذا امتنعن عن القيام بوظائف الرجال؛ فإن تلك الحكومات سوف تُجبَر على التخلي عن هذه المغامرة الكارثية المسمَّاة بالحرب.

أردت أن أدعو النساء من كل الدول للاحتجاج معًا ضد أهوال

الحرب. ربما يمكننا حتى إيجاد طريقة لإنهاء تلك الأعمال العدائية. وإن كنت أعيش في بلدٍ لم يتأثَّر إلَّا بشكل غير مباشر، كنت مع ذلك مُدرِكَة تمامًا للإرهاب الذي تتعرَّض له المرأة في تلك الأراضي المتورطة فيها بشكل مباشر. تساءلت: إلى أي مدًى يجب أن يتحمل المرء كل شيء في نفس الوقت؟

بينما كنت أفكر في تلك المعضلة وحول كيفية تحقيق خطَّتي بتوحيد النساء ضد الحرب، تلقَّيتُ رسالة من «برلين»، في نهاية شهر أكتوبر 1914، تنصُّ على أنه في ظل هذه الظروف قرَّرَت النساء الألمانيات التخلي عن خططهنَّ لعقد مؤتمر التحالف الدولي للمرأة في برلين في يونيو 1915.

لقد تمَّ إبلاغي بذلك بصفتي رئيسة جمعية حقِّ المرأة في التصويت، وعلى هذا الأساس قرَّرتُ الدعوة إلى عقد اجتماع طارئ للجنة الشؤون الخارجية، وبناءً على الخطاب الذي وصلني من برلين أكَّدتُ على ضرورة اجتماع النساء من مختلف الدول في إقليم محايد، وبعد بعض المناقشات توافَقَت اللجنة في نهاية المطاف على نفس الرأي.

بناء على ذلك الاجتماع، تمَّ إرسال طلب في بداية شهر نوفمبر إلى مجلس إدارة التحالف الدولي لحق المرأة في التصويت، وإلى رؤساء الجمعيات التابعة. وكان نصُّ الفقرة الأخيرة في هذا الخطاب كما يلي:

«في هذه الأوقات التي تزداد فيها الكراهية والحرب بين الأمم، يتوجَّب علينا - نحن النساء - أن نُظهِر أنه يمكننا على الأقل الحفاظ على التضامن والصداقة المتبادَلَة.

ورغم استحالة عقد مؤتمرنا في برلين كما هو مُخطَّط، إلا أننا كنا نقترح مع ذلك ضرورة استمرار اجتماع التحالف في بلد محايد، وتتمثَّل

الخطة في مناقشة مسائل التحالف خلال النهار؛ وذلك لتوفير فرص إضافية في المساء للتعبير عن المنظور النسائي حول الوضع الراهن في أوروبا، ونظرًا لأن هولندا ربما تكون واحدةً من أسهل البلدان التي يمكن الوصول إليها؛ نودُّ دعوة التحالف لعقد مؤتمره في بلدنا ونحن بطبيعة الحال على استعداد لاتخاذ كافة الترتيبات اللازمة».

إحدى أمينات التحالف، الآنسة كريستال ماكميلان[31]، من لندن، أيَّدَت مقترحاتنا في مذكِّرَة خاصة مصحوبة بهذه الرسالة الرسمية. كما اقترحت أيضًا أن نُبقي جميع المنظمات النسائية الدولية على اطِّلاع بـ«خططنا»، وتوجيه الدعوات لها لحضور المؤتمر، والذي سيشمل مناقشة خُطَط السلام التي وضعتها مختلف جمعيات السلام. نُشرت هذه الرسائل والإعلانات في عدد كانون الأول (ديسمبر) 1914من مجلة «الحق في التصويت»، وهي المجلة الشهرية للتحالف العالمي لحق المرأة في التصويت.

ولم تكن الردود التي تلقَّيتها خلال الأشهر القليلة التالية مشجِّعة، فمعظم أعضاء مجلس إدارة التحالف اعتبروا اقتراح المؤتمر شيئًا من الخطأ السياسي، ورأى آخرون أنها فكرة لا طائل منها في ذلك الوقت، «انتظري إلى ما بعد الحرب»، هذا الذي ظللت أسمعه، وباستثناء الآنسة ماكميلان لم أتلقَّ سوى القليل من الدعم، حتى من مجالس

31- كانت كريستال ماكميلان (1872-1937) على مدى عقود مُنظِّمة وناشطة رئيسية في مجموعة من هيئات الاقتراع والسلام والعمل في بريطانيا العظمى، وعلى الصعيد الدولي. تخرَّجَت في جامعة إدنبره، في الرياضيات والفلسفة الطبيعية، وعملت في اللجنة التنفيذية للاتحاد الوطني لجمعيات حق المرأة في التصويت (NUWSS)، ولكنها استقالت، مع كيت كورتني وآخرين، إثر خلافٍ مع موقف ميليسنت غاريت فوسيت المؤيِّد للحرب، وكانت سكرتيرة لـ IWSA من عام 1913 إلى عام 1920، بعد الحرب درست القانون، وفي عام 1923 أصبحت واحدة من أوائل النساء اللواتي تمَّ استدعاؤهنَّ إلى نقابة المحامين، وقالت إنها مهتمَّة بصفة خاصة بتكافؤ فرص العمل للمرأة وجنسية المرأة المتزوجة.

الجمعيات المنتسبة أيضًا. في ذلك الوقت كتَبَت إليَّ أكثرُ من عضوة في الجمعيات: «على المستوى الشخصي أعتقد أنها فكرة جيدة، ولكن منظَّمتي لا تريد أن تسمع مثل تلك الاقتراحات في هذا التوقيت».

لكن الدعوة التي نشرتها مجلة «الحق في التصويت» جلبت لي أيضًا العديد من رسائل التعاطف، حتى من نساء الدول المتورطة في الحرب بشكل مباشر، وبناء على ذلك أدركت أنني سوف أحقِّق هدفي بشكل أسرع وأكثر فعالية إذا تم تنظيم المؤتمر من قِبَل عدد من النساء، فرديًّا، لا من قِبَل المنظمات المعنية[32]. هذا النوع من التجمعات من الممكن أن يركز على الحملة المناهضة للحرب، حيث إنه في التحالف المخصَّص لصالح حق المرأة في التصويت فإن الاحتجاج على الحرب يعتبر مجرد مَهمَّة إضافية فحسب. وبغضِّ النظر عن مدى وضوح شرحي لذلك، فإن اللجنة المركزية للجمعية الهولندية لحق المرأة في التصويت شعرت بأنها غير قادرة على دعمي، رغم تعاطف عدد من الأعضاء مع أهدافي.

لكنني لم أعُد بمفردي في ذلك المسعى، فالدكتورة ميا بواسيفاين[33]

32- واصلت مجلة «حق التصويت» النشر في ظلِّ الصعوبات الهائلة أثناء الحرب. تحت رئاسة التحرير من المتفانية لماري شيبشانكس. كانت إحدى الوسائل القليلة جدًّا التي تمكَّنَت النساء من خلالها من الحفاظ على اتصالاتهن الدولية.

33- من عائلة ثرية في أمستردام. ظلَّت لفترة طويلة في طليعة الحياة الاجتماعية والثقافية. أصبحت ميا بواسفين أول امرأة هولندية تحصل على درجة الدكتوراه في علم الأحياء. بدأت دراستها في أمستردام وأكملتها في زيورخ. منجذبة إلى الحركة النسوية من خلال المجتمع المصمَّم من قبل النساء من جميع أنحاء العالم لمتابعة التعليم العالي في زيورخ. عند عودتها إلى هولندا تقارَبَت مع أليتا جاكوبز. وأنشأت في النهاية، مع روزا مانوس، لجنة الدعاية الناجحة للغاية لجمعية حق التصويت الهولندية. كانت بواسفين ومانوس صديقتين حميمتين، وزميلتي عمل لسنوات عديدة؛ فبعد مقتل مانوس على أيدي النازيين، كتب بويسفاين مذكرة (غير منشورة) تتضمَّن نوادر تكشف عن معاناة مانوس بشأن هويتها اليهودية. كان معرض المرأة 1813-1913 حدثًا هامًّا في تاريخ المرأة الهولندية. وعلى غرار المعرض الوطني السابق لعمل المرأة في عام 1898 أعطى هذا المعرض العديد من النساء الموهوبات فرصة لتطوير المهارات التنظيمية والقيادية والارتباط بالمجتمع والقضايا المحلية.

وروزا مانوس صاحبتا المجهودات التي لا تُقدَّر بثمن في تنظيم «معرض المرأة 1813- 1913» المثير للإعجاب في أمستردام قد عرَضَتا الآن المساعدة. قرَّرنا دعوة عدد من النساء اللائي نؤمن بتعاطُفهنَّ مع قضيتنا، من أقرب الدول المحايدة أو المتحاربة. طُلب منهنَّ حضور اجتماع تحضيري في أمستردام في 12-13 فبراير 1915. واستجابت لهذه الدعوة ثلاث نساء بلجيكيَّات، وأربع ألمانيات، وخمس نساء إنجليزيات.

بالإضافة إلى ذلك تلقَّينا العديد من رسائل التضامن من الدول الاسكندنافية؛ ولذا شرعنا في إعداد الخطط مع ضيوفنا الأجانب وعدد من النساء الهولنديات الأخريات، ومع كل الدعم الذي قدَّمَته المنظمات في الداخل والخارج، ومع جميع عروض المساعدة من النساء في البلدان المجاورة، سرعان ما أصبح واضحًا أننا كنَّا مُحقَّاتٍ تمامًا في الاعتقاد بأن المؤتمر لديه فرصة حقيقية للنجاح؛ وبالتالي، قررنا تنظيمه في أقرب وقت ممكن في لاهاي.

قرَّرَت كلٌّ من الدكتورة أنيتا أوجسبورج وليدا جوستافا هيمان، وهما شخصيتان بارزتان في الحركة النسائية الألمانية، وكريستال ماكميلان وكيت كورتني[34] من إنجلترا؛ أنَّهن إذا سمحت لهنَّ الظروف الشخصية سيغادرن إلى هولندا في أقرب وقت ممكن للمساعدة في التحضيرات، كنَّا مدينات بشكل خاص لجين فان لانشوت هوبريخت

34- لعبت زعيمة حق التصويت كاثلين كورتني (1878-1974) دورًا رئيسيًّا في التقارب بين الاتحاد الوطني لجمعيات حق المرأة في التصويت (NUWSS) وحزب العمال البريطاني في عام 1912. ولكن بعد ذلك في عام 1914 استقالت من السلطة التنفيذية NUWSS بسبب وجهات نظرها المناهضة للحرب. كانت عضوًا مؤسِّسًا في الرابطة النسائية الدولية للسلام والحرية (WILPF)، وعملت لسنوات عديدة كرئيسة لقسم اللغة الإنجليزية. في سنوات ما بعد الحرب العالمية الأولى شغلت مناصب هامة في اتحاد عصبة الأمم، وحملة المرأة من أجل السلام، وعاشت لتصبح رئيسة ورئيسة اللجنة التنفيذية لرابطة الأمم المتحدة - رابطة الأمم.

وكور راموند هيرشمان وهانا فان بيما هيمان، وبسبب هؤلاء النساء النشيطات والموهوبات إلى حدٍّ كبير، وعلى الرغم من كل الصعوبات والتأخيرات في البريد والرسائل المفقودة والرقابة والمصادرة، نجحنا في التحضير لتنظيم مؤتمر دولي مقرَّر له في غضون شهرين فقط أن يحضره عدد ضخم من النساء من 12 دولة مختلفة[35].

لقد كان ذلك الوقت زمنَ التَّطرُّف، فإلى جانب رسائل الدعم كانت هناك أيضًا بالطبع مشاعر توجُّس في أنه قد تمَّ الدفع لنا من قِبَل إحدى الدول المتحاربة: ألمانيا على وجه الدِّقَّة، ومع ذلك وافقت النساء الإنجليزيات والهولنديات - مثل أخواتهن الألمانيات - على دعم المؤتمر ماليًّا، باستثناء الحالات التي تتمُّ فيها تغطية تكاليفها من خلال التَّبرُّعات الطَّوعيَّة، وعلى الرغم من ذلك انتشرت شائعة مفادها أننا مدعومات من الحكومة الألمانية.

بمجرد أن أصبح واضحًا أننا نتجاهل هذا النوع من التلميح، بدأت خططنا تتعرَّض للهجوم والسخرية بشكل منظَّم. لكن لم يكن لأي شيء من هذا أن يثبِّط آمالنا أو يطفئ حماستنا. عملت السكرتيرات بجدٍّ من الصباح الباكر حتى وقت متأخِّر من الليل. وصلتنا أكوام من الرسائل والبرقيات، وكذلك كنَّا نرسل كلَّ يوم سيلًا من الدعوات إلى جميع أنحاء العالم، حتى إن خصومنا أعجبتهم الأخبار التي تقول بأن المؤتمر سوف تقوده امرأة ذات شهرة عالمية. كانت تلك المرأة ليست سوى جين أدامز، مؤسِّسة «هال هاوس» Hull House في شيكاغو،

35- وكانت جميع هؤلاء النساء الثلاث نَشِطات منذ فترة طويلة في المنظمات النسائية وفي أعمال السلام. وكانت الأبرز والأقرب من جاكوبز هي كورنيليا (كورا) راموند هيرشمان (1871-1957). التي شاركت في وفد مؤتمر لاهاي للدول المحايدة: وبعد الحرب كانت لسنواتٍ عديدة. رئيسة الفرع الهولندي لرابطة النساء الدولية للسلام والحرية الهولندية.

وهي من دُعاة السلام المعروفات، والتي كان سترافقها مجموعة كبيرة من النساء الأمريكيات.

كان من الواضح أن بعض الدول المتحاربة تخشي التأثير المحتمل لهذا المؤتمر، واتَّضح ذلك جليًّا عندما أوقفت الحكومة الإنجليزية جميع خدمات العبَّارات المتجهة إلى هولندا، قبل ثمانية أيام فقط من الاجتماع الأول في لاهاي؛ ممَّا أجبر 180 امرأة إنجليزية على التَّخلِّي عن خططهن للمشاركة. هذه الخطوة أحبطت أيضًا خطط النساء الفرنسيات اللواتي كان عليهنَّ السفر إلى هولندا عبر إنجلترا. وعندما تمَّ احتجاز السفينة نوردام Noordam التابعة للخطوط الهولندية الأمريكية في إنجلترا، مع أكثر من أربعين عضوًا من الوفد الأمريكي على متنها، بدأ الخوف يتسلَّل إلينا من أن كل عملنا كان ليذهب أدراج الرياح، لكن لحسن الحظ تمكَّنَت هؤلاء النساء من الوصول إلى لاهاي في وقت افتتاح المؤتمر. وعلى الرغم من معارضة إنجلترا، إلا أنه لم تُمثِّلها فقط كريستال ماكميلان وكيت كورتني، اللتين عملتا بجدٍّ على ترتيبات المؤتمر فحسب، بل أيضًا السيدة بيثيك لورانس، التي أبحرت من الولايات المتحدة[36].

وبطبيعة الحال، كان كل مَن حضرن الاجتماع على علم تام

36- كان من الممكن أن تأتي مجموعة كبيرة لو تمكَّنوا من الوصول إلى هناك. لم يكن الأمر كذلك: جزئيًّا بسبب التاريخ الخاص لنشاط المرأة في فرنسا وعلاقته بالقومية وبأحزاب معينة. وجزئيًّا بسبب المواقف الفردية لعدد ضئيل من النساء الفرنسيات اللواتي يشكِّكن علنًا في الحرب. لم يتحقق أي وفد فرنسي محتَمَل. الاشتراكية المناهضة للحرب لويز سومونو. التي حضرت مؤتمر السلام النسائي الاشتراكي في مارس 1915 في برن (انظر «أنماط الذِّكرى») لم تُعتبر خيارًا مناسبًا من قبل جاكوبز وغيرها من المنظمين الرئيسيين. وناشطة السلام جين ميلين. التي قامت جاكوبز وماكميلان بإرسال برقيات لها مرارًا وتكرارًاحتى تأتي إلى لاهاي. كانت لاجئة. وربما لم تتلقَّ البرقيات. وبالفعل بعثت مجموعة قيادية من المدافعين عن حقوق المرأة في فرنسا برسالة «تعرب عن أسفها لعقد مثل هذا التجمع في الوقت الذي تقع فيه بلادهم تحت الغزو».

بواجبهن المقدَّس في بذل كل ما في وسعها لوقف تلك المذابح والدمار التي تُسبِّبه الحرب، وعلى الرغم من هيمنة إراقة الدماء والشوفينية على العالم الخارجي، إلَّا أنه لم يكن هناك مكان لتلك المشاعر خلال المؤتمر، حيث تواصَلَت النساء من الدول المعادية مع بعضهن البعض في الأخوَّة، وعملن معًا في جوٍّ من الانسجام التام.

قرَّرنا إنشاء لجنة خاصة، كنت أنا من ضمنها، لصياغة قائمة من التوصيات والقرارات التي سوف تنتج عن المؤتمر، وكان القرار الأول الذي يدعو إلى إنهاء الأعمال العدائية وبدء محادثات السلام على أساس مبدأ العدالة لجميع الدول، عزيزًا بشكل خاص على قلبي، وكذلك خطة تشكيل لجنة من المندوبين من البلدان المحايدة التي يمكن أن تتفاوض بين قوات العدو. واكتشفنا فيما بعد أن العديد من القرارات التي اعتمدها مؤتمرنا، والتي ركَّزَت على فكرة السلام العادل، أُدرِجَت في «النقاط الأربع عشرة» الشهيرة للرئيس ويلسون.

تقرَّر في نهاية المؤتمر أن تقدِّم مندوبة نسائية قراراتنا إلى الدول المحايدة والدول المتحاربة. وافقت أنا والآنسة جين آدامز على تحمُّل المسؤولية عن معظم الأعمال ذات الصِّلة، وقد طُلِب منَّا أوَّلًا زيارة رئيس الوزراء ووزير الخارجية الهولندي، ثم إبلاغ حكومات إنجلترا وألمانيا والنمسا والمجر وسويسرا وإيطاليا وفرنسا وبلجيكا شخصيًّا بالخطط والمقترحات التي اعتمدها مؤتمر المرأة في لاهاي. نظرًا لأنني كنت لا أزال أشعر بالضعف إلى حدٍّ ما من نوبة الإنفلونزا؛ فقد قَبلتُ بامتنانٍ عرض السيدة فان جرونيت التي مكثت معها خلال المؤتمر لترعاني أثناء سفرنا، وافَقَت د. أليس هاملتون، أستاذة

النظافة الاجتماعية بجامعة هارفارد، على أن تكون رفيقة الآنسة جين آدامز[37].

في الخامس من مايو 1915، ذهبنا للقاء رئيس الوزراء الهولندي كورت فان دير ليندن، ووزير الخارجية جونخير لودون.

شرَحَت الآنسة أدامز سبب زيارتنا، وشدَّدَت بوجهٍ خاص على أن واجب البلدان المحايدة أن تعرض التوسط بين الدول المتحاربة. خلال مقابلتنا، بدأ يتَّضح لنا شيئًا فشيئًا أن رئيس الوزراء فان دير ليندن هو نفسه من دُعاة السلام، ومن الواضح أن هذا الرجل العجوز الموقَّر يشعر بأنه ينبغي إعلان وقف إطلاق النار في أقرب وقت ممكن، وبالعودة إلى الوراء ما زلت أسمعه يسأل بشكل مزعج إلى حدٍّ ما: «ولكن أليست النساء في هذه البلدان يُحرِّضن على الحرب مثل نظرائهن من الرجال؟» فأجابت الآنسة آدامز: «لا يمكن للنساء التصويت في أيٍّ من البلدان المشاركة في الحرب؛ لذلك من الصعب أن تسمع آراء الواحدة منهنَّ ما تقرؤه في الصحف هو آراء بعض من الكاتبات فقط».

لاحقًا، استقبلنا وزير الخارجية الإنجليزي السير إدوارد جراي في 13 مايو 1915. وقد أعجب بشكل خاص بعدد النساء الألمانيات الحاضرات في المؤتمر. كان مهتمًّا أيضًا بحقيقة أن الحكومة الألمانية لم

37- لعبت عالمة السموم الصناعية الرائدة والمصلح الاجتماعي أليس هاميلتون (1869-1970) دورًا أكبر في الأحداث التي تتكشف في هذا الفصل، وفي تأريخها، أكثرَ ممَّا تشير إليه مراجع جاكوبز الموجزة. في البداية كانت متشكِّكةً في المشروع بأكمله، ولكن بعد ذلك تأثَّرَت بشدَّة، وانضمَّت إلى جين أدامز مع إميلي بالش، التي شاركت في وفد الدول المحايدة، لكتابة «نساء في لاهاي» (1915). حضرت هاملتون مؤتمر زيورخ عام 1919 وذهبت إلى ألمانيا - كما ذكرت جاكوبز لاحقًا في هذا الفصل - لتقييم المجاعة المتعلقة بحصار الغذاء الذي يفرضه الحلفاء بعد الحرب. رسائلها حول رحلة نوتردام، ومؤتمر لاهاي، ومؤتمر زيورخ (سيشرمان 221-232، 233) هي وثائق استثنائية.

تفعل شيئًا لمنع هؤلاء المندوبين من الحضور. شرحت له أن السلطات المحلية في ألمانيا لها سُلطة إصدار جوازات السفر، ونتيجة لذلك تمكَّنَت بعض النساء من السفر إلى هولندا، بينما أُجبِرَت أخريات على البقاء في ألمانيا. أضفت خلال الاجتماع أنني مُعجَبة للغاية بشجاعة الوفد الألماني؛ لأنه من المؤكَّد أنه سيواجه أوقاتًا صعبة بمجرد عودته إلى الوطن. أخبرنا السير إدوارد جراي، الذي أصبح الآن الكونت جراي، أن الرئيس الأمريكي ويلسون سيلعب في رأيه دورًا مهمًّا في أي محادثات سلام مستقبلية.

في اليوم التالي، التقت الآنسة آدامز بالسيد إسكويث، رئيس الوزراء البريطاني، وتحدَّثتُ أنا في اجتماع نسائي حول المؤتمر والمقترحات التي تبنَّاها. وفي 15 مايو، غادرنا إلى هولندا. على متن القارب، رأينا المزيد من الأدِلَّة على المعاناة التي سبَّبتها الحرب، حيث كان من بين الركاب المرافقين لنا في المركب عدد كبير جدًّا من الشابات، بعضهن يحملن أطفالًا بين أذرعهن، وبعضهن مع أطفال في سنِّ ثلاث أو أربع أو خمس سنوات، وبعضهن في مراحل متقدِّمة من الحمل، وعلى الرغم من كونهن لا يتحدثن أي لغة سوى الإنجليزية، أو قد وَطِئَت أقدامهن خارج بريطانيا، فقد أصبحن الآن زوجات لمواطنين ألمان، ورعايا لدولة معادية، وتمَّ نفيهن من وطنهن الأم.

كان أزواج هؤلاء النساء إمَّا قد تمَّ تجنيدهم في الجيش الألماني، أو تمَّ إرسالهم إلى معسكرات الاعتقال من قِبَل الحكومة الإنجليزية. ومع ذلك يجب أن أشير إلى أن بريطانيا لم تكن الدولة المتحاربة الوحيدة التي نفَّذَت مثل هذه الإجراءات ضد نسائها، لكن هذا المثال بالذات يُظهِر بوضوحٍ استبدادَ نظامٍ يسرق الجنسية من المرأة إذا تزوَّجَت من أجنبي، أو إذا غيَّر زوجها جنسيته أثناء الزواج. ومنذ ذلك الحين

اعترفت عدد من الحكومات بظلم هذا القانون، وحاوَلَت إدخال إصلاحات على المستوى الدولي.

استأنفنا رحلتنا في 19 مايو متَّجهين إلى «برلين». فور وصولي اتصلت بسفيرنا على الفور، وقدَّمت له أوراق التعريف الخاصة بي، وفي غضون ذلك زارت رفيقتي في السفر السفارة الأمريكية، وبفضل الجهود الدبلوماسية من هؤلاء السفراء، استقبلنا في اليوم التالي وزير الخارجية هير فون جاغو. مثل السير إدوارد جراي، أعرب عن أمله في السلام بالمستقبل القريب وعن قناعته بأن هذه المبادرة ينبغي أن تتخذها الدول المحايدة بقيادة الرئيس ويلسون. لكن الوزير اعترف أيضًا بتشاؤمه، ورغم توقُّعه بأن الجيل الحالي لن يفكر أبدًا في شَنِّ الحروب أبدًا، إلَّا أن طبيعة الإنسان العنيفة ستنتصر في النهاية وتدفعه للجوء إلى العنف.

علَّقتُ على ذلك بالقول: «إنه من المحتمل أن يكون للمرأة القدرة على المساعدة في إدارة الحكومات جنبًا إلى جنب مع الرجال».

اتَّفق هير فون جاغو على أن الأمل يكمن في المستقبل، «إذا تمكَّنَت النساء من التأثير على الحكومات بمشاعرهن السامية، فسيكون العالم مكانًا أفضل».

في اليوم التالي، السبت 22 مايو، استقبل وزير الداخلية، ثيوبالد فون بيثمان هولفيغ، رفيقتي. لم أتمكَّن من مرافقتها لأن السفير الهولندي لم يكن قادرًا على استيفاء الإجراءات الرسمية للزيارة. وأكَّد الوزير بيثمان هولفيغ على أهمية السلام الجديد بالاحترام من جميع الأمم، وأعرب مرة أخرى عن أمله في تدخُّل الدول المحايدة.

في الأمسية السابقة، بينما كانت الآنسة آدامز تخاطب مجلس المرأة الألماني، كنت قد تلقَّيتُ دعوة لزيارة ذلك عضو الحزب الديمقراطي الاجتماعي الصادق السيد إدوارد برنشتاين[38]. لقد رحَّبَت بي عائلته الكبيرة. وأخيرًا، تمكَّنتُ من رؤية ألماني ينظر إلى الوضع العالمي برُمَّته دون أدنى شبهة من التَّحيُّز، ومن منظور عالمي واسع.

غادرنا إلى فيينا في يوم 23 مايو، وهو نفس اليوم الذي أعلنت فيه إيطاليا الحرب على النمسا والمجر. وغنيٌّ عن القول أن المدينة كانت في حالة من الهياج الشديد.

في اليوم التالي، وعلى الرغم من كونه يوم الاثنين، قمنا بزيارة سَفيري دولتَيْنا اللذين وعدا بترتيب لقاء لنا مع وزيري الخارجية والداخلية: الكونت فون ستيرغه، والبارون بوريان، وفي النهاية تمَّ منحنا مواعيد في وقت لاحق من ذلك الأسبوع. وظهر الوزيران متأثِّريْن بشدة بسبب إعلان الحرب في إيطاليا. وعلى عكس رجال الدولة مثل فون جاغو والسير إدوارد جراي، شعرَا أن الرئيس ويلسون لم يكن على دراية بسياسات العالم القديم؛ وبالتالي ليس الرجلَ المناسب للتَّدخُّل. بل قالوا إن هذه هي مَهمَّة البلدان المحايدة في أوروبا. وجد الكونت فون ستورغ صعوبة في تصديق بأن العالم يمكن أن يقف مكتوف الأيدي، ولا يفعل شيئًا، بينما تُدمِّر أوروبا نفسها. وشكرنا على زيارتنا وقال: «هذه هي المرة الأولى منذ ثمانية أشهر التي يتحدث فيها شخص ما بعقلانية في هذا المكتب».

38- إدوارد برنشتاين. عضو قيادي في الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني (SPD). كان من أشد المدافعين عن الأمميَّة في سنوات ما قبل الحرب. بعد أن دعَّم في البداية الجهود الحربي الألماني. أصبح ناقدًا صريحًا. كان في وقت مبكر مناصرًا لمنظمة دولية للشعوب. انظر جوزيفسون.

في ذلك المساء غادرنا إلى سالزبورغ وإنسبروك في طريقنا إلى برن. ولكن في البداية ألقينا خطابًا في تجمُّع نسائي من خمسين امرأة نمساوية استمعن إلى قصة حملتنا الضارية من أجل السلام باهتمام كبير.

في العاصمة السويسرية، رتَّبت الدكتورة جيرترود ووكر[39]، التي تُعدُّ شخصية معروفة في الأوساط الأكاديمية، لقاءَ كلٍّ من وزير الخارجية، هير هوفمان، والرئيس هير موتا، وتبيَّن أن الرئيس رجُلٌ ذكي للغاية، وودود، كان لدينا معه لقاء طويل ومفيد للغاية. قال في لحظة من اللحظات: «كيف يمكن للنساء من تلك البلدان المتورِّطة في الحرب ألَّا يتمرَّدن ببساطةٍ ضد واقع قتل وتشويه الآلاف المواطنين الرجال!».

عندما غادرناه، وعد الرئيس موتا أنه سيتحدث إلى البابا نيابة عنَّا. قال: «بنديكتوس الخامس عشر هو صديق جيد لي. أنا أعرفه، ومتأكِّد أنه كان ليرغب في مقابلتكِم».

على الرغم من أنه كان ممنوعًا في سويسرا الترويج العلني للسلام، فقد طلبنا إذنًا لإلقاء خطبة في اجتماع مفتوح للنساء حول موضوع «النساء والحرب». لم يتم منحنا الإذن فحسب، بل حصلنا أيضًا على إذن استخدام قاعة المدينة، حيث جاء حشد كبير من النساء لهذا الاجتماع.

غادرنا برن متوجِّهين نحو روما في صباح يوم الثالث عشر من يونيو،

39- حضرت جيرترود ووكر، أستاذة الكيمياء في جامعة برن، مؤتمر زيورخ عام 1919. وأصبحت لاحقًا عضوًا في لجنة WILPF حول الحرب الكيميائية. وقادت جهودًا لدفع العلماء إلى إدانة استخدام البحث العلمي في الحرب والدمار. بعد أكثر من ثلاثة عقود، في عام 1955، كانت لا تزال نشطة في WILPF، لفتت الانتباه إلى أهوال الأسلحة النووية.

وبمجرد عبورنا الحدود السويسرية تمَّ إغلاق جميع نوافذ القطار حتى لا نرى شيئًا من المناظر الطبيعية التي كنَّا نسافر بجوارها. كلما توقَّفنا في محطةٍ ما تبيَّن لنا ضجيج واضطراب عظيمان، حيث الشباب يغنُّون ويهتفون وهم ذاهبون إلى الحرب.

حرب إيطاليا قد بدأت للتَّوِّ؛ لذلك لم يكن شعبها قد عانى بعدُ من الألم والمعاناة، ومن الواضح أن أولئك الذين تخلَّفوا عن الركب أصيبوا بخيبة أمل. بالنسبة لنا، بعد أن رأينا المذبحة التي ألحقتها الحرب بألمانيا والنمسا، كان مروِّعًا أن نرى مدى حماسة هؤلاء الشباب منطلقين نحو يومهم الموعود بالموت والقتل.

في اليوم التالي وصل قطارنا المكتظ للمدينة الخالدة. كنَّا قد سافرنا لأكثر من أربع وعشرين ساعة. ومع ذلك، شرعنا في صباح اليوم نفسه في مقابلة سفرائنا، الذين رتَّبوا لنا زيارة وزيري الخارجية والداخلية: سجنوري سالندرا وسونينو، على التوالي. لكن هذا الاجتماع كان غير مُرضٍ لأن كِلَا الرجلين كانا منتشيَيْن بسحر المعركة، ولم يُدرِكَا بعدُ الرُّعبَ الكامل للحرب.

يا لها من حالة انفعال شديدة سادت جميع أنحاء المدينة! حيث امتلأت الشوارع بمئات الآلاف من الأشخاص الذين استحوذت عليهم روح الحرب.

لقد كانت الرسوم الكاريكاتورية للوزير جوليتي، الرجل الوحيد الذي كان لديه الشجاعة الأخلاقية لمعارضة تورُّط إيطاليا في الحرب، معروضةً للبيع في كل مكان في الشوارع، حتى إننا رأينا حشودًا مبتهجة تستعرض دُميةً خشبية لرجل الدولة، والتي تمَّ تعليقها لاحقًا من حبل المشنقة. علَّمتنا هذه الإقامة في روما مدى سهولة التأثير على

الرأي العام، وأيضًا أنه من الاستهتار السماح لبرلمان يتكوَّن حصريًا من الرجال باتخاذ قرار إعلان الحرب.

لقد استغرق الأمر يومين فقط، كما قيل لنا، «لكي يقتنع الجمهور بفكرة الحرب». في الواقع، كل ما كان مطلوبًا هو بعض قصص صحفية خادعة تنشر الأكاذيب عن دول العدو، واثنين من التقارير حول الاعتداءات التي تمَّ التسامح معها في تلك البلدان، بالإضافة إلى بعض المقالات لغرس الخوف بأن إيطاليا سوف تعاني من نفس المصير الذي لحق بالآخرين ما لم تتصرَّف الحكومة على الفور. والنتيجة: اعتقد الناس أنهم إذا وقفوا مكتوفي الأيدي فإن وطنهم سيغرق في الفوضى والكوارث، كانت هذه الرسالة قوية لدرجة أن الغالبية العظمى من أعضاء البرلمان فشلوا في الهروب من نفوذها. وغنيٌّ عن القول أنه لم تكن أي من النساء الإيطاليات تقبل رسالة السلام التي جئنا بها إلى هذا البلد.

لكننا كنَّا أكثر نجاحًا مع البابا، قداسته منحنا مقابلته في الفاتيكان، ليس لي أو لجين آدامز فقط، بل وأيضًا ولكن لرفيقتينا في السفر. وفي هذا الاجتماع، الذي استمرَّ أكثر من ساعة ونصف الساعة، أثبت بندكت الخامس عشر أنه رجل متحضِّر ومثقف للغاية. ولكن بدا واضحًا أيضًا أنه على الرغم من تكريسه حياته للسعي وراء المعرفة، فإنه لم يكن دائمًا ذا حُكم سليم على المجتمع بكل تعقيداته، وأكَّد لنا البابا بكل إخلاص أن كل محاولة لضمان السلام من المؤكَّد سوف تحصل على دعمه، وأنه مستعدٌّ للنظر في كل الأفكار حول هذا الموضوع، وفيما يتعلق بالمرأة ودورها في المجتمع، رأى سيد الكنيسة هذا أنه ينبغي لها بوجه عام أن تمارس المزيد من الفعالية في تربية الأطفال، وأن يكون لها دور أكبر في التعليم.

لكن عندما سألت السيدة فان وولفن بالث قداسته عمَّا إذا كان ينبغي أن يمتدَّ هذا التأثير إلى مستوى الحكومة الوطنية، فجأة لم يصبح البابا قادرًا على الرد على الأسئلة.

خلال ليلتين ويوم واحد، سافرنا من روما إلى باريس، حيث دعونا السفيرين الهولندي والأمريكي لترتيب لقاءاتنا مع أعلى المسؤولين الحكوميين، ومع ذلك فقد التقينا بالرئيس ووزير الخارجية في النهاية بفضل السيد لونجيه عضو البرلمان وحفيد كارل ماركس، أبي الاشتراكية، المشهور عالميًّا. عرف لونجيه الطريقةَ الأكثر فاعلية بالنسبة لنا للقاء فيفياني وديلكاسي. صرَّح لنا الأخير أنه حتى بعد شهور من الحرب لن توافق فرنسا أبدًا على وقف إطلاق النار، مهما كانت الشروط مواتية: «لقد عقدنا العزم على تدمير قوة ألمانيا، وسنفعل كل ما هو ضروري لتحقيق هذا الهدف». لم ينجح منطقنا القوي في اختراق جدار الكراهية والانتقام الخاص بهؤلاء المسؤولين.

زيارتنا الثانية مع السيد فيفياني بدا فيها أكثر هدوءًا ونزاهة، وعلى الرغم من أنه كان على ما يبدو ميَّالًا نحو السلام والنسوية، إلا أن فيفياني اعتقد أن الوقت لم يَحِن بعدُ لفرنسا كي تتبنَّى المفهوم المثالي للسلام بشكل دائم.

هل كان مُستَغرَبًا أن نشعر بخيبة أمل عميقة من ممثِّلي الشعب الفرنسي هؤلاء؟! بل وكان هناك ما هو أسوأ قادم، فبعد أن أعمتهما الظروف، سقطت كلٌّ من رئيسة ونائبة مجلس المرأة الفرنسي، ونشرتا مقالات في صحف باريس حاول تشويه سمعتي أنا والآنسة جين أدامز بأشدِّ الأساليب المخزية، استند هذا المقال إلى تقارير كاذبة في الصحافة الفرنسية عن مؤتمرنا في لاهاي، والذي لم تحضره كلتا

السيدتين، سواء السيدة سيغفريد ولا السيدة أفريل دي سانت كروا، وقد حاول السيد أوتليه، وهو بلجيكي[40] كان حاضرًا في المؤتمر، أن يجعل الصحف الفرنسية تكتب عن خبرته الشخصية في المؤتمر الذي حضره، والتي تدحض بوضوحٍ هذه الادعاءات الخاطئة لهؤلاء النساء، لكن الصحف الفرنسية رفضت بعنادٍ نشر وجهة نظره[41].

عندما قدمنا شكوى إلى اللجنة المركزية لمجلس المرأة الفرنسي حول الطريقة التي عوملنا بها، دعتنا السيدة دي ويت شلمبرجير رئيسة الجمعية الفرنسية لحق المرأة في التصويت، إلى جانب كلٍّ من السيدات سيغفريد وأفريل دي سانت كروا لتناول الشاي في منزلها، ويبدو أن مدام أفريل دي سانت كروا لم تكن مُتاحةً على ما يبدو، لكن السيدة سيغفريد ظهرت بالفعل بصحبة مجموعة من النساء الشوفينيات على شاكلتها.

طُلب منَّا وصف المؤتمر، ولكن لم تكن هناك طريقة لإقناع خصومنا بأنهن أسأن تفسير أحداثه. بشكل أساسي جادلن بأنهن نساء فرنسيات أوَّلًا وقبل كل شيء؛ يدعِّمن بلدهن في وقت شدَّته، وبرأيهن أن إحباط خطط الحكومة هو بمثابة خيانة، وقد شعرن بخيبة أمل

40- قام الداعي للسلام البلجيكي بول أوتليه (1868-1944) بمساعدة هنري لافونتين. بالعديد من المشاريع الدولية. بدءًا من جمعية الببليوغرافية الدولية (1895). إلى «The Mundanum». وهو مركز في بروكسل مخصَّص لتوثيق جميع المشاريع العالمية.

41- كان لدى المشاركين الرئيسيين في هذا الوضع الفرنسي المعقَّد جميعًا ارتباطات طويلة في مجموعة من مشاريع السلام و/ أو الاقتراع. كانت السيدة دي ويت شلمبرجير (1856-1924) من عام 1914 على رأس الفرع الفرنسي لـ IWSA. شاركت في مؤتمر الانتخاب المشترك بين الحلفاء الذي عُقِد في باريس. خلال مؤتمر السلام بمبادرة من السيدة أبردين. (بوش 173) كانت جينيا أفريل دي ساينت كروا (1855-1939) لسنوات رئيسة للجنة ICW حول تجارة الرقيق الأبيض. بعد الحرب كانت ناشطة في عصبة الأمم. (دي وايلد. بريفن 64) على الرغم من أنها لم تحضر مؤتمر لاهاي. فقد نظَّمت غابريل دوشين (1878-1954) لجنة وطنية للجنة الدولية للمرأة من أجل السلام الدائم (ICWPP) خلال الحرب. ثم أصبحت نشطة في WILPF. كانت على مدى عقود مدافعة عن حقوق المرأة والعمال في فرنسا. في مواجهة صعود الفاشية في الثلاثينيات من القرن الماضي. ابتعدت. مثلها مثل بعض قادة WILPF الأوروبيين الآخرين. عن النزعة السلمية ونحو مقاومة القوة بالقوة

عميقة عندما وجدن أننا لا نتفق مع ذلك، وبالتالي كان لا بُدَّ لهنَّ من الهجوم علينا في الصحافة الفرنسية، ومن ثم رفضن التراجع عن كلمة واحدة ممَّا نشرنه في الصحافة الفرنسية، وفي الوقت نفسه سرعان ما اكتشفنا أن النساء الفرنسيات لم يكُنَّ يتشاركن نفس وجهات النظر، وبعد ظهر اليوم التالي تمَّت دعوتنا لزيارة السيدة دوشين، وفي منزلها التقينا بالنساء الداعيات للسلام اللواتي كانت لديهن الشجاعة لرفض تصرُّفات الحكومة الفرنسية علنًا.

سافرنا بعد باريس إلى لوهافر، والتي كانت في ذلك الوقت مقرَّ الحكومة البلجيكية. على الرغم من أن أوراقنا كانت سليمة تمامًا إلا أن السُّلطات صمَّمَت على إثارة المشاكل. عندما وصلنا أصرَّ الفرنسيون في البداية على التفتيش في أمتعتنا وفي الوثائق التي نحملها، ثم فعلت الشرطة الإنجليزية نفس الشيء. بالطبع، لم يجدوا شيئًا غير مرغوب فيه، وبعد التفتيش تم إرسالنا إلى مفوَّض الشرطة، الذي أخضعنا بدوره لاستجواب شامل. لم يكن لدينا رغبة في إخفاء سبب زيارتنا، على الفور قدَّمنا عنوان الفندق. كنَّا قد أرسلنا برقية من باريس لحجز الغرف، وتلقَّينا الرد بتأكيد الحجز في نفس الوقت، ومع ذلك عندما وصلنا أخيرًا لم يُرِد الفندق الذي قُمنا بالحجز فيه أن يخصِّص لنا أي غرفة. بعد الكثير من الجلبة والنقاش سُمح لنا بتناول الطعام في غرفة صغيرة منزوية عن الطريق.

أنهينا وجبتنا، وبدا واضحًا أن رحيلنا من هذا الفندق سيكون موضع تقدير، بالطبع خمَّنَّا أن الشرطة قد تحدَّثَت مع المالك، لكن لماذا؟ هل كانوا خائفين من أن دعاة السلام يخطِّطون مثلًا لإفساد الجنود الإنجليز المتمركزين هناك؟ لم تكن هناك فرصة لذلك! وبالنظر إلى عقلية العديد من الناس في الدول المتحاربة، كنا نعرف

جيدًا أن هذه العملية لن تكون عديمة الجدوى فحسب، بل ستُسبِّب لنا أيضًا قدرًا كبيرًا من المتاعب.

أبلَغَنا مفوَّض الشرطة بوضوحٍ أن «قطار باريس يغادر في الساعة الخامسة مساءً». على الرغم من أننا لم نرغب في البقاء في لوهافر لفترة أطول من اللازم، حاولنا مع ذلك ترتيب المواعيد مع وزيري دافينيون وبروكفيل. كان بروكفيل قد غادر إلى الجبهة، لكن دافينيون وافق على مقابلتنا بعد ظهر ذلك اليوم. وأكَّد لنا أن بلجيكا سترحِّب بإيجاد نهاية سريعة لهذه الأعمال العدائية: «لكن يا للأسف! الأمر ليس متروكًا لنا لأخذ زمام المبادرة؛ لأننا مرتبطون ارتباطًا وثيقًا بفرنسا وإنجلترا».

في وقت لاحق من ذلك المساء وصلنا إلى باريس، بعد إرهاق شديد، وبعد إضاعة يوم آخر في فحص جوازات سفرنا، غادرنا أخيرًا إلى لندن، في الثامن عشر من يونيو، على أمل العودة إلى هولندا في صباح اليوم التالي، ومع ذلك - دون عِلمنا - كانت إنجلترا تجبر الأجانب الذين يسافرون من فرنسا على البقاء لمدة أسبوع قبل السماح لهم بمواصلة رحلتهم إلى أي من البلدان غير الحليفة. بفضل نفوذ بعض الأصدقاء في الأماكن الحسَّاسة كان علينا البقاء لمدة خمسة أيام فقط، وهو الوقت الذي أمضيناه في مناقشة طرق تعزيز السلام مع عدد من الرجال والنساء أصحاب الرؤى المماثلة.

يجب أن أعود الآن إلى المؤتمر الذي عُقِد في لاهاي، حيث قرَّرنا تشكيل جمعية من مندوبات المؤتمر تهدف إلى محاولة تحقيق السلام الكامل. كان من المقرر أن يُطلَق عليها «اللجنة الدولية للمرأة من أجل السلام الدائم»، وهو الاسم الذي تَغيَّر لاحقًا في مؤتمر زيورخ عام 1919 إلى «الرابطة النسائية الدولية للسلام والحرية». طوال فترة الحرب،

طُلب مني أنا وروزا مانوس التنسيق بين الأعضاء في دول مختلفة، وقد تمَّت دعوتنا للانضمام إلى اللجنة كنائب للرئيس وسكرتير أول، وكُلِّفنا بالمسؤولية الأساسية عن تنظيم طباعة تقرير المؤتمر وإرساله بالبريد لكل المنظمات.

عملت الآنسة ماكميلان معنا خلال الأشهر القليلة الأولى، وساعدتنا لاحقًا الآنسة إميلي هوبهاوس[42] من إنجلترا، والتي كانت معروفة في هولندا بعملها الإنساني في جنوب إفريقيا أثناء حرب البوير. بصرف النظر عن ذلك كنتُ أنا وروزا مانوس المسؤولتين الوحيدتين عن العمل الذي يستغرق وقتًا طويلًا، وذلك بالرد على طوفان رسائل من جميع أنحاء العالم، والتي غالبًا ما تحتوي على معلومات كان علينا نقلها إلى النساء في بلدان أخرى، كما تلقينا تقارير عن عمل دعاة السلام في العديد من البلدان، قمنا بتلخيصها ونشرها في نشرة شهرية نرسلها إلى جميع أعضائنا. من خلال هذا النوع من العمل حافظنا على اتصالنا بالنساء الداعيات للسلام من كُلِّ رُكن من أركان العالم حتى يتمكَّنَّ بعد الحرب بوقت قصير من العمل معنا بنشاط وفعالية.

في أغسطس 1915 وصلت الآنسة ماكميلان من لندن برسالة مهمَّة، مفادها أن رجل الدولة الإنجليزي اللورد كروي قد قرَّر أن الوقت مناسب لتشكيل اتحاد الدول المحايدة للعمل من أجل إقامة محادثات السلام. نجحت الآنسة ماكميلان أيضًا في الحصول على هذا البيان

42- من عائلة تميَّزت في الخدمة العامة. كرَّست إميلي هوبهاوس (1860-1926) جهودًا هائلة للتخفيف من معاناة المدنيين، وخاصة النساء والأطفال، في حرب البوير. صدمت بشدَّة من زياراتها في عام 1900 إلى معسكرات اعتقال البوير، وحثَّت الحكومة البريطانية على إجراء تغييرات. وبالتالي وصفها العديد من البريطانيين بالخيانة والمحرِّضين. خلال الحرب العالمية الأولى، أثارت مرة أخرى ضجَّةً من خلال زيارتها بلجيكا المحتلَّة من قِبَل ألمانيا، ومعسكرات أسرى الحرب داخل ألمانيا، وحتى برلين، وحثَّت الحكومة البريطانية على جَسِّ النبض بشأن السلام.

مكتوبًا، ومُصدَّقًا عليه، بعد ظُهر نفس اليوم التقينا برئيس الوزراء الهولندي لإبلاغه بهذه الخطط. وقد كان رئيس الوزراء كورت فان دير ليندن مهتمًّا للغاية، على الرغم من أنه شعر بعدم مقدرته على متابعة مقترحات اللورد كروي، قبل أن تردَّ الحكومة الأمريكية بشأن دورها المحتمل كوسيط. خلال محادثاتنا، علَّق قائلًا: «يجب أن أعرف في أقرب وقت ممكن ما يفكر فيه الرئيس ويلسون بشأن كل هذا».

على الفور عرَضتُ عليهم المغادرة في اليوم التالي على متن سفينة نيو أمستردام إلى الولايات المتحدة حتى أتمكَّن من مقابلة رئيس الولايات المتحدة شخصيًّا، واستطلاع رأيه في هذه المقترحات. حُجِزَت لي مقصورة السفينة عن طريق التلغراف، وفي نفس المساء استخرجتُ جواز سفري، وخطابات التعريف اللازمة، على عَجَلٍ اشتريت بعض الأشياء للرحلة، وقضيت الوقت المتبقي مع الآنسة ماكميلان في كتابة قائمة بالأسئلة التي كنت سأعرضها على الرئيس ويلسون، كانت تلك الأسئلة كما يلي:

1. مع ظهور الوساطة بين الدول المتحاربة، هل تُصرُّ أمريكا على العمل بمفردها وبدون الجهود المشتركة للدول المحايدة الرئيسية في أوروبا؟ هل يَعتَبِر الرئيس ويلسون أن هذا هو النهج الأكثر فعالية؟

2. أم أن الرئيس ويلسون يُفضِّل التعاون مع البلدان المحايدة الرئيسية في أوروبا، باعتبار ذلك النهج الأكثر فعالية؟

3. إذا كان الأمر كذلك، فهل يرغب الرئيس ويلسون في تولي القيادة ودعوة الدول الأخرى للتشارك والتعاون؟

4. إذا اعتبر الرئيس ويلسون أن الدول الأوروبية المحايدة هي التي يتوجَّب عليها تولِّي مهام الوساطة، فهل ستكون أمريكا مستعدَّةً للمشاركة من خلال وجود مندوب واحد أو أكثر؟

5. أو هل يشعر الرئيس ويلسون أن دولة واحدة محايدة في أوروبا هي التي يجب أن تقوم بدور الوسيط؟ وإذا كان الأمر كذلك فهل هو مستعدٌّ للمساعدة إذا دعته تلك الدولة للقيام بذلك؟

6. إذا وافق الرئيس ويلسون على وجهة النظر المعبَّر عنها في السؤال الخامس، فما هي الدولة الأوروبية التي يشعر أنها الأنسب لتقوم بدور الوسيط؟

7. هل وجود المندوبين الأمريكيين يترتَّب عليه اشتراط شروط معيَّنة؟ إذا كان الأمر كذلك، فماذا ستكون هذه الشروط؟

في وقت مبكر من صباح يوم 25 أغسطس 1915، استقبلتني الآنسة هايد، السكرتيرة الخاصة للسيدة تشابمان كات، في نيويورك. أحضرتني الآنسة هايد إلى منزل السيدة كات، حيث كنت أستمتع بإقامة مريحة وحسن الضيافة.

بمجرد وصولي علمت - بخيبة أمل شديدة - أن الرئيس ويلسون يرفض قبول أي زيارات أخرى حول محادثات السلام، وممَّا زاد الطين بلَّة، أن السفير الهولندي غادر إلى سان فرانسيسكو، ولم يكن نائبه في واشنطن أيضًا، كان كل هذا محبطًا للغاية، ولكن أثناء محاولتي حلَّ الأمور زارتني الآنسة بالش، وهي من دعاة السلام المعروفات، من بوسطن، والتي لم تشارك فقط في المؤتمر في لاهاي فحسب، بل كانت أيضًا واحدة ضمن مجموعة من المندوبين للاجتماع مع حكومتي

الدول الاسكندنافية وروسيا حول خططنا ومقترحاتنا[43]. حضرت الآنسة بالش إلى نيويورك وليس لديها أي هدف آخر سوى تزويدي بأكبر قدر مُمكِن من الدعم. لقد فرَّغَت نفسها من جميع التزاماتها في بوسطن حتى تكون تحت تصرُّفي تمامًا. بالطبع، قبلت هذا العرض غير المتوقَّع بكل امتنان.

كانت مهمتنا الأولى هي كتابة رسالة إلى الرئيس ويلسون، نطلب فيها عقد اجتماع في الوقت الذي يناسبه، مع توضيح هدفنا بإيجاز. اضطررنا إلى الانتظار عدة أيام ليصلنا أن الرئيس ويلسون لن يوافق على اجتماع في البيت الأبيض لأنه كان يرغب في تجنُّب الدعاية. لذلك، اقترح أن نتحدث مع وزير الخارجية لانسينغ أو مع الكولونيل هاوس، عندها سيكونون قادرين على إبلاغ الرئيس بمحادثاتنا. لقد أرسلنا تلغرافًا إلى السيد لانسينغ لتحديد موعد، وتلقَّينا ردًّا فوريًّا بأنه يتوقَّع منَّا ذلك في صباح اليوم التالي؛ لذا بعد تناول الغداء مع نورمان إنجيل، مؤلِّف كتاب «الوهم العظيم»، استقللت أنا والآنسة بالش القطار التالي المتجه إلى واشنطن[44].

كان اجتماعنا مع السيد لانسينغ مخيِّبًا للآمال، لقد تحدَّث كثيرًا، لدرجة أنه لم تُتَح لي الفرصة لطرح أسئلتي، وأصبح واضحًا أنه من الضروري رؤية الكولونيل هاوس؛ فهو أيضًا صديق جيد للرئيس،

43- بعد أن فقدت منصبها في قسم الاقتصاد في كلية ويلسلي عام 1919 بسبب أنشطتها البارزة المناهضة للحرب، أصبَحَت إميلي بالش (1867-1961) أول سكرتيرة دولية لخزانة WILPF. وفي هذا الدور سعت للتأثير على عُصبة الأمم - الفتية آنذاك - لاتخاذ مجموعة من الخطوات الإنسانية والديمقراطية. حصلت بالتش على جائزة نوبل للسلام في عام 1946.

44- حاول عالم الاقتصاد الإنجليزي نورمان أنجيل (1873-1967) في أشهر أعماله، «الوهم العظيم» (1910)، إظهار خطأ الفكرة القائلة بأن الحرب والغزو يجلبان ميزة اقتصادية عظيمة. تمَّت ترجمة الكتاب إلى أكثر من عشرين لغة. وحصل أنجيل على جائزة نوبل للسلام عام 1933.

وفي نفس اليوم أرسلنا برقية إلى منزله في مانشستر، ماساتشوستس.

كان الرد «أراك غدًا بعد الظهر»؛ ممَّا يعني أنه كان علينا مغادرة واشنطن في الساعة الخامسة والنصف ذلك المساء. وصلنا إلى بوسطن الساعة 11 صباحًا، وبعد انتعاش سريع واصلنا رحلتنا. كان اجتماعنا مع الكولونيل هاوس جيِّدًا جدًّا. لقد منحني فرصة كبيرة لوصف أسباب زيارتنا، وبعد ذلك قال إنه يشعر بأنه ينبغي لي التحدث مع الرئيس ويلسون مباشرةً، وأنه سيحاول ترتيب مقابلة لي.

بينما كنت أنتظر دعوتي إلى البيت الأبيض، بقيت أنا والآنسة بالش مع الآنسة جين آدامز على جزيرة «مونت ديزيرت»؛ مكان جميل، يقضي العديد من الأمريكيين الأثرياء فيه الصيف. بعد مرور بعض الوقت، تلقَّيتُ ردًّا من الرئيس ويلسون يفيد بأنه يتوقَّع زيارتي يوم الأربعاء 15 سبتمبر، لكنني سأحضر بمفردي؛ لأنه لا يستطيع استقبال أي ضيوف من الدول المشاركة في الحرب.

أثبتت هذه الزيارة أيضًا أنها مُخيِّبة للآمال، فبغَضِّ النظر عمَّا كنت أطرحه من أسئلة، كان الرئيس يجيب بأن أمريكا تمرُّ بأوقات عصيبة؛ وبالتالي فهو غير قادر على أن يكون حاسمًا بشأن وضع يمكن أن يتغير في أي وقت. ويجب أن تكون له الحرية في التَّصرُّف بتلقائية لأنه حتى في أكثر المواقف الظاهرية أو غير رسمية، فإن أي تصريحات سوف تنطوي على مستوى معيَّن من الالتزام الذي يجب تجنُّبه بأي ثمن.

قال: «يجب أن أكون قادرًا على التصرف فورًا بأكثر الطرق ملائمة وفعالية». وإضافة لذلك، «كان يعتقد أن الدول المحايدة في أوروبا

قادرة على أخذ زمام المبادرة بشكل مستقلٍّ، ولن يعتبر مثل هذا التطور معاديًا للولايات المتحدة».

كان انطباعي خلال هذه الزيارة أن وودرو ويلسون رجل يتمتع بمُثُل عليا، لكنه يفتقر إلى القدرة على تحقيقها. بدا غيرَ مُدرِكٍ أن قوته المحتملة للمساعدة في إنهاء الحرب قد أعاقتها حقيقة أنه لم يَزُر أوروبا أبدًا، ونتيجة لذلك فقد أساء تقدير الموقف هناك في كثير من الأحيان.

قبل لقاء الرئيس تجنَّبتُ الدعاية، ورفضتُ إلقاء محاضرات أو مقابلات. لكن بعد ذلك لم أجد أي مانع حقيقي في إلقاء عدد قليل من المحاضرات في شيكاغو. في كل يوم من الأيام الخمسة التي قضيتها هناك، كضيفة للسيدة ويلمارث، كنتُ ألقي محاضرة واحدة أو أكثر، ليس فقط عن الحرب والسلام، ولكن أيضًا عن حق المرأة في التصويت[45].

بعد اجتماعنا أرسل الرئيس رسالة ودية إلى الآنسة آدامز، نقلتها إليَّ بكل اهتمام، مع العلم أنه من الممكن أن تكون مفيدة في هولندا إذا ما شكَّك أي شخص في حديثنا، ولقد ظللت محتفظةً بهذه الرسالة دائمًا، ليس للسبب الذي ذكرته أعلاه؛ ولكن كتذكار جيد من الرئيس الأمريكي.

عدت إلى هولندا في الخامس من أكتوبر على متن نيو أمستردام، نفس السفينة التي أقلَّتني من هولندا إلى نيويورك في الثالث عشر من

45- من عائلة بارزة في شيكاغو. كانت ماري هاوز ويلمارث (1837-1919) عضوًا في أول مجلس أمناء في هال هاوس وداعمة مستمرَّة لحقوق النساء. كانت مؤسِّسة وأول رئيسة لنادي المدينة النسائي ذي النفوذ. وقادت فرع إلينوي من رابطة المستهلكين. وكانت ناشطة في حق التصويت.

أغسطس، وبصرف النظر عن التعليمات الدقيقة التي تلقَّيناها حول ما يجب فعله إذا اصطدمت السفينة بشكل غير متوقَّع بلغم، تحرَّكنا ودون وقوع حادث يذكر حتى أسقطنا المرساة في فالماوث لسببٍ غامض، أصرَّت السلطات الإنجليزية على بقائنا هناك لمدة أسبوع، وتمَّ تفتيش القارب مرارًا وتكرارًا، من أعماق غرفة المحرِّك، إلى أبعد مدى في الأشرعة والصواري؛ تمَّ قلب مخزون الفحم رأسًا على عقب؛ تمَّ أيضًا تفتيش كل ركن من أركان الردهة؛ وبالطبع تمَّ فحص أوراقنا بشكل كامل.

بعد سبعة أيام طويلة من الرسو على مسافةٍ ما من الرصيف وعدم السماح لنا بالتَّقدُّم خطوة ناحية الشاطئ، سمعنا أخيرًا إشارة الإبحار. لحسن الحظ وصلنا إلى روتردام دون وقوع أي حادث آخر، وفي الواقع وصلنا في وقت مبكِّر من الصباح، حتى إنني تمكَّنتُ من تقديم تقرير في نفس اليوم إلى وزرائنا للشؤون الداخلية والخارجية عن رحلتي إلى أمريكا وزيارتي للرئيس ويلسون. قضيت ما تبقَّى من سنوات الحرب أتعاون مع روزا مانوس في العمل الذي يقتضي الحفاظ به على اللجنة الدولية للمرأة من أجل السلام الدائم.

ما إن كان هناك وقف لإطلاق النار حتى أصرَّ الجميع فجأة على ضرورة ترتيب مؤتمر نسائي. على الرغم من أنني شخصيًّا شعرت أنه لن يكون في الإمكان تنظيم حدث يحظى بحضور غفير فقط بمجرد الرغبة في ذلك، إلا أنني ساعدت بكل طريقة ممكنة في التحضير للمؤتمر، الذي كان من المقرَّر عقده في زيورخ بدءًا من 5 مايو 1919. قبل أسبوع من هذا التاريخ غادرت مع السيدة ك. راموند هيرشمان والسيدة فولفتن بالث إلى سويسرا. وفي ذلك الوقت كانت خدمة القطارات الألمانية لا تزال غير منتظمة بشدَّة، حيث

كانت الإضرابات والاضطرابات شائعةً؛ ومن ثمَّ قرَّرنا حجز مقاعد من أرنهيم إلى سويسرا في القطار الخاص المُجهَّز للمعرض السنوي في بازل. غادرنا مدينة أرنهيم في الساعة السادسة صباحًا. تمَّ حجز مقصورة لنا نحن الثلاثة وسط قطار مزدحم بالرجال المسافرين. كنَّا نعتمد على الوصول إلى سويسرا في صباح اليوم التالي، لكن سرعان ما سمعنا من زملائنا المسافرين أن هناك اندلاعًا جديدًا للإضرابات في ألمانيا والتي أثَّرَت بشكل خاص على المنطقة المحيطة بفرانكفورت[46].

قيل لنا في محطة ألتن الحدودية إن الوضع سيئ للغاية، لدرجة أن القطار الهولندي سيعود مرة أخرى، تمَّ منحنا خيارًا: إمَّا العودة إلى الوطن أو الاستمرار على مسؤوليتنا الخاصة، دون أن نعرف ما الذي ينتظرنا، نحن الثلاثة كنَّا أول مَن أصرَّ على المضيِّ قدمًا. وافق بعض الرجال على مرافقتنا، لكن الغالبية العظمى استقلَّت القطار العائد إلى أرنهيم.

في هذه الأثناء كنت قد انتقلت من أمستردام إلى لاهاي. بالكاد عدت من زيورخ حتى تلقيت دعوة شبه رسمية للقيام بجولة في ألمانيا مع رفيقَيْ سفر أقوم باختيارهما، حتى أتمكَّن من رؤية الآثار الكارثية التي يُسبِّبها الحصار المستمر على صحَّة السكان هناك، في الواقع لقد عُرِضَ عليَّ الكثير من الدعم، بما في ذلك جميع النفقات، لدرجة أنني تردَّدتُ في البداية؛ لأنه من الواضح أنه يتوجَّب عليَّ الحفاظ على استقلال معيَّن كي أتمكَّن من الحُكم على الموقف بموضوعية.

46- من اللافت للنظر أن جاكوبزلم تَقُل شيئًا عن مؤتمر زيورخ نفسه. ولكن من الذكريات التي كتبتها آدامز. وبالش. وهاملتون (انظر أعلاه. الملاحظة 28: راندال 261-272) من الواضح أن المؤتمر كان مؤلمًا للغاية. تجربة صعبة للغاية لأولئك الذين حضروا.

وبينما كنت لا أزال أفكر في أفضل طريقة للحصول على معلومات دقيقة من أجل تنفيذ تدابير الإغاثة، سألتني الآنسة جين أدامز عمَّا إذا كنت أرغب في الانضمام إلى لجنة تتكون منها ومن الدكتورة أليس هاملتون، والآنسة كارولينا وود من أمريكا.

وكان هدف المجموعة جمعَ بيانات عن النقص الحالي في الغذاء الألماني. وكانت هؤلاء النساء الثلاث يعتزمن زيارة ألمانيا إلى جانب لجنة من أربعة أعضاء تختارهم جمعية الصداقة الإنجليزية، لقد كان عرضًا قبلته بكل سرور.

وصلنا إلى برلين في السابع من يوليو لمقابلة الدكتورة إليزابيث روتن، الممثِّلة الألمانية لجمعية الصداقة، التي وافقت على العمل كمرشد ومستشار لنا، استغرقت جولتنا ثلاثة أسابيع، حيث كان الناس في حالة من البؤس واليأس لدرجة أنني ببساطة شعرت بانعدام قدرتي على زيارة النمسا والمجر كما كان مُخطَّطًا له في الأصل. سيتطلَّب ذلك قوَّة أكثر ممَّا كنت أمتلك، وبدلًا من ذلك قرَّرتُ العودة إلى المنزل لنشر تقرير عن تجربتي. كان هدفي هو إثارة التعاطف الشعبي لتقديم مساعدة شاملة لهؤلاء الفقراء والجوعى.

على الرغم من أنني تمسَّكتُ بالحقائق بدقَّة، إلا أنني وجدت أنه لكي يتم قبول النشر لا يزال يتعيَّن عليَّ التقليل من بعض ما رأيته، فلم يكن أحد على استعداد لتصديق الحجم الهائل للمعاناة في ألمانيا. لقد صدمتني أكثر الطرق التي تمَّ بها إتلاف صحة الشباب؛ ماذا يكون مصير هؤلاء الأطفال المرضى؟ ما هو المستقبل لدولة يعاني 40% من سكانها من مرض السل؟ وفي ألمانيا، وبعيدًا عن المعاناة الموجودة في كل مكان، وعيت جيدًا بحقيقة أن نصف مليون أسير

حرب ما زالوا محتجزين في سيبيريا. ولم يُسمَع أي شيء عن العديد منهم منذ أشهر، أو حتى سنوات، وكثيرًا ما لا تعرف الزوجات والآباء ما إذا كان أحبَّاؤهم ما يزالون على قيد الحياة. لقد رأيت الكثير في جولتي، حتى إنني أخذت بعض الوقت قبل أن أدرك تمامًا محنة أسرى الحرب. ولكن بعد أشهر، ومع اقتراب فصل الشتاء، أصبحت مهووسة بشكل متزايد بحالة العالم، تذكَّرتُ فجأة أولئك البؤساء الفقراء الذين يحاولون البقاء على قيد الحياة في صقيع سيبربيا القارص.

في نوفمبر 1913، عندما سافرت من اليابان إلى ألمانيا، أخذني طريقي عبر سيبيريا، حيث رأيت موكبًا من السجناء السياسيين في إحدى محطات القطار، وقد أصبح مصيرهم الآن متشابكًا مع آلاف وآلاف الشباب ضحايا الحرب. كنت أعرف أنه يجب القيام بشيء لهؤلاء الناس. وفي نهاية المطاف، اتصلَت بي مجموعة من النساء، اقترحن أن نطلق حملةً باسم أسرى الحرب لتسهيل إعادتهم إلى أوطانهم. وافقت على إدارة هذه اللجنة، ومنذ البداية ساعدتني ودعَّمَت كثيرًا البارونة فان ليجدندن- بابست. في البداية كان من الصعب إقناع الناس أنه بعد عام من الهدنة لا يزال هناك ما لا يقلُّ نصف مليون ألماني ونمساوي و هنغاري وتشيكوسلوفاكي وتركي منفيين في برية سيبيريا. لقد كان شيئًا لم يسمع عنه أحد تقريبًا، بل إن الصحف رفضت إعلاناتنا؛ لأن لا أحد يستطيع التصديق بأننا نقول الحقيقة.

بحلول ذلك الوقت كنت قد تلقَّيتُ معلومات رسمية من ألمانيا والنمسا، وقمنا بإرسال تحديثات أسبوعية منتظمة، وكانت مَهمَّتنا الأولى هي الاتصال بمختلف المنظمات النسائية في جميع أنحاء العالم، حتى يتسنَّى لها شَنُّ حملاتها الوطنية الخاصة للمساعدة في إعادة أسرى الحرب إلى أوطانهم، واستجابت العديد من الجمعيات الأجنبية

لندائنا؛ وكتب آخرون ليقولوا إنهم يعملون من أجل تلك المسألة بالفعل. نظَّمَت لجنتنا اجتماعات عامة، ونشرنا المعلومات التي تلقيناها من الخارج، وجُمِعَت الأموال لاستخدامها في شراء الملابس الشتوية ودفع تكاليف رحلات عودة السجناء.

وبعد أن طلبنا مساعدته مرارًا وتكرارًا، تسلَّم المكتب الدولي للصليب الأحمر هذه القضية أخيرًا. وافق فريدجوف نانسن، النرويجي العظيم، الذي في وقت لاحق قدَّم المساعدة لضحايا المجاعة الروسية، على العمل من أجل لمِّ شمل أسرى الحرب السيبيريين مع عائلاتهم[47]. أدركنا الآن أننا أكملنا مَهمَّتنا، وأنهينا ترتيبات التَّبرُّع بالمال الذي جمعناه إلى الصليب الأحمر.

على الرغم من أنني اخترت هذه الواجبات بمحض إرادتي، إلا أنني بمجرد الانتهاء منها قرَّرتُ عدم الاستمرار في هذا النوع من العمل. كانت السنوات تتسبَّب في خسائر فادحة، وكانت طاقتي وقدرتي على التحمُّل تتضاءل تدريجيًّا، شعرت بالإرهاق من المشاعر السوداوية التي سادت سنوات الحرب، وأيضا من تلك السنوات التي تلت الحرب مباشرة.

في فترات الدراسة الهادئة ربما لا يزال بإمكاني كتابة شيء ما، لكن ليس في زخم تلك الحياة العامة. ومن ثم قرَّرتُ أن أسجِّل هذه الذكريات حول عملي وحياتي؛ ربما لأن ذلك سوف يوفِّر لي نوعًا من

47- قاد المستكشف النرويجي وعالِم المحيطات فريدجوف نانسن (1861-1930) عدَّة بعثات إلى القطب الشمالي. ترأس أول وفد نرويجي إلى عصبة الأمم. نظرًا لمشكلة عودة الأسري الكبيرة التي وصفتها جاكوبز. كان قادرًا على الإبلاغ في عام 1922 أن ما يقرب من نصف مليون سجين قد عادوا إلى ديارهم. ابتداءً من عام 1921. كان أيضًا المفوض السامي لجهد ضخم للتخفيف من آثار المجاعة المنتشرة في روسيا. حصل على جائزة نوبل للسلام عام 1922.

الراحة في الشيخوخة، وربما لكي يستفيد منها الجيل الأصغر من النساء.

لكن يجب أن أعترف، بعد هذه السنوات من المشاركة المكثفة في الحياة العامة، أن ذلك جاء على حساب المتع والترفيه الشخصي بالنسبة لي. على سبيل المثال، لم أستطع مقاومة دعوة للمشاركة في مؤتمر المجلس الدولي للمرأة الذي عُقِد في كريستيانيا (أوسلو) في صيف عام 1920. ولأن هذا كان أوَّلَ اجتماع للمجلس منذ اندلاع الحرب، فإن العديد من أصدقائي من كل أنحاء الكرة الأرضية سيكونون هناك، وحينما فكَّرتُ في كل هؤلاء الناس عرفت على الفور أنه يجب عليَّ الذهاب أيضًا. كما أنه ستتاح لي الفرصة لقضاء بضعة أيام في ألمانيا لرؤية الوضع الاقتصادي فيها وأوضاع الشعب الألماني.

سرعان ما أدركت أن هذا البلد، الذي يبلغ عدد سكانه أكثر من ستين مليون نسمة، بحاجة إلى أكثر من مجرَّد عمل خيري للتعافي. لقد تدهوَرَت حالة الشعب والأرض نفسها بشكل كبير منذ زيارتي السابقة، على الرغم من المساعدات المرسَلَة من جميع أنحاء العالم للتخفيف من المعاناة التي سبَّبَتها الحرب. تمَّ تقويض كل هذه الأعمال الخيرية ذات النوايا الحسنة بشكل مباشر من خلال معاهدة فرساي، التي كانت قائمةً على الكراهية والانتقام. دون أن يدركوا أن تدمير ألمانيا من شأنه أن يكون مؤشِّرًا أيضًا على انحدار أوروبا بكاملها، ظلَّ الفرنسيون الشوفينيون راسخين في رغبتهم السخيفة في تدمير ألمانيا من أجل الشعور بالأمان. من وجهة نظري، كان لا بُدَّ من إجراء إصلاح شامل لمعاهدة فرساي إذا أردنا أن يكون هناك سلام دائم.

لقد اعتقَدت أن المنظمات النسائية من مختلف البلدان ينبغي أن

تشارك، إذا ما طُلب مراجعة معاهدة فرساي، فربما تعي الكثير من المنظمات فظاعة ما يحدث. وجَّهتُ نداء شخصيًّا إلى العديد من النساء البارزات وإلى جميع المنظمات النسائية المعروفة في ذلك الوقت. لكنني سرعان ما اكتشفت أن أكثر ما يمكن توقُّعه هو دعم فردي من النساء، لأنَّ المنظمات لن تخاطر بالمشاركة. ومع ذلك، بقيت مقتنعة بأن حملتي كان ليكون لديها فرصة حقيقية للنجاح لو كنت أصغر سنًّا وأكثر ثراءً، فوقتها كنت تولَّيتُ كل العمل بنفسي، وكما كان الحال، اضطررت في نهاية المطاف إلى التخلي عن هذه القضية على أمل أن يُدرِج مؤتمر فيينا لعام 1921 للرابطة النسائية الدولية للسلام والحرية أفكاري كمحور للمناقشة.

لم يتم قبول اقتراحي المقدَّم ضمن مقترحات اللجنة الهولندية للسلام الدائم للمؤتمر؛ لذلك قررت الذهاب إلى فيينا لمعرفة ما يمكنني تحقيقه شخصيًّا. ولحسن الحظ، في أحد الاجتماعات التحضيرية طلَبَت مني الرئيسة، الآنسة جين آدامز، أن أخاطب المؤتمر حول سبل منع الحرب. كانت هذه فرصة مثالية لشرح أفكاري في خطاب قصير نسبيًّا، تمكَّنتُ من وصف معاهدات السلام القائمة بأنها تهديد حقيقي لاستمرار السلام. كما شدَّدتُ على أن منظمات السلام يجب أن تبذل جهودًا قوية للحثِّ على مراجعة هذه المعاهدات، حتى لو كانت هذه الإجراءات تعني التَّخلِّي عن جميع الأنشطة الأخرى.

وقلت: «دعونا نقضِ سنة من الحملات في جميع البلدان المعنية مباشرة، وبعد ذلك يمكننا عقد مؤتمر دولي ستتمكَّن فيه المنظمات التي تشاركنا وجهات نظرنا من مناقشة هذه المسألة».

وقد قوبل هذا الاقتراح بحماس جيد في فيينا، ولكن لاحقًا لم يتم

تنفيذ خطتي في أي مكان، ولا حتى في هولندا. وللأسف، حالت صحَّتي المتدهورة في ذلك الوقت من أن أتولَّى عجلة القيادة والمبادرة.

في غضون ذلك، أصبح الوضع في وسط أوروبا أكثر خطورة كل يوم. تنبَّأ السياسيون والصحف البارزة المحترمون علانية بأن أوروبا على شفا الدمار. واستشهدوا بمعاهدة السلام باعتبارها السبب الرئيسي لهذه الكارثة الوشيكة.

في ذلك الوقت كان من المقرَّر أن يعقد مجلس إدارة الرابطة النسائية الدولية للسلام والحرية اجتماعه السنوي في فرايبورغ، وطُلب من رئيسة الفرع الهولندي، التي كانت أيضًا عضوة في مجلس الإدارة، الاتصال بأعضاء اللجنة الآخرين للتأكيد على أهمية عقد مؤتمر دولي في المستقبل القريب. يتألف جدول الأعمال من موضوع واحد فقط: المراجعة المقترحة لمعاهدات السلام. كانت هناك استجابة قوية على طلب السيدة راموندت هيرشمان، وبعد بعض المناقشات تَقرَّر تنظيم مؤتمر يركز على تحقيق «سلام جديد» بدلًا من محاولة إصلاح المعاهدات الحالية، وعقده الفترة من 7 إلى 10 ديسمبر 1922. ناقش المندوبون إمكانية خلق سلام دائم، على أساس مطالب أخرى غير تلك الواردة في معاهدة فرساي، وعلى الرغم من أنه لم يكن الوقت المناسب للسفر عن طريق البحر وافَقَت الآنسة جين أدامز على أن تتولَّى إدارة المؤتمر شخصيًّا. برفقة عدد كبير من المندوبين الأمريكيين قامت بالوصول في وقت مبكِّر بحيث تتمكَّن من إجراء بعض الاستعدادات

للمؤتمر[48].

بالنسبة لي، لم يكن بإمكاني فعل أكثر من الدعم القوي للحدث بأكمله؛ لأنني لم أكن قادرة على القيام حتى بجزء بسيط من العمل المعني، كنت مُدرِكةً تمامًا أنني وصلت إلى نقطة اضطررت عندها إلى وضع قيود صارمة على مشاركتي المستمرة في الحياة العامة.

لذا، بعد أن وصفت بإيجازٍ عملي من أجل قضية السلام، أودُّ أن أنهي هذا الفصل بالقول إنه على حدٍّ علمي لم أصنع عدوًّا واحدًا أثناء انخراطي في هذه القضية، فقط عددًا كبيرًا من الرجال والنساء المحبِّين الأصدقاء الذين شاركت معهم لحظات كثيرة من السعادة الغامرة.

وما زلت أتذكر الامتنان الدائم للعديد من النساء والفتيات اللاتي تقطَّعَت بهنَّ السبل هنا في بداية الحرب، واضطررن إلى مناشدتي طلبًا للمساعدة، لأن أوراقهن لم تكن مكتملة، أو لم يكن لديهن المال لمواصلة رحلتهن، أو حتى لأن قوارب فليسينجين كانت مملوءة عن آخرها. فكثير منهن يعرفن اسمي من حركة المرأة الدولية، وبعضهنَّ يحملن خطابات تعريف، والبعض الآخر تواصلن معي باقتراح من أصدقاء مشتركين.

بفضل العلاقات العديدة التي تمكَّنتُ من تطويرها على مرِّ السنين،

48- وفي هذا المؤتمر «من أجل سلام جديد» وفقًا للمؤرخين بوسي وتيمز. بالإضافة إلى العديد من كبار أعضاء الاتحاد كان هناك مندوبون من 111 منظمة وطنية ودولية من 20 بلدًا. يقدَّر أنها تمثِّل مجموع عدد الأعضاء الذي يزيد على 20 مليون رجل وامرأة. وطالب المؤتمر بعقد مؤتمر عالمي لوضع اتفاقات دولية جديدة يمكن أن يقوم عليها سلام جديد وحقيقي. تمَّ تفويض جين أدامز وكاثرين مارشال وجين ميلين للتباحث في مقابلات شخصية مع رجال دولة في بريطانيا، وفرنسا وهولندا والدول الاسكندنافية. واستقبلهم كبار المسؤولين في جميع تلك البلدان. (31-32) لاحظ الصدى المثير للاهتمام لمؤتمر لاهاي لعام 1915 في إرسال وفد ما بعد المؤتمر للقاء رجال الدولة. وفي مناخ ما بعد الحرب الصعب، كان جهد WILPF في التوعية محدود التأثير للغاية.

كان من السهل بشكل مدهش مساعدة هؤلاء النساء العالقات. أصبح منزلي المتواضع ملجأ مزدحمًا للفتيات والنساء من جنسيات مختلفة، ممَّن لم يلتقين من قبل، ووجدن أنفسهن يتشارَكن غرفة، أو حتى ينمن في نفس السرير (على الرغم من أننا عادة ما كنَّا نحلُّ كل مشكلة في حدٍّ أقصى يومين). لقد تأثَّرتُ كثيرًا في معظم الأوقات بالامتنان الذي أعربن عنه، ليس فقط من قِبَل النساء أنفسهن، ولكن أيضًا من قِبَل أُسَرِهنَّ.

سيكون تلك الكتاب جدُّ طويلًا، وسيصبح ذاتيًّا جدًّا إذا بدأت في الاقتباس من جميع الرسائل التي تلقَّيتُها، لكني أودُّ تضمين قصيدة كتبها أحد أصدقائي في زمن الحرب في عام 1923 بمناسبة عيد ميلادي:

«مع إيمانٍ جديد تُبحر سفينة الحياة خاصتكِ

قابضةً بقوَّة على الدفَّة يدكِ

نظراتكِ المحدِّقة تحيي سماء الليل المجيد

تبحث عن عالم السلام البعيد

محاصرة بالألم والحزن البشري

بذاك الضعف الذي دائمًا ما تخفيه

لذا سنتحرَّر يومًا من كل الكوابيس الخانقة

قادمٌ لا محالةَ فجرُ الله

وهذا ما يجب أن تعرفيه

وحيدة، لكنَّكِ قوية

تشعرين بالنسيم الذي يغمرك بسلاسة

هذه علامة نسل التُّعَساء

فالحب والعدل هو كل ما يحتاجون

لن ننجب مزيدًا من الأطفال

تلتهمهم الحرب، والموت والكراهية

إلى الدكتورة أليتا جاكوبز، مع خالص تقديري وامتناني.

9 فبراير 1923

فرانز فيجنر

الفصل التاسع

الدَّعـــــارة

(النضال في القضايا التي أهتم بها. النساء المحترمات لا يتورَّطن في هذا النوع من الأشياء. صراع مع البروفيسير. خبرات في لندن عن طريق الدكتور دريسدال ومن خلال عيادتي الخاصة في أمستردام. مقالاتي الأولى حول هذا الموضوع. محاضرتي الأولى حول الدعارة في روتردام في عام 1897 وكيف تمَّ استقبالها. مؤتمر عام 1909 في بودابست. رحلات المغامرة. السفر إلى سراييفو وما وجدناه هناك. محاضرات حول هذا الموضوع في جنوب إفريقيا. «رسالة مفتوحة إلى نساء جنوب إفريقيا» ومزيد من المشاركة في هذه المسألة).

سيتذكر القُرَّاء كيف أنني بينما كنت لا أزال طالبة صغيرة، واجهت فجأة حقيقة الدَّعارة والبؤس الذي تُسبِّبه. لقد تأثرت بشدة بتلك الشابة في مستشفى جرونينجن، والتي تمَّ نبذها على نطاق واسع، فكانت تنتظر موتها باعتباره شكلًا من أشكال الخلاص. بالنسبة لي كان لقاؤها بمثابة الوحي الحقيقي، لقد جعلتني أواجه مأساة الدَّعارة، وشعرت دائمًا بتعاطُفٍ شديد مع ضحاياها في جميع أنحاء العالم، لا سيَّما فيما يتعلق بالطريقة المهينة التي تتحكَّم بها الحكومات في أجساد هؤلاء النساء.

لكنني لم أكن على دراية كاملة بعدُ بكيف تتأثَّر صحة المجتمع

أيضًا سلبًا من الدَّعارة. نظرًا لأنني كنت فتاة قروية بسيطة؛ كان كل هذا بعيدًا عني، وعلى الرغم من أنني شعرت بشكل بديهي أن هناك قضية لا تتعلق فقط بمصالح النساء أنفسهن، ولكن أيضًا مصالح المجتمع ككل. جعلتني تجاربي في جرونينجن مصمِّمةً على معرفة المزيد عن هذا الموضوع، على الرغم من أن هؤلاء الأشخاص الذين يمكنهم مساعدتي كانوا غير مستعدِّين للقيام بذلك، وغالبًا ما أوضحوا لي أن النساء المحترمات لا يهتممن بمثل تلك الأمور تمامًا.

الدعارة لم تكن كلمة يمكن ذِكرها في المجتمعات الفاضلة، حتى النساء المتعلِّمات، جعلن الأمر واضحًا: التحدث في هذا الموضوع هو سلوك غير مقبول، وفي المناسبات القليلة التي يكون فيها رجُلٌ ما مستعدًّا لمناقشة هذه القضية بجدية، كنت دائمًا ما أواجه رأيه الخبير القائل بأن «الدعارة شرٌّ لا بُدَّ منه. إنها موجودة منذ زمن سحيق، ولا توجد طريقة يمكننا من خلالها القضاء عليها على الإطلاق».

وفي رأيي كان هذا الشر - الضروري أو غير الضروري - ببساطة، لا يمتلك الحق في الوجود. كانت فطرة العدالة لديَّ غاضبة من النظرية القائلة بأن «المجتمع مُلزَم بطريقة أو بأخرى بمحاولة توفير نساء أصحَّاء؛ حتى يتمكَّن الرجال من الانغماس في رغباتهم الجنسية».

حاولت عبثًا في كثير من الأوقات أن أحطِّم هذا الجدار من التحيز والتمييز الأعمى! على سبيل المثال، أتذكر مناقشة معينة مع أحد أساتذتي، أعلن فيها صراحة أن رفاهية الرجل الجسدية - كما يعلم الجميع - تعتمد على تلبية رغباته الجنسية؛ وبالتالي فإن المجتمع ملزم بضمان تلبية هذه الاحتياجات بأقل قدر من المخاطر على صحته، أجبته: «حسنًا، إذا كان هذا هو رأيك، فمن الأفضل أن تتأكد من إتاحة بناتك لهذا الغرض».

لسوء الحظ، لم أتمكن من متابعة النقاش، حيث خرج الأستاذ فجأة من الغرفة، بعد إخباري بأنه ليس لديَّ الحق في مناقشة الموضوعات التي لا أعرف عنها شيئًا. لقد صدمتني هذه السخرية، لأن رغبتي الوحيدة كانت أن أكتشف بقدر ما أستطيع عن هذه القضية.

ظهر جليًّا أن كل جهودي بَدَت محكومًا عليها بالفشل، فدائمًا كان يتمُّ الرد عليَّ بتعميمات فارغة، وكلما أطلب قراءة مؤلِّفين وعناوين محدَّدة حول هذا الموضوع في مكتبة القراءة، كان طلبي دائمًا ما يُقابَل إمَّا بالريبة أو بعدم الفهم الواضح.

كان أول الأشخاص المستعدين للتحدث معي بصدق حول الدعارة هو الطبيب البارز تشارلز درايسدايل، الذي التقيت به - كما ذكرت سابقًا - في لندن، بعد أن أكملت تدريبي في هولندا، وبفضل خبرته العملية وبحثه النظري تمكَّن من الإجابة على أسئلتي بشكل كامل ودقيق. كما اصطحبني الدكتور درايسدايل لزيارة إحدى المؤسسات الطبية في لندن، والتي تخضع فيها النساء البغايا أو المشتبه بهن في العمل في تلك المهنة للفحص الطبي.

تمامًا كما في جرونينجن، شعرت بأن جسدي يشمئزُّ من تلك التجربة؛ لأنني لم أكن ببساطة أستطيع أن أفهم؛ كيف يمكن للطبيب أن يضع نفسه في موقف الحُكم على ما إذا كان ينبغي السماح لهؤلاء المنبوذات مجتمعيًّا بمواصلة مهنتهنَّ القاتمة.

تمكَّنت من التحدث مع بعض هؤلاء النساء التعيسات. لقد كانت معظمهن من الطبقة العاملة. لقد أُجبرن على تدبير أمورهن بأنفسهن منذ سنٍّ مبكرة، دون توجيه أو حماية كافية، ونتيجة لذلك، بمجرد أن يبتعدن عن الطريق المستقيم، ويذهبن في طريق الدعارة، وبدون أي ذنب لهنَّ؛ فإن حيواتهن غالبًا ما تتدهور بسرعة.

عندما عدت إلى هولندا سرعان ما علمت بحملة القَسِّ بيرسون ضد بيوت الدعارة والتنظيم الرسمي للدعارة. لقد قرأت كل ما أستطيع من كلا الجانبين من هذه الحجَّة، وآرائي، والتي تزامَنَت مع آراء القس بيرسون، تمَّ نشرها بانتظام في الصحف والمجلات اليومية. كوني طبيبة ظهرت لي العواقب الوخيمة لشر الدعارة. وكثيرًا ما كانت عيادتي ترتادها شابَّات كانت أعراضهن ناتجة عن الأمراض المنقولة جنسيًّا[49].

لقد رأيت الكثير من الشقاء الناجم في زيجات الشباب، الذين لم يدركوا أنهم ما زالوا يعانون من مرض تناسلي، في الوقت الذي تزوَّجوا فيه من فتاة أحلامهم، بالإضافة إلى ذلك، بصفتي الطبيبة الوحيدة في هولندا، فقد تمَّت استشارتي من قِبَل البغايا حول أمراضٍ لم أكن أعرف بوجودها من قبل. هذا ليس المكان المناسب للخوض في أي تفاصيل، يكفي أن أقول إنه بعد عشر سنوات من الممارسة الطبية، كنت على دراية بمعظم أشكال الدعارة، والضحايا اللاتي يعانين الكثير جرَّاء الانخراط في مثل تلك الأنشطة.

سرعان ما أدركت أن العديد من النساء يجهلن ما الذي يمكن بيعه وما الذي لا يمكن بيعه، لأنه في حالة الدعارة فإن الأمر ببساطة هو بيع صحتهن في مقابل المال، وأيضًا كان عدد كبير من الشباب يقعون

49- بدأ عالم اللاهوت والتربوي هندريك بيرسون (1834-1923) تلك الحملة. بإيعاز من المبادئ التي أرستها الحركة البروتستانتية الهولندية في منتصف القرن التاسع عشر المعروفة. باسم ريفيل. وكذلك الحركة الدولية التي أطلقتها المُصلحة الاجتماعية البريطانية جوزفين بتلر، لمكافحة تنظيم الدولة للدعارة. في سبعينيات القرن التاسع عشر. تُرجِمت العديد من كتيِّبات بتلر إلى اللغة الهولندية وأحدثت ضجَّةً كبيرة في هولندا: نظمت بيرسون أول اجتماع عام حول موضوع الدعارة في عام 1878. قبل عام واحد فقط من بدء جاكوبز ممارستها. جاءت بتلر نفسها إلى هولندا لحضور مؤتمر دولي في عام 1883 وشجَّعَت على المزيد من التنظيم والاحتجاج العام ضد تنظيم الدولة لها.

ضحيَّة ما يُنظر إليه على أنه مجرد عادة اجتماعية، وغالبًا ما يؤدي الجهل إلى كارثة، بدأت أدرك بشكل متزايد الحاجة إلى رفع الوعي، وعلى الرغم من احترامي لأولئك الذين قاموا بحملات ضد تنظيم الدعارة، وتعاطفي مع السيدة دي كليرك فان هوغيندورب التي أسَّسَت مؤخرًا جمعية النساء من أجل التقدم الأخلاقي، إلا أنني كنت أعتقد أن المعلومات يجب أن تكون متاحة مجانًا[50].

شعرت أنه لا ينبغي إطلاق سراح الشباب والشابات في المجتمع، دون أن يتم تثقيفهم أوَّلًا حول المخاطر السرية التي تهدِّدهم من جميع النواحي جرَّاء ممارسة الدعارة. ويبدو أن جمعية التقدم الأخلاقي ليس لديها الكثير لتقدِّمه في هذا الصدد، وهي منظمة دينية شديدة الاهتمام بفئة واحدة فقط من العضوية.

كلما كانت هناك فرصة للنشر، انتهزتُ الفرصة للتعبير عن آرائي حول هذا الموضوع الحيوي. وكثيرًا ما تلقَّيتُ بريدًا من الأمهات والأزواج الذين يشاركونني وجهات نظري بوضوح. الكاتبة الموهوبة هيلين ميرسيه (1839 - 1910)، التي كانت مسؤولة عن تأسيس أونس هويس (بيتنا) في أمستردام، كتبت لي في عام 1895، عن واحدة من مقالاتي التي نُشِرَت في دي أمستردامر (أمستردام، الأسبوعية من هولندا): «لا، قول الحقيقة لا يمثِّل تهديدًا أبدًا عندما يشمل هدفًا أخلاقيًّا ساميًا، وأشعر أنه نعمة حقيقية أن موضوعًا كان يُعامل على أنه سِرٌّ قذر للرجال، أو كمادة للواقعية الأدبية، يمكن أخيرًا التعامل

50- تأسَّسَت الجمعية النسائية من أجل النهوض الأخلاقي في عام 1884. على يد ماريان دي كليرك فان هوغيندورب (1831-1909) وشقيقتها. وكانت والدة فان هوغيندورب. ماريان. وشقيقاتها آنا وويلمينا. كانت الجمعية قوَّةً مؤثِّرة في العمل الخيري والاجتماعي للمرأة. ومع ذلك. كان لدى الجمعية نهجٌ مسيحي حادٌّ في مساعدة البغايا والأمهات غير المتزوِّجات. ويبدو أن جاكوبز: المفكِّرة الحرة. اعتبرتهم محافظين أكثر ممَّا ينبغي.

معه بنزاهة أخلاقية كاملة من قِبَل النساء أنفسهن. إنه لأمر مثير للسخرية أن النساء دائمًا ما يفصلن أنفسهن عن مجال يشملهن بشكل مباشر كزوجات وأمهات».

لقد شعرت بسعادة غامرة لتلقِّي استحسان امرأة، أعجبت كثيرًا بعملها للمجتمع، كما ساعدني تشجيع هيلين ميرسيه في التَّندُّر على الرسائل المهينة التي تلقَّيتها من أشخاص كانوا جبناء جدًّا، لدرجة أنهم لم يوقِّعوا على رسائلهم الحاقدة بأسمائهم، كتب أحد المراسلين المجهولين: «يجب أن تكوني منحرفة حقًّا لتستمتعي بمحاولة غسل كل هذه القذارة».

أراد كاتب آخر غير مشهور معرفة ما إذا كانت هناك نساء أخريات، يفترض أنهنَّ محترمات في هولندا ممَّن يعرفن الكثير عن هذا الموضوع مثلي.

بعد بضعة أشهر من نشر مقالي في «دي أمستردامر»، تلقَّيتُ رسالة من السيدة. روتجرز هويتسيما رئيسة جمعية النهوض بمصالح المرأة، تطلب مني التحدث عن الدعارة في اجتماع عام في مسقط رأسها في روتردام[51].

لم تتمَّ مناقشة هذه المسألة من قبل في حدث عام لكلٍّ من الرجال والنساء على حدٍّ سواء، مع الأخذ في الاعتبار الرسائل السيئة التي أُرسِلَت إليَّ نتيجة لمقالتي شبه الكاملة في «دي أمستردامر»، نصحني

51- لم تكن جمعية النهوض بمصالح المرأة، التي أسَّستها في عام 1895، سوى واحدة من مجالات عديدة من النشاط بالنسبة لويلهلمينا هندريكا ميتجي هويتسيما (1847-1934). وكانت من بين مؤسِّسي جمعية حق المرأة في التصويت. ونظمت مساعدة للأمهات غير المتزوجات. وعملت لمدة ثلاثة عشر عامًا كرئيسة للجمعية الوطنية. وناضلت ضد القوانين التي تقف ضد عمل النساء في الكثير من المجالات.

بشدة زوجي وعدد من الأصدقاء ذوي النوايا الحسنة بعدم الموافقة على هذه المحاضرة.

قال زوجي: «أنتِ لا تعرفين أبدًا ما يمكن أن يحدث في اجتماع عام، قد ينتهي بك الأمر إلى أن تكوني هدفًا لأبشع الإهانات».

كنت أدرك جيدًا أن هذا يمكن أن يحدث، ولأنني كنت دائمًا أكره التحدث أمام الجمهور، كان لديَّ كل الأسباب لرفض هذه الدعوة، لكن في كل مرة كنت أقرِّر فيها أن أكتب إلى السيدة روتجرز لتقديم أعذاري، أبدأ في التساؤل عمَّا إذا كان بإمكاني السماح لنفسي بالتهرب من هذه المسؤولية.

هل حقًّا لديَّ الحق في تجنُّب إخبار الزوجات والأمهات في هولندا عن وجود الكثير من الأخطار الكارثية، فقط لأنني خائفة من بعض الكراهية؟ أليست هذه الفرصة المثالية لفضح الشر الذي كان دومًا ما يتمُّ تجاهله أو التَّستُّر عليه تمامًا؟ بعد الكثير من التَّردُّد والتَّردُّد، كتبت إليها في روتردام، أخبرها بقبول دعوة الجمعية، كنت قد أعددت محاضرتي بعناية، وراجعت بدقَّةٍ التفاصيلَ والأفكار التي أريد الحديث عنها، مقابل آراء وأحكام الكُتَّاب الآخرين حول تلك القضية.

عُقد الاجتماع في نوفمبر 1897. وقد تضمَّنَت جريدة «نيو نوتردام» تقريرًا عمليًّا، ولكنه مُفصَّل، عن محاضرتي. قالت: «التَّجمُّع قد حضره جمهور كبير من السيدات والسادة. في بدايته أعربت السيدة روتجرز هويتسيما رئيسة، جمعية النهوض بمصالح المرأة، عن سعادتها بموافقة امرأة على مخاطبة نساء أخريات في موضوع بهذه الطبيعة الحسَّاسة في الأماكن العامة». وبمجرد أن انتهيت من إلقاء المحاضرة، أعلنت رئيسة الجمعية أنني سأكون مُتاحةً الآن للرد على

الأسئلة المتعلقة بالمحاضرة، وكانت جميع ردود الفعل واقعية للغاية، أو على الأقل ليست بالبذاءة المتوَقَّعة.

تمَّ نشر محاضرتي كاملة بعد بضعة أسابيع. لا تزال لديَّ القصاصة، لكن لم يَعُد بإمكاني تتبُّع مصدرها، حيث تصف إحدى الصحف في أمستردام، كيف اندهش مجلس تحريرها بعد قراءة المنشور الخاص بي، من الاحترام الذي تعاملت به المؤلفة مع مثل هذا الموضوع الحسَّاس، «كان علينا أن نعجب بالشجاعة المطلقة في عرض مثل هذه القضية المثيرة للجدل».

لكن هذا كان مجرد رأي واحد، أما الآخرون - بما في ذلك الصحافة اليمينية - بذلوا قصارى جهدهم لإهانة وتقويض امرأة تجرَّأت على مناقشة مثل هذه «القذارة» بصحبة السيدات. حتى الآن كنت معتادة تمامًا على مثل هذه التلميحات، فقد كنت اتَّخذتُ هذه الخطوة الأولى، والتي كما يعلم الجميع هي الأصعب دائمًا. وكلما طُلب مني لاحقًا التحدث علنًا عن قضية الدعارة، كنت أقبل بكل سرور؛ لفرصة تسليط الضوء على عالم بحاجة ماسَّة إلى الإصلاح.

لحسن الحظ، منذ بداية هذا القرن، ازداد اهتمام طلاب الجامعات بهذه القضية، ومن الواضح أنها ذات صِلة خاصة بهم.

أحاول قراءة كل ما ينشر في هولندا حول هذا الموضوع، ومن ثم عثرت على مقال كتبه طالب كبير في «مينيرفا»، الصحيفة الأسبوعية لإحدى المنظمات الطلابية الهولندية. «الرجال والنساء: أسطورة المعايير المزدوجة»، كان هذا هو العنوان لهذا المقال المخادع غير الجدِّيِّ في أفكاره.

الكاتب الذي لن أذكر اسمه؛ لأنني أعتقد أنه الآن بلا شكٍّ يأسف بشدة على النظريات البغيضة التي كان يؤمن بها في سنوات الدراسة، لم يكن بأي حال من الأحوال مدركًا المسؤولية التي تقع على عاتقه بكتابة هذا النص، ومع ذلك فقد عبَّر عن آرائه ببراعة فنية، ونُشِرَت في دورية قرأها غالبية الطلاب الهولنديين. شعرت أن هناك خطرًا حقيقيًّا من أن المقالة يمكنها أن تؤثِّر على خرِّيجي المدارس الثانوية الجدد، الذين يبدون متحمِّسين إلى تبنِّي مواقف وآراء طالب أكبر سنًّا.

تلقت مجلة مينريفا الكثير من الاعتراضات بالطبع على ذلك المقال، وطُلب مني أكثر من مرة الاشتراك في هذا النقاش، كما أكَّدَت أمهات الطلاب والمعلِّمين، والطلاب أنفسهم، على ضرورة أن تتضمَّن هذه الصحيفة الطلابية أيضًا آرائي حول الجنس والدعارة، فوافقت على طلبهم، أي شخص يمكنه الاطِّلاع على عدد 20 مارس 1902 من مينيرفا، سيرى كيف حاولتُ كطبيبة أن أشرح لهؤلاء الطلاب العواقب الاجتماعية للجنس بأشكاله المختلفة، على سبيل المثال، أكَّدتُ حقيقة أنه لم يحدث أي مرض على الإطلاق بسبب الرغبة الجنسية غير المحقَّقة، فمع نمط حياة صحي وقليل من الإرادة، فإن أي شابٍ - ذكرًا كان أو أنثى - قادر تمامًا على القيام بقليل من الامتناع عن الجنس.

حاولت أيضًا الرد على الافتراض القائل بأن الرجال يحقُّ لهم ممارسة الجنس، وأن اللوم الاجتماعي الحقيقي في تلك المعضلة على النساء. على الرغم من أن كليهما ربما يتصرَّف بشكل غير صحيح، إلا أنني جادلت بأن الرجل الذي يتهرَّب من مسؤوليات الأبوَّة، ويعتمد على القوانين هذه الأيام غير الأخلاقية، والتي لا تولي اعتبارًا بتحديد الأب- هو مُذنِب في نظر طفله ونظر المجتمع ككل، بل وأكثر بكثير من

الأم التي جلَبَت هذا الطفل إلى العالم. وأخيرًا ذكرتُ حقيقة أن مرض الزهري والمضاعفات الناتجة عنه قد كلَّفَت المجتمع الكثير من الأرواح والمال والآلام، والتي تضاهي كل أمراض هذا العصر مجتمعة.

لاقت تلك الجهود نجاحًا كبيرًا، وكنتيجة لهذا المقال تلقَّيتُ العديد من رسائل الشكر، ورسائل من الشباب يطلبون النصح ومعلومات متعلِّقة بمشاكل جنسية حقيقية وخيالية في بعض الحالات، نصحت شابًّا بمناقشة الأمر مع والدته، وكان من المخيِّب للآمال أن أسمع منه: «لا، لا توجد طريقة يمكنني التحدث معها. الأم لا يجب أن تعرف شيئًا عن ذلك».

لقد تمَّ التخطيط لعقد مؤتمر طبي دولي في بودابست في 1909، يتم خلاله إدراج قضية الدعارة كموضوع للنقاش[52]. لقد سجَّلت نفسي كمشارك، لكن بما أنني كنت أشعر بالإرهاق قليلًا؛ قرَّرتُ المغادرة من أجل الاسترخاء إلى مدينة تاترا لومنيك في المجر، قبل أسابيع قليلة من الموعد المقرَّر لبدء المؤتمر. اليوم، وبينما أكتب تلك الكلمات، لا زلت أرى نفسي واقِفةً في مركز هذا المنتجع الصحي، والذي كان في ذلك الوقت غير معروف تقريبًا في هولندا[53].

لقد سافرت لمدة ستٍّ وثلاثين ساعة دون توقُّف، ولأنني أردت الوصول إلى الفندق في أسرع وقت ممكن؛ ظللت أترقَّب العربة التي كان من المقرر إرسالها لتصحبني، ولحسن الحظ قابَلتُ على الفور سائقًا أتى للتَّوِّ من فندقي، لكنه بدأ في الاحتجاج بشدة عندما حاولت ركوب عربته، فقد قيل له إنه سيصطحب طبيبًا من المحطة، لم يكن

52- على النقيض من التشديد اليوم على تحديد آباء الأطفال خارج إطار الزواج والإصرار على دفع نفقة للأطفال. فإن الوضع القانوني الذي تصفه جاكوبز كان في الواقع أن السعي لتحديد الأبوة يعد مخالفًا للقانون.

53- هذه هي الدورة السادسة عشرة للمؤتمر الدولي للطب.

هذا الرجل يتخيَّل أنه يمكن أن تصبح النساء طبيبات، وبغضِّ النظر عن محاولاتي المستميتة للشرح فقد ظلَّ مُصرًّا تمامًا. اضطررت إلى تجميع كل صبري، حتى أصبح واضحًا بالنسبة له أنه لن يعثر على طبيب ذَكَرٍ في أي مكان، رضخ أخيرًا وأخذني إلى الفندق الذي كان يقع في أعالي الجبال.

تكرر نفس الشيء مرة أخرى في الفندق، فقد كانوا يتوقَّعون قدوم طبيب ذَكَر، وتم حجز أفضل غرفة له على أمل الحصول على توصية منه بهذا المنتجع الصحي، ويبدو أنه من المؤسف إضاعة كل هذه الرفاهية على امرأة، لكن في النهاية تمكَّنتُ من المكوث في الفندق. دهشت كثيرًا حينما دخلت غرفتي الجميلة، في استقبالي مزهرية كبيرة من الورود، التي تمَّ إرسالها «من بعض الأصدقاء» للترحيب بالدكتور جاكوبز. حقًّا، كيف يتمكَّن أحد من الكشف عن خطط إجازتي السرية؟ بعد بضع استفسارات سرية، سرعان ما تمكَّنتُ من كشف الغموض، حيث تمَّ الإعلان عن وصولي بشكل احتفالي في الصحيفة المنشورة للمقيمين الأجانب في تاترا لومنيكس. وقرأتها امرأة من بودابست، كنتُ قد اجتمعت بها عدة مرات خلال جولاتي الخاصة بحق التصويت، وتفضَّلَت بتنظيم هذه المفاجأة نيابة عن نفسها وعائلتها.

والزهور كانت البداية فقط، فبفضل اهتمامها، وبينما كنت أشعر بالوحدة في هذه المنتجع الصحي البعيد، عرَّفتني على عدد من العائلات التي عرفَت أنني سأستمتع بلقائهم، ومن بين معارفي الجُدُد قابَلتُ سيدة عجوز ساحرة كانت تدخِّن السيجار الكبير والعطريَّ في الصباح والظهيرة والليل، وكانت أيضًا مهتمَّةً للغاية بالحملة الحالية لمنح النساء نفس الحقوق السياسية والاقتصادية التي يتمتع بها العديد

من المواطنين الذكور[54]، حتى إنها سمحت لي بالبقاء في منزلها الكبير والفاخر، بينما كنت أحضر المؤتمر الطبي في بودابست، كان الخدم قد تلقَّوا تعليمات بالفعل لتلبية كل رغباتي، وكانت هناك عربة تنتظرني كلما احتجت إليها. لذلك حضرت المؤتمر بكل أناقة مُمكِنة! وخلال المؤتمر كنت شديدة الاهتمام باللقاءات التي تناولت معالجة المشكلات الصحية الناتجة عن الدعارة والوقاية منها. تقريبًا كل الأطباء الذين تحدَّثوا كانوا يدافعون عن هذا أو ذاك من قواعد الضبط. لم يذهب أحدٌ إلى حدٍّ اقتراح القضاء على الدعارة تمامًا. عندما حان دوري للتحدث، وعلَّقتُ أنه سيكون من الأسهل والأكثر فعالية منع الدعارة بدلًا من الاضطرار إلى التعامل مع عواقبها، تمَّ إقصائي بصوتٍ مسموع لأنني في رأيهم مجرد امرأة أخرى تعاني من الهستيريا.

كان أحد المتحدثين في هذا المؤتمر طبيبًا من سراييفو. ووصف بحماسٍ شديد الإجراءات التي اتَّخذتها الحكومة النمساوية لمنع انتشار العدوى عن طريق الدعارة. وللصدفة بعد حضور المؤتمر الطبي الدولي في برلين قبل بضع سنوات، كنت تلقَّيت دعوة للعمل في سراييفو بالنيابة عن الحكومة النمساوية المجرية. سرعان ما سوف تُحقِّق تلك المدينة الصغيرة شهرة عالمية في ربيع عام 1914، وهو العام الذي سوف يُغتال فيه وليُّ العرش النمساوي، وسوف تُستَخدَم تلك الحادثة كذريعة لشَنِّ الحرب الأخيرة. لو كنت قَبِلتُ بتلك الوظيفة فإن عملي كان سوف يتركز على رعاية النساء التركيات التي يُحرِّم

54- كانت هذه البارونة ليبتاي التي ستذكر اسمها جاكوبز عندما تتذكر هذا المؤتمر مرة أخرى في الفصل الحادي عشر.

القرآن معالجتهن من قِبَل الأطباء الذكور![55] على الرغم من أنني لم أفكِّر أبدًا في قبول هذا العرض بجدية، إلا أنني منذ ذلك الحين كنت دائمًا أشعر بالراحة النفسية ناحية سراييفو؛ لذلك عندما سمعت أن مجموعة من الأطباء كانوا يخططون للقيام برحلة إلى تلك المدينة، قمت بالاتفاق على الذهاب معهم على الفور.

كان الطبيب الذي تحدَّث عن الإجراءات الصحية في سراييفو لطيفًا بما يكفي لإبلاغ السلطات بزيارتي. ما إن وصلت إلى الفندق الذي أقيم فيه، حتى استقبلني شخصٌ غامض المظهر، أعلن لي أنه مُرسَل من الحكومة لمرافقتي إلى المنطقة التي يتم فيها ممارسة الدعارة رسميًّا. ودون الخوض في الكثير من التفاصيل حول ما رأيته، سأقول فقط إن 80% من الفتيات اللواتي التقيت بهنَّ، قد تمَّ إحضارهن من مكان آخر، مع وَعدٍ بوظيفة جيدة لم تتحقَّق بطبيعة الحال. جاء معظمهن من المناطق الجبلية في المجر، وبعضهنَّ بالكاد كنَّ قد تجاوزن سِنَّ الطفولة. سألت عمَّا تفعله الحكومة هنا لمساعدة المومسات، وكانت الإجابة على هذا السؤال مقتضبة وساخرة، ولكنها في منتهى القسوة: «يتمُّ إرسالهن إلى المستشفى، وإذا لم يتحسَّنَّ، فإننا نلقي بهنَّ على الجانب الآخر من الحدود الإيطالية!».

لقد تأثَّرتُ بشدَّة بما رأيته وسمعته في سراييفو، فقد قدَّمتُ تقريرًا كاملًا عن تجاربي، أرسلته إلى أصدقائي وزملائي في بودابست. طلبت منهم إبلاغ الحكومة المجرية بالمصير الصعب الذي ينتظر رعاياهم الأبرياء في هذه البقعة من الإمبراطورية، ومع الأخذ في الاعتبار المواقف

55- هنا وفي «رسائل السفر». تستخدم جاكوبز توصيف الأتراك للإشارة إلى المسلمين الذين يعيشون داخل الإمبراطورية العثمانية. وكذلك في مصر.

المحلية تجاه الجنس، فإنني أشكُّ في أن جهودي لاقت نجاحًا. لكن ربما تحسَّن الوضع في سراييفو منذ أن كانت تحت الحكم الصربي.

لبعض الوقت، كنت أخطِّط لرحلة حول العالم مع السيدة تشابمان كات، الزعيمة المعروفة لكلٍّ من التحالف الدولي لحقوق المرأة، وحركة حق المرأة في الولايات المتحدة. بعد فترة وجيزة من عودتي من المجر - ربما في أوائل عام 1910 - تلقَّيت طلبًا عاجلًا من نساء جنوب إفريقيا، وخاصة من نساء البوير، لمساعدتهن على تنظيم حملة من أجل حق المرأة في التصويت.

وقد تلقَّت السيدة كات دعوةً مماثلة بالنيابة عن النساء الناطقين بالإنجليزية في جنوب إفريقيا. كان من المقرر عقد المؤتمر الدولي للتحالف الدولي لحق المرأة في التصويت، في العام التالي في ستوكهولم من 15 إلى 22 يونيو 1911. قررنا أنه بعد انتهاء هذا الحدث سنسافر مباشرة إلى جنوب إفريقيا كمحطة أولى في جولتنا حول العالم. أردنا جمع معلومات عن البلدان والشعوب التي زرناها، وعن الوضع الاجتماعي والقانوني للمرأة. بالإضافة إلى ذلك، كنَّا نعتزم الاستفادة من تلك الجولات عمليًّا، من خلال إقناع النساء في تلك البلدان ومساعدتهن على إطلاق حملاتهن الخاصة من أجل الحقوق السياسية.

بمجرد وصولي إلى كيب تاون، أصبحت مقتنعًة بضرورة توسيع نطاق برنامجي. لقد طلب مني عددٌ من النساء المساعدةَ في حملتهن ضد بيوت الدعارة وتقنين الدعارة، لقد كانت حملتهن أيضًا ضد مجموعات أخرى من النساء، اعتقدن أنه من مصلحة النساء «المحترمات» أن يتم فتح بيوت الدعارة الحكومية، حيث لم تكن هذه المرافق متاحة من قبل، وكانت هؤلاء النساء في الواقع يحاولن إقناع

الحكومة بتبنِّي خططهن.

لقد طُلِب مني أن أقدِّم شكلًا من أشكال التوجيه بشأن تلك المسألة، لأنه كما ذكرت في دعوتي، «الجهل العام أو جهل أولئك الذين من واجبهم إصدار أو إنفاذ القوانين هو العدوُّ الأكبر لجميع الأفراد الذين يعارضون الدعارة المنظمة».

قرَّرتُ أن ألقي نظرة على القوانين الحالية، والتحقق من الوضع السائد على أرض الواقع، حتى أتمكَّن من تقديم المساعدة والمشورة الأكثر جدوى في تلك المشكلة. كانت السيدة سولي من كيب تاون هي التي تقود حركة مناهضة الدعارة في جنوب إفريقيا، وقد أعطتني العديد من العناوين والمفاتيح المفيدة[56]. وغنيٌّ عن التعريف أن ما قابلته خلال الجولة كان فوق الوصف كالعادة، لم يكن هناك أي سؤال يتعلق بمصالح المرأة، لم يتوقف أحدٌ لبرهة كي يفكر في محنة المومسات أو المصابات، في معظم الأوقات يحدث أن يُصَبن بلا ذنب بمرض تناسلي، وقد تمَّ وضع القوانين الحالية لغرض وحيدٍ؛ هو حماية الرجال. تم التعامل مع مصالح النساء في تلك المشكلة ويكأنَّها غير موجودة من الأساس.

لقد تحدَّثتُ في اجتماعات النساء حول قضية الدعارة في كيب تاون، وبورت إليزابيث، وبلومفونتين، وكيمبرلي، وبريتوريا، وجوهانسبرج. وأينما ذهبت كنت أتلقَّى العديد من رسائل الامتنان، وعندما وصلت إلى المدينة وجدت أن كل شيء قد تمَّ ترتيبه بالفعل، وأن النساء سيأتين من كل حدب وصوب لسماع تلك المحاضرة التي ألقيها.

56- بالإضافة إلى عملها المناهض للدعارة. كانت جوليا فرانسيس سولي (1862-1953) نشطة في عدد من الحركات. كانت واعظة. داعية للسلام. وناشطة متحمسة للحفاظ على البيئة. كانت هي الروح المؤثرة في تأسيس جمعية حق المرأة في التصويت في كيب تاون عام 1907. وهي أول منظمة حق التصويت في جنوب إفريقيا. سولي كانت صديقة مقربة لـ أوليف شراينر.

في بعض الأحيان، قد تمنع المسافات الشاسعة وقلَّةُ وسائل النقل العديدَ من جمهوري المحتمل من الحضور، وسيُطلب مني نشر أفكاري وآرائي في الصحف أو المجلات المحلية. فعلت ذلك في «رسالتي المفتوحة إلى نساء جنوب إفريقيا». طُبعت آلاف النسخ من هذه المقالة الصريحة باللغتين الهولندية والإنجليزية، وأُرسِلَت إلى النساء اللائي يَعِشن حتى في أبعد الحقول والمزارع.

وفي هذه الرسالة وصفتُ المخاطر الكامنة في كل من بيوت الدعارة الرسمية وتنظيم الدعارة. شرحت لهؤلاء النساء أن الدعارة ليست «شرًّا لا بُدَّ منه»، بل إن هذا الشر هو الذي يقوِّض المجتمع أكثر من أي شيء آخر، ويسبِّب أفظع الأمراض بين الرجال والنساء، المذنبين والأبرياء على حدٍّ سواء. حاولت أن أوضِّح مدى انعدام الجدوى في إخضاع المومسات للفحوصات الطبية؛ لأن المرأة التي قد تكون بصحة جيدة وقت الفحص، ويمكن أن تصاب بالعدوى بعد الفحص مباشرة.

انتهى هذا الخطاب أو العريضة بالكلمات التالية: «أولئك الذين يرغبون في منع انتشار الأمراض الناتجة عن الدعارة، أو الذين يحاولون حتى القضاء على وجود هذا السرطان الاجتماعي، يجب أن يبدؤوا بتثقيف أبنائنا منذ سِنٍّ مبكرة حول مخاطره. ويجب أن يتضمَّن ذلك التحذير من قِبَل والديهم ومعلِّميهم وأطبَّائهم، من أنه، وبغَضِّ النظر عمَّا إذا كانت العاهرة تعيش في بيت دعارة أو تعمل بمفردها، فلا يمكن الوثوق بأنها ستكون خالية من المرض؛ وبمجرد أن يدركوا عواقب العدوى، وبمجدر أن نتوقَّف عن تشجيعهم قانونيًّا وأخلاقيًّا على الانغماس في هذا الشر، سنرى مجتمعًا يتكوَّن من رجال محترمين ونساء محترمات، لا مكان فيه لتلك الأمراض التي هي وصمة عار لأي وطن متحضِّر».

ومع ذلك لن يتمَّ تسريع فجر هذه الحقبة المنتظرة بأي حال من الأحوال، من خلال ترخيص بيوت الدعارة، ووجود «قانون الوقاية من الأمراض المعدية». ومن ثم فمن واجب جميع النساء أن يناضلن من أجل إلغاء هذه الإجراءات، التي تمَّ تبنِّيها في وقتٍ كان الناس لا يزالون يجهلون طريقة انتشار الأمراض التناسلية.

بعد جنوب إفريقيا قمت بزيارة شرق إفريقيا وآسيا. أينما ذهبت حاولت أن أكتشف بقدر ما أستطيع عن الوضع السائد على أرض الواقع، من الناحية الجنسية والأخلاقية. لقد واجهت قدرًا كبيرًا من المعاناة، ولكن يا للأسف! من المستحيل المساعدة في العمل من أجل تحسين ظروف النساء من خلال النظر فقط من بعيد.

في يونيو 1913، عَقَد التحالف الدولي لحق المرأة في التصويت مؤتمرًا في بودابست، وحقيقة أن الحدث بأكمله هيمنت عليه الحملة ضد الدعارة، كان بسبب ما عايشته أنا والسيدة كات خلال جولتنا العالمية[57].

لسوء الحظ كانت بداية الحرب الأخيرة، تعني أن الخطط التي نوقشت في المؤتمر لن تتحقق في النهاية. في ظل احتراق العالم، شعر العديد منَّا - وفي رأيي كان هذا صحيحًا تمامًا - أنه يتعيَّن علينا تكريس كل طاقاتنا لحركة السلام؛ لأنه ما الهدف من غرس القيم الأخلاقية والجنسية العالية في جيلنا الأصغر، إذا كانوا واقعين تحت خطر الذبح في الحرب أو فقدانهم لكل حسٍّ أخلاقي ممكن؟

أخيرًا، أودُّ أن أضيف أن «إل. جيه. فين»، من أمستردام، نشر كتابي

57- في الواقع، كانت جلسة واحدة فقط من الجلسات الرسمية في مؤتمر بودابست بعنوان «تجارة الرقيق الأبيض». مخصصة للدعارة. وتم تقديم المناقشة من قبل كات. ووجَّهَت السؤال التالي: «ما الذي حقَّقته الناخبات لحل هذه المشكلة؟» (التحالف الدولي لحق المرأة في التصويت 11). ربما تعني جاكوبز أن الموضوع سيطر على المحادثات غير الرسمية بين المندوبين. نوقِشَت «العبودية البيضاء» في اجتماعات ICW لسنوات. لكنها كانت موضوعًا غير عادي بالنسبة لـ IWSA التي تركِّز على حق التصويت.

«قضايا المرأة» في عام 1899. والذي ناقشت فيه ثلاث قضايا موضوعية، الثانية منها هي «التنظيم القانوني للدعارة». والقضيتان الأخيرتان مخصَّصتان لـ«استقلال المرأة الاقتصادي والسياسي»، و«تنظيم الأسرة».

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

الفصل العاشر

حياتي مع كاريل فيكتور جريتسن

(نبذة مختصرة عن حياة «ك. ف. جريتسن»؛ كيف التقينا. حياتنا وزواجنا. رحلات ركوب الدرجات الهوائية. الضيافة الاسكتلندية. مؤتمر المجلس الدولي للمرأة في لندن. كيف أثرت حياة جريتسن العامة على حياتي. حملته لتنظيم إعانة الفقراء. الذكرى السنوية الخامسة والعشرين لحصولي على الدكتوراه في الطب. زيارتنا إلى أمريكا. موت «ك. ف. جريتسن»).

لقد ذكرت كثيرًا في الفصول السابقة اسم ك. ف. جريتسن، أمَّا الآن فأودُّ أن أخصِّص الصفحات التالية عن صداقتنا المتبادلة، علاقة الحب بيننا، والزواج. وأريد أيضًا أن أؤكِّد[58] على التأثير العميق الذي تركه في كل ركن من أركان حياتي.

اسمحوا لي أن أبدأ بلمحة مختصرة عن حياته.

وُلِد كاريل فيكتور جريتسن في الثاني من فبراير من العام 1850. كان أكبر الأبناء الستة لهنري جريتسن وإليزابيث براسر ريجس في، اللذين عاشا في مدينة أمرسفورت. وكان والده تاجر جُملة يعمل

58- لا توجد أي سيرة ذاتية أو مقالة كاملة حول جريتسن. انظر السيرة الذاتية الموجزة في BWSAN. وأيضًا «De Wild» وكتابه التحرُّري الاستثنائي «De bibliotheek». ونابرينك. من صفحة 66 إلى 77. وأنشطته في الرابطة الهولندية NMB لتحديد النسل.

في تجارة الحبوب والأعلاف. لقد أبلى كاريل بلاء حسنًا في المدرسة الابتدائية، ثم استقر بعد ذلك مع أحد مُعلِّميه السيد فان أوتيرلو، في أمستردام، حتى يتمكن من التحضير للالتحاق بالمدرسة الثانوية. كلما تحدث كاريل عن تلك الفترة أخبرني أن أعزَّ ذكرياته كانت مع السيد ن. ج. بايرسون (الذي أصبح فيما بعد أستاذًا جامعيًّا، ثم رئيس البنك المركزي الهولندي، وأخيرًا وزيرًا في الحكومة). كان لدى بايرسون القدرة على أن يحفِّز تفكير طلابه دائمًا نحو القضايا الاجتماعية والاقتصادية.

كانت رغبة كاريل الوحيدة بمجرد أن تخرَّج من المدرسة الثانوية، التقدم لامتحان القبول بالجامعة؛ حتى يتمكن من استكمال تعليمه. لكن بدا أن ذلك غير ممكن؛ فقد احتاجه الوالد لأن يساعده في إدارة أعمال تجارته.

اضطر للعودة إلى أمرسفورت ليعيش في المنزل، ويعمل في التجارة العائلية. وكان من المؤكد أن يمثِّل مثل هذا الترتيب الجديد للحياه صعوبات، فكلا والديه كانا بروتستانتيَّين من الطراز القديم، وكل يوم أحد يذهبان للكنيسة، ووالده كان عضوًا في مجلس الرعية في الكنيسة.

يأتي القسُّ بعد الظهر لتناول الشاي في المنزل بالطبع، والأطفال مُلزَمون أيضًا بالحضور للكنيسة، وكان من الضروري أن يستمعوا باهتمام إلى محاضراته وتحذيراته خلال زياراته بعد ظهر كل أحد، وبالطبع يتم تربية الأطفال على النحو الذي تفرضه المسيحية.

لم يكن لدى كاريل الرغبة في الخضوع لهذا كله؛ ولذلك لم يذهب للكنيسة كل يوم أحد، ولم يتلُ الصلوات معهم قبل الوجبات، ولم

يُصلِّ معهم في المنزل أثناء زيارات القس كل يوم أحد، كما أنه أيضًا لا ينتوي أن يحقِّق نفسه بـ «التعميد»، فقد أدَّى هذا كله إلى سلسلة من المشاجرات، التي سرعان ما بدا أن أيًّا من الجانبين لم يكن على استعداد للتزحزح عن رأيه قيد أنملة خلالها. وفي نهاية المطاف غادر كاريل إلى لندن، وسرعان ما شغل وظيفة إدارية في مكتب تاجر لندني.

في ذلك الوقت كان المفكر التَّحرُّري تشارلز برادلو يرفض أن يؤدِّي اليمين في البرلمان[59]. تلا ذلك مشاجرة هائلة بينه وبين الحاضرين في البرلمان، وعلى الرغم من قوته الهائلة فقد انتهى الأمر بطرده وملابسه ممزَّقة إلى أشلاء. ولم يكن ذلك سوى المشهد الأول من بين عدد من المشاهد المماثلة، ومع ذلك استمر الناخبون في دائرته الانتخابية في انتخابه بقوة. على الرغم من شجاعته ومثابرته اضطرَّ أخيرًا إلى التَّخلِّي عن هذا النضال غير المتكافئ.

سرعان ما تواصل جريتسن مع شركاء برادلو والمدافعين عنه، ومن خلالهم التقى آني بيزنت، و«د. تشارلز درايسدال»، وكثيرًا من المصلحين الاجتماعيين الإنجليز الآخرين. انتهى الأمر ليصبح صديقًا قويًّا لمعظم هؤلاء الأشخاص. كما سبق لي أن ذكرت، وبدون أن يقابلني شخصيًّا، أرسل لي جريتسن خطابات تعريف لأصدقائه، وبفضله التقيتُ بهم أثناء إقامتي في لندن.

بعد سنوات طويلة من العيش في لندن، تلقَّى كاريل بشكل مفاجئ أخبارًا من أمرسفورت، بأن والده يعاني من مرض خطير في العين، ومن المحتمل أن يفقد بصره جزئيًّا أو كليًّا؛ لذا سيتعيَّن على كاريل

59- في هذا الوقت. كان على أي شخص منتَخَب في البرلمان البريطاني أن يؤدِّي اليمين المسيحي. لم يستطع برادلو. المفكر الحر. بكل ضميرٍ. أن يقسم اليمين. سعى إلى الجلوس دون أن يقسم فتمَّ طرده. كما تكتب جاكوبز أدناه. كان لجريتسن دور فعَّال في تغيير قَسَم مسيحي مماثل في هولندا إلى تعهُّد بسيط.

العودة إلى المنزل في أقرب وقت ممكن، حتى يتمكن من مساعدة أخيه الأصغر في إدارة الشركة العائلية. لكنه قرَّر ألَّا يعيش في المنزل، مفضِّلًا بدلًا من ذلك العيش في إحدى الغرف فوق المكتب التجاري الذي تمتلكه العائلة. تمكَّن كاريل من توسيع نطاق أعمال الشركة، بالاستعانة بشبكة من جهات اتصاله الأجنبية. أمضى كاريل أمسياته في الدراسة، وسعى للترويج لأفكار جديدة في هذه المدينة الضيقة الأفق والمناهضة للثورة في الغالب، وذلك من خلال إلقاء المحاضرات وكتابة المقالات، التي دفع ثمنها من جيبه الخاص لطباعتها وتوزيعها على السكان المحليين[60].

كما ذكرت في الفصل الثاني، فقد تمكَّن كاريل من خلق سُمعة طيبة لنفسه، لا سيَّما عندما لم يُخفِ صداقته مع مولتاتولي، الذي ظلَّ مع كاريل عندما جاء لإلقاء محاضرة في أمرسفورت، كما حافظ هو أيضًا على اتصالاته الإنجليزية، إذ ساعده تصريح العمل في زيارة لندن بانتظام لقضاء فترات راحة قصيرة.

بعد عدة سنوات أنشأ كاريل جريدة أسبوعية في أمرسفورت، اسمها أونس بليد (جريدتنا)، الذي كتب فيها المقالات الإفتتاحية. وفي 1881، انتخب لمجلس مدينة أمرسفورت، وإذا به يصطدم باستمرار بالإدارة المحلية اليمينية المتطرفة. وكان أحد العناصر الرئيسية في هذا الصراع معارضةَ كاريل لتنظيم الدعارة، فقد كتب كتيبًا حول هذا الموضوع، يناقشه من الجوانب الاجتماعية والأخلاقية والمعلومات الطبية الإضافية التي قدَّمتُها له بنفسي.

60- معاداة الثورة هنا تعني مجموعة سياسية محدَّدة متجذِّرة في العقيدة الكالفينية. الحزب المناهض للثورة (ARP)، الذي كان موجودًا في نواة معارضة لليبراليين منذ مجيء الحكومة البرلمانية في عام 1849. واتَّخذ شكله كحزب وطني جماهيري في 1870 (غلاديش 15 - 25).

كما قام بحملة ضد استخدام عِمالة الأطفال في المصانع والأماكن الأخرى، دعا إلى تحسين التعليم وقبول الفتيات في مدارس البنين، طالب بالمعاشات التقاعدية للعاملين في مجلس المدينة. قام بحملة خارج المجلس لعدد من القضايا، مثل تعليم الأطفال الذي يعيشون على متن السُّفن.

في مايو 1886، انتقل جريتسن إلى أمستردام، حيث بدأ في الجامعة خلال الخريف التالي، يحضر محاضرات الأساتذة كواك وبيرسون. حصل على دبلوم التعليم المتوسط في الاقتصاد السياسي. نُشِرَت في 1887 ورقته البحثية المؤثِّرة حول البنك المركزي الهولندي، الذي دافع فيه عن تحوُّله إلى بنك تابع للدولة.

في أوائل عام 1888، كان أحد المؤسِّسين لحملة ضد الإجراءات الحكومية في المجلس التنفيذي، وهي هيئة الواجب المدني، والتي كانت تضمُّ الكثير من الأعضاء المؤثِّرين في السياسة في أمستردام، والذين يقررون فيما بينهم بانتظامٍ مَن سينضم إلى مجلس المدينة ومَن سيمثل مدينة أمستردام في البرلمان.

وأدى هذا الصراع إلى استقالة عدد من الأعضاء الراديكاليين من الجمعية الانتخابية، وتأسيس جمعية جديدة تسمَّى «جمعية أمستردام»[61]. يعتبر جريتسن واحدًا من مؤسِّسي تلك الجمعية، التي كانت تهدف إلى تمثيل جميع سكان أمستردام، بحيث يكون للأقليات أيضًا رأي عادل في اجتماعات المجلس. وكانت النتيجة تحالفًا مناهضًا للِّيبرالية من الراديكاليين، ومجموعة الكنيسة، الذي حقَّق في انتخابات

61- «جويز» عبارة عن مجموعة من القرن السادس عشر، من الوطنيين الهولنديين، الذي عارضوا فيليب الثاني والكنيسة الكاثوليكية الرومانية.

خريف عام 1888 فوزًا ساحقًا، وأطيح بالحرس القديم. ومن بين الأعضاء الجدد الراديكاليين في مجلس المدينة كان ك. ف. جريتسن. في البداية كان حليفه الوحيد هو السيد الراديكالي و. هاينكن، ومع ذلك ناضل كاريل بلا كَلَل ضد الاحتكارات التجارية، وضد سلوك الشرطة، وكل ما رآه شكلًا من أشكال القمع في المدينة.

حصل لاحقًا على دعم من عضو جديد في المجلس وهو السيد و. ف. تريوب، وأيضًا على دعم صحفي من أمستردام يُدعى يوهانس. د. يكو، الذي أثَّرت مقالاته اللاذعة بشكل كبير على الرأي العام. أقام جريتسن جنبًا إلى جنب مع تريوب حملة ناجحة، من أجل إصلاح قانون العمل الذي تشتدُّ الحاجة إليه، وبفضل هذين الرجلين كانت الدولة بأكملها تقريبًا تحذو حذو أمستردام في فرض الحد الأقصى لساعات العمل، ووضع حدٍّ أدنى للأجور.

في فبراير 1893، عندما تمَّ انتخاب جريتسن لتمثيل مقاطعة ليوواردن، وأصبح أول عضو راديكالي في البرلمان. وغني عن القول أنه لم يكن ينوي التَّخلِّي عن معتقداته بمجرد دخوله إلى البرلمان، فقد قدَّم مشروع قانون العضو الخاص - مما لا شكَّ فيه أنه مُستَوحًى من نموذج برادلو - حيث اقترح حرية الاختيار بين أخذ اليمين المسيحي، أو أداء يمين تعهُّد بسيط، وهذا إجراء ينطبق أيضًا على المجالس الإقليمية والمحلية. وقد تمَّ تمرير هذا القانون ودخلت مبادئه للنظام السياسي الهولندي؛ ما جعل كاريل شديد السعادة بهذا الانتصار. ظلَّ كاريل عضوًا في البرلمان حتى سبتمبر 1897، حيث تم استبداله في ليوواردن من قِبَل أحد أعضاء الحزب الديمقراطي الاجتماعي. في عام 1901، عُرِض عليه الترشح لمنصب جديد، لكنه رفضه، إذ إنه كان في ذلك الوقت يكرِّس كل طاقته لمجلس المدينة في أمستردام. في الخامس

من سبتمبر 1899، خلف السيد شولفينك، كعضو مجلس البلدية للتجارة وإعانة الفقراء، وقد تمكّن من تحقيق الكثير من العمل المثمر في هذا المجال، وأودُّ أن أضيف أن مبادرته وشجاعته كانت مسؤولة عن إنشاء مكتب الخدمات الطبية في المدينة، على الرغم من معارضة الأطباء في أمستردام.

وبالإضافة إلى دعم تريوب لجريتسن، فقد تمكَّن من الحصول على الدعم من قِبل أعضاء آخرين في مجلس المدينة، مثل «هوغر مولر» و«جي دن هيرتوغ». وقد كان يكتب آراءه السياسية بالإضافة للعمل في مجلس المدينة، في ورقات بحثية مثل المنشورة في مجلة «دي جروين أمستردام»، ومجلة «فور» الأسبوعية الهولندية، اللتين تمَّ تحريرهما من قِبل الصحفي الاستثنائي يوهانس دي كو، برؤية ثاقبة. وفي ذلك الوقت تمَّ تشكيل الاتحاد الراديكالي الهولندي، ومن ثم اندمج في عام 1901 مع الاتحاد الديمقراطي الليبرالي، وتمَّ التخلي عن وصف الراديكالي.

في وقتٍ ما وجد جريتسن نفسه منبوذًا من قِبل مؤيديه السابقين، وكان ذلك أحد الأسباب التي جعلته يقرر في عام 1902 الاستقالة من منصبه كنائب لعمدة المدينة، وقد تمسَّك بقراره حتى عندما عيَّنه مجلس المدينة في سبتمبر التالي في نفس المنصب مرة أخرى، على الرغم من أنه استمر في العمل كعضو في مجلس المدينة.

حيثما خدم جريتسن – أثناء عضويته في المقاطعات الإقليمية لعدة سنوات – فإنه يقاتل من أجل المساواة في الحقوق بين الرجال والنساء؛ من أجل تهيئة ظروف أفضل للطبقات العاملة، وتحسين النظافة الصحية (في منازلهم، ولأطفالهم في المدرسة... إلخ). على سبيل المثال،

في مجلس مدينة أمستردام، دافع عن تطوير الخدمات العامة، وبفضله تم القضاء على الاحتكارات، واستحوذت المدينة في نهاية المطاف على الشركات؛ مثل شركة ترام أمستردام، وشركة الغاز الإنجليزية، وشركة بيل للتليفون، وحُوِّلت إلى شركات مملوكة للقطاع العام. وبهذا اختتم موجزًا لحياته العملية التي حقَّقَت الكثير للمجتمع الذي يعيش فيه.

كما ذكرتُ آنفًا، فقد بدأت أنا وجريتسن في التواصل بعد الفحوصات الأولى التي أجريتها عندما أُصِبت بالتيفوس. لقد زارني أثناء المرض مرات كثيرة، ولم يذكر اسمه للعاملين في المشفي، ووجدته من بين الحضور عندما وقفت أناقش رسالة الدكتوراه، وقبل مغادرتي إلى لندن أرسل لي خطابات تعريف للعديد من أصدقائه الجيدين هناك. وعلى الرغم من كل هذا فقد مرت عدة أشهر بعد أن قمت بإعداد عيادتي في أمستردام، حتى تمكنت أخيرًا من مقابلته شخصيًّا.

كان قد زار والدي في المنزل من قبل، وطلب الإذن منه ليتمكَّن من زيارتي، حين أخبرني والدي بذلك انفجرت ضاحكة. لأكون صادقة، كان انطباعي عنه أنه كان شابًّا من الطراز القديم، وغريبًا إلى حدٍّ ما. على الرغم من أن هذا لم يكن بأي حال من الأحوال واضحًا في خطاباته. بقدر ما كنت أشعر بالقلق من مقابلته لي، فإن حضور والدي تلك المقابلة قتل عندي أي فكرة للرومانسية، فلم أشعر أبدًا بالحماس بشأن زيارته الوشيكة.

في العشرين من يناير 1880 تلقَّيتُ رسالة مكتوبة بدقَّة، أخبرني فيها جريتسن أنه التقى ببعض أصدقائنا المشتركين في لندن، الذين طلبوا منه أن ينقل لي تحياتهم. أراد أن ينقل هذه الرسائل بنفسه، وسأل عمَّا إذا كان يمكنه الاتصال بعد ظهر يوم الأحد التالي في وقت

الشاي.

كان رد فعلي بكل بساطة: «لقد أصبح جريئًا للحضور فقط، لأنه يحمل القليل من الرسائل الخاصة بي من لندن».

فريدريك أختي الصغرى، في ذلك الوقت كانت تقوم بتدريس الرياضيات والمحاسبة في كلية البنات في لاهاي، وكانت حاضرةً عندما أتى جريتسن أخيرًا. لقد أعددنا الشاي بالفعل. كانت كلتانا تجيد أعمال التطريز، فأقوم بتطريز الزهور على الحرير الأزرق الداكن، بينما أختي تصنع الدانتيل الناعم. أعمال التطريز تقرِّب المسافات بيننا. بدت الدهشة على وجه جريتسن عندما وجدنا منشغلتَيْن بشيء منزلي مثل الحرف اليدوية!

سألته - مازِحةً - كيف يتصوَّر بالضبط هذه المرأة التي كان يتبادل معها حتى الآن فقط سلسلة من الخطابات الخطيرة والرسمية؟ هل كان يعتقد حقًّا أنني قضيت حياتي كلها وأنفي عالقٌ في كتاب؟ لأريه أن تطريزي كان أكثر من مجرد نزوة عابرة؛ أنتجت المزيد من النماذج من السَّلَّة التي استخدمها لتخزين مواد التطريز. أنا وأختي أخبرناه أننا صنعنا أيضًا الفساتين التي كنا نلبسها، ورغم ذلك أضفت أنني في أقرب وقت حينما أصبح أفضل ماليًّا، سوف أنقل مَهمَّة التطريز إلى يد أكثر احترافية في ذلك.

منذ ذلك الحين تحدثنا كما لو كنَّا أصدقاء قدامى، وبدأنا على الفور في مناقشة حيوات النساء اللاتي كنَّ ينشرن مذكراتهن في كتب في تلك الفترة، أخبرنا جريتسن أنه يمتلك مكتبة كبيرة تضم العديد من

هذه الكتب[62]. وفي الوقت الذي نهض فيه للمغادرة، اعتذر لنا، إذ إنه ظل لفترة أطول بكثير ممَّا كان طبيعيًّا في أول زيارة له، ولكن أنا وأختي قلنا إن كل ذلك خطؤنا لأننا أبقيناه يتحدث لفترة طويلة. غادر جريتسن مع وعدٍ منه بأنه سيعيرنا الكتب التي تناقشنا حولها في تلك الجلسة.

رغم أن هذه الزيارة قد حقَّقت نجاحًا كبيرًا، إلا أنه مرَّ بعض الوقت دون أن تتكرَّر، فقد أرسل الكتب وتلقَّى رسالة شكر موجزة، وكان هذا كل شيء في الوقت الحالي. ثم جاء 8 مارس، الذكرى السنوية الأولى لحصولي على الدكتوراه في الطب، كنت قد نسيت تمامًا هذا التاريخ، ولم أنوِ أن أفعل شيئًا للاحتفال به، لم أكن لأتذكَّر لو لم أنزل إلى الإفطار، وأكتشف مزهرية مليئة بالزهور، عليها بطاقة تهنئة من ك. ف. جريتسن، كان قد كتب عليها: «هل تدرك نساء هولندا الأهمية العميقة لتاريخ 8 مارس 1879؟».

إنه الشخص الوحيد الذي تذكَّر تلك المناسبة الخاصة جدًّا، وجنبًا إلى جنب مع أخته وزوجها السيد هنغفيلد، اتَّصل بي ودعا نفسه بعد ظهر ذلك اليوم لتهنئتي، ودُهِش حين لم يجد أي احتفال بمناسبة اليوم. طلبوا مني تناول العشاء معهم في فندق أمستل، وقدَّموا الدعوة أيضًا إلى أخي إدوارد، الذي كان لديه مَهمَّة عمل تابعة للجيش في أمستردام، حيث كان ضابطًا في سلاح المشاة، وقد جاء لزيارتي. قَبِل كلانا تلك الدعوة، وبتلك الطريقة تعرَّفنا أيضًا على أقارب كاريل.

62- في ذلك الوقت، كان جريتسن في طريقه لتجميع مجموعة استثنائية من الكتب والدوريات عن تاريخ المرأة والنسوية والاقتصاد وعلم الاجتماع، والتي تضمَّنَت بحلول عام 1892 ثلاثين ألف عنوان. يتَّضح من مراسلات جاكوبز الدولية أنها طلبت أيضًا بنشاط مواد علمية لإعداد مجموعة. بيعت في عام 1903 إلى مكتبة جون كرير في شيكاغو، وأعيد بيعها في عام 1951 إلى جامعة كانساس، وتعرف باسم «مجموعة جريتسن لتاريخ المرأة» ومتوفرة على الميكروفيلم.

في 1880 تبادلنا بعض الخطابات العادية، وكان جريتسن يزورني من حين لآخر ليسلِّمني الكتب التي كنت قد طلبت استعارتها منه. ولكن بعد ذلك ظلَّ اتصالنا محدودًا. في مارس 1881 جاء لي جريتسن في إحدى الأمسيات بعد وفاة والدي الحبيب بأسابيع قليلة. إذ كان يدرك جيدًا أنني سوف أكون شديدة الحاجة للمواساة بعد وفاة والدي، وقد قدَّم لي الكثير من المواساة حينما سمعته يتحدَّث بإعجاب عن والدي، ويعرب عن سعادته بمعرفته القصيرة له.

بدأت أخبره كيف كان والدي صديقًا جيِّدًا وناصحًا أمينًا لي، في ذلك الزمن كان لدى والدي وجهات نظر تقدُّميَّة للغاية حول السياسة والقضايا الاجتماعية المختلفة، وذلك على الرغم من أنه خلال النقاشات بيننا، كان حريصًا على قمع أي ميول راديكالية لديَّ؛ لأنه كان قَلِقًا من أن أذهب بعيدًا جدًّا وأجد نفسي في ظروف قاسية. كان لدى والدي الكثير من الآراء الناضجة والمدروسة بدقَّة حول العديد من القضايا الاجتماعية. كنت أشعر بأنه يمكنني مناقشة أي شيء معه، وكان دائمًا لديه الوقت الكافي للاستماع لي وتبادُل الأفكار معي. وعلى الرغم من خلافاتنا المتكررة، فقد ساعدني في تكوين رؤية أكبر لي ووجهة نظر أكثر دقَّة عن هذا العالم.

أخبرت جريتسن أنني أشعر بعد وفاة والدي كما لو أنني قد فقدتُ صديقي الوحيد، وأعرف أنني لن أجد صديقًا آخر مثله.

عندما انتهيت من الكلام، سألني كاريل بخجل شديد ما إذا كان يستطيع أن يعتبر نفسه صديقًا لي، يمكنه الاستماع إليَّ كلَّما رأيت ذلك مهمًّا. لقد اعترف بأن المسائل الطبية ليست ضمن نطاق اهتمامه الضيق، ولكن نظرًا لأننا نتشارك نفس المبادئ من حيث الاهتمامات الاجتماعية؛ فإنه يمكن أن نقدِّم لبعضنا البعض المساندة والدعم.

في هذا المساء بدا أننا على أول الطريق لعلاقة صداقة. كانت العلاقة حتى الآن غير رسمية، ووجدت صعوبة في تخيُّل كيف يمكنني مناقشة مشكلاتي اليومية وآرائي مع رجلٍ بالكاد أعرفه. أليس من الحكمة حفظ كل هذه القضايا لأصدقاء مثل هيلين ميرسير، أو كورنيلي هوجينز، أو إليز هايتون؟ في البداية تألَّفت صداقتنا من تبادل بضع خطابات، ورؤية بعضنا البعض بشكل متكرِّر. يقضي جريتسن بانتظام فترة بعد الظهر كل يوم الاثنين في سوق الذرة في أمستردام، وبعد ذلك ينتظر بين الساعة 3 و4 مساء حتى تنتهي ساعات عملي في مكتبي، ومن ثم نتحدث عن الموضوعات التي قرأنا عنها مؤخرًا في الصحف والمجلات. في وقتٍ ما كنَّا لا نزال نتحدث بعمق، عندما اضطرَّ أن يتحرك للِّحاق بقطاره الذي يُقلُّه إلى أمرسفورت، وقد رافقته إلى المحطة حتى نتمكَّن من إنهاء مناقشاتنا.

كانت تلك الفترة شديدة الاضطرابات السياسية، حيث كانت تلك الفترة التي بدأت فيها الصراعات بين مؤيِّدي ومعارضي التعديل الدستوري المقترَح، بالسماح بمنح الذكور حقًّا كاملًا في الانتخاب، وهو ما منحنا الكثير من الموضوعات للنقاش فيها في ذلك الوقت. كان جريتسن يعرف كثيرًا عن هذا المجال السياسي أكثر مني، وأصبحت أؤمن من خلال تلك النقاشات أن صداقته لي تُقدِّم لي الكثير من المعرفة والخبرة.

لكنني أيضًا كنت أقدِّم المساعدة لجريتسن، وذلك حينما أصبح عضوًا في مجلس بلدية أمرسفورت. كان أحيانًا يأتي فجأة ليسألني عن رأيي في موضوع ما، والذي كان قَيْد المناقشة في المجلس. على سبيل المثال، تحدَّثنا عن مسألة ما إذا كان يجب إنشاء مدارس للفتيات في أمرسفورت. وعارَضتُ هذه الفكرة بالتأكيد. واقترحت أن يسمح

المجلس - ببساطة - للفتيات بالالتحاق بمدارس البنين المختلفة. قلق جريتسن من أن سكَّان أمرسفورت غير مستعدِّين حتى الآن لقبول أي إجراء جذري «راديكالي». وأن انتظار تقبُّلهم لتلك الفكرة، قد يكون ذا تأثير عكسي على تعليم الفتيات. أكَّدتُ له في ذلك الوقت أن قبول الفتيات في مدارس البنين سيكون أفضل من إنشاء مدارس منفصلة للفتيات.

لقد كتب جريتسن كتيِّبًا لبدء حملته في المجلس لإلغاء قانون البغاء «الدعارة». وقد زوَّدتُه في هذا الكتيب بالتفاصيل الطبية اللازمة، وقمنا معًا بمناقشة جميع الحجج الاجتماعية والأخلاقية المختلفة التي يمكن استخدامها ضد هذا القانون. وعندما كان مشغولًا للغاية أو يفتقر ببساطة للإلهام، كنت غالبًا ما أكتب له في تلك الأحيان المقالة الافتتاحية لجريدته الأسبوعية أونس بليد. لقد سمحَت لي تلك المقالة الافتتاحية أن أعرض آرائي حول مواضيع مثل «تربية الفتيات»، أو «التمييز القانوني والاجتماعي ضد النساء».

دعَّمَني جريتسن بشدة عندما بدأت في حملة علنية لتنظيم الأسرة عام 1882، وأيضًا عندما أطلقت حملة من أجل حق المرأة في الاقتراع في أوائل عام 1883. كنا نتعلم تدريجيًّا أن نثق في آراء بعضنا البعض. ولم أنشر مقالًا أبدًا قبل إرساله إلى أمرسفورت للموافقة عليه، وكان جريتسن دائمًا يستشيرني عندما تحتوي مقالاته على قضية تشغلني بشكل خاص.

الآن، وعندما أعيد قراءة تلك الخطابات التي كتبناها خلال السنوات 1881 و1882 و1883، يبدو لي أننا كنا شابَّيْن مثاليَّين لدينا طموحات كبير لإصلاح العالم بالكامل! وناقشنا جميع المشاكل

الاجتماعية. عندما لم أكن أرد بسرعة على تلك الخطابات، كنت غالبًا ما أتلقَّى رسالة مقتضبة يسألني: «إذن ما الأمر؟ ولِمَ لَمْ أتلقَّ أي شيء ردًّا على هذا الخطاب، والذي يجب أن يكون قد وصل إليك؟». في بعض الأحيان كان ينهي رسالته بتعليق ساخر: «آمل ألَّا تضيِّعي وقتك في المزيد من أعمال التطريز».

خلال هذه السنوات من التعاون تكلَّمنا بصراحة حول كل القضايا التي كانت تشغلنا، بما في ذلك مسألة العلاقات الجنسية.

وأدركنا تدريجيًّا أننا شابان في مقتبل الصحة العقلية والجسدية، دخلنا في علاقة صداقة اكتسبت معنى أعمق. وأدَّى عملنا التعاوني إلى ترسُّخ الفهم المشترك بيننا، ونشأت ما تشبه العلاقة الروحانية. في ذلك الوقت كان الزواج سوف يُسبِّب اضطرابًا في تلك العلاقة؛ لأننا كنا نعتقد أنه لا يمكن لأي امرأة لديها أي قدر من احترام الذات، يمكن أن تلزم نفسها داخل مؤسَّسة الزواج بالشكل الذي كانت عليه. كانت هناك مشكلة أخرى؛ وهي أن جريتسن كان يعيش في أمرسفورت، بينما لم يكن لديَّ أي نيَّة في التخلي عن عيادتي وممارستي للطب في أمستردام.

بعد تفكير مطوَّل في هذا الوضع ونقاش مطوَّل أيضًا، وصلنا إلى حل؛ وهو أنه من الأفضل أن لا نرى بعضنا البعض في المستقبل القريب، وأن نراسل بعضنا فقط إذا كان ذلك ضروريًّا للغاية. ومرَّت الشهور، وكنا نسمع أخبار بعضنا البعض بشكل غير مباشر.

في مايو عام 1884 تلقَّيتُ رسالة من جريتسن مرة أخرى، لقد كتب إليَّ رسالة يخبرني فيها أنه كان يقضي بضعة أسابيع في لندن؛ لأنه سئم تمامًا من الحياة في أمرسفورت. وكان يأمل في أن يعثر على

وظيفة مناسبة في لندن، لكنه سرعان ما بدأ يشعر بنفس البؤس الذي أحسَّه في هولندا، وكان يفكر الآن في الشروع في رحلة كبيرة على أمل أن يحصل على قليل من التسلية لتحسين معنوياته.

وبإيجاز، شجَّعته على متابعة خططه. ولكنني تساءلت كيف شعرت حقًّا حيال انفصالنا؟ فعلى الرغم من انشغالي في العمل الذي يستهلك كل وقتي تقريبًا، شعرت أن هناك شيئًا ما أفتقده في حياتي. من المفترض أن يقدم العمل المكثف، العمل الذي يشتمل على قدر كبير من الحب والتفاني، راحة كبيرة في أوقات الشدائد، ولكنه بطريقة ما شعرت أن ذلك لا يحقق الاحتياجات الأخرى للشباب. من الواضح أنني لم أكن سعيدة، فبمجرد أن تقع في الحب تجعلك المشاعر ترفض أن تندمج في العمل، حتى ذلك النوع من العمل الذي يؤدَّى بحب. شعرت بعدم الارتياح، والذي كان بدوره يؤثر على توازني العاطفي.

لكنني ليس لديَّ نيَّة في الاستسلام، لأني أردت أن أبقى حرَّةً مستقلَّة، لكي أستطيع تحقيق مَهمَّتي التي اخترتها بعد عناء طويل.

لهذا السبب قرَّرتُ أن أحارب مشاعري الداخلية، بإقناع نفسي أن الزواج لن يحل مشاكلي بأي حال من الأحوال.

في ربيع 1884 كنت أعالج فتاتين صغيرتين في الثانية عشرة والرابعة عشرة من العمر، أبناء عائلة تجارية ثرية في أمستردام، أصبحتا صديقتين قويتين لي. والدهما كان مريضًا أيضًا، ونصحه طبيبه بالمغادرة مع زوجته إلى المياه الطبية في كيسينجن.

كانت مَهمَّتي تقتضي أن أعتني بالأطفال، وأرافقهم إلى لوسرن في بداية أغسطس ليلتحقوا بوالديهما. ومن ثم أبقى كضيف مع العائلة،

وأنا قبلتُ دعوتهم لي، لكن مع بعض الشروط. أسعدني أن آخذ الفتيات إلى لوسرن وأبقى معهم لمدة أسبوعين. وبعد ذلك أردتُ أن أكون حرَّةً في السفر كما يحلو لي في جميع أنحاء سويسرا.

خلال الأسبوع الثاني من إقامتي في لوسرن، قابلت ثلاثة أشخاص إنجليز؛ أخ وشقيقتين، كانوا يخطِّطون لقضاء إجازتهم سيرًا على الأقدام في مكان محدَّد من البلد. سرعان ما اتَّفقتُ معهم كي أرافقهم، كنت أمشي ذهابًا وإيابًا على طول بحيرة لوسرن حتى غروب الشمس. حينها رأيت باخرة صغيرة تقترب وعلى متنها عدد من الرجال، من بينهم جريتسن، وقد رآني أيضًا.

في الواقع لم يكن من قبيل الصدفة ظهوره في لوسرن، فقد تمكَّن أثناء وجوده في أمستردام من معرفة مكاني؛ إذ إنني أخبرته عن الثلاثة أشخاص الإنجليز وعطلة المشي، وقد سألني عمَّا إذا كان هناك أي اعتراض على انضمامه إلى الجماعة. سرعان ما تمَّ ترتيب كل شيء، وغادرنا نحن الخمسة بعد بضعة أيام. ولقد اتفقنا على ألَّا نكون طموحين للغاية، ولكن نمنح أنفسنا الوقت للتجوال في الطرق الجانبية، أو التوقف في مكان جميل، حيث يمكننا التفكير والتحدث مع بعضنا البعض حديثًا من القلب. أردنا أيضًا أن نكون قادرين على تخطي الأجزاء المملَّة بركوب قارب أو أي شكل آخر من أشكال النقل. كانت الخطة هي السير من لوسرن عبر ممرٍّ برونيج وصولًا إلى ميرينجن وبرينز، ومن هناك نستمر في السير حتى مدينة سبيز وكاندرستيج، قبل عبور الممر الجبلي «جيمي» للوصول إلى مدينة ليك. ثم نتبع نهر الرون إلى مارتيني، ومن هناك ننطلق إلى شاموني: الجبل الأبيض.

بعد أن اجتزنا أخيرًا ممرَّ جيمي الجبلي، وصلنا إلى لوكيرباد، حيث كان هدفنا أن نجد مكانًا نبيت فيه لليلة واحدة فقط.

وجدت نفسي متردِّدةً في المغادرة بهذه السرعة. كنت مهتمَّةً بشكل خاص بالطرق المستخدمة في هذا المنتجع الصحي، وقرَّرتُ قبول دعوة طبيب محلي. واضطررت أن أبقى لمدة يومين وأستقلَّ القطار للحاق بالمجموعة في المساء التالي. سار كل شيء وفقًا للخطة الموضوعة، ولكن عندما وصلت إلى المحطة لم أجد هناك أحدًا لمقابلتي سوى جريتسن، وأخبرني بأن أصدقاءنا الإنجليز قد ذهبوا إلى مدينة مارتيني، حيث خطَّطوا للعودة إلى باريس، ومن هناك يعودون لوطنهم.

ماذا كنا لنفعل؟ هل يجب أن نواصل رحلتنا كما هو مخطَّط لها ونواجه العواقب؟ قرَّرنا أن نؤجل القرار لليوم التالي.

اتفق كلانا أن الزواج القانوني غير وارد. كان الشيء السلبي في زواج الأشخاص المتحررين والمستقلين، هو أن يحافظ فيه كل منَّا على حريتنا الكاملة واستقلالنا الاقتصادي - حتى الاستمرار في العيش منفصلين - سيكون جريمة لدى أصحاب التوجهات التقليدية. كشخصين مستقلين عن بعضنا تمامًا سنكون قادرين على العيش في السراء والضراء، وفقًا لمعتقداتنا الخاصة، كان زواجنا قائمًا على الاحترام المتبادل وفلسفة الحياة المشتركة.

كان من السهل التَّغلُّب على جميع الاعتراضات التي قابلتنا على طريقة حياتنا، بالسعادة التي سيجلبها هذا الزواج بتلك الطريقة لنا نحن الاثنين. في النهاية قررنا قضاء إجازاتنا معًا، وأن نواصل حياتنا كما كان من قبل. لم أشكَّ ولو للحظة واحدة في أن الطريقة التي اخترنا أن نعيش بها كانت غير أخلاقية. على العكس تمامًا، كنا

مقتنعين بأن الزيجات المستقبلية ستُبنَى على مثل هذه الشروط؛ ممَّا سيزيد أيضًا من فرصة تحقيق السعادة الدائمة.

في أواخر عام 1885 وأوائل عام 1886 شعر جريتسن بأنه يريد مغادرة أمرسفورت والانتقال إلى أمستردام. زادت بداخله هذه الرغبة بشدَّة لأنه أراد التخلي عن عمله حتى يتمكَّن من استئناف تعليمه.

بحثنا عن سكن مناسب له في أمستردام. واستأجرت بعض العُمَّال، وتمَّ تجهيز المنزل حسب الذوق المشترك بيننا. وبالطبع تناقشنا في مسألة ما إذا كان ينبغي لنا أن نعيش معًا. ومع ذلك كنت أخشى أنه إذا عرف العامَّة بذلك، فإن ممارستي للطب قد تتأثر، وقد أفقد في ذلك استقلالي الاقتصادي؛ لذلك قرَّرنا عدم اتخاذ تلك الخطوة، ولكن أصبحت حياتنا بالفعل أكثر حميمية الآن، بعد أن صِرنا نعيش بالقرب من بعضنا البعض، بالكاد يمر يوم دون أن نتبادل فيه رسالة على الأقل.

خلال العامين الأولين عاش جريتسن في أمستردام، لحضور محاضراته الجامعية في القانون الدستوري والاقتصاد، ويمكنني دائمًا الاعتماد عليه لإبقائي على اطِّلاع بالتطورات الجديدة، وبصورة تدريجية كان تأثيري واضحًا عليه، فقد أسَّس هو وعددٌ من الرجال التقدُّميِّين الآخرين الاتحادَ الراديكالي في عام 1888، أول حزب سياسي أدخل حقَّ الاقتراع للمرأة في بيانه التأسيسي، كما كان الحزب الأول الذي منح العضوية للمرأة بنفس الشروط التي يمنح بها الرجال عضوية الحزب.

في ربيع 1890 غادر جريتسن ليقضي ثلاثة أشهر في باريس؛ وذلك لتحقيق هدفين، الهدف الأول: حضور محاضرات في الاقتصاد السياسي

والتمويل، والهدف الثاني: تحسين معرفته باللغة الفرنسيّة. بإعادة قراءة رسائله من تلك الفترة والتي تصف كل ما رآه وواجهه، فإن قصة واحدة تُذهِلني بشكل خاص، وهي قصة تبدو غريبة وساذجة في عصرنا هذا، عصر اختراع محرِّك الاحتراق الداخلي. في رسالة 19 يونيو 1890 قرأت ما يلي: «من بين مئات العربات الموجودة أمس في شارع الشانزلزيه، رأيت عربةً بدون حصان! وهل ستصدِّقينني إذا أخبرتك أن هذه العربة الغريبة كانت تتحرَّك بنفس سرعة العربات المجاورة لها التي تقودها الأحصنة؟ كانت مثل عربة تيلبوري كبيرة، وتُسمَّي الكاريت. ويقودها راكبان من الذكور، أحدهما كان يقودها باستخدام أداة قيادة مُثبَّتة على العجلة الأمامية. وكانت هذه الكاريت تعمل بالبخار، وتشتمل على محرِّك صغير موضوع أسفل العربة لا يصدر منه دخان أو ضوضاء. يا له من اختراع رائع! مَن يعرف أي معجزات أخرى من هذا النوع ستقوم الكهرباء بإنتاجها في المستقبل».

وبعد فترة قصيرة من عودة جريتسن من باريس، بدأت بالتحضير للذهاب إلى برلين لأنني سأشارك في مؤتمر طبي دولي. كنت متحمِّسة بشكل خاص لهذه الرحلة، لأنه كان هناك فرصة حقيقية لأقابل أصدقائي الأطباء القدامى من انجلترا، وأيضًا الكثير من الأشخاص المعروفين من مختلف الجنسيات. وكل شيء كان متوافقًا مع توقعاتي، وما زلتُ أتذكر هذا المؤتمر بالكثير من السرور.

وبسبب إقامته في باريس ورحلتي إلى برلين، لم نرَ أنا وجريتسن بعضنا البعض لعدة شهور، على الرغم من أننا ظللنا على اتصال بالرسائل. كان جريتسن يمرُّ بفترة صعبة مع موظفيه. وأصبحتُ واعية بشكل كبير برغبتي في إنجاب طفل. كل هذا أوصلنا في النهاية إلى نقطة أنه في شتاء 1890 إلى 1891 كنا قد أدركنا أنه يجب علينا

أن ننظم حياتنا بطريقة أخرى. كان السؤال هو: كيف؟ مرة أخرى نظرنا أولًا في إمكانية العيش معًا بدون زواج. ولكن هل أجرؤ على إنجاب طفل، وأنا مدركة تمامًا أنه سيعاني نتيجة معركتنا ضد الأخلاق التقيلدية المحافظة؟ وهل جريتسن، الذي أراد الآن الدخول في السياسة، سيواجه كل أنواع الصعوبات لأنه لم يكن متزوجًا بشكل قانوني؟ بالطبع إن هذه المشاكل تبدو تافهة للغاية في الوقت الحاضر! لماذا لا تُبقي رأسك مرفوعًا وتعيش بمبادئك بكل فخر؟

قررنا أن نأخذ إجازة طويلة في صيف 1891 حتى أتمكَّن من الوصول إلى قرار نهائي. وذهبنا في رحلاتنا إلى باريس وسان مالو وإلي جيرسي وجيرنسي، قبل أن نعود أخيرًا إلى الوطن عن طريق لندن. ومشينا طولًا وعرضًا في تلك الجزر المبهجة والمعتدلة المناخ، والتي قدَّمَت لنا فرصة كبيرة لكي نخطط للمستقبل. وقمنا بالمفاضلة بين سلبيات وإيجابيات الزواج، وايجابيات وسلبيات العيش معًا، حتى توصَّلنا أخيرًا إلى حلٍّ: سوف نعيش معًا ونتزوج، لكن بعد ذلك سنبقي أحرارًا ومستقلِّين عن بعضنا البعض، وسأستخدم لقب عائلتي الخاص بي، وسأواصل عملي وسأحتفظ برأس مالي وأرباحي، وسنعيش في نفس المنزل، ولكنْ كلٌّ منَّا سيبقى في شقة منفصلة، باستثناء غرفة طعام، وصالة مشتركة، وكلانا سيجهِّز شقته الخاصة بنفسه، وفي نهاية كل عام نضيف نفقات المنزل معًا ونقسمها على اثنين، وكلٌّ منَّا سيدفع ثمن ملابسه وكتبه ومستلزماته الشخصية الأخرى، وسنقوم بعمل جميع الترتيبات المنزلية بكل عناية ممكنة أيضًا؛ وبهذه الطريقة شعرنا أنه يمكننا ضمان حرية بعضنا البعض في إطار الزواج.

وبمجرد أن اتفقنا على هذه الشروط قرَّرنا أن نواصل المضي في خططنا بأسرع ما يمكن. وبمجرد عودتنا إلى أمستردام بدأنا في البحث

عن سكن مناسب. ومع ذلك كان من الصعب جدًّا أن نجد شيئًا يحقِّق متطلباتنا. كنا نحقِّق تقدُّمًا صغيرًا؛ لذلك قررنا في النهاية أن نشتري منزلًا ونعيد بناءه. وفي النهاية وجدنا مبنى مناسبًا في شارع تيسل سشاد، والذي أصبح اسمه الآن شارع رومر فيشر، وعشنا معًا في هذا المنزل حتى وفاة جريتسن، وبقيت هناك بمفردي حتى 1911.

استغرقت الإصلاحات والإضافات في المنزل أكثر من المتوقَّع، وفي أبريل 1892 فقط تمكَّنَّا أخيرًا من الانتقال إلى المنزل.

ولتجنُّب أي تدخل خارجي، قضينا تلك الفترة بين الإعلان عن الزواج وحفل الزفاف نفسه مع الأصدقاء في لندن.

على الرغم من أن عضو البلدية الذي أشرف على حفل الزفاف، ألقى خطابًا حاول فيه أن يكون مناسِبًا لزواج فردين متحرِّرَيْن مثلنا، وبين المتطلَّبات القانونية اللازمة لإتمام الزواج الرسمي، فإن جهوده لم تمنعني من أن أصبح مستاءةً تمامًا عندما اضطررت أن أقسم علانيةً قسمَ الطاعة لزوجي أمام الجميع. ومنذ ذلك الوقت تحدَّثتُ وكتبت وفعلت كل ما بوسعي، لكي أزيل القسم بالطاعة من عقود الزواج المدني. هذا القَسَم أصبح جزءًا من الماضي الآن، وكان مريبًا بالنسبة للرجال الذين يوقِّعون على عقود الزواج، ويحاولون أن يتمسَّكوا بتطبيق قَسَم الطاعة ذلك؛ وذلك لأنه في الواقع، حتى في العائلات الأكثر تحفُّظًا، لا أحد يتيقَّن بصدق من «طاعة» الزوجة للزوج، فبالطبع كما يعلم الجميع، هؤلاء الرجال الذين يتخيلون أنهم سيُطاعون في جميع الأوقات، هم الذين من المرجَّح أن يكونوا أكثر عُرضةً للخداع. ومع ذلك، بما أن العديد من الناس يعتبرون يوم زفافهم أهمَّ يوم في حياتهم، فلماذا يضطرون إلى أخذ وعد لا ينوون الحفاظ عليه؟

في سبتمبر عام 1893 عرفت أنني حامل في مولودنا الأول، وكنَّا نتطلَّع إلى هذا الحدث العظيم بالكثير من السعادة والتَّرقُّب.

حتى في وقت متأخر من بداية الشهر السابع، أجريتُ عملية ولادة صعبة. وحافظتُ على عملي حتى آخر يوم من حملي، ومع ذلك وجدت وقتًا لصنع جميع لوازم الطفل الرضيع.

في يناير عام 1893 تمَّ ترشيح جريتسن كمرشَّح برلماني لمدينة ليوواردن. كان المرشَّحَ الأولَ من قِبَل الاتحاد الليبرالي الذي ما زال نشطًا، وكان ضد حزب فرايزلاند الليبرالي المشهور. كان السيد جي. ترولسترا والد بي. جي ترولسترا، القائد الحالي للديمقراطيين الاجتماعي، يدرِّس في ذلك الوقت في جامعة جرونينجن[63]. كانت حملة انتخابية صعبة تضمن جميع أعضاء الاتحاد الراديكالي. لقد تمَّ عقد الاجتماعات والتجمعات الانتخابية ليلةً بعد ليلةٍ في المنطقة بأكملها. ولكن مهما عاد جريتسن متأخرًا إلى ليوواردن من هذه الاجتماعات، وبغضِّ النظر عن عدد الساعات التي قضاها في السفر، فإنه يجد الوقت ليكتب لي أحداث اليوم قبل أن يأوي إلى الفراش. لا عجب أنه بمساعدة مؤيِّديه الشباب والمثاليين تمَّ انتخابه في النهاية لتمثيل فرايزلاند، ودخل البرلمان كأول عضو راديكالي.

على الرغم من كل الضغوط التي سبَّبتها الانتخابات، إلَّا أن كل خطاب أرسله لي جريتسن يكشف عن مدى سعادتنا بالأبوة الوشيكة،

63- كان بيتر جيليس تروسترا في عامي 1893 و1894. أحد مؤسِّسي حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي (SDAP). أعطته مواهبه الخطابية الغنية وجاذبيته وتعارفه العميق مع الجماهير العاملة. دورًا قياديًّا خاصًّا جدًّا في هولندا. كان له دور مهمٌّ أيضًا في المباراة الدولية الثانية. كان مشرِّعًا حتى عام 1925. حارب من أجل الاقتراع العام. وسعى - دون جدوى - إلى ثورة بروليتارية بعد الحرب العالمية الأولى. كان أيضًا شاعرًا بارعًا باللغة الفريزية. وهي اللغة المستخدمة في مسقط رأسه مقاطعة فريزلاند.

كان ذلك الحدث منتظَرًا بالنسبة لكلٍّ منَّا، وفي قلب اهتمام عقلَيْنا وقلبَيْنا في ذلك الوقت.

لكن الطفل الذي تمنَّيناه بشدَّة لم يَعِش سوى يوم واحد فقط بسبب خطأ ارتكَبَته القابِلَة، ولا يمكنني أن أصف ببساطة كيف شعرنا بالدمار. أخذ الأمر مني سنواتٍ للتعافي من حزني، لكن رغم كل الحزن الذي تَملَّكني، فإنه بالنظر إلى الوراء، فما زلت أعتبر نفسي محظوظةً لأنني عرفت كيف يكون شعور الأمومة، حين حملت طفلي بين ذراعي، حتى لو لم يَعِش سوى يوم واحد فقط.

استمرَّت الحياة كما كانت من قبل، وعاد كلانا إلى مهامِّنا المحددة. إذا سمح لنا العمل أن نأخذ وجباتنا معًا؛ لكُنَّا لم نرَ بعضنا البعض سوى القليل من الوقت لبقية اليوم. إذا كان الطقس جيدًا ويمكنني إنهاء العمل في الساعة الثالثة والنصف؛ كنت سأرافق جريتسن في إحدى جولاته العديدة في مؤسسات الميناء، التي عمل فيها بحماس، وقد تمكَّن من إدخال العديد من التحسينات الرائعة فيها. في أحيان أخرى كنت أنضمُّ إليه في الإشراف على العديد من مبادرات المجلس لإعانة الفقراء.

مشينا طولًا وعرضًا في العديد من الأحياء الجديدة والمقاطعات الجديدة، حتى إن جريتسن الذي لم يكن من مواليد أمستردام، يمكن أن يثبت في الاجتماعات أنه كان يعرف المدينة عن ظهر قلب، وكان على دراية جيدة بكل ما يجري في كل بقعة فيها.

قضيت كل إجازة أو عطلة قصيرة في السفر. في البداية كنا نذهب بشكل أساسي رحلات المشي، ولكن في عام 1894 بدأنا في أخذ دراجاتنا؛ حتى نتمكَّن من معرفة المزيد عن الحياة في الداخل والخارج. احتفظنا أيضًا بملاحظات حول رحلاتنا، والتي طوَّرناها ونشرناها لاحقًا باسم

«خطابات السفر».[64] غالبًا ما أخذناها معًا كمعلومات لمقارنة الوضع الاجتماعي والقوانين والممارسات في هولندا، بتلك الخاصة بالدول الأخرى، ونادرًا ما زرنا بلدًا أو حيًّا لمجرد جمال مناظره الطبيعية، بل كنا مهتمِّين أكثر بتوسيع معرفتنا بالبلد وشعبها. عند زيارة قرية أو مدينة، نحرص على التحدث إلى السكان؛ الأمر الذي غالبًا ما ينتج عنه الكثير من المعلومات الشَّائقة، والعديد من المعارف المفيدة؛ فقد أدَّت أقصر الاجتماعات في كثير من الأحيان إلى مراسلات مطوَّلة وحتى علاقة صداقة.

عندما أخذنا دراجاتنا لأول مرة قرَّرنا الانضمام إلى جمعية راكبي الدراجات الدولية. هذا القرار ساعدنا بشكل كبير في جمع المقدمات والمعلومات؛ لأننا بحثنا عن ممثِّل الجمعية باستمرار في كل مكان زُرناه. بصفة عامة، كان هؤلاء الرجال أشخاصًا ودودين ومتعلِّمين، كانوا سعداء جدًّا بمساعدتنا.

كنا ننطلق مبكرًا للوصول إلى وجهتنا قبل منتصف النهار. هذا يعني أنه يتوفَّر لدينا الوقت لزيارة مصنع أو مدرسة أو كلية أو متحف أو أي مؤسسة أخرى. إذا كان هناك مكانًا مهمًّا بشكل خاص، فسنبقى فيها بين ليلة وضحاها، أو سنغادر في نفس اليوم بعد الظُّهر. لنتمكَّن من الوصول إلى مكان إقامتنا قبل الغسق، إذا لم نكن متعبين جدًّا، سيكون لدينا الوقت الكافي لكتابة أحداث اليوم. كنَّا نقوم بتقسيم العمل بحيث يصف جريتسن جزءًا من اليوم، وأنا أصف الجزء الآخر. لقد أصبحنا بارعين جدًّا في تنسيق النصفين، لدرجة أنه عندما ظهرت

64- من المحير عدم وجود أي سجل لـ «رسائل السفر» هذه في أي قائمة موجودة لمنشورات جاكوبز أو جريتسن. والمسائل المدرجة التي تناولتها. وربما تم نشر بعضها في الصحف أو تم طباعتها بشكل خاص.

هذه التقارير مطبوعة لم يدرك أحدٌ أنها كانت نتيجة جهد مشترك.

بهذه الطريقة قمنا بزيارة الدنمارك والنرويج والسويد. ومن خلال عدد من الرحلات تعرَّفنا على كل ألمانيا تقريبًا، وأيضًا أجزاء كبيرة من فرنسا وإنجلترا واسكتلندا وسويسرا وشمال إيطاليا والنمسا والمجر. أودُّ الآن أن أصف بعضًا من هذه الرحلات بمزيد من التفصيل.

في إحدى المرات ركبنا القطار إلى دريسدن، حيث مكثنا عدة أيام لزيارة المناطق المجاورة بالدراجة الهوائية. ثم انطلقنا في جولة طويلة في منطقة التسلق الجبلية ساكسون في سويسرا. أرسلنا أمتعتنا التي تتكون من حقيبة فردية إلى براغ، بينما أخذنا بعض الضروريات الأساسية معنا على دراجتنا. بعد براغ توجَّهنا بسرعة إلى غابات بوهيميا ومدينة لينز التي تقع على نهر الدانوب، ومن هناك أخذنا قاربًا إلى فيينا، وبقينا هناك لمدة أسبوع، قبل المغادرة إلى ولاية ستيريا، ومدينة أنسبروك، عبر منطقة زالسكامرجوت. ثم أخذنا ممر برينر إلى فرانزينفيست، حيث ضِعنا، وقضينا يومين نعاني من المسارات الوعرة والمساكن البدائية، حتى استطعنا أخيرًا العثور على مدينة بلونو الإيطالية، وأخذنا القطار من هناك إلى البندقية، ومن هناك غادرنا إلى مدينة بادوا وفيرونا وواصلنا إلى بحيرة جاردا، وأخذنا القارب إلى ريفا. بعد ذلك توجَّهنا عبر ترينتو إلى بولزانو، حيث قمنا بجولة قصيرة إلى ميرانو، ثم أخذنا مرة أخرى ممرَّ برينر إلى مدينة أنسبروك. كانت الأيام القليلة المتبقية لدينا مكرَّسة لركوب الدراجات عبر ميتنفالد إلى ميونيخ، قبل أن نعود بالقطار إلى أمستردام. بشكل كامل استغرقت تلك الرحلة حوالي تسعة أسابيع.

بنفس الطريقة انطلقنا في عام آخر إلى مدينة أنتويرب، وذهبنا

بالدراجة إلى جنت وكورتريك وبولوني، وقضينا يومًا وليلة في جميع المنتجعات المعروفة على طول الساحل، حتى وصلنا إلى مدينة لو هافر. من هناك زُرنا في مدينة هونفلير ممثِّل جمعية راكبي الدراجات، الذي كان في نفس الوقت محاميًا ومتعصِّبًا لركوب الدراجات. لقد قدَّم لنا الكثير من المعلومات الشَّائقة عن مدينة روان، ومحيطها الجميل، الذي قرَّرنا البقاء فيه من أجل القيام برحلات ليوم واحد معه هو وزوجته. حين عدنا إلى المدينة من هذه الرحلات، أخبرنا الزوجان الكثيرَ عن الحياة اليومية لسكان مدينة روان. نتج عن هذا الاجتماع علاقة صداقة ومراسلات استمرَّت لسنوات عديدة. بعد باريس، قطعنا طريقًا رئيسيًّا، إذ أخذنا من خلاله مدينة نانسي وميتز، ثم عبر لوكسمبورج إلى مدينة لييج وماسترخت حتى عدنا إلى المنزل.

أود أن أصف بإيجاز رحلةً أخرى، ليس فقط لأنها كانت واحدة من أكثر الرحلات طموحًا لدينا؛ ولكن أيضًا لأنها تحمل العديد من الذكريات السعيدة المرتبطة بها. كانت في صيف 1898، وصلنا بعد ثلاثة أيام من ركوب الدراجات إلى مدينة فليسينجين، حيث ركبنا قاربًا إلى انجلترا، ثم استقللنا قطارًا إلى لندن. وبعد جولة استمرت لبضعة أيام قررنا قبول دعوة من صديقنا القديم الدكتور جي. بي. كلارك للبقاء معه في منزله الجميل في مقاطعة سري[65].

كان هذا المضيف أيضًا درَّاجًا شغوفًا. كل صباح وبعد الظهر كان يصطحبنا في جولات رائعة في المنطقة، ويرافقنا في الجزء الأول من الرحلة الرئيسية إلى اسكتلندا. غادرنا مقاطعة سري إلى مدينة

65- غافين براون كلارك (1846-1930). عضو ليبرالي في البرلمان من عام 1885 إلى عام 1900. كتب وتحدث بلا كلل نيابة عن جماعة البوير. اسكتلندي. فضل الحكم الذاتي في اسكتلندا وويلز. وكان من أكثر المدافعين عن الأقليات دون الدولة القومية الخاصة بها والفقراء (DSAB).

وندسور، وقطعنا نهر التيمز إلى أكسفورد وستراتفورد أبون آفون، التي تُعرَف في جميع أنحاء العالم بأنها مسقط رأس أعظم الكتاب المسرحيين الإنجليز «شكسبير». وقد أقمنا في فندق شكسبير. لم يكن هناك ترقيم للغرف، بل كل غرفة تحمل اسم مسرحية من مسرحيات شكسبير. ومن ثم غادرنا إلى مدينة برمينجهام، ومكثنا بها عدة أيام لرؤية أوضاع العمال في قلب الصناعة الإنجليزية. بعد ذلك ركبنا قطارًا لتجنُّب بعض المناظر الطبيعية الرتيبة بشكل خاص، ولكننا أخذنا دراجاتنا مرة أخرى في مدينة كارنفورث، التي تقع على حافة منطقة بحيرة كمبرلاند وويستمورلاند. في ذلك اليوم وصلنا إلى بحيرة ويندرمير، ولم نتمكَّن من الإقامة إلا ليلة واحدة؛ إذ يبدو أن سكان لندن كانوا يقضون عطلات نهاية الأسبوع الطويلة، بسبب عطلة البنوك يوم الاثنين؛ فقد تمَّ حجز جميع فنادق ويندرمير بالكامل؛ لذا غادرنا إلى مدينة كيسويك، حيث أمضينا بعض الوقت في القيام برحلات يومية. كانت خطتنا هي الوصول إلى جلاسكو في غضون يوم واحد، لكننا واجهنا هطول أمطار غزيرة في قرية إكليفيشان، واضطررنا إلى البقاء في مكاننا، نحن نعرف أن تلك القرية مسقط رأس الكاتب الإسكتلندي توماس كارليل، ومحلُّ مثواه الأخير في المقابر المحلية المتواضعة إلى حدٍّ ما. احترامًا لذكراه؛ قرَّرنا بشيء من التردد البقاءَ في الحانة المحلية، التي كانت بدائيَّةً، ولكنها نظيفة. نظرًا لأن اليوم التالي كان أيضًا مُمطرًا؛ قرَّرنا ركوب القطار إلى جلاسكو؛ إذ كان هناك الكثير لرؤيته والتعلم منه، فلقد مكثنا لمدة أسبوع في رحلات يومية. في واحدة منها اكتشفنا مدينة لانارك، وبها العديد من مصانع الغزل. كنت مهتمَّةً بشكل خاص بهذا المكان، ففي ذلك المكان قدَّم روبرت أوين تجاربه الاشتراكية.

في إحدى الأمسيات في الفندق الذي ننزل فيه بمدينة جلاسكو، التقينا بممثل شركة وليام بيرد وشركاه، المتخصِّصة في أعمال التعدين، من بوثويل، عندما أدرك أننا مهتمُّون برؤية منجم فحم دعانا لمرافقته. كانت بوثويل على بعد نصف ساعة بالقطار من جلاسكو. لإعدادنا لتلك الزيارة فقد عُرِضَت علينا رسومات للعديد من ممرَّات وأنفاق المنجم، ثم تمَّ تزويدنا بمعدات عمَّال المناجم، ولقد ارتديت ملابس العمال، ولكن كان لا يزال يتعيَّن على أن أشمِّر عن ساقي وبنطالي لأتحرك بحرية، كان شعري مُغطًّى بغطاء، وشعرت أنني محمية بشكل جيد. لقد كان برفقتنا مشرف حسن المظهر، وقد بذل قصارى جهده لمنحنا جولة إرشادية، واصطحبنا المصعد؛ ممَّا تسبَّب في حدوث ارتعاش أعلى عمودي الفقري، حيث بدا أن الأمر استغرق وقتًا طويلًا للوصول إلى العمق المطلوب البالغ ستمائة متر. بعد الانتظار لفترة تحت شيء مخروطي يشبه الجرس، حتى نتمكَّن من التعود على ضغط الهواء، انطلقنا في الجولة التي استغرقت ساعات، ولن أصفها بأي تفاصيل. لقد تمَّت بالفعل كتابة الكثير عن مناجم الفحم، والتي تميل إلى أن تكون هي نفسها في جميع أنحاء العالم: مزيج بائس من الظلام المشؤوم، وصعوبة الحركة والظروف غير الآدمية، والمرهقة للغاية، والأجور الزهيدة. باختصار، هذا هو العالم الذي صوَّره إميل زولا بشكل تفصيلي في روايه «جريمنال». تركت هذه الرحلة الطويلة والمرهقة - والتي قضينا معظمها في الانحناء أو السير على الأطراف الأربعة - تأثيرًا عميقًا على كلٍّ منَّا. لقد شعرت بتعاطف كبير مع عمال المناجم الكادحين، ومع أحصنتهم البائسة التي حُكِم عليهم بقضاء حياتها في الظلام دون رؤية ضوء الشمس مرة أخرى. لأكون صادقةً؛ لقد تصبَّبت عرقًا من الحرارة قرب نهاية جولتنا، وشعرت أيضًا بأنني

استنفدت كل جهدي. ولكن كان علينا أن ندَّخر شيئًا من مجهوداتنا؛ إذ إن أحد عمال المناجم صرخ فجأة: «هناك شيء خاطىء!». يبدو أن هناك كابلًا كهربائيًّا قد كُسِر؛ ممَّا تسبَّب في توقف شاحنات الفحم في قسم من المنجم. في الوقت نفسه، تعطَّل المصعد الذي جلبنا إلى المنجم أيضًا، واضطررنا إلى السير لمسافة ما إلى المنجم التالي.

لم أكن أسعدَ يومًا برؤية ضوء النهار أكثر من اللحظة التي صعدنا فيها إلى السطح أخيرًا، بعد قضاء ساعات طويلة تحت الأرض! وبالكاد أستطيع وصف الحالة البائسة التي خرجنا فيها، فكانت أنوفنا وأفواهنا وآذاننا مليئة بغبار الفحم. لحسن الحظ، كان هناك حمام ساخن في انتظارنا في منزل مضيِّفينا، إذ اكتشفت حين نزعت الغطاء الواقي أن شَعري متيبس بسبب الأوساخ. كنَّا حَسَني المظهر بعد ساعة من الاغتسال، ولكن بعد ذلك بعدة أيام شعرت أن أغشيتي المخاطية ما زالت مغطَّاة بالغبار.

في الوقت الحاضر، فإن زيارة مناجم الفحم ليست أمرًا نادر الحدوث، حتى في بلدنا؛ إذ لدينا شركة كبيرة ملك الدولة في جنوب ليمبورج. لكن عندما نزلنا إلى تلك الحفرة في بوثويل، كان من غير المألوف للغاية بالنسبة لامرأة أن تذهب في تلك الزيارة، بدون أن يتمَّ معها الكثير من التحذيرات حَسَنة النِّيَّة. لم أندم أبدًا على زيارتي لذلك المنجم لأنها تركت لديَّ انطباعًا لا يُمحى عن حياة عمال المناجم.

بعد قضاء أسبوع مثمر في جلاسكو، أخذنا دراجاتنا مرة أخرى وتوجَّهنا إلى أوبان عن طريق مدينة انفيراري. وخططنا لقضاء بضعة أيام هناك لكن، نظرًا لأنها كانت مليئة بالكثير من الزوار على شاطئ البحر؛ قررنا أن نركب القارب ونذهب إلى فورت ويليام،

ونتوجَّه بالدراجة إلى مدينة إنفيرنيس. ثم واصلنا وذهبنا إلى بحيرة جيرلوخ، ثم إلى جزيرة سكاي، التي كانت منتشرة كثيرًا في الأخبار في ذلك الوقت بسبب تمرُّد المزارعين على مالكي الأراضي. وتميَّزَت جزيرة سكاي بمناظرها الطبيعية الخلابة، ويزورها عدد كبير من العائلات الإنجليزية والاسكتلندية.

واستغرق الأمر عدة أيام للانتقال من إنفيرنيس إلى جيرلوخ بالدراجة. وفي اليوم التالي، كان المطر غزيرًا، واضطررنا إلى الاحتماء من الأمطار مرارًا وتكرارًا. في النهاية قررنا أن نسير بالدراجات بأقصى سرعة ونتوقَّف عند أول فندق نراه. ولسوء الحظ، بدأت الأمطار تهطل بغزارة في الساعة السابعة مساء، ولا يوجد أمامنا مأوى، فقط كنيسة صغيرة واحدة. قرَّرنا أن أفضل خطَّة هي أن نسأل إذا كان هناك محطة قطار في مكان قريب. وعندما طرقنا باب الكنيسة، استقبلنا الكاهن وخادمة منزله بترحيب. أخبرنا أنه يمكننا البقاء هناك إذا ساعدت خادمته في ترتيب غرفة لنا، وإذا كنَّا نودُّ أن ننضمَّ لهم في عشاء بسيط. بالطبع وافقنا. أثناء تناول الطعام، لاحظت وجود لعبة شطرنج على طاولة صغيرة. كان الكاهن من عشاق لعبة الشطرنج؛ لذلك بينما كان جريتسن يتصفَّح مكتبة الكاهن، شاركت هذا الكاهن العجوز في لعبة استمرَّت حتى منتصف الليل. ومبكرًا في صباح اليوم التالي، كنَّا مستعدين لاستكمال رحلاتنا، لكن أخبرتنا الخادمة أنه يجب علينا البقاء لفترة أطول قليلًا، وكان الكاهن قد خرج عند بزوغ الفجر ليصطاد أرنبين لتناول الطعام، ونحن لا يمكننا ببساطة أن نغادر حتى يعود! عندما عاد توسَّل إلينا - حرفيًّا - أن نبقى لعدَّة أيام أخرى. كان رجلًا من ذوي النوايا الحسنة؛ لذلك اتفقنا في النهاية أن نبقى ليوم آخر، وبهذه الطريقة تمكَّنَّا من إلقاء نظرة على حياة

كاهن من قرية إنجليزية. كانت حياة بسيطة ليس بها الكثير من الأحداث التي يمكننا أن نحسده عليها.

وبمجرد أن عدنا من جزيرة سكاي إلى جيرلوخ، قرَّرنا أن نأخذ طريق مختلف إلى إنفيرنيس. فقد توجَّهنا إلى أبردين، وسرنا بمحاذاة نهر «دي» حتى وصلنا إلى برايمار. وفي مدينة بالاتر زرنا مزرعة سكان بالاتر، حيث نشأ الشاعر الإنجليزي بايرون، ووقع في الحب لأول مرة بماري روبرتسون، ابنة المزارع. وكان هذا الجو الريفي مصدرَ إلهام لعدد من القصائد الجميلة، على الرغم أن المزرعة قد تغيَّرت منذ وقت كتابتها بشكل كامل، وأصبحت صورةً مختلفة بالكامل عن زمان كتابة تلك القصائد.

كانت برايمار مدينة يقع بها مقر الإقامة الصيفي للملكة فيكتوريا، والذي كان يستحق الزيارة أيضًا. ومن هناك، تمكَّنَّا من عبور ممرَّيْن جبليَّيْن صعبين لكي نصل إلى وجهتنا التالية. غادرنا برايمار في الصباح الباكر. كان الطقس جيِّدًا بشكل كبير، حتى وصلنا إلى قمة الجبل الأول وقد غمرنا الضباب، وضَعُف مجال الرؤية لأقل من قَدمٍ واحدة أمامنا. كان هذا الضباب يقترن بطقس بارد جدًّا، وممطرٍ، لدرجة أن ملابسنا سرعان ما تبلَّلَت. ماذا علينا أن نفعل؟ في طريقنا إلى أعلى الجبل، بدا لنا كوخ متهالك، وكان ذلك هو العلامة الوحيدة على وجود بشر. وقد تمكَّنَّا من العودة إلى الكوخ، وهو منزل لأختين في السبعين من العمر، رحَّبتَا بنا بحرارة. وأشعلَتَا الحطب لكي نتمكَّن من تجفيف ملابسنا. هاتان السيدتان كانتا من نَسَب رفيع، ورأتَا بالتأكيد أيامًا أفضل. وعندما لم تعودا قادرتين على إعالة أنفسهما، وجدت أسرتهما لهما هذا الكوخ لتعيشا فيه في منتصف الخلاء. وبعد عدة ساعات، حتى مع وجود ضباب أكثر من أي وقت مضى، شعرنا

أننا مضطرَّان لترك هذا الفقر المدقع. وسألناهما إذا كان هناك منزل في المنطقة المجاورة أو منزل آخر يمكننا البقاء فيه الليلة. أرشدتنا واحدة من السيدتين المسنَّتين إلى نُزُل حارس الطرائد الذي يقع خلف منزلهما. تركنا دراجتينا خلفنا. لم يكن حارس الطرائد في المنزل، واستقبلتنا أخته، وقد كانت - بالأسلوب الاسكتلندي الحديث - فظَّةً. هذا الأسلوب الفظ كان مُزعجًا لنا، لكن على الأقل لم يتم طردنا. الناس عادة ما تكون أكثر ودِّيَّةً ممَّا يبدو عند الانطباع الأول. قالت لنا الأخت: «تفضَّلا، سوف أضع الغلاية على النار. فنأمل أن يتحسَّن الطقس وتتمكَّنا قريبًا من استكمال طريقكما». وخلال وقت قصير كان أمامنا شاي إنجليزي ومعه خبز وجبن وبيض. وأُشعِلت النار، وانضمَّت إلينا مضيفتنا بيتسي والاس، التي تحدَّثَت إلينا كما لو كنا نعرف بعضنا منذ سنوات.

عاد أخوها بعد ذلك بوقت قليل. كان رجلًا كبيرًا وذا قلب طيب، قال على الفور إنه أمر جيد أننا طرقنا بابهم؛ لأنه لا يوجد أي منازل أخرى قريبة، وبالإضافة إلى أنه هناك منحنى خطير أبعد قليلًا في الطريق إلى أعلى الجبل.

تلاشى الضباب في حوالي الساعة الخامسة. سألنا حارس الطرائد ما إذا كان من الآمن استكمال رحلتنا أو العودة إلى برايمار.

وذهب للخارج ليتفقَّد حالة الطقس، وعاد ليخبرنا أن علينا البقاء. كان الطقس غير مُتوَقَّع، وأينما نتجه سوف ينتهي بنا المطاف في حادث. أعدُّوا لنا سرير المخيَّم في الغرفة الجيدة، وتقاسموا معنا وجبتهم المكوَّنة من البطاطس المطبوخة والقهوة الخفيفة. واكتشفنا أن حارس الطرائد متحدث رائع. أمضى الليلة بأكملها يروي حكايات عن حياة المزارعين الاسكتلنديين. وفي صباح اليوم التالي كان الطقس

معتدلًا ومشمسًا، وعندما شرعنا للمغادرة اكتشفنا أن دراجتينا مزيَّنتان بورد الخلنج الأبيض. خرجت بيتسي مبكِّرًا لتقطف بعض الورود، وقالت إنها ستجلب لنا الحظ الجيد. ولم يقبل أيٌّ من الأخ والأخت أي شكل من أشكال التعويض مقابل كرم ضيافتهما، وعندما سألتهما أخيرًا إذا كانت هناك طريقة أخرى للتعبير عن امتناننا، قالا لنا إنهما سيكونان ممتنَّين إذا كتبنا لهما من حينٍ لآخر، لنبيِّن لهما أننا لن ننساهما. وهذا بالطبع، ما فعلته. ولسنوات عديدة، أرسلت لبيتسي وأخيها هدية صغيرة للكريسماس، وظننت أنها ستعجبهما. فكان يجيب على هذه الهدية برسالة شكر فظَّة، واستمرَّ هذا حتى تم إرجاع الطرد الخاص بي في النهاية «غير قابل للتسليم».

بعد هذه المغامرة، قمنا بزيارة تروساكس، ومن هناك قمنا برحلات نهارية إلى - وعبر - بحيرات مختلفة. ثم ذهبنا بالدراجات عبر طريق مدينة ستيرلينج إلى إدنبرة وقضينا هناك عدة أيام. في الأصل كنا نخطط أن نقطع طول الطريق إلى لندن بالدراجة، لكننا أدركنا أن هذا سيستغرق الكثير من الوقت؛ لذلك أنهينا جولتنا في إدنبرة وعدنا إلى أمستردام عن طريق لندن بالقطار، ثم بالقارب.

في يوليو من عام 1899 عُقد المؤتمر العالمي للمرأة في لندن، كانت المرة الأولى التي يُعقَد في أوروبا. كان ذلك هو المؤتمر الثاني للمجلس العالمي للمرأة، والذي تمَّ تأسيسه في أمريكا الشمالية في عام 1893. ولعدَّة أشهر كنت أتطلَّع إلى مقابلة العديد من النساء من بلاد بعيدة، من اللواتي كنت أتواصل مع كثير منهَّ لسنوات. وفي كل مرة أتلقَّى رسالة منهن، يسألنني: «هل سنراكِ في لندن؟»، ويخفق قلبي بشدة. وكنت مسرورة للرد بنعم. بالفعل، سأحضر. وكنت مسرورة برؤية كل هؤلاء النساء اللواتي تجمعنا أهداف مشتركة. كانت كلٌّ من تلك

النساء تقوم بالكثير من العمل من أجل مصالح المرأة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وكان من أفضل ما في ذلك المؤتمر أنني عملت أن جريتسن يخطط للحضور. ويجب أن أضيف أن جريتسن واحد من الرجال القليلين الذين ألقوا محاضرة في المؤتمر.

لقد فتحت الكثير من العائلات في لندن بيوتهم للحاضرين الأجانب، بطريقة كريمة ومُلِحَّة لدرجة أنه كان من المستحيل أن نقول لا. دعتني السيدة هربرت صامويل أنا وزوجي للإقامة عندها طوال مدة المؤتمر. وكان الرجل الذي أقلَّنا من محطة شارع ليفربول يبدو شديد الحماس، للدرجة التي جعلتنا نفكِّر أنه ابن السيد صمويل. وبالفعل لم يكن سوى السيد هربرت صامويل نفسه الذي لعب لاحقًا دورًا هامًّا في السياسة البريطانية، وأصبح أوَّلَ مندوب سامٍ في فلسطين، وما زال يحتفظ بهذا المنصب حتى الآن. (لقد ذكرت بالفعل معرفتنا بعائلة صامويل في الفصل السادس).

وسرعان ما التقيت بنساء من أمريكا مثل السيدة «سوزان. بي. أنتوني»، البالغة من العمر ثمانين عامًا، والوزيرة آنا هوارد شو. والسيدة إميلين ويلز (أرملة واحد من أوائل مؤسِّسي المورمونية، والذي كان أيضًا حاكِمًا لولاية يوتا لعدة سنوات)، والبارونة ألكسندرا فون جريبنبيرج من فنلندا، والسيدتين الروسيَّتين: مدام آنا دي فيلوسوفا والدكتورة كوزاكوفيتش ستيفانوفسكي، والعديد من النساء من كندا

وأستراليا ونيوزلندا[66]. كان ردُّ فِعلهم الأول هو ذاته: الدهشة من أنني ما زلت شابَّة. وفي هذا الوقت كنت في الخامسة وأربعين من عمري، ولكن كما قالت السيدة العجوز أنتوني وهي تعانقني وتقبِّلني: «كيف يمكن أن تكوني نفس المرأة التي سمعت عنها منذ سنوات عديدة بالفعل!»، وكنت أتلقَّى نفس الرد من عدد كبير من النساء اللواتي كنت أقابلهن شخصيًّا لأول مرة.

في واحدة من أولى حفلات العشاء للمشاركين في المؤتمر، جلست بين بياتريس هارادان، المؤلفة الإنجليزية المشهورة برواية «السفن التي تبحر في المساء»، والكاتبة الأمريكية السيدة شارلوت بيركنز ستيتسان. وكانت الأخيرة قد أكملت للتَّوِّ كتابها الرئيسي «المرأة والاقتصاد»، ومنحتها الجمعية الفابية في لندن بسببه عضويَّةً فخريَّة.

قبل عدة سنوات، تلقت جائزة في كاليفورنيا عن مقال عن حركة العمال. وقبل أن ينتهي العشاء، سألتني السيدة بيركنز ستيتسان إذا كنت أرغب في ترجمة عملها الأخير إلى اللغة الهولندية. قلت لها إنني أودُّ ذلك، وفي نفس المساء تلقَّيتُ خطاب تأكيد منها. وبعد عام، في يوليو عام 1900، أكملت ترجمة كتاب شارلوت بيركنز ستيتسان (كانت قد تطلَّقَت من السيد ستيتسان وتزوَّجَت السيد جيلمان). باللغة الهولندية كان يُسمَّى De Economische toestand der Vrouw (حالة المرأة الاقتصادية)، وتمَّ نشره في تجينك ويلينك في هارلم. ولكن بالرغم

66- رائدة النسوية الروسية آنا بافلوفنا فيلوسوفوفا (1837 - 1912) بدأت نشاطها في عام 1869. واستمرت في تأسيس المجتمع الخيري المشترك. وهي مجموعة مهمَّة ونشطة على نطاق واسع. في عام 1895 كرَّست سنواتها الأخيرة لمحاولة توحيد جميع الأندية النسائية في روسيا. في مجلس وطني للمرأة. ليكون تابعًا للمجلس الدولي للمرأة. لكنها لم تنجح بسبب المشاكل السياسية. (مؤسسة ستيتس 67 - 71. 193 - 197).

تشير وقائع المؤتمر العالمي للمرأة عام 1899 إلى الدكتور كازيكيفيتش ستيفانوفيسك (لاحظ الاختلاف في التهجئة) باعتباره روسيًّا من سانت بطرسبرغ.

من ردود الأفعال الإيجابية للغاية من العديد من الجرائد والمجلات، فشل هذا الكتاب في ترك الكثير من الانطباع. ومع ذلك، «فإنه يمسُّ قضية حيوية لمجتمعنا اليوم» (جريدة «ألجيمين هانديلس بلاد»، 23 ديسمبر، 1900) لأنه برهان قويٌّ لصالح استقلال المرأة الاقتصادي في الزواج من وجهة نظر أخلاقية واقتصادية، ولتحسين النسل.

ترجمت كتابًا آخر بعد حوالي عشر سنوات. كان يُسمَّى «المرأة والعمل»، وكتبته الرائعة والفاتنة أوليف شراينر. من الناحية الأكاديمية، سيكون من الصعب مقارنة هذا الكتاب بكتاب السيدة بيركنز جيلمان، ومع ذلك فهو يناقش نفس الموضوع من الناحية الاجتماعية والأخلاقية، ويمكن اعتباره مكمِّلًا لكتاب المرأة والاقتصاد.

من بين العديد من الاحتفالات بهذا المؤتمر الذي لا مثيل له، أتذكَّر بشكل خاص الليلة التي قضيناها في قصر ستافورد، حيث استقبلت دوقة ساذرلاند وسيدة أبردين الضيوف. وأتذكر أيضًا حفلة رائعة في حديقة جونرزبري أقامتها سيدات عائلة دي روتشيلد. وتمَّ توفير قطارات للضيوف وعربات خاصة من وإلى المحطة. كنت أيضًا محظوظة بما فيه الكفاية لكوني واحدة من الاثني عشر ضيفًا الذين دعاهم السيد ريتشارد تيمبل لقضاء عطلتين من نهايات الأسبوع متتاليتين في مدينة ناش، وفي مزرعته الريفية الرائعة في مقاطعة وركست شاير. لن أحاول وصف أيٍّ من الأحداث الاجتماعية الأخرى، يكفي أن أقول إنها كانت وفيرة لدرجة أن الحياة كانت تدور باستمرار على الغداء والعشاء، وحتى حفلات الإفطار. ومع ذلك أودُّ أن أشير إلى أن الدعوات التي قُدِّمَت لنا في ذلك المؤتمر غالبًا ما كانت تتضمَّن «وزوجك»، أو «والسيد جريتسن» بعد اسمي، وكان كاريل يحرص على أن يلبِّي تلك الدعوات.

عندما عدنا إلى أمستردام وتحدثنا مع الأصدقاء والمعارف عن المؤتمر، علَّق جريتسن أن هذا الحدث جعله يدرك كيف يجب أن تشعر المرأة بالفخر وهي تقضي حياتها لا تعتبر نفسها مجرَّد تابعة لزوجها. لأنه في لندن كان يُنظَر إليه فحسب على أنه زوج الدكتورة «أليتا. هـ.. جاكوبز». وقال إن هذا الدرس يجب أن يمرَّ به كلُّ رجل ليَعيَ أهمية نضال المرأة من أجل الاستقلال.

ومع ذلك، يبدو أن ذلك الأسبوع في لندن لم يكن مروعًا بما يكفي لثنيه من مرافقتي إلى المؤتمر القادم للمجلس العالمي للمرأة، الذي عُقِد في برلين عام 1904. وسأكتفي بالتعليق هنا أن هذا المؤتمر كان يمثِّل تعزيزًا للتحالف العالمي من أجل حق المرأة في الاقتراع. كان ذلك أيضًا مهمًّا بالنسبة لي؛ حيث قابلت السيدة كاري تشابمان كات، التي أصبَحَت لاحقًا صديقة مقرَّبة. بالإضافة إلى ذلك، تعرَّفت على الوزيرة آنا هوارد شو عن كثب، وبقينا أصدقاء مقرَّبين حتى وفاتها.

أود أن أوضِّح الطريقة التي ارتبطت بها أنا وجريتسن ببعضنا البعض كرجل وامرأة.

بطبيعة الحال انتهزتُ الفرصة التي أتاحها الاتحاد الراديكالي، والأخرى التي أتاحها الاتحاد الليبرالي الديمقراطي فيما بعد، لانضمام النساء بنفس الشروط التي ينضمُّ بها الرجال للحزب. ولم أكن أؤمن بمبادئ الحزب فقط، بل كنت مقتنعة أن الناس هنا سيتقبَّلون حملتي لتحسين أوضاع المرأة؛ لذلك أصبحت عضوًا نشيطًا.

كان جريتسن من زعماء أحد الأحزاب؛ لذلك كنت أعرف دائمًا ماذا يحدث. وبعد فترة قصيرة من دمج الاتحاد الراديكالي إلى الاتحاد الديمقراطي الليبرالي، تمَّ وضع مبادئ توجيهيَّة لأعضاء الحزب الذين

تم انتخابهم لتولي المناصب. وتم تشكيل لجنة برئاسة جريتسن لمناقشة المسودة التي وضعها لبرنامج الحزب. وكنت مهتمَّةً بهذه الخطة بشغف، وانتقدت بشدَّةٍ بعض النقاط بشكل خاص، التي شعرت أنها لم تحقِّق نجاحًا كافيًا. وشعرت أيضًا أنه هناك بعض الثغرات التي لا تُغتَفَر. حاولت أن أقنع جريتسن بضمان إدراج أنه أوَّلًا: الجندر لن يؤثِّر بأي حال من الأحوال على اختيار الموظفين والمرشحين، وأنه يجب أن يتم اختيارهم على أساس كفاءتهم وملاءمتهم، وثانيًا: في حالة تعيين امرأة يجب أن تتلقَّى «أجرًا متساويًا عن العمل».

بعد مرور بعض الوقت أخبرني جريتسن أنه تمَّ تحديد برنامج الحزب، وأن اللجنة رفضت اقتراحاتي. وسألته: «ماذا عنك؟». أجاب بتعبير هادئ: «أنا مجرد عضو واحد، وقد أخبرتك بالفعل قرار اللجنة»، ورفض مناقشة هذا الموضوع أكثر من ذلك.

وكان من المقرر عقد اجتماع في أمستردام لمراجعة برنامج الحزب ومناقشة إمكانية إدراج تعديلات إضافية. لقد فكَّرتُ في الخيارات المقترحة أمامي للحصول على موافقة على دمج الاقتراحين اللذين قد تقدَّمتُ بهما. هذه المرة لم يكن جريتسن الشخصَ المناسب لتقديم المشورة لي؛ لأنه خلال الاجتماع كان عليه أن يدافع عن البرنامج الذي وضعته اللجنة الحزبية، شعر أنه غير قادر على مساعدتي في العثور على أفضل طريقة لمعالجة هذه المشكلة؛ لأن القيام بذلك سيجعل مَهمَّته أكثر صعوبة. عندما سألت لماذا رفَضَت اللجنة نقاطي، قال ببساطة إنه لم يُسمح له بالكشف عمَّا تمَّت مناقشته في اجتماع اللجنة. ربما كنت أعلِّق أهمية كبيرة على إدراج هاتين النقطتين، لكنهم استحوذوا عليَّ، وأثار موقف زوجي غضبي لدرجة التَّمرُّد. في المساء السابق للاجتماع، سألته عمَّا إذا كان لا يزال هناك وقت لتقديم

التعديلات، وأجاب بأن هناك بالطبع وقتًا ما دام يتمُّ تسليمها إلى طاولة اللجنة قبل بدء الاجتماع.

كما شرعنا في اليوم التالي، فقد عرضت المظروف على جريتسن وقلتُ: «هذه هي التعديلات التي سأقوم بتسليمها». فبدا متوعِّدًا حين ردَّ قائلًا: «أنا آمل أن تدركي ما تفعلينه؛ لأنني سأعارضك بأفضل ما أستطيع»، لكنني لم أتراجع عن الأمر.

في ذلك الوقت كان هناك عدد قليل جدًّا من النساء كعضوات في الحزب، فقط ثلاث عضوات. وفي ذلك الاجتماع كنت الحاضرةَ الوحيدة. عندما طرحت تعديلاتي للمناقشة، سألني الرئيس، بشكل رسمي حازم: «هل ترغب الدكتورة جاكوبز في شرح تعديلاتها المقترحة؟». أجبت أن التعديلات المعنية كانت متوافِقةً تمامًا مع مبادئنا؛ وبالتالي لا يمكن إسقاطها من البيان. ومن ثم شعرت أن الشرح الإضافي غير ضروري، ولكن إذا كانت هناك أي اعتراضات فسأوضِّح وجهة نظري بسعادة. كانت هناك بالفعل اعتراضات أولًا من الجمهور، ثم من اللجنة نفسها، وكان جريتسن، رئيس مجلس الإدارة، هو الذي عارض إدراج هاتين النقطتين بكل ذكائه البالغ. كنت أخشى أن كنت أخوض معركة خاسرة، لكن، لأنني كنت مقتنعةً بأنني على حق، لقد بذلت قصارى جهدي لدحض هذه الحجج، ما أسعدني حقًّا بشكل كبير هو قبول تعديلاتي من أغلبية صغيرة.

جاء لي جريتسن بعد الاجتماع، واقترب مني واضعًا ذراعه حوله كتفي ويقول ضاحكًا: «أنا يجب أن أهنِّئَك على نجاحك!».

الرجال الذين شاهدوا هذا المشهد كانوا مندهشين، وأعلن أحد أعضاء الحزب البارزين قائلًا: «أنا مندهش من أن مثل هذا الاختلاف

في الرأي، يمكن حلُّه على هذا النحو». يبدو أن الجميع توقَّعوا مني توبيخًا شديدًا لمعارضتي العلنية مع زوجي، ما مدى ضآلة معرفتنا بهؤلاء الناس! في صباح اليوم التالي، انتقد تقريرٌ عن الاجتماع في إحدى صحف أمستردام الحدثَ برُمَّته، واستخدمه كذريعة لمهاجمة حق المرأة في التصويت. كان هذا ما حدث عندما بدأت النساء في التدخل في السياسة: أدَّى إلى صراع عام بين الأزواج والزوجات.

كما ذكرت سابقًا، خدم جريتسن في مجلس مدينة أمستردام حتى وفاته، وكان عضوًا في البرلمان الهولندي من عام 1893 حتى عام 1897، وقد كان أيضًا عضوًا في مجالس المحافظات في شمال هولندا حتى وفاته، من عام 1899 حتى عام 1902، وعضو المجلس المحلي للتجارة وإعانة الفقراء، بسبب تفانيه في عمله ومشاركتنا العميقة مع بعضنا البعض، يجب أن أكون واحدة من النساء القلائل اللائي حصلن على تعليم من خلال الجوانب القانونية والعملية للعديد من القضايا الاجتماعية.

كان وضعي أيضًا يسمح لي بأن يكون لي تأثير كبير على آراء جريتسن، متى كانت مصالح النساء موضِعَ نقاش. بالطبع من المستحيل معرفة الحجم الدقيق للتأثير الذي كان لديَّ على آراء جريتسن، لكن حتى إن لَم يكن لي أي قدر من التأثير فإنني راضية تمام الرضا على إشراكه لي في تلك المناقشات.

كنت شديدة السعادة حينما أصبح جريتسن نائبًا لرئيس البلدية. لقد طُلِب منه أن يكون مسؤولًا عن جهود إعالة الفقراء في المدينة، بما يشمل المستشفيات وملاجئ الأيتام ومنازل الفقراء أيضًا. لقد عملت معه بشكل غير مباشر على تلك الأمور، وقد ساهمت ولو بشكل

غير مباشر في تحسين ظروف معيشة الفقراء، ولكن المهم أنني كنت قادرة على المساعدة في رفع الظلم والإهانات، التي كان الفقراء يتعرَّضون لها من قِبل المؤسسات التي أنشأتها الحكومة لرعايتهم. قبل كل شيء، كانت الطريقة التي يعالَج بها الفقراء في المستشفيات بحاجة ماسَّة إلى الإصلاح. كان جريتسن يعمل «بالكثير من الطاقة والحماسة والشجاعة» - على حدٍّ وصف أحد صحف أمستردام، بعد موته - من أجل إصلاح تلك الأوضاع. بدأ جريتسن في محاولته لإصلاح تلك المؤسسات القديمة ذات الطرق البالية، من أجل أن تقدِّم رعاية اجتماعية حديثة للفقراء. وفي خلال هذا السعي لتحويل تلك المؤسسات لمؤسسات حديثة، اعتمدنا على المعرفة التي شهدناها في رحلاتنا في الخارج، وكيف كان يتم التعامل في تلك المؤسسات الحديثة في كثير من دول العالم. لحسن الحظ، فإنه في الوقت الحالي يبدو أن وجهات النظر حول طريقة عمل تلك المؤسسات سائدةً إلى حدٍّ كبير، لكن في الماضي كان الأمر يتطلَّب الكثير من المثابرة والحماسة من أجل إجراء تلك الإصلاحات. كان مديرو تلك المؤسسات والأطراف المرتبطون بها يعارضون أي تغيير ممكن؛ إمَّا من قبيل المحافظة الاجتماعية، أو ببساطة لأن الإصلاح يتعارض مع مصالحهم الخاصة. لم يتوانَ جريتسن ، بغضِّ النظر عن عمق المعارضة التي واجهها في ذلك الوقت، على العكس؛ كلَّما اشتدَّت المعارضة فإن ذلك كان يُجدِّد حماسه من أجل الوصول للأهداف المرجوَّة من هذا الإصلاح.

لقد كان شيئًا يبعث على الكثير من الغضب، كيف كان أطبَّاء أمستردام يقاومون بكل ضراوة إصلاح جرستين المقترح للخدمة الصحية المقدَّمة للفقراء في المدينة. تساءلت في ذلك الوقت كثيرًا، لماذا يقاوم هؤلاء تحسين الأوضاع؟ لماذا يقاومون تحسين الأوضاع التي

لا تليق بمدينة أمستردام أو بالعيادات التي يوفِّرها مجلس المدينة للفقراء. كان التفسير الوحيد أنهم كانوا يشعرون بالخجل أن أحدًا من خارج المجتمع الطبي هو الذي طالب بإنهاء طرق العلاج غير الآدمية التي كانت تُقدَّم لفقراء أمستردام. لقد تطلَّب الأمر من أحد هؤلاء الأطباء أن يأخذ زمام المبادرة ويصلح تلك الممارسات الطبية، لتتوافق مع التقدم الطبي والإنساني التي أحرزته البشرية، لكن جريتسن لم يذهب لأحدٍ منهم، وقرَّر أن يأخذ زمام المبادرة منفردًا.

لقد أثَّرَت الطريقة التي عارَض بها أطباءُ أمستردام تلك الإصلاحات على صحَّة جريتسن، والتي كانت غير جيدة من الأساس.

عندما أقرَّ مجلس المدينة خططَ الإصلاح، وبدأ جريتسن في البحث عن أحد الأطباء الذين يمكنهم أن يشرفوا على تنفيذ تلك الإصلاحات في العيادات، فوجئ بانتقام الأطباء. لقد مارس الأطباء كل أنواع الضغوط حتى لا يتقدَّم أحدٌ لتلك الوظيفة، وبالفعل حدث ذلك، ولم يتقدَّم أحدٌ خوفًا من عواقب الإقصاء من مجتمع أمستردام الطبي. هدَّدَت تلك المقاطعةُ بإنهاء أي خطوات للإصلاح، ولكن في اللحظات الأخيرة قرَّر الدكتور مينو هوزينجا أن يتقدَّم للوظيفة، ويتحدَّى مجتمع أمستردام الطبي، ويصبح مديرَ الخدمات الطبية في المدينة.

عندما مات جريتسن بعد بضع سنوات، أثنت كل الصحف على الإصلاحات الطبية في عيادات الفقراء، والتي وُصِفَت بأنها هبة إلهية لهؤلاء الفقراء، وكتبت الصحف أنها من أهم إنجازاته في العمل العام. ثبت لاحقًا أن تفسيري لسلوك أطباء أمستردام أنهم شعروا بالخجل والعار من أن يُقدِّم أحدٌ غيرهم تلك الإصلاحات، من خلال ما كتبوه لاحقًا عن مكتب الخدمات الطبية للفقراء، فبينما تمَّ الاعتراف أن جريتسن كان الرجلَ الأساسي وراء تلك الإصلاحات، إلا أن أحدًا منهم

لم يكتب كلمة واحدة عن الوضع ما قبل جريتسن، والذي كان الأطباء فاعلًا أساسيًّا فيه. ولحسن الحظ فقد نُشِر كتاب في الثالث عشر من سبتمبر من عام 1923، في الذكرى الخامسة والسبعين لتأسيس دائرة أمستردام الطبية، وقد كتب الدكتور ل. هيجرمانس مدير مكتب الخدمات الطبية في أمستردام، ووصف تطوير المكتب بأنه لم يكن ليتحقَّق لولا مبادرة نائب العمدة في 1901.

في بدايات عام 1904 بدأ جريتسن يعاني من أعراض مَرضيَّة غريبة ومُقلِقة، وعلى الرغم من أنه ذهب للطبيب إلَّا أنه لم تتم معرفة أسباب تلك الأعراض. لقد قرَّر أن تلك الأعراض المرضية نتيجة كثرة العمل. لقد اقترح أن أغلق العيادة من أجل أن نستطيع أنا وهو أن نأخذ إجازة طويلة سويًّا؛ وبالتالي يمكنه العودة للعمل بصحة أفضل وعقل أكثر اتِّقادًا.

لقد أحببت هذا الاقتراح، وخاصة أننا كنَّا نخطِّط لقضاء بعض الوقت في أمريكا الشمالية، كي نتعلم عن الظروف الاجتماعية هناك. ومن أجل البدء في مقابلة المسؤولين الأميركيين، والحصول على المعارف اللازمة لتلك الرحلة، قرَّرنا أن نبدأ بحضور اجتماع الاتحاد البرلماني الدولي، والذي كان مُقرَّرًا له أن يُعقَد في سانت لويس، في أغسطس من عام 1904.

بدأ التخطيط لتلك الإجازة في التَّشكُّل، لكن قبل أن أنهي ممارستي الطبية وأغلق العيادة، أراد جريتسن أن نحتفل بالذكرى الخامسة والعشرين لحصولي على رسالة الدكتوراه. كان اليوم المقصود هو يوم الثامن من مارس لعام 1904، لكن بسبب خطأ من قِبَل اللجنة المنظِّمة للحفل؛ تأخَّر الحفل حتى الثامن عشر من مارس. كان كاريل

ضمن اللجنة التحضيرية للحفل، وحرص على ألَّا أعلم أي شيء عن تلك الترتيبات حتى تكتمل المفاجأة. لقد تمَّ تشكيل لجنة من النساء لضمان أن يوم الذكرى الخامسة والعشرين لحصولي على الدكتواره سوف يكون احتفالًا لا يُنسَى. تشكَّلَت تلك اللجنة من الأسماء التالية: السيدة تي إتش بي هافر، والسيدة جاين فان بورين، والسيدة مارتينا كرايمرز، والسيدة «و براكر»، والسيدة شوفر بونجي، والسيدة فان لونين دي بوردس، والسيدة إي كيرلين.

ومنذ الساعات الأولى للصباح بدأت باقات الزهور في التوافد على المنزل، أيضًا بدأت الخطابات والتلغرافات والصحف والمجلات من الداخل والخارج تظهر أعدادها في منزلنا. لقد احتفَلَت كل تلك الصحف والمجلات والكثير من الأشخاص بالحدث، والذي لم يكن مُهمًّا لي فقط، بل يبدو أنه كان حدَثًا جليلًا للكثير من الناس، انتهز الفرصةَ الكثيرُ من المرضى السابقين لديَّ ليكتبوا إليَّ ويعبِّروا عن امتنانهم بما قدَّمتُه لهم. أرسلت الكثير من اللجان المركزية للنقابات والاتحادات الرسائل، وكان من ضمنها اتحاد العمال، الذي سعدت جدًّا برسالتهم. نشرت كل الصحف القومية والمحلية في هولندا قصصًا ومقالات عن حياتي، وفي بعض الأحيان كانوا ينشرون مقاطع من كتب سابقة لي أو مقالات سابقة. أريد الآن أن أضمِّنَ بعضًا من تلك القصص والمقالات في هذا الفصل.

في جريدة المجتمع الأسبوعية كتب كورنيل هايجينز:

« لقد أصبح جليًّا أنه كان هناك طلب كبير على الطبيبات النساء في ذلك الوقت، لقد كانت ممارستها الطبية ناجحة منذ اليوم الأول، وبدأت في النمو شيئًا فشيئًا، على الرغم من التحيز الواضح في ذلك

الوقت ضد الطبيبات النساء. لقد سبَّب ذلك النجاح السريع لها الكثيرَ من الدهشة، وخاصة في بلد لم يَعتَد على التأقلم بسرعة على كل ما هو جديد، بل يمكن القول إن هذا البلد يُضرَب به المثل في رفض كل جديد. على الرغم من ذلك كان يمكن لأي شخص أن يفهم سبب شعبية الدكتورة أليتا جاكوبز بمجرد أن يلتقيها وجها لوجه.

لهؤلاء الذين لم يلاحظوا، فقد كانت تلك الشابة الصغيرة، وهدوؤها الطبيعي، وإرادتها الحديدية في معالجة مرضاها- تدلُّ على أن الطب كان المهنة المناسبة لها، وأن دخولها لمجال الطب كان إضافةً لذلك المجال الذي سوف يستفيد في المستقبل من مواهبها المتعدِّدة.

لقد كانت قوة العقل، والتي هي صفة يجب أن يتحلي بها كل طبيب موجودة بشكل واضح في السيدة جاكوبز، وحتى في أصعب اللحظات التي عانى منها مرضاها، فإن وجودها بجانبهم بطمأنتها وصوتها الهادئ قد جعل كثيرًا من تلك الآلام تمر. لقد كان لكاتب هذا المقال الحظ لكي يكتشف ذلك الاهتمام والرعاية بنفسه، كانت تلك اللحظات التي تمتزج فيها الأنوثة الفطرية مع الإرادة الذكورية هي التي تجعل الآلام تمر. وهنا ينبغي أن ألفت انتباهكم لتلك الصفات الفريدة، والتي جعلت طبيبة هولندا الأولى محبوبة من قِبَل المرضى ومن قِبَل عائلات المرضى.

لقد مثَّلَت الأنثوية الكاملة جذرًا امتدَّ لكل تفاصيل حياة السيدة جاكوبز. كانت الرعاية والتقدير اللذين توليهما لبيتها ولهواياتها المتعدِّدة وأنشطتها المختلفة يدلَّان على تلك الأنثوية. لقد أكَّدَت السيدة جاكوبز أن الاهتمام بالعلم لا يعني إهمال الجانب الأنثوي في المرأة».

نشرت «دي تلغراف» أيضًا مقالًا كُتِب بواسطة شخص يُدعي

«جي. سي»، وفيما يلي مقتطفًا من ذلك المقال:

«حينما تسمعها تتحدث عن التجارب السيئة التي مرَّت بها، فإن وجهها الهادئ والبشوش غالبًا ما يتحوَّل للضحك على تلك التجارب، وذلك على الرغم من أن تلك التجارب، وبالتأكيد، قد سبَّبت لها الكثير من الألم في الماضي حينما حدثت. ولكن على الرغم من ذلك لقد استطاعت النجاة من كل ذلك، وشقَّت طريقها الخاص للنجاح. لقد استمرت تلك الروح المناضلة - التي كانت لديها حينما كانت طالبة - معها طوال تلك السنوات، بدون أي تغيير، بل بإرادة أكبر على مواجهة التحديات.

لقد شكَّلَت بوضوحٍ الكثيرَ من الآراء حول العديد من القضايا الاجتماعية، فهي ناشطة اجتماعية، وفي بعض الأحيان كاتبة لا يُشقُّ لها غبار، تكتب عن أفكارها الخاصة بأسلوب سهل ومباشر يوضِّح للجمهور العام فحوى وأهمية الالتفات لتلك القضايا الاجتماعية.

لقد كانت ممارستها للطب حَصرًا تقريبًا على النساء، واللائي كُنَّ مجموعة من البشر محرومة من الرعاية الطبية الجيدة بشكل كبير. لقد كان لديها الكثير من المرضى؛ ما مكَّنها من الحديث معهم وتطوير فهمها للكثير من القضايا، وبالأخصِّ قضايا النساء. لقد كانت تلك الممارسة الطبية مهمَّة من أجل فهم المشكلات الاجتماعية المختلفة بشكل مُعمَّق، واقتراح الحلول الضرورية لها. ومع تلك الخبرة كانت دائمًا ما تدعو للتطور وتقديم التحسينات في مختلف مناحي الحياة.

في أغلب الأحيان كانت تلك النضالات تتطلَّب قدرًا كبيرًا من الشجاعة الأخلاقية، كما حدث في عام 1883، حينما حاولت للمرة الأولى أن تسجِّل نفسها من أجل الإدلاء بصوتها في الانتخابات، وذلك على الرغم

من أنها كانت تعرف في ذلك الوقت أن ذلك الفعل قد يُسبِّب لها الكثير من السخرية والاستهزاء على أقل تقدير.

كانت الشجاعة أيضًا هي الوصف الأقل الذي يمكن أن نطلقه على نضالها من أجل إنهاء أحد أكثر الأمراض الاجتماعية خطورة في العصر الحديث؛ وهي الدعارة.

كانت دائمًا في خدمة النساء متى تَطلَّب الأمر ذلك. وخلال ربع قرن من ممارستها للطب وانخراطها في الحياة العامة، فقد رأت الكثير من مبادراتها الفردية تصبح قوانين في النهاية، ومثال على ذلك: الإجراءات والقوانين التي وُضِعَت لتحسين ظروف عمل البائعات، خاصة فيما يتعلق بوقوفهنَّ لفترات طويلة في اليوم.

كانت إنجازات تلك الفتاة صاحبة السبعة عشر ربيعًا تكفيها في ذلك الوقت، حتى لو لم تفعل أي شيء آخر في حياتها. لكنها قرَّرَت أن تقضي الخمسة والعشرين عامًا الأخيرة في خدمة الكثير من القضايا الاجتماعية للنساء. لقد بذلت كل ما في وسعها من أجل تحقيق التمكين السياسي والاستقلال الاقتصادي للنساء. إن السيدة جاكوبز تستحق الكثير من الاحترام والتقدير من كل هؤلاء المهتمِّين بحق المرأة في الانتخاب، تستحق الاحترام من كل البشر الذين يتشاركون الإحساس الجمعي بضرورة الإيثار وتقديم مصالح المجتمعات أمام الأفراد.

حينما وقفت السيدة جاكوبز في استقبالي في ملابسها الفضفاضة السوداء، والتي امتزجت مع الظلال السوداء في بيتها؛ بَدَت لي - رغم كل القوة والعزيمة التي ظهَرَت عليها - كمثالٍ مكتمل عمَّا يمكن أن تكون عليه المرأة في العصر الحديث».

وفي عدد الأحد من صحيفة «دي إيكو» نُشِر مقالٌ، أقتبس منه التالي:

«أودُّ أن أضيف القليل من كلمات التقدير، والتي يمكن أيضًا أن تخدم في تذكير النساء في هذا العصر ببعض الأشياء، ومنها أن النساء في ذلك العصر، والذين ينظرن لأنفسهنَّ كمكافئ للرجال، ويتم احترامهنَّ ومعاملتهنَّ في المجال العام بالمثل، لم يكن ليتحقق لهنَّ ذلك لولا الحملات والنضالات والمُثُل الشخصية التي قدَّمتها نساء مثل الدكتورة أليتا جاكوبز.

على مَرِّ السنين كانت الحركات النسائية تتعرَّض للتخريب جرَّاء دخول الكثير من العناصر الغريبة على الحركة، ودخول تلك العناصر فيما لا يخصُّها من المسائل. كان هناك الكثير من سوء الفهم لتلك الحركات والاختلافات الأساسية بين الرجل والمرأة التي لا يمكن إنكارها، وذلك على الرغم من الاعتراف بأن النساء مكافئات للرجال على المستوى العقلي.

لم يكن ذلك خطأ الدكتورة أليتا جاكوبز، واليوم يحزن قلبي كيف يتمُّ موضعة حياتها وإنجازتها في ذلك الجو المشحون بالاضطرابات والكثير من الجهل.

عندما نريد أن نتعرَّف على الأشخاص الساميِّين، والذين ساهموا في نهضة الحركات الاجتماعية، كحركة تحرُّر النساء؛ يجب علينا أن نركِّز على القيادات الحساسة والأكثر ذكاء.

كانت الدكتورة أليتا جاكوبز مثالًا رائعًا على هؤلاء، وتدين نساء هولندا لها بالكثير».

في العدد الشهري من مجلة «الجمعية الهولندية لحق النساء في

الانتخاب»، كتب السيدة «و. دراكر» مقالًا، والذي أقتبس منه هذه الافتتاحية:

«قبل عشر سنوات أشار لي السيد لويس فرانك - الرجل النسوي المشهور - بحقيقة حزينة، لكنها حقيقية، وهي أنه في تلك الأيام تميل النساء اللاتي يحصلن على درجات علمية لأن يَكُنَّ على قدر كبير من التحذلق والتَّكبُّر. على العكس من ذلك تمامًا كانت الدكتورة جاكوبز، وهي المرأة التي تحتفل بمرور 25 عامًا على حصولها على الدكتوراه في الطب، في الثامن من مارس الحالي، وكانت أول طبيبة في هولندا كلها. للوهلة الأولى، لا يمكن أن يشك أحدهم أن تلك المرأة المرحة شديدة التواضع لديها شهادة في الطب، في الاجتماعات الرسمية، وحتى في اللقاءات غير الرسمية، لم تستخدم السيدة جاكوبز أيًّا من تكتيكات فرض السلطة المعروفة عن خرِّيجي الجامعات العليا في هولندا. تتصرَّف الدكتورة جاكوبز كطبيبة لمرضاها، لكن ليس على الدوام؛ وبالتالي يجب أن يكون ذلك قدوة لزملائها من الأطباء الذكور».

أكتب هذا الفصل، بينما توجد بجانبي كومة كبيرة من المجلات جاءت من الولايات المتحدة، وكندا، وإنجلترا، والدول الإسكندنافية، وألمانيا، والمجر، والنمسا. وفي كل تلك المجلات مقالات مختلفة للاحتفال بذكرى حصولي على الدكتوراه، وبمجمل أعمالي. ولكن على الرغم من ذلك فإنه في تلك المقالات اختلطت الوقائع الخاصة بحياتي بالكثير من الخيال؛ وهو ما يجعلني أُحجِم حاليًّا عن الاقتباس من تلك المقالات.

وضعت اللجنة التي كانت مسؤولة عن تنظيم الاحتفال إكليلًا من الزهور في صباح يوم الاحتفال على قبر الوزير ثوربيك؛ وذلك تكريمًا للرجل الذي سمح بدخول أول امرأة للجامعة في جرونينجن، عام

1871. بعد الظهيرة، أقامت اللجنة حفل استقبال في مقر الاتحاد العام؛ وذلك من أجل استقبال الأشخاص الذين يريدون أن يقدِّموا التهنئة بشكل شخصي. كان جريتسن يصحبني في ذلك الحفل؛ وهو بالطبع ما جذب المزيد من الضيوف.

ألقت السيدة هافر خطابًا بالنيابة عن اللجنة العامة للنساء وعموم النساء في هولندا، وقدَّمَت لي تمثالًا يُسمَّى «الانتصار»، كُتِب على قاعدة التمثال «إلى الدكتورة أليتا جاكوبز 1879 - 1904 أول طبيبة هولندية». حرصت السيدة هافر على امتداح جريتسن، والذي كان في رأيها أول الرجال الهولنديين الذين قدَّروا المرأة في هولندا، بشروط المرأة، وقدَّموا الكثير من الدعم لحركة تحرُّر النساء.

بدون علمي قام جريتسن في ذلك اليوم بدعوة بعض أعضاء اللجنة، وبعض الأصدقاء، على عشاء على شرف الاحتفال، في المساء.

بمجرد أن انتهت الاحتفالات كنت أريد أن أحضر المؤتمر العالمي للاتحاد الدولي للنساء والمقرَّر إقامته في برلين في يونيو 1904، وذلك قبل الانطلاق في جولتنا حول العالم. بالإضافة لذلك كان ما يزال عليَّ إنجاز الكثير من الأشياء في هولندا قبل السفر لتلك المدة الطويلة. كان مؤتمر رعاية الأطفال سوف يُعقَد في لاهاي، من السابع وحتى التاسع من أبريل. كانت تلك المؤسسة المخصَّصة لرعاية الأطفال قد انبثَقَت عن مجلس النساء الوطني، وكنت أشغل منصب نائب الرئيس فيها. وبما أن رئيسة المؤسسة كانت خارج البلاد؛ فقد كان لزامًا عليَّ أن أحلَّ محلَّها في هذا المؤتمر. ومرة أخرى وجدت نفسي منغمسة في الكثير من الفوضى، والتي تضمَّنَتها عملية التحضير للمؤتمر. قرَّرنا أن ننجز ذلك المؤتمر وبعدها نقوم بالحجز من أجل السفر لأمريكا الشمالية في

نهاية يوليو وبداية أغسطس من نفس العام، قررنا أن نبحر على متن الخطوط الأمريكية الهولندية من روتردام إلى نيويورك.

خلال الأيام القليلة التي قضيناها في برلين، بدأت الأعراض المرضية المقلِقَة تظهر على جريتسن مرة أخرى. بدأت أخاف من تلك الرحلة الطويلة التي خطَّطنا لها، لكن ما جعلني أطمئنُّ أن الفحوصات الطبية لم تُظهر أي شيء غريب يستحق القلق.

اعتقدت أن تلك الأعراض أتت بفعل الإجهاد والضغط العصبي المستمر، وشعرت بالطمأنينة بشكل كبير حينما بدأ يتحسن بعد يومين من الراحة. كنت آمل في ذلك الوقت أن خليط الرحلة الطويلة الجديدة حول العالم، والتَّعرُّف على بيئات مختلفة سوف يساهم في تحسين صحته.

بعد أن قرأنا الكتب الحديثة الصادرة عن أمريكا الشمالية، شعرنا أننا على أتمِّ الاستعداد للقيام بالرحلة. ولكن الواقع يختلف كثيرًا عن الكتب؛ لذلك اتفقنا على أن نكتب ملاحظاتنا وندوِّن بعض المقالات ونحن في تلك الرحلة ونرسلها للصحف الهولندية. اتَّفق جريتسن مع صحيفة «التجارة العامة» ليكتب لهم، بينما اتَّفقتُ مع «التلغراف». لقد أصدرت لنا الصحيفتان بطاقات صحفية، والتي أثبتت أنها ذات قيمة كبيرة في أميركا. لقد اكتشفنا أثناء الرحلة أن الصحفيين يتمتعون بالكثير من الامتيازات التي يصعب الحصول عليها للسائحين العاديين. أثبتت تلك البطاقات الصحفية التي كانت لدينا، في أمريكا، أنها أكثر فعالية وأهمية من أي تقديمات أو خطابات تعارُف.

حينما وصلنا إلى نيويورك للمرة الأولى واجهنا بعض المشاكل بسبب اختلاف لقب العائلة لدى كلٍّ منَّا. كانت أمريكا مرسومة في

مخيِّلتنا أنها البلد الحر والمجتمع الديمقراطي، لكن للأسف كان لدينا بعض المشاكل حينما حاولنا التوقيع بأسماء مختلفة في سجلٍّ أحد الفنادق الشهيرة في نيويورك. في فندق «بيت هولندا» خُيِّرنا بين أن نأخذ غرفتين منفصلتين أو نوقِّع تحت نفس الاسم في الفندق، اتَّفقنا على أن نوقِّع تحت نفس اللقب في سجلَّات الفندق، لكن زوجي هو الذي أصرَّ على أن أوقِّع في سِجلَّات الزائرين باسمي الخاص، وبقينا على ذلك الحال طيلة فترة مكوثنا في نيويورك وبقية أمريكا.

بما أننا كنا قد وصلنا إلى نيويورك قبل موعد بدء اجتماع الاتحاد البرلماني الدولي بوقت كبير؛ فقد قرَّرنا أن نستغل ذلك الوقت في لقاء العديد من الأشخاص الذين كنا نعرفهم عن طريق المراسلة؛ لتبادل الأفكار حول القضايا الاجتماعية المختلفة؛ أو هؤلاء الذي كانت لدينا لهم خطابات تقديم. أيضًا استطعنا أن نرى الكثير من معالم نيويورك، وهي فرصة لم تكن لتسنح لنا لولا ذلك الوقت الذي تَوفَّر لدينا. أيضًا استطعنا أن نستمع للكثير من النصائح حول تخطيط رحلتنا في الولايات المتحدة، وجمعنا الكثير من المعلومات عن المؤسسات المهمَّة التي ينبغي علينا زيارتها في الولايات الأمريكية المختلفة.

كمثال على ذلك، أمدَّنا السيد صمويل بوروس، والذي كان عضوًا في الكونجرس وخبيرًا في النظام العقابي الأمريكي، بتصريح رسمي لزيارة أي سجن أو إصلاحية في الولايات المتحدة. استخدمتُ ذلك التصريح كلَّما سنحت لي الفرصة، واستكشفت السجون العتيقة ذات النظم القديمة في الولايات المتحدة، ومعها الإصلاحيات الحديثة، والتي كانت اختراعًا جديدًا لم تعرفه هولندا في ذلك الوقت. كتبت تقريرًا مُفصَّلًا عن زيارة إصلاحية شيبورن في ماساتشوستس، وهو سجن للنساء، لصحيفة «التلغراف» في هولندا. وبعد عودتي لهولندا بوقت

قصير، حدث شيء جعل لذلك المقال أهمية خاصة بالنسبة لي، فقد كتب مدير أحد سجون النساء في جرونشيم لي خطابًا جاء فيه، «إن قراءة مقالك قد أحدث الكثير من التغيرات الإيجابية، فقد قدَّم رئيس السجن لإحدى السجينات شُجَيرةً من الورود كان عليها الاعتناء بها، وهو شيء أدخل الكثير من السرور عليها». ما الذي كان يمكن أن آمله من تلك المقالات أكثر من ذلك؟! أن تُحدِث تغييرًا صغيرًا في حياة البشر، وتجلب بريقًا صغيرًا من الإنسانية للوجود المعذَّب الذي نحكم به على كثير من سجنائنا في هولندا.

لقد بيَّنَت الخطابات التي أرسلها جريتسن إلى صحيفة «التجارة العامة» أنه في كل الولايات التي زرناها، كان لديَّ الكثير من الاهتمام بدراسة أحوال العمال، وبالأخص العلاقات بين أصحاب العمل والعمَّال والقوانين التي تؤثر على تلك العلاقات.

لقد درس بعنايةٍ التَّعليمَ، والمكتبات والبنوك، وكتب ملاحظات مفصَّلة حول تلك المواضيع، لكنه لم يُضمِّنها في مقالاته التي أرسلها للصحيفة؛ لأنه كان يُخطِّط للكتابة بتوسُّع عن تلك المسائل في المستقبل.

وبعيدًا عن زيارة الكثير من السجون، كنت شديدة الاهتمام بنظام المستشفيات في أمريكا، والوضع القانوني والاجتماعي لأطقم التمريض في تلك المستشفيات. وأينما ذهبت في الولايات المتحدة حاوَلتُ أن أتواصل مع النساء المؤثِّرات في حركة حقِّ الانتخاب للمرأة من أجل معرفة المزيد عن الحملات التي تنظم في أمريكا وردود الأفعال تجاه تلك الحملات في الولايات المختلفة.

في السادس من سبتمبر من عام 1904، غادرنا نيويورك مع

300 عضو من أعضاء الكونجرس إلى سانت لويس. قدَّمَت الحكومة الأمريكية إلينا قطارين خاصَّين يتكوَّنان من عربات بولمان الشهيرة، وتكفَّلَت بدفع مصروفات السفر والإقامة المرفَّهة في سانت لويس لكل الأشخاص. وفي الطريق زرنا في البداية فيلاديفيا، حيث استقبلنا ممثِّلو مجلس المدينة، وأخذونا في جولات لنرى معالم المدينة الشهيرة. وكذلك في بيتسبرج، ذهبنا في جولة لرؤية مصانع كارنيجي في المدينة.

عندما انتهى اجتماع سانت لويس، كان من المفترض أن يعود كلُّ الزُّوَّار إلى نيويورك في تلك القطارات الخاصة. وفي رحلة العودة مررنا في البداية على مدينة كنساس، ورغم أنه كان لدينا فقط القليل من الساعات قبل أن نتحرَّك إلَّا أننا استطعنا أن نأخذ جولة في المدينة بفضل مواطني كنساس، الذين قدَّموا لنا جولات خاصة حول المدينة أثناء قيادة سياراتهم. وفي اليوم التالي وصلنا إلى كولورادو، حيث كان ينتظرنا قطار آخر في كولورادو سبرنيجز، ليأخذنا في جولة على ارتفاع عشرة آلاف قدم عن سطح البحر، إلى كريبل جريك، حيث رأينا مناجم الذهب ومُخيَّمات عُمَّال تلك المناجم. لو كنت قرأت كتب أوتبان سنكلير قبل ذلك، فبالتأكيد كانت نظرتي للعمال سوف تتغيَّر.

عندما وصلنا إلى دنفر قرَّرتُ أنا وكاريل أن نودِّع رفاق الرحلة وننتظر عدة أيام في دنفر قبل أن نتوجَّه إلى الغرب الأمريكي.

لقد سعدت أن كاريل وافق على تلك الخطة التي عرضتها؛ لأن السفر المستمر وفوضى الاجتماعات كانت قد أرهَقَت صحَّته في الأيام السابقة؛ لذا كان عليه أن يستريح لعدد من الأيام. وبعد عدة أيام من الراحة، شعر بالصحة مرة أخرى، وأكملنا رحلتنا نحو وايمونج، حيث أردنا أن نزور متنزَّه يولو ستون. بعد ذلك توجَّهنا إلى مدينة سالت

لايك في ولاية يوتاه، كان لدينا الكثير من الأصدقاء الذين يعيشون في تلك المدينة، والذين كنت قد أعلمتهم بقدومنا. وخلال تلك الزيارة تمكَّنَّا من معرفة الكثير من الأشياء عن المورمون ومعتقداتهم، والتي عرفناها من مقالات الصحف وحكايات المسافرين عنهم. لقد توصَّلنا نحن الاثنان إلى استنتاج نهائي مفاده أن دين المورمون كغيره من الديانات الأخرى؛ هو خليط بين الأشياء الجيدة والأشياء السيئة؛ وبالتالي فإن أتباع هذا الدين كذلك منهم الخَيِّر ومنهم الشرير. ومنذ ذلك الحين كنت أكثرَ قُدرةً على الجدال، بل ودحض الكثير من الأفكار الخاطئة عن المورمون، والتي كان يجري الترويج لها على نطاق واسع في ذلك الزمان.

ليس هذا الكتاب هو المكان المناسب لسرد وتوضيح كل ما حدث أثناء رحلتنا في أمريكا الشمالية، لكنني أودُّ أن أوجز تلك الرحلة بالقول إننا سافرنا من يوتاه إلى كاليفورنيا، ومن سان فرانسيسيكو إلى لوس أنجلوس، ومن هناك توجَّهنا نحو أريزونا ونيوميكسكو وإلينوي، ثم عدنا في النهاية إلى نيويورك. لقد أتيحت لنا الكثير من الفرص لنرى الكثير من المعالم الشهيرة في أمريكا الشمالية، بما فيها وادي يوسمايت والجراند كانيون ومدينة الجرف في أريزونا، وبالطبع شلالات نياجرا في شمال ولاية نيويورك. أينما ذهبنا كنَّا نحاول أن نتعلم الكثير عن الأرض والناس، خاصَّة الأناس البدائيين. لقد شعرت بالكثير من الدهشة حين رأيت كيف تعيش القبائل الهندية والزنوج في أمريكا، وبصفتي أجنبية حاولت التواصل معهم ومعرفة أكبر قدر من الإمكان عن حيوات هؤلاء البشر.

وبينما اقتربت السنة من النهاية بدأت أشعر بالحنين للوطن، خصوصًا لأن أعراض جريتسن المرضية بدأت في الظهور مرة أخرى،

وبدأ يفقد الوزن بشكل واضح.

وصلنا إلى أمستردام في يناير من العام 1905. كانت كل الأحزاب السياسية في ذلك الوقت مشغولةً في التحضير للانتخابات العامة التي كان مُقرَّرًا لها في يونيو من نفس العام. كنا بالكاد بدأنا نستقر في أمستردام بعد الرحلة الطويلة حتى عُرِض على جريتسن التَّرشُّح عن دائرتين انتخابيتين. كان جريتسن قد شعر بالكثير من الإعياء أثناء رحلة العودة، وبالكاد كان يتحرك من السرير. كان يفقد الكثير من الوزن بوتيرة مُتسارِعة. خفت أن تؤدي الحملات الانتخابية إلى تدهور حالة مرضه، والذي كنت عاجزة بشكل كامل عن معرفة ماذا يكون. حاولت بكل ما أقدر أن أقنعه بالتنازُل عن ذلك الترشيح من قِبَل الحزب، وأن يحاول أن يخدم الحزب بالقدر الضروري الذي تسمح به صحته في ذلك الوقت.

لكن تلك المحاولات لم تفلح في ثنيه عن قبول ترشيح الحزب، فقد كانت تلك الانتخابات مسألة مهمَّة جدًّا على المستوى الوطني في هولندا، كان يجب إزاحة اليمين المتطرِّف عن الحكم بأي تكلفة كانت؛ وبالتالي كان على كل الاعتبارات الشخصية - حتى تلك الخاصة بالصحة - أن تتنحَّى جانبًا في سبيل تحقيق هدف إزاحة الحكومة اليمينية من السلطة. قال لي جريتسن في ذلك الوقت: «لو كنتِ مكاني لَما كنتِ لتتراجعي عن معركةٍ كهذه من أجل سبب كهذا».

قبل جريتسن كلا الترشُّحَيْن من الحزب، كان ذلك يعني أن عليه التَّنقُّل جيئة وذهابًا بين شوترلاند ودين هيلدر من أجل القيام بالخطابات الانتخابية والمناظرات مع خصومه في الترشح، وفي كل مرة كان يعود للمنزل كنت ألاحظ على الفور كيف تدهورت صحته

بشكل واضح. لقد رجوته أن يتنازل عن التَّرشُّح ويسمح لعضو آخر من الحزب أن يأخذ مكانه. لكن كانت كل تلك الرجاءات بلا طائل، رفض ببساطة أن يستمع لكل تلك الرجاءات.

وفي النهاية، وفي أحد الأيام، اكتشف أنه غير قادر على النهوض من الفِراش، طلب مني أن أُحضِر الطبيب الذي كان صديقًا له، وعلى الرغم من أن الطبيب كان قَلِقًا للغاية من الحالة التي وجد عليها جريتسن، لكنه لم يخاطر بإعطائنا أي تشخيص دقيق للحالة.

كان ذلك في يوم الانتخابات، وكان جريتسن قد تلقَّى خبرًا سعيدًا بفوزه في دائرة دين هيلدر، جلب الدكتور بيل بروك الأخبار لي بعد التشاور مع عدد من الأطباء، كان الخبر ببساطة أنه لا يمكنهم فعل أي شيء، ولا يتوقَّعون أن يعيش جريتسن طويلًا.

وفي خلال فترة قصيرة اجتاح سرطان المعدة والكبد جسدَه القويَّ.

ظلَّ جريتسن متَّقِد الذهن حتى يومه الأخير، كان شديد السعادة بخسارة اليمين المتطرف في الانتخابات، وكان يتشاور حول تشكيل مجلس الوزراء الجديد مع الأصدقاء الذين كانوا يأتون لزيارته. كان عليَّ في تلك الأوقات أن أقرأ له بصوتٍ مرتفع كل ما يُكتَب عن تشكيل المجلس في الصحافة. لم يكن جريتسن يعي في ذلك الوقت أن نهايته قد اقتربت، وحرصت على عدم معرفته بحقيقة وضعة الصحي.

توفي جريتسن أثناء نومه، في هدوء، في الخامس من يوليو عام 1905[67].

كتبت كل الصحف عن وفاته، ونُشِرت العديد من المقالات حول

67- - بعد وفاة جريتسن في 1905، رتَّبت جاكوبز لنشر المقالات التي كتبتها معه في كتاب واحد، باسم «رسائل من أمريكا وحولها». انظر الفصل الحادي عشر.

حياة جريتسن وأعماله. أودُّ أن أورد لكم بعض المقتطفات من تلك المقالات؛ لأنها تصفه بدقَّة شديدة.

كتبت «التلغراف» في الخامس من يوليو 1905:

«بدأ الأمر مبكِّرًا في العام 1888، وهو العام الذي أرسل فيه ناخبو أمستردام السيد ك. ف. جريتسن إلى مجلس البلدية عبر الانتخابات، كعضو للمجلس ونائب للعمدة. لقد أعطى كل ما يملك للحياة العامَّة، ومن بين مجموعة قليلة من الراديكاليين، كان هو الأكثر حماسًا والأكثر قدرة على جعل كل خصومه يستشيطون غضبًا في كثير من الأحيان.

لقد أغضبت خطاباته الكثير من الناس، ولكن على الرغم من ذلك، وبسبب تفانيه وحماسة المستمر؛ أصبح نائب العمدة في 1898، وأُعطيَ مسؤولية رعاية الفقراء والتجارة في المدينة. تدين أمستردام بالكثير للسيد جريتسن، فحينما تولَّى المنصب بدأ على الفور في إصلاح منظومة الرفاهة الاجتماعية في المدينة، والتي كانت على حال سيئ للغاية في ذلك الوقت. سوف يتذكَّر الكثيرون الإصلاحات التي أدخلها على نظام الخدمات الطبية في المدينة، وكيف أغضَبَت تلك الإصلاحات الكثير من أطباء أمستردام في ذلك الوقت. لقد رفض الرضوخ لغضب الأطباء، وانتصر في النهاية. وعلى الرغم من أن تلك الإصلاحات بدأت في التطبيق الفعلي فقط في السنوات الأخيرة، إلا أنها كانت بمثابة منحة إلهية لهؤلاء الفقراء في المدينة. مثَّل ذلك الإنجازُ أفضلَ لحظات جريتسن كنائب للعمدة».

في الخامس من يوليو أيضًا، كتبت صحيفة «العمال دي إيكو» الآتي:

«كان هناك الكثير من السِّمات المشتركة بين كل إنجازات السيد جريتسن لتلك المدينة، أهمها هي الروح والهوية العمومية التي سادت كل تلك الخطط والإنجازات؛ وذلك لأنها كانت تأتي من رجل كان هدفه هو القطيعة مع الماضي. لقد كانت مَهمَّته هي إنهاء كل الأخطاء والخبائث التي انتشرت في الحقبة التي عاش فيها، ودعَّمها مؤسِّسو تلك المدينة الذين أحاطوا كل شيء بجدار مرتفع من السرية بعيدًا عن أعين أي رقابة شعبية.

يُعدُّ هذا سببًا كافيًا كي نحزن على ترك السيد جريتسن لمنصب نائب العمدة في أمستردام. فحتى اليوم نفتقد لشخص مثله لديه كل المعرفة والموهبة والحماس وبُعد النظر لحل مشكلات المدينة.

نادرًا ما يأتي الموت في الوقت المناسب، وعندما يأتي نشعر جميعًا بوطأة ما حدث.

فبعد حياة طويلة في خدمة الناس والتضحية من أجل الصالح العام، توفِّي الرجل، وباغَتَه الموت في الوقت الذي كانت أحلامه وطموحاته تبدأ في التحقُّق على أرض الواقع».

مرة أخرى، فقدتُ الدَّاعِم الأكبر في حياتي، والرفيقَ الأهمَّ لرحلتي، وبدا المستقبل مظلمًا وموحِشًا بدون كاريل فيكتور جريتسن.

الفصل الحادي عشر

من 1905 إلى 1911

(إمكانية حصول المرأة على حق الاقتراع في ظل حكومة بورجيسيوس. تقديم مطالبنا لجلالة الملكة أثناء الإصلاح الدستوري. ظهور المناضلات الإنجليزيات للمطالبة بحق المرأة في الاقتراع. مؤتمر كوبنهاجن وقرار عقد الكونجرس المقبل في هولندا عام 1908. مقابلات مع عدد من أعضاء البرلمان. تحضيرات للكونجرس عام 1908. في جبال تاترا وسرابييفو. فترة النقاهة في زيورخ. خُطَط للسفر مع السيدة كات).

بعد وفاة جريتسن، مرَّ الكثير من الوقت قبل أن أستطيع أن أستأنف العمل. كنت أعلم أنه لم يكن ليريدني أن أستسلم لذلك الحزن، ولكنني وجدت صعوبة كبيرة في مواصلة حياتي كما كانت قبل وفاته. كانت أعصابي في حالة مزرية بسبب الحزن وقلَّة النوم. وقد شعرت بالأسوأ من ذلك عندما بدأت أيام الشتاء الغائمة. وبدا أنني في حاجة إلى تغيير الجو، وقرَّرتُ الذهاب إلى سانت موريتز، والتي لم تكن أصبحت في ذلك الوقت مكانًا لقضاء العطلة للأجانب الذي يبحثون عن الرياضة والترفيه. ساعدني حمَّام الشمس اليومي في تحسين صحتي بشكل كبير. علاوة على ذلك، بصفتي شخصًا غريبًا هناك، قابَلتُ العديد من الناس الذين كانوا يحاولون أيضًا أن يتعايشوا مع الحزن، وساعدني سماع قصصهم على تخطِّي ذلك الحزن على فراق جريتسن.

عندما عُدتُ إلى أمستردام في بداية عام 1906، بدأت في استئناف

عملي بالكثير من التفاني، وخاصة مع جمعية حق المرأة في الانتخاب. وكانت حكومة بورجيسيوس- رينك، الذي تولَّى السلطة عام 1905، تُجهِّز لعدد من التعديلات الدستورية التي بموجبها تمَّ ترك المادة الثمانين من الدستور فارغة، وهي المادة التي تحدِّد شروط الاقتراع. كانت «المادة الفارغة رقم 80»، بمثابة صرخة عالية للأغلبية البرلمانية ومكَّنَت حكومة بورجيسيوس من الوصول إلى السلطة.

وكانت لجنة الإصلاح الدستوري قد تمَّ تشكيلها بالفعل عندما عدت من سانت موريتز، كما أن جميع الجماعات اليسارية وضعت مطالبها الخاصة، ولكنني شعرت أن جمعيتنا يجب أن تشارك، ليس فقط فيما يتعلَّق بهذه المادة، ولكن أيضًا فيما يتعلق بجميع جوانب الدستور التي تؤثِّر على حياة النساء بشكل مباشر. تولَّت «آنا بولاك»و«و. دراكر»و«روتجرس- هوتسيما» مسؤولية ذلك العمل(68).

أثناء زيارة الملكة لأمستردام في 3 مايو عام 1906 قدَّمتُ أنا والسيدة «روتجرس- هوتسيما» لجلالتها وثيقةً، تمَّت الموافقة عليها من قِبَل الجمعية، وقد تمَّ وضع المادة 80 على النحو التالِي: «يحدد القانون مَن الرجال والنساء الذين يحقُّ لهم التصويت ومَن يَحقُّ لهم الترشح للمناصب». واقترحنا أيضًا مراجعة جميع المواد التي تؤثِّر على حق المرأة في تقرير مصيرها بنفسها بعيدًا عن وصاية الرجال، وفي اليوم التالي قدَّمنا نسخة من هذه الوثيقة إلى السيد رينك وزير الداخلية، وناقشنا معه بحرية وانفتاحٍ كبيرين مسألة الإصلاح الدستوري.

لم نكن بهذه الحماقة لكي نتصور أنه ستتم تلبية مطالبنا على

68- آنا بولاك (1849 - 1839) كانت مديرة مكتب عمل المرأة من عام 1908 إلى عام 1937. وكان لها دور فعَّال في توسيع فرص العمل للنساء بشكل كبير.

الفور، ولكننا اعتقدنا أن هذا النهج سيُعرِّف كلًّا من السلطات العليا والشعب الهولندي على مطالبنا؛ بأن يكون للنساء الحق في التصويت تحت نفس الشروط التي تنطبق أو ستنطبق قريبًا على الرجال. بما أننا اعتقدنا أن هذه هي الطريقة الأرخص والأكثر فاعلية للقيام بالحملات؛ أرسلنا نُسخًا أيضًا من وثائقنا إلى كلِّ وزيرٍ وكلِّ عضوٍ في البرلمان ومجلس الدولة، وإلى جميع الصحف. وفي صباح اليوم التالي رأى آلاف من الناس مطالبنا. وطبقًا لقناعة الصحف السياسية، فقد أيَّدَت بعض الصحف ما نفعله ورفضته الصحف الأخرى. وتضمَّن عدد ذلك الأسبوع من صحيفة «دي أمستردامر» و«ويك بلاد فور» صورةً للملكة الأم تتحدث إلى الملكة. وفي التعليق: «العدل يا ابنتي شيء يحقِّق العظمة لذلك البلد الصغير».

في ذلك الوقت لم تكن جمعيتنا تتكوَّن من أكثر من ألفي عضو؛ ولهذا السبب حرصت على زيارة المناطق البعيدة كل أسبوع، لأتحدث عن حقِّ المرأة في الانتخاب ولاستكشاف إمكانية إنشاء فروع جديدة للجمعية. كنَّا دائمًا نعاني من نقص في المال، وكنا سعداء لقبول عروض أصحاب الفنادق المحليين لاستخدام غرف اجتماعاتهم مقابل مال قليل، أو بدون مال، بشرط أن نشتري منهم وجبات طعام صغيرة. عادة ما كان ترافقني عضوةٌ أصغر سنًّا تحت التمرين في الجمعية؛ كمتحدِّثات. وأتذكر رحلاتي مع السيدة «ك. س. جروت»، و«ماريتي» التي لا مثيلَ لها، والتي فازت لاحقًا بقلوب من رأوها في الزِّيِّ الريفي التقليدي في شمال هولندا[69]. قمنا معًا بتغطية كامل المنطقة الواقعة

69- كورنيليا سارة (كيي) جروت (1868 - 1934) ناشطة سياسية في العمل الاجتماعي وفي جمعية حق المرأة في التصويت. في جولاتها الدعائية لجمعية حق المرأة في التصويت في جميع أنحاء هولندا. كانت فعَّالة للغاية في إلقاء الخطب باللهجة المناسبة. وارتداء الزي التقليدي. وتسمِّي نفسها «مارتيجتج» (اسم شائع في المناطق الريفية). (WPV).

شمال نهر آيجسل. وكنت دائمًا محاطة بمجموعة مرحة من الشابات اللواتي تصرَّفن كحاشية لنا. كُنَّ عاقلات دائمًا، ولكن كُنَّ في نفس الوقت لديهنَّ الكثير من السذاجة حيث كان ينحدر معظمهنَّ من الريف، وكُنَّ يشعرن بالكثير من السعادة بمجرد مكوثهنَّ في فندق حقيقي.

لقد زرت أيضًا جزءًا من مقاطعة جرونينجن مع السيدة «بيكر. نورت»، الذي كانت في ذلك الوقت ما زالت تدرس القانون في الجامعة، ولم أتخيل أن تصبح عضوةً برلمانية لاحقًا[70]، لن ننسى أبدًا المغامرات الممتعة التي خضناها سويًّا في الرحلة إلى ستادسكانال وفِنسخزتين، وهي بالتأكيد تستحق مكانًا في هذا الكتاب. لقد استطعنا في تلك الزيارات أن نجذب العديد من الأعضاء الجدد الذين شكَّلوا فرع الجمعية الجديد في المنطقة. كان الطقس جيدًا، وفي غضون ساعتين كان من المقرر أن نركب الترام إلى ستادسكانال، حيث كنَّا نأمل في جمع العدد اللازم فرعًا آخر في ذلك المساء هناك. قرَّرنا ألَّا ننتظر الترام، بل أن نسير حتى يلحق بنا. في البداية، اتبعنا الشارع الذي تلاشى في الرمال بمجرد أن غادرنا المنطقة المبنية، حتى ذلك الحين كان الطقس ساطعًا، ولكن فجأة بدأ المطر يهطل بغزارة، لسوء الحظ لم نكن مستعدِّين تمامًا، وسرعان ما انغرست أقدامنا في الوحل وتلطَّخَت أحذيتنا من وحل شوارع المدينة، قرَّرنا أن نحتمي في أول

70- بيتسي باكر نورت (1874-1946) نشطت في جمعية حق المرأة في التصويت منذ استدعائها في عام 1898. حتى حصلت النساء الهولنديات على حق الاقتراع في عام 1919. وهي عبارة عن ترجمة غزيرة للأدب الدنماركي والسويدي والنرويجي. ودرست القانون أثناء فترة زواجها وتزوَّجَت بالفعل - وهو أمر غير معتاد للغاية في ذلك الوقت - وحصلت على شهادتها في عام 1914. وفي عام 1922 أصبحت أول امرأة تُنتخَب لعضوية البرلمان على قائمة (الاتحاد الديمقراطي الليبرالي). في البرلمان كانت مهتمَّةً بشكل خاص بالوضع القانوني للمرأة المتزوجة. يهودية. نجت من السجن في تيريزينشتات خلال الحرب العالمية الثانية.

منزل نمرُّ به، والذي تبيَّن أنه متجر صغير. رنَّ الجرس بصوت عالٍ، ودخلنا، ولكن لم يكن هناك أحد في الأفق. قلَّبنا نظرنا في المكان الذي بدا مهجورًا أمامنا، شعرنا أنه من الخطر الانتظار هنا؛ لذا استأنفنا رحلتنا عبر الوحل والبِرَك. بعد عدة كيلومترات وصلنا إلى منزل صغير ورأينا نساء جالسات بداخله. دعتنا الأصغر فيهن بالدخول، لم يكن علينا أن نعرِّف أنفسنا لأنهنَّ كُنَّ يعرفن مَن نحن. كُنَّ يعلمن أننا النساء الوحيدات غير المحليات المرتقب مرورهن من هنا، لأنهن قرأن في الصحيفة أننا تحدثنا في الليلة السابقة عن حق المرأة في الاقتراع في فيندام، وكان علينا التحدث مساء اليوم التالي في ستادسكانال. أتحن لنا تجفيف ملابسنا على نار الحطب المشتعلة، وأحضرن لنا فناجين من القهوة بالقرفة، والتي تُعتبَر علاجًا في تلك البلدة، لكننا وجدناها لا تصلح للشرب تقريبًا. في غضون ذلك، تحدَّثَت النساء بلهجتهن حول حق المرأة في التصويت وسرعان ما أدركنا أنهن في جانبنا. في الواقع لقد قدَّمن لنا بعض الحجج الجديدة في النقاش.

وصل الترام أخيرًا وودَّعنا النساء الذين كُنَّ خير مضيفات لنا، وفي حوالي الساعة السادسة مساءً وصلنا أخيرًا إلى بنسيون في بلدة ستادسكانال، حيث كان من المقرر أن نلقي محاضرة، كنا نأمل أن يرحب البنسيون بنا بوجبة دافئة، بدلًا من ذلك اكتشفنا أن المكان مهجور، حتى بدون أي أثاث. سمعنا من السكان المحليين أن صاحب الفندق قد أفلس واختفى. ماذا كنَّا لنفعل؟ لم نكن نعرف أي شخص يمكن أن نطلبه ليأوينا في هذا الليل، وكنا مقتنعات بأن الاجتماع قد أصبح مستحيلًا بسبب تلك الظروف. بعد القليل من المناقشة أرسلنا إلى فرع الجمعية في مدينة وينشوتن، وطلبنا إرسال حافلة لإحضارنا وإحضار بعض الطعام إلينا لأننا لم نأكل منذ ذلك الصباح.

في هذه الأثناء، بدأ الناس في الوصول إلى اجتماعنا، وكالعادة كنا سعداء للدفاع عن قضيتنا، في الحظيرة اكتشفنا سلمًا، وعددًا من البراميل الفارغة، وبعض الحبال. بوضع السُّلَّم فوق البراميل تمكَّنَّا من توفير مقاعد مناسبة للسيدات، بينما فضَّل الرجال - وهم مزارعون - البقاء واقفين. وضعنا بعض المصابيح في حبال لتتدلَّى من السقف، وقمنا بابتكار سريع لجوٍّ مثالي لإقناع جمهورنا بفوائد منح المرأة الحق في التصويت.

وصلت الحافلة من وينشوتن حوالي الساعة الحادية عشرة مساءً، وخرج اثنان من أعضاء اللجنة ومعهما سلَّة كبيرة مليئة بألذ الساندويتشات وزجاجة من النبيذ الجيد. لم يرغب سائق الحافلة في العودة على الفور لأن خيوله بحاجة إلى ساعة راحة على الأقل. فعدنا إلى الحظيرة وجلسنا على مقعد السُّلَّم، واستخدمنا برميلًا فارغًا كطاولة للساندويتشات والنبيذ.

وغادرنا المكان أخيرًا بعد منتصف الليل، ووصلنا إلى وينشوتن بين الساعة الثالثة والرابعة صباحًا. كنت متوترة، ولم أكن أعرف هل هذا التوتر وعدم الارتياح بسبب النبيذ - يجب أن أعترف أنني لست معتادة على شرب الكحوليات - أم بسبب مغامرات ذلك اليوم، ولكن تلك الرحلة الطويلة المظلمة في جوف الليل، في وسط مكان منعزل، بدت وكأنها انتهت في لحظة، بسرعة كبيرة لدرجة أن ذكراها لا تزال تحقِّق لنا الكثير من الفرح والتسلية.

خلال هذه الفترة التي امتلأت بالنشاط السياسي، كان هناك العديد من الفرص لنشر مقالات في الصحف عن حقِّ المرأة في الاقتراع. ورحبنا بأي شكل من أشكال المعارضة لأن ذلك يعطينا تلقائيًّا حق الرد.

على سبيل المثال، طرح مقال نُشِر في صحيفة «دي نيدرلاندر»، التي يُحرِّرها السيد «دي سافورنين لوهمان»، السؤال التالي: «هل سيؤثر اقتراع المرأة على مسار التاريخ؟»، وتمَّت الإجابة على السؤال بسخرية، ويَخلُص المقال أيضًا إلى أنه لا توجد أسباب منطقية لحرمان النساء المستقلات غير المتزوِّجات من الحق في التصويت. ومن الواضح أن هذه كانت فرصة جيدة لتوجيه الأنظار للحقوق التاريخية للنساء المسيحيات[71]. ذهب ردي على ذلك المقال إلى أن كل إصلاح - مهما كان صغيرًا - فإنه لا يلبث أن يترك بصماته في تاريخ العالم؛ وبالتالي فإن أي إصلاح مهمٍّ مثل المساواة السياسية بين الجنسين سيكون له بالضرورة تأثير كبير على الأحداث العالمية، بالإضافة إلى ذلك دحضتُ كلَّ اعتراضات خصمنا المحبوب، بخلاف ذلك. ردَّ كاتب المقال على اعتراضاتي، وكان ذلك يعني أن لديَّ حقَّ الرد مرة أخرى.

واجهنا معارضة شديدة في الصحافة الكاثوليكية الرومانية، لكن حججنا المضادة سرعان ما أكسبتنا العديد من المؤيدين الجدد لهذه الحملة. كنَّا نفضِّل هذا النوع من المعارضة بالتأكيد عن معارضة الصحف الليبرالية، التي كان أسلوبها هو السخرية من قضيتنا ومن ثم تَجاهُلنا.

أثبتَ عام 1906 أنه عام جيد لحملة حق المرأة في الاقتراع في كثير من الأوجه؛ بعد تأسيس الجمعية العالمية لحق المرأة في الاقتراع في مؤتمر برلين عام 1904، تمَّ اتخاذ قرار أن يجتمع الناشطون العالميون في كوبنهاجن في يونيو عام 1906.

71- كان الاتحاد التاريخي المسيحي حزبًا سياسيًّا. بدأ كجناح محافظ داخل الحزب المحافظ المناهض للثورة بالفعل. وبين عام 1898 و1909 ظهر تدريجيًّا باعتباره حزبًا مستقلًّا تحت قيادة «إ. ف دي سافورنين لوهمان»

وسيشارك كل ممثّلي البلاد المشاركة في التحضيرات، وسيمثّل هولندا اثنا عشر مندوبًا، بقيادتي؛ بصفتي رئيسة الجمعية الهولندية للحق في الاقتراع.

وفي مؤتمر كوبنهاجن، سمعنا لأول مرة امرأة إنجليزية مناضلة في حركة حق المرأة في التصويت، تصف الحركة بالكثير من المعاني القومية. وكشفت أيضًا الحقيقة وراء التقارير الصحفية التي نشرت في جميع أنحاء العالم. ومنذ نشأت تلك الحركة كنت أكره تشدُّدَها، لكن عليَّ أن أعترف أنها جعلتنا أقرب إلى تحقيق هدفنا. وملايين من الناس الذين لم يسمعوا أو يقرؤوا عن حق الاقتراع، وبالتالي لم يفكِّروا فيه، يتعرَّضون الآن لهذا الموضوع كل يوم تقريبًا، على الرغم من أن هذه التقارير الإخبارية في معظم الأحيان مليئة بنصف الحقائق، والمبالَغات. وتوصَّل الكثيرون إلى نفس النتيجة التي توصل إليها أسقف لندن بعد أن جلس لتناول الإفطار ذات يوم. ثم اكتشف أنه هناك قنبلة وُضِعَت تحت مقعده. «إذا تمَّ دفع النساء المتحضرات إلى مثل هذا الفعل المتطرِّف»، فإن سيادته «يجب أن يولي أهمية كبيرة لحق المرأة في التصويت». نتيجة لذلك بدأ يقرأ تصريحات نشرها المناضلون المعتدلون من أجل حق اقتراع المرأة، وأعلن في النهاية دعمه لحق المرأة في التصويت.

استفدنا في هولندا أيضًا من كفاح هؤلاء المناضلين الشُّجعان. أثنت العديد من الصحف الليبرالية على النشطاء الهولنديين؛ لسلوكهم الهادئ والمعتدل، كان هناك قلق واضح من أننا قد نختار أتباع نموذج التحالف المطالِب بحق المرأة في الاقتراع. من المؤكَّد أن عملهم ساعدنا على الأقل إلى الحد الذي لم يَعُد يتمُّ تجاهلنا فيه ونُشيد به في بعض الأحيان.

في مؤتمر كوبنهاجن تَقرَّر أن أرافق رئيسة التحالف السيدة كاري تشابمان كات إلى النمسا والمجر للمساعدة في تنظيم حملة محلية هناك. وقد وصفت هذه الرحلة سابقًا بالفعل في الفصل السادس. واتُّخِذ قرار آخر في كوبنهاجن ذو أهمية كبيرة لنا هنا في هولندا. علم وفدنا أن البرلمان الهولندي سيناقش الإصلاح الدستوري إمَّا في عام 1908 أو 1909، فقرَّرنا دعوة التحالف إلى عقد مؤتمره المقبل في هولندا في يونيو عام 1908، قُبِلت دعوتنا بامتنان، وعدنا إلى الوطن لدينا خطط كثيرة لكي نضمن نجاح ذلك المؤتمر. كان عام 1906 عامًا مهمًّا أيضًا بالنسبة لنا، حيث إنه يصادف الذكرى السنوية الثانية عشرة والنِّصف لتأسيس الجمعية[72]. أردنا أن نقيم يومًا احتفاليًّا لأعضائنا، والذي سوف يكون فرصة جيدة للقيام بالمزيد من الدعاية للفكرة. واستلزم ذلك الكثير من العمل، لكن لا حاجة للقول، فقد وجدت العديد من النساء على أتم الاستعداد للعمل، ولم تكن أي مَهمَّة مهينةً، ولا أيُّ جهد كبيرًا بالنسبة لهنَّ، وتحمَّلن مسؤولية كل شيء بالحب والتفاني، سواء كان ذلك يتضمَّن التحدث أو غير ذلك من الالتزامات، أو مساعدة مجموعة من النساء في إنشاء فرع جديد لهن، أو مجرد العمل حتى وقت متأخر من الليل على طيٍّ المنشورات ووضعها في أظرف ولصق الطوابع. كانت جمعية حق المرأة في الاقتراع تستطيع دائمًا أن تعتمد على أعضاء اللجنة والمتطوِّعين في العمل بتفانٍ دون أن ينتظروا أقلَّ قدر من التقدير؛ لأن الجميع يعلم جيدًا أهمية ما نفعله، ولا يعتبر أي مجهود تضحية كبيرة في المساعدة في تعزيز قضيتنا. على الرغم من الجدية التي أخذنا بها عملنا، بدت الاجتماعات العامة التي حضرها جميع القادة المحليين في بعض الأحيان وكأنها

72- في هولندا، كان الاحتفال بمرور 12 عامًا ونصف من التقاليد المتَّبعة في تلك الفترة.

احتفالات، وأعطتنا فرصة كبيرة لتشجيع ومواساة بعضنا البعض. واستمر هذا حتى عام 1906 عندما حاولت مجموعة صغيرة من النساء استبدال أعضاء اللجنة التنفيذية الثلاثة، وكنتُ من بينهم، وترشَّحن ليتم انتخابهن. وكان مؤتمر التحالف المقبل في عام 1908 عاملًا أيضًا في هذا الوضع بأكمله[73].

سافرت مع السيدة تشابمان كات إلى المجر أثناء الحملة الانتخابية، ولكنني كنت مسرورة عندما سمعت أننا جميعنا الثلاثة فُزنا بأغلبية ساحقة. ولم تكن فرحتي فقط لمعرفتي أنني سأستمر في القيادة، بل أيضًا لأن الجمعية منظَّمة قوية وموحَّدة.

واصلت العمل طوال عام 1906، على الرغم من أنه كان من المؤلم أن أعود إلى الوطن دون أن أجد أحدًا لأشاركه في نجاحاتي، ويواسيني على كل خيبة أمل، وأتشاور معه بشأن أكثر الوسائل فعالية للنضال. الأهم من ذلك كله، لقد افتقدت جوَّ النقاشات الفكرية الذي كنت أستمتع به في المنزل لسنوات عديدة، وكان من الصعب في البداية إرسال المقالات دون إطلاع شخصية مقربة جدًّا من روحي عليها، كما كانت عادتي مع جريتسن. تكيَّفتُ ببطء مع الموقف، واستعدت ثقتي بنفسي.

كان عام 1907 أيضًا عامًا مزدحمًا للغاية. ناقشت الدوائر الحكومية حق المرأة المتزوجة في العمل، والذي تم تقليصه بشكل فاضح من قِبَل حكومة أبراهام كايبر، ولكن أعادته الحكومة التالية، والتي شملت

73- تشير جاكوبز بشكل غير مباشر إلى انقسام في حركة حق النساء في التصويت الهولندية. ففي 1907 أحدثت مجموعة يرأسها الصحفي والمحرر إستير دبليو (1876 - 1956) وآخرون- انشقاقًا في الرابطة الهولندية لحق المرأة في التصويت. تسبَّبَت في مزيج من عدم التوافق الشخصي والخلافات حول تكتيكات الاقتراع.

السيد رينك كوزير للشؤون الداخلية، وكان البرلمان يناقش أيضًا عِمالة الأطفال، وتم تقديم مشروع قانون الإصلاح الدستوري أيضًا للبرلمان. تضمَّنَت كل تلك المشاريع مصالِحَ مباشرة للنساء؛ ولذلك سرعان ما مدَّت جمعيتها يديها في مناقشة تلك التعديلات. كنا في كثير من الأحيان منخرطين في مناقشات مع قادة الفصائل السياسية المختلفة، تحدثنا مع الوزراء، وقدَّمنا طلبات للحكومة. عقدنا اجتماعات عامة، وجهَّزنا صحف المعلومات. غالبًا ما زوَّدتنا محادثاتنا مع هؤلاء القادة برؤى فريدة حول سبب معارضة «ممثلي الشعب» أو دعمهم لمقترحات معينة. كانت النساء اللواتي قمنا بتمثيلهن دائمًا على دراية جيدة بكل موضوع تم طرحه للنقاش. على النقيض من ذلك، كان لدى بعض السياسيين الذكور رأي سيئ ووجهة نظر مقيتة حول ذكاء الإناث، لدرجة أنهم اعتبروا على ما يبدو أنه ليس من الضروري أن يتحضَّروا من أجل النقاش معنا.

استقبلنا السادة دي سافورنين لوهمان وفان إيدسينجا وكونت فان بيلاندت، نيابةً عن المجموعة المسيحية التاريخية. طُلب مني التحدث أوَّلًا، وأعربت عن أملي في أن تتجه هذه المحادثات إلى زيادة التعاطف مع قضيتنا، حتى تدعو مجموعتهم إلى تعديل دستوري يتضمَّن حق المرأة في التصويت. ذكَّرَنا السيد فان إدسينجا بأن أعضاء برلمان حزبه وافقوا على الاجتماع معنا، حتى نتمكن من إبلاغهم بأي تطورات جديدة تتعلق بمنح المرأة حق التصويت. أشرت إلى أن الوضع يتغير كل يوم، حيث أصبحت النساء أكثر وعيًا بالطرق التي عانى بها بلدنا، نتيجة عجزهن عن التأثير على قوانينها. على سبيل المثال، كانت قوانين الحد من عمل الأطفال على وشك الظهور. وبقدر ما كنا سعداء باتخاذ خطوات لتوفير الحماية القانونية للأطفال، شعرنا مع ذلك أنه من

العبث أن يتمَّ تمرير هذه القوانين دون مشاركة نشطة من النساء الهولنديات، اللواتي كُنَّ رغم كل شيء الأمهات لجيلنا القادم. كان الرجال هم وحدهم المسؤولين عن صياغة تلك القوانين، والتي من شأنها أن تؤثر بشكل جذري على العلاقة بين الأم والطفل، وإدخال شيء من نفوذ الحكومة في شأنٍ كان يُعتَبَر في السابق مجالًا للمرأة. وكأن الرجال هم أفضل مَن يفهم قلب وروح الطفل بدلًا من النساء! كان من الممكن أن تكون هذه القوانين مختلفة تمامًا، لو تم وضعها من قِبَل الرجال والنساء الذين يعملون بشكل تعاوني.

كما تحدثت بإسهاب عن قوانين أخرى، وعن اجتماعات ومقالات عارض من خلالها مؤرِّخون مسيحيون ليسوا أعضاء في البرلمان حقَّ المرأة في التصويت. ثم سأل السيد دي سافورنين لوهمان عمَّا إذا كنا قد فكرنا في أن النساء قد يحققن نفس القدر للمجتمع من خلال تأثيرهن غير المباشر بحق الانتخاب، كما لو كان هذا التأثير بوسائل أكثر مباشرة. أجابت «جوانا. و. أ. نبر»: «وإذا كان كل من الرجال والنساء قادرين على التصويت، فكيف سيؤثر ذلك على الحياة الأسرية؟»، وسأل السيد كونت فان بيلاندت بعد ذلك عمَّا إذا كانت النساء، إذا حصلن على حق التصويت، فهل هُنَّ على استعداد لأداء الواجبات العسكرية[71]. قال إنه يمكنه أن يتخيَّل رؤيتنا نسير جنبًا

74- المؤرخة النسوية «جوانا و.أ.نبر» (1859 - 1941) كانت لعقودٍ من الزمان شخصية رئيسية في مجموعة واسعة من الأنشطة النسائية الهولندية بالفعل. مؤلِّفة كتيب حاصل على جائزة كبرى. وقد أيقظت الحركة النسائية من خلال معرض عام 1898 لعمل المرأة. العديد من منشوراتها التي تزيد عن 250 هي عبارة عن دراسات سيرة ذاتية للأثرياء النساء المتدينات بشدَّة من القرن السادس عشر إلى أوائل القرن العشرين. اللائي ناضلن من أجل الاستقلال الذاتي والإنجازات ذات التوجه الاجتماعي. كانت أول امرأة هولندية في مجلس إدارة التحالف الدولي في حق المرأة في الاقتراع. وعملت لعدة سنوات كسكرتيرة وناشطة دعاية ناجحة في VVVK. كانت مهتمة دائمًا بالاستمرارية ونقل تاريخ المرأة عبر الأجيال. وقد شاركت روز مانوس ووبل-إيمين بوستهوموس-فان دير جووت في إنشاء الأرشيفات الدولية للحركة النسائية التي توضع فيها منشورات جاكوبز الآن.

إلى جنب مع الرجال نحمل بنادقنا على أكتافنا، ولكي يوضح فكرته تمامًا، وصف المشهد بتفاصيل رسومية. كنا قد نشرنا للتَّوِّ مقالًا حول هذا الموضوع بالذات لصحيفة «دي جيلديرلاندر» الرومانية الكاثوليكية؛ لذلك كان من السهل دحض حججه. أخيرًا، علَّق السيد لومان بطريقة ودية بأن حزبه لم يفكر بعدُ في أيٍّ من هذا، وأنه يلزم إجراء تحقيق شامل قبل التوصل إلى أي قرار.

ثم التقينا بمجموعة مختلفة تمامًا؛ أعضاء الجمعية «إم. جي. كرامرز»، و«س. تيلما شاف»، كانا في استقبال السادة ترويلسترا و«تيت لان»، قادة حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي. رفضوا رفضًا قاطعًا أي اقتراح بحق المرأة في التصويت، على الرغم من أنهم رأوا أنه يجب منح جميع الرجال حق الانتخاب، إلَّا أنهم جادلوا بأن النساء لم يَكُنَّ مستعدَّات بعدُ للتصويت. وأضاف السيد ترولسترا أنه هو نفسه سيعارض منح المرأة حق الاقتراع العام الفوري، فمن البديهي أن يشير ممثِّلونا إلى التناقضات في هذه الحجة. علاوة على ذلك، دعَّم ممثِّلون برلمانيُّون لحزب سياسي رسميًّا مَنحَ حقِّ الاقتراع العام لكل من الرجال والنساء.

أود أن أضيف أننا ذكرنا دائمًا مسبقًا أننا نعتزم نشر تقرير كامل عن جميع محادثاتنا.

لقاء هؤلاء النواب جعلنا ندرك كم كانوا يعرفون القليل عن هذا الموضوع. حتى أولئك الذين دعَّموا قضيتنا من منطلق إحساسهم بالعدالة، كانوا، بشكل عام، غير مُلِمِّين بالتفاصيل المحددة للقضية. ومن هنا قرَّرت اللجنة التنفيذية لجمعيتنا إصدار كتاب صغير يحتوي على جميع الحجج المختلفة المستخدمة لدعم حق المرأة في الاقتراع،

وإرسال نسخة إلى كل عضو في البرلمان.

بصرف النظر عن حملتنا للمطالبة بحق المرأة في الاقتراع، كنا نعمل أيضًا يومًا بعد يوم للتحضير لمؤتمر أمستردام لعام 1908. أدركنا أننا بحاجة إلى الكثير من الوقت للاستعداد بسبب نقص خبرتنا، حيث كان هذا أول مؤتمر نسائي دولي يُعقَد في بلدنا. كنا نعلم أننا سنحتاج إلى تخطيط كل شيء بدقَّة. كان المؤتمر مُكلِّفًا، ولم نكن متأكِّدين من أن غير الأعضاء سيكونون مستعدِّين لتقديم الدعم المالي. لقد شكَّلنا لجنة توجيهية برئاستي مع الآنسة «و. دراكر» بصفتها أمينة الصندوق، يمكنها دعوة أكبر عدد ممكن من الأعضاء لمساعدتنا في الحصول على التمويل اللازم، وعلى الرغم من أنه كان هناك عدد كبير من النساء الأخريات يساعدنها، إلَّا أن الآنسة دراكر هي الشخص الوحيد الذي كان مسؤولًا بشكل مباشر أمام اللجنة.

كما كشفت الأحداث فيما بعد أن مجموعتها حقَّقَت نجاحًا كبيرًا، لدرجة أن الأموال التي تمَّ جمعتها موَّلَت مطبوعات حملتنا بعد فترة طويلة من انتهاء المؤتمر.

تولَّت السيدة فان لوينين دي بوردس مسؤولية جميع المهام التنظيمية، مثل تأجير أماكن العمل، وإيجاد مساكن لضيوفنا، وعمل شارات تحمل الأسماء، وتنظيف القاعات أثناء المؤتمر، والعديد من المهام الأخرى المماثلة لذلك. اهتمَّت «جوهانا و. أ. نابر» بالاتصال بالصحافة والاتصالات الخارجية، وتناولت السيدة فان بوران هويس موضوع البريد داخل هولندا، وسجَّلَت محاضر اجتماعات لجنتنا العديدة. عملت السيدة شفير بانج والسيدة جومبرتس جيتا على تجهيزات الحفل الافتتاحي وجميع احتفالات المؤتمر الأخرى.

لم أكن مسؤولة عن أي لجنة خاصة في ذلك المؤتمر، ولكن كان دوري يتضمن التنسيق بين جميع اللجان، وكنت أحاول حلَّ أي مشكلة تظهر أثناء التحضير للمؤتمر. لقد عُقِدَت اجتماعات اللجنة التوجيهية دائمًا في منزلي. ويحدث ذلك في بداية كل شهر، ثم كل أسبوعين، وأخيرًا مرَّة في الأسبوع. ويقدم كلٌّ عضو تقريرًا عن عمله، ويقدِّم أفكارًا واقتراحات، ومن ثم نراجع كل الخطط الجديدة، ونبحث في المشاكل والأخطاء. وتمكَّنَّا سريعًا من إيجاد مكان مناسب لعقد المؤتمر، على الرغم من أن السعر كان خياليًّا، وعُرِض علينا مبنى كامل للحفل في أمستردام مقابل ألفَيْ جيلدر.

وصلت رئيستنا السيدة تشابمان كات قبل شهرين من موعد بدء المؤتمر. في ذلك الوقت كان العديد من المعجبين يطلقون عليها لقب «الملكة غير المتوَّجة»؛ بسبب سلوكها الملَكي، وسُلطتها الطبيعية، وطاقتها المتجددة. كنت أعمل معها في الأعمال الدولية، وفي تنظيم جدول أعمال المؤتمر، وكان يجب علينا أيضًا أن نتأكَّد من أن جميع الاحتفالات والجولات السياحية لا تتعارض مع المؤتمر نفسه. كان من المقرَّر أن يُعقَد هذا الحدث من 15 إلى 20 يونيو. وأقيم عرض موسيقي في القاعة الرئيسية في مبنى الاحتفالات يوم الأحد 14 يونيو. استمر الحفل حتى منتصف الليل، وسُمِح لنا بعدها بتسلُّم المبنى. وتأكَّدت امرأتان من اللجنة التوجيهية من أن المكان نظيف بأكمله. وكان عمال النظافة على وشك المغادرة عندما وصل أول الزوار في الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي.

أودُّ أن أخصِّص فصلًا كاملًا لوصف هذا الحدث بكل تفاصيله، ولكن باختصار، في رأيي، لم يتفوَّق أي مؤتمر آخر للتحالف الدولي للمطالبة بحق المرأة في الاقتراع على مؤتمر أمستردام، وربما كان

مساويًا له فقط مؤتمر ستوكهولم في عام 1901. ومن المؤكد أن النساء الهولنديات خلقن سمعة طيبة لأنفسهن كمنظِّمات بارعات.

ويجب أَلَّا أنسى أن أذكر أن السبب الذي دفعنا في الأصل لدعوة التحالف إلى مؤتمر عام 1908 في هولندا لم يعُد قائمًا، فقد أُجبِرَت حكومة بورجيسيسوس على الاستقالة بحلول شهر ديسمبر من العام 1907، وحلَّت محلها حكومة هيمسكيرك، التي عارَضَت قضيتنا بشكل كبير، فكُنَّا بالطبع نأمل أن يساعدنا المؤتمر في التأثير على مناقشة الإصلاح الدستوري، وكنا سعداء بالتعديلات المقترحة، على الرغم من أنها كانت ذات نطاق محدود جدًّا. ولكن الآن لن يتغير أي شيء، ومن الواضح أنه لا توجد ميزة يمكن الحصول عليها من المؤتمر في هذا الصدد. ومن ناحية أخرى، جلب المؤتمر مئات الأعضاء الجدد للحركة، وأنتج تحوُّلًا كبيرًا في الرأي العام تجاه تلك القضية، نشرت العديد من الصحف تقارير مفصَّلة مع رسوم توضيحية جادة ومضحكة. وكانت صحيفتا «دي جروين أمستردامر»، و«ويكبلاد فور نيدرلاندر» معروفتين بشكل خاص بسبب ما تحتويان عليه من موادهما البصرية.

بعد المؤتمر قضيت عدة أسابيع في العمل مع السيدة تشابمان كات لإعداد تقرير عن المؤتمر، الذي كان من المقرَّر طباعته في أمستردام. كان لدى لجنتنا الوطنية أيضًا أعمال يجب إجراؤها، وظللت مشغولة بالواجبات المنزلية حيث قرر بعض ضيوفي الخمسة البقاء بعد المؤتمر. بمجرَّد أن عاد كل شيء كما ينبغي، انطلقت في رحلة طويلة ومريحة مع السيدة كات.

كانت وجهتنا الأخيرة جنيف، حيث كان من المقرر أن يجتمع

أعضاء اللجنة الدولية وأعضاء لجنة الاتحاد الدولي للمرأة في سبتمبر. كان ما يزال أمامنا متَّسَع من الوقت لرحلاتنا. أرادت رفيقتي المبهجة قضاءَ يومين في كل مدينة ألمانية نمرُّ بها، وكانت تعرفها بالاسم. في غضون أسبوعين فقط سافرنا إلى أن وصلنا إلى فرايبرج، حيث خططنا لقضاء بعض الوقت هناك. أذكر هذه التفاصيل؛ إذ كنت أشعر دائمًا أن السيدة كات تتظاهر فقط بالاهتمام بالمدن الغامضة لأنها كانت قَلِقَة من ألَّا أُتعِب نفسي بسبب كثرة السفر. في الواقع، المؤتمر وجميع الترتيبات الخاصة به قد أرهقتني تمامًا. ولكن، بعد فرايبرج، كان لا يزال لدينا شهر لزيارة أماكن مختلفة في سويسرا. خلال ذلك الوقت بدأنا أيضًا في التخطيط لرحلة حول العالم معًا.

على الرغم من أن حياتي كانت مكرَّسة للعمل ولم تسمح بإضاعة الوقت في التسلية غير المثمرة، إلَّا أنني ما زلت أتمكَّن من الاستمتاع بالتجوال أثناء استكشاف الجوانب المختلفة من الحياة خارج البلاد، كانت زيارتي الأولى إلى سانت موريتز في شتاء 1906-1905، والتي حققت لي فائدة كبيرة، لدرجة أنني قررت قضاء شهر كلَّ شتاء في هذا الجزء الجميل من سويسرا. في كل مرة أعود إليها التقي بعدد من الفرنسيين والإنجليز، أصبح بيننا علاقة صداقة خلال الشتاء الأول. في كل صيف كان يتم تحديد خطط السفر الخاصة بي من. قبل برنامج النشاطات الخاص التحالف الدولي لحق المرأة في التصويت، وبعد أن أُنجِز ما هو مطلوب مني في العمل، أبدأ في رحلة مطوَّلة في تلك الدولة التي تمَّ إرسالي إليها. وفي عام 1909، بعد عامٍ بعيدةً عن أمستردام، عُقد المؤتمر السنوي في لندن، وقد تمَّ ترتيب هذا المؤتمر بشكل أساسي من أجل السماح بمراجعة شاملة لقواعد ولوائح التحالف. لم أشعر بالرغبة في البقاء في إنجلترا، التي زرتها بالفعل في مناسبات عديدة.

بالإضافة إلى أنني لم أتعافَ بعدُ من كل العمل الشاق في السنوات السابقة؛ لهذه الأسباب عقدت العزم على الاستمتاع بعطلة صيفية هادئة وممتدَّة. في النهاية اخترت تاترا لومنيكس في جبال تاترا العالية، والتي كانت في ذلك الوقت منتجعًا غير معروف، يتردَّد عليه النبلاء المجريون بشكل أساسي. لقد وصفت بالفعل استقبالي هناك في الفصل التاسع. على الرغم من أنه قد لا يكون هادئًا، إلا أن عطلتي في جبال تاترا أفادتني بالتأكيد.

عرَّفَتني الكونتيسة بيجاسيفيتش، وهي ناشطة نسوية وناشطة من أجل المطالبة بحق المرأة في التصويت في المجر، على العديد من الشخصيات المهمة في المجر. أتذكر بشكل خاص الكونت زيشي، المعروف أيضًا في هولندا، والذي فقد ذراعه اليمنى في حادث عندما كان في الثالثة عشرة من عمره. غالبًا ما كان الكونت يقرأ لي أجزاء من سيرته الذاتية، وبالتحديد المسودة الأصلية التي لم تُنشر بعد، وكنت مهتمَّةً بشكل خاص بالمشاعر التي عاشها عندما كانت ذراعه مبتورة. رفض استخدام أي شكل من أشكال التخدير العام أو الموضعي، ووصف كل إحساس طوال العملية، وخاصَّةً ردود أفعاله العاطفية بعد العملية. ثم قرَّر إتقان جميع المهارات التي يؤديها الأشخاص عادةً بكلتا يديهم، وكانت إنجازاته مذهلة للغاية. حتى إنه قدَّم أداءً كعازف بيانو بيد واحدة بمهارة كبيرة في الحفلة الموسيقية الخاصة بنا.

أحد الأشخاص المهمين الذين قابلتهم أيضًا كانت البارونة ليبثاي، التي أعارتني حصانها وعربتها لرحلاتي الطويلة. وتعرفت على وزير يعمل بالحكومة المجرية في منزلها، وأخبرني بقصص غريبة

عن المؤامرات السياسية والفساد، وعن سيادة النبلاء في بلد ممتلئ بالرشوة والفساد.

بدأ المؤتمر الطبي العالمي في بودابست أوائل شهر سبتمبر. ودعتني البارونة ليبثاي للإقامة في منزلها الرائع واستخدام عربتها متى احتجت إليها. وأخبَرَت خدمها بتوفير كل سبل الراحة لي، وعندما وصلت محطة القطار في بودابست كانت هناك حافلة في انتظاري من أجل أن تُقِلَّني. وجهَّزَت لي جناحًا كاملًا من الغرف في منزلها الفاخر والرائع لكي أتمكَّن من العمل بهدوء أو استقبال العديد من الأصدقاء الذين قابلتهم أثناء زيارتي السابقة إلى المدينة. شكَّلت هؤلاء النساء مجموعة من الناشطات الشابَّات والمتحمِّسات، واللواتي كرَّسن حياتهن لإقرار حق المرأة في التصويت وتحسين أوضاع المرأة بشكل عام. وعلى الرغم من صغر سِنِّهم كانت هؤلاء الشابات شديدات الثقافة والاطِّلاع.

وسبق لي وأن وصفت المؤتمر الطبي، وكيف رافقت بعد ذلك وفدًا من الأطباء إلى سراييفو. في الليلة الأولى من تلك الرحلة قابلت الدكتورة روزن، زوجة طبيب من فيسبادن، وكانت تسافر بمفردها مثلي. وتقاسمنا عربة النوم، وسرعان ما أصبحنا أصدقاء مقرَّبين، فكان لدينا الكثير من الأشياء المشتركة بيننا. كانت دائمًا لديها خبرة في السفر ولديها العديد من الطرق السهلة للقيام بالرحلات الطويلة بأسهل الطرق.

كانت محطتنا الأولى في سراييفو؛ عاصمة البوسنة، والتي كانت لا تزال تحت حُكم النمسا، وكانت من أغرب المدن التي رأيتها في حياتي، فنصفها شرقي الطابع تمامًا والنصف الآخر غربي، ويتكوَّن السكان

من سبع مجموعات طائفية، وجميعهم يتم تمثيلهم في مجلس المدينة. كنت منبهرة بشكل خاص بالأتراك والأسبان، وتمكَّنتُ هناك من زيارة الحرملك الحقيقي[75].

عندما أخبرت سُلطات المدينة بطلبي، تمَّت دعوتي لزيارة شاب تركي، وكان من أكثر الشخصيات تميزًا في المدينة.

وصلت إلى منزله القبيح نوعًا ما بصحبة صديقتين، واستقبلتنا خادمة قبيحة، وأدخلتنا إلى غرفة، وجدنا صاحب البيت يرحب بنا، كان جالسًا على كرسيٍّ مليئ بالوسائد، وكان مرتديًا الزى التركي مع طربوش وبنطلون فضفاض. ومع ذلك، كان سلوكه مثل الغرب؛ بسبب تربيته في منزل معلم في لايبزيج. أزاح الغليون التركي من فمه عندما دخلنا، وسألنا بلباقة ما إذا كنَّا نفضل التحدث باللغة الألمانية أم الإنجليزية. وقبل بضع سنوات قَدَّم والد هذا الشاب البالغ من العمر أربعة وعشرين عامًا له خمس زوجات. وأخبرنا بفخر أن جميعهن كُنَّ جميلات، ولكن لن يتمكَّنَّ من التحدث إلينا لأنَّهنَّ لا يتحدثن سوى لغتهن الأصلية. ومع ذلك كان الشاب على أتم الاستعداد للعمل كمترجم فوريٍّ لنا. وتحدثنا أوَّلًا مع هذا الزوج السعيد، قبل أن نزور الزوجات الخمس. وسألته كرجل متعلِّم تعليمًا غربيًّا، ألم يجد أنه من غير المقبول أن تعيش المرأة على الأسلوب التركي. فإذا أحببنه فسيشعرن بغيرة شديدة من بعضهن البعض، ومن الممكن أيضًا أنَّهنَّ لم يُحببنه لأن أحدًا لم يطلب رأيهن قبل عقد الزواج، أو توقَّف أحد

75- تشير جاكوبز لـ «الإسبان» أنهم يهود سفرديم. وهم من نسل اليهود الذين طُردوا من إسبانيا عام 1492 وأعيد توطينهم في العديد من مدن وبلدات البحر الأبيض المتوسط وشمال المحيط الأطلسي. كانوا يتحدثون الإسبانية اليهودية. وهي لغة تمزج بين كلمات من الإسبانية والعبرية. «الأتراك» هم مسلمو البوسنة. اعتنقوا الإسلام أثناء الحكم العثماني.

للحظة لكي يتصور مدى مرارة الحدث بأكمله بالنسبة إليهن.

وافق على كل ما قلته، وأخبرني أن كل هذا في النهاية هو العرف التركي؛ بأن أهمية الرجل تقاس بعدد حريمه. وأخبرته أنني في 1890 طلَبَت مني حكومة النمسا العمل كطبيبة في سراييفو، ومن أجل سلامتي رفَضتُ هذا العرض، وإلَّا كنت سأحرِّض النساء التركيات على التَّمرُّد على وضعهن اللا إنساني.

بعد هذه المقدمة دخلنا إلى جناح النساء، وهي غرفة مساحتها حوالي 9 أمتار في عشرة أمتار، بأرضية خشبية، ووُضِعَت خمس مراتب بقماش ملوَّن على الأرضية الخشبية الخَشِنة، وتوجد فتحتان عاليتان مثل الشقوق بشبكة من الحديد المطاوع، وهكذا لن يتمكَّن أحد من الهروب أو الاقتحام، وتقع هذه النوافذ على ارتفاع كبير، بحيث لا تتمكن النساء أيضًا من رؤية ما في الخارج، ويقضين أيامهن ولياليهن معًا في هذه الغرفة، وفي رأيي كان مظهرهن يُرثَى له، وكانت ملابسهم رثَّة للغاية، وأسرعن إلينا هُنَّ الخمس ليتباهين بأطفالهن، وكنا حريصين على عدم تفضيل أيٍّ من هذه المخلوقات الصغيرة على الأخرى. وبعد أن رأينا أجزاء أخرى من هذا البيت المتهالك، عدنا إلى غرفة السيد التي من غير المسموح دخولها من قِبَل أيٍّ من الخمسة زوجات. وقُدِّمَت لنا القهوة التركية، حاولنا التحدث مع هؤلاء النساء، ولكن بمجرد أن بدأ مضيفنا الترجمة، كان من الواضح أنه يغيِّر أسئلتنا، ويؤلِّف ردوده الخاصة. وأثناء هذه الزيارة كنا جالسين على أريكة، وكان الرجل التركي يجلس على كرسي، وتجمَّعَت نساؤه الخمسة على الأرض عند قدميه، على الرغم من وجود كراسي أخرى في الغرفة. ومع ذلك يجب أن أضيف أنني رأيت حرملك مختلفًا للغاية

في القاهرة والقدس.

كنت مهتمَّةً بشكل خاص بالسكان الأسبان في سراييفو. وبالطبع أن هؤلاء النساء لديهن حرية أكثر من نظرائهن الأتراك، فكان يُسمح لهن بالظهور في الأماكن العامة طالما كُنَّ مُغطَّيات بالكامل، من الرأس إلى القدمين، بأردية سوداء كبيرة، بحيث لا يمكن حتى رؤية أيديهن. لكن استعصى عليَّ التواصل معهن بشكل كافٍ؛ لأن الزيارة التي طلبتها لهؤلاء النساء لم تتم الموافقة عليها سوى في يوم مغادرتي للمدينة.

ودَّعت أنا والدكتورة روزن الأطباء في راجوسا (دوبروفينك) لأننا أردنا البقاء للاستمتاع بالمناظر الطبيعية البانورامية والمناخ المعتدل. هذا ليس هو المكان المناسب لوصف الرحلة، على الرغم من أنني يجب أن أحذِّر المسافرين الآخرين من العربات التي نقلتنا من راجوسا إلى مونتينيجرو، ومنها إلى فيومي (رييكا). وحتى خلال رحلاتي التالية إلى الشرق، لم أرَ مثل هذه المناظر البشعة من الأسِرَّة والكراسي والأرائك والمفروشات التي تزحف عليها الحشرات. ومن الواضح أن السكان المحليين وجدوا كل هذا طبيعيًّا. قضينا عدة أسابيع في التجول في هذه المنطقة قبل أن نعود إلى فيسبادن، ومن هناك ذهبنا في طرق مختلفة.

حقَّقَت انتخابات 1909 في هولندا انتصارًا للتيار اليميني، وظلت حكومة هيمسكيرك في الحكم. ومن الواضح أنه لم تكن توجد فرصة لإدخال حق المرأة في الاقتراع عندما كانت تلك المجموعة في السلطة؛ لذلك ركَّزَت الجمعية على تنظيم الحملات وزيادة عضويتنا. وبالرغم من أن لدينا واحدًا وثمانين فرعًا، تضم سبعة آلاف وخمسمائة عضو، كانت اللجنة مقتنعة من أن هذه الأرقام يجب أن تتضاعف إلى ثلاثة

أمثالها أو أربعة أمثالها، قبل أن نكون أقوياء بشكل كافٍ لإقناع الحكومة بإعطاء المرأة الحق في التصويت.

في أواخر عام 1909 كتبت لي السيدة تشابمان كات مرة أخرى عن جولتنا حول العالم. ولكن الآن من الواضح أنها كانت مريضة بشكل خطير، ونصحتها مرارًا وتكرارًا أن تخضع لإجراء عملية جراحية، ولكن رفضت أن تصغي إليَّ. وأحيانًا كنت أشعر أنا أيضًا أنني لست بخير، وأكَّد أطبائي في أمستردام أن شكواي بسبب ضغط العمل، ونصحوني بأخذ استراحة كاملة.

وكتبت لي السيدة كات على الرغم من أنها كانت مريضة جدًّا: «الآن عن نفسك. أتوقَّع إذا كنتِ أمريكية سيطلق على مرضك الانهيار العصبي. فأنا متأكِّدة من أنك قُمتِ بالعمل بشكل مرهق. وأن المشكلة التي تواجهنا جميعًا هي أننا عندما نبالغ في العمل لا نأخذ وقتًا كافيًا للتعافي. إذا كنتِ تريدين الهروب من كل المشاكل، تعالي إلى هنا وسأكون مسرورة حقًّا لاستقبالك في بيتي في أي وقت». ولما كنا في هذه الحالة فبدا واضحًا أنه لم يكن هناك مجال للسفر إلى إفريقيا أو آسيا.

وبعد ذلك بوقت قصير كنت مقيمة في لندن مع السيدة أديلا ستانتون كويت[76]، التي أخبرتني أنها عانت من نفس الأعراض تمامًا قبل بضع سنوات، وأنها تعافت بعد أن أخذت علاجًا في مصحة الدكتور بيرشر- بينر في زيوريخ، الذي كان معروفًا في ذلك الوقت بأنظمته

76- كانت أديلا ستانون كويت عضوًا في مجلس إدارة التحالف الدولي لحقوق المرأة من 1907 حتى 1920. عملت كأمين صندوق. ولدت في المانيا. تزوجت من رائد الاستيطان الأمريكي والمؤلف ستانتون كويت واستقرت معه في إنجلترا.

الغذائية المعقولة، وليس لكونه أحد أنصار فرويد الأكثر تعصُّبًا[77]. لذلك ذهبت إلى المصحة في زوريشيربيرج في يونيو عام 1910، وعلى عكس كل النصائح التي وُجِّهَت لي حول أخذ استراحة كاملة، سرعان ما وجدت نفسي على قدمي من الفجر حتى الغسق، أتسلَّق الجبال، وأقوم بتمارين الجمباز، وأقوم بعمل المساج، واتِّباع نظام غذائي يتكون تقريبًا من الفاكهة الطازجة فقط. فقدتُ الكثير من الوزن، واكتسبت كمية هائلة من الطاقة. ووجَّهت الكثير من الاهتمام أيضًا للحفاظ على السلامة العقلية. وبعد ثلاثة شهور تمكَّنتُ من العودة إلى أمستردام وقد شفيت تمامًا.

وفي الوقت نفسه وجدت السيدة كات أنها لم تعُد قادرة على تجنُّب إجراء الجراحة، وبمجرد أن تعافت، شعرت أنها شخص جديد. والآن نستطيع أخيرًا أن نبدأ في ترتيب رحلتنا حول العالم، على الرغم من أنه يجب أن نحضر أولًا مؤتمر التحالف العالمي لحق المرأة في الاقتراع عام 1911 في ستوكهولم. وكان علينا وضع خطط واضحة لأنه إذا غادرت السيدة كات أمريكا قبل المؤتمر بوقت كبير، فكان عليها ترتيب شؤونها بدقة، لأنها ستكون بعيدة عن المنزل لمدة عامين تقريبًا. وينطبق الأمر نفسه عليَّ؛ لذلك كان علينا أن نضع خططنا للسفر مسبقًا.

وبالطبع غمرتنا تحذيرات أصدقائنا ذوي النوايا الحسنة أنه ليس من الحكمة على الإطلاق أن تسافر امرأتان بمفردهما عبر آسيا

77- أنشأ ماكسيميلبان بيرنر (1867-1939) عيادته الخاصة في زيورخ في عام 1897. وكان كبير الأطباء هناك لمدة اثنين وأربعين عامًا. كان على رأس المروجين بأن تناول الخضروات النيئة أكثر صحية. ويمكن تذكره من خلال الصناديق الموجودة في كل مكان وتحمل اسمه حتى الآن. والمعروضة للبيع في العديد من متاجر الأطعمة الصحية في الولايات المتحدة.

وإفريقيا. أخبرونا أن مسافِرَيْن دون حماية مثلنا سيعرِّضانِ أنفسهما لكل أنواع الخطر.

في هولندا، خلال السنوات القليلة المقبلة، سيقتصر عملنا من أجل الدفاع عن حق المرأة في الاقتراع، وعلى التعليم العام، وأدركت أن مشاركتي الشخصية لم تكن بأي حال أمرًا مهمًّا للسير في تلك الدعوى. يمكنني ترك الجمعية لتدار من قبل لجنة ممتازة تحت قيادة السيدة فان بلان- كلار. كما أنه يمكنني أيضًا تأجير منزلي ووضع أثاث منزلي في المخزن. وبمجرد الانتهاء من كل هذا، وبالنظر إلى أنني استعدت صحتي، كنت مصمِّمةً على المغادرة، وخاصة وأن صديقة أخرى جيدة من أمريكا، السيدة الموقَّرة آنا هوارد شو، كتبت لي لتقول: «إذا لم تتجوَّل السيدة كات معك حول العالم، فلماذا لا نذهب معًا؟ سيكون أمرًا جيدًا لكلٍّ منَّا إذا تمكَّنَّا من نسيان المطالبة بـ«المرأة في التصويت لبعض الوقت». ولكن السيدة كات ذهبت بالفعل، وسأصف رحلتنا في الفصل التالي.

وفي عامي 1909 و1910 لم يكن تشخيص «ضغط العمل» بدون سبب. وبصرف النظر عن جميع الأعمال التي ذكرتها هنا، كتبت أيضًا كتيبًا يحتوي على مخطط لسيرة ذاتية لستِّ نساء استثنائيات عرفتهنَّ، وأصبحنا أصدقاء. واحدة منهنَّ فقط لا تزال على قيد الحياة[78]. أصدرت خطابات سفري وخطابات سفر جريتسن من أمريكا في كتاب، وترجمت وأعدت نشر رائعة الكاتبة أوليف شارينر «المرأة

78- من حياة النساء المتميزات. ظهرت الرسومات الستة في الأصل في المجلة الشهرية لحق المرأة في التصويت. وكان موضوعها إليزابيث كادي ستانتون وفرنس باور كوببي وآنا هوارد شو وكاري تشابمان كات وهيلين لورينج جرينفيل والليدي هنري سومرست. من بين السُتْ. كانت كات فقط لا تزال على قيد الحياة.

والعمل». كل ذلك بالإضافة إلى مقالات عديدة في الصحف والمجلات حول مجموعة متنوعة من الموضوعات! وأودُّ أن أضيف أيضًا أنني في عام 1898 كتبت نصًّا ليصاحب مجلدًا من الرسوم التوضيحية التشريحية بعنوان «المرأة وبنيتها وأعضائها الداخلة»، والذي يجري الآن إعادة طبعه للمرة الخامسة. ألَّفت هذا الكتاب لأن في ذلك الوقت لم يكن هناك شيء باللغة الهولندية للجمهور العادي عن جسم الأنثى، وتحديدًا عن وضع ووظيفة الأعضاء التناسلية. طلب مني العديد من مرضاي مرارًا وتكرارًا المزيد من المعلومات عن هذا الموضوع.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

الفصل الثاني عشر

جولة حول العالم

(التحضيرات للجولة. الإقامة في السويد والنرويج. في جنوب إفريقيا. حول الساحل الشرقي لإفريقيا. زيارة فلسطين وسوريا. في مصر. الفلبينيون. في الصين واليابان. عودتي عبر روسيا)[79].

من الصعب للغاية أن يحضر شخصان لرحلة طويلة عندما يقيم أحدهما في نيويورك والآخر في أمستردام. ما زاد الأمر تعقيدًا أننا لم نتمكن من الاتفاق على أهم الدول التي يجب أن نزورها، ومن أين سنبدأ رحلتنا. على سبيل المثال، أرادت السيدة تشابمان كات زيارة الفلبين، بينما كنت أتوق لاستكشاف جزيرتَيْ جاوه وسومطرة. لقد استغرق الأمر مراسلات طويلة للتباحُث في كل هذا، وتحديد المدة التي سنقضيها في كل بلد. سرعان ما توصَّلنا إلى اتفاق: سأذهب معها إلى الفلبين الأمريكية، وسترافقني إلى جزر الهند الشرقية الهولندية. كما اتَّفقنا أيضًا على المغادرة فورًا بعد مؤتمر التحالف الدولي لحق المرأة في التصويت لعام 1911، الذي سيُعقَد في ستوكهولم، في الفترة من

79- باستثناء افتتاحية هذا الفصل حول كيفية تخطيطها هي وتشابمان كات للرحلة. فهذا الفصل يحتوي على مواد وردت بشكل كامل في كتابها «رسائل السفر». وهي سلسلة من المقالات التي كتَبَتها للصحيفة الهولندية «دي تليجراف» وجُمِعَت في مجلدين يصلان إلى أكثر من سبعمائة صفحة. هذه المجموعة من المقالات لم يتم تلخيصها بشكل منهجي هنا. بدلًا من ذلك. اختارت جاكوبز الإسهاب في تجارب معيَّنة من الرحلة وتخطِّي تجارب أخرى. إنها تكتب بإسهاب عن جنوب إفريقيا. على سبيل المثال. لكنها تركت وقتهم في الهند بالكامل تقريبًا. ولا تمنح سوى مساحة صغيرة جدًّا من الكتابة لإقامتهم في جزر الهند الهولندية. لتحليل رسائل السفر.

12 إلى 17 يونيو. القضية الوحيدة التي لم نتمكن من حلِّها هي ما إذا كان علينا، بعد المؤتمر، المغادرة مباشرة من إنجلترا، أم الإبحار أوَّلًا لنيويورك؛ حتى تتمكَّن السيدة كات من ترتيب بعض شؤونها قبل أن نبدأ رحلتنا.

حدَّدَت السيدة تشابمان كات بالفعل سعر تذكرة السفر حول العالم، بكفاءة أمريكية معهودة، ومدَّة بقائنا في كل بلد، وجميع إيجابيات وسلبيات السفر بهذه الطريقة. وعلى الرغم من أن هذا بعكس الطبيعة المحِبَّة للحرية للمرأة الهولندية، إلا أنني وجدت صعوبة في قبول فكرة وكالة السفر التي ستُحدِّد بالضبط المكانَ الذي سأكون فيه للعام المقبل، وبأي وسيلة سأسافر. أردت أن أترك كل شيء للصُّدفة، وأن أسافر من دولة إلى أخرى كما يحلو لنا.

اتفقنا على تبنِّي أسلوب أقرب لي وأكثر تحرُّرًا من ترتيبات السفر الدقيقة. ولكن لا زال يتعيَّن علينا العمل على أول بلد سوف نزورها. في السنوات القليلة الماضية، كتَبَت لي نساء جنوب إفريقيا مرارًا وتكرارًا أثناء زيارتي لبلدهن للمساعدة في إقناع أخواتهن الناطقين بالهولندية بأهمية حقِّ المرأة في التصويت. تلقت السيدة تشابمان كات طلبًا مماثلًا من النساء الناطقات بالإنجليزية، لكنها لم تكن مستعدَّةً في البداية لقبول هذه الدعوة. اقترحتُ أن أذهب إلى جنوب إفريقيا بمفردي، ثم أعود إلى إنجلترا لنستكمل رحلتنا معًا. كنت قد تواصلت بالفعل مع عدد من نساء جنوب إفريقيا حول هذه الخطة، وفي الوقت نفسه تلقيت رسالة من نيويورك بتاريخ الحادي عشر من مارس 1911. بدأت السيدة تشابمان كات رسالتها بالقول: «عندما تحدثنا لأول مرة عن الذهاب إلى جنوب إفريقيا، قبلتُ بذلك في البداية، لأنني اعتقدت أنكِ تريدين بشدة الذهاب إلى هناك. في تلك الأثناء، أصبحت

مهتمَّة جدًّا بالذهاب إلى هناك بنفسي، لدرجة أنني سأعتبر استبعاد هذا البلد من خطٍّ سير الرحلة خطأً لا يُمكن غفرانه. إن سبب رغبتي الحالي في السفر إلى هناك هو السبب الذي جعلكِ ترغبين في الذهاب أوَّلًا، وهذا هو أنني أعتقد أننا سنكون قادرين على القيام بقدر كبير من الأشياء الجيدة هناك، الآن أتمنى كثيرًا أن أذهب إلى جنوب إفريقيا. إذا وافقتِ على ذلك دعينا نبدأ على الفور في الترتيب للرحلة؛ لأنه من الواضح أنها الدولة الأولى التي يجب أن نزورها».

أخيرًا، اتفقنا على النقطتين الأكثر أهمية: سنزور جنوب إفريقيا ولن نشتري تذاكر سفر حول العالم؛ لذلك سوف تصبح رحلتنا أكثر عفوية. لقد أصبح الأمر الآن ببساطة أن نجد أفضل طريقة للوصول إلى مدينة كيب تاون، ومقدار تكلفة ذلك.

عندما تم ترتيب كل شيء تقريبًا، وجدنا نفسَيْنا محاطَتَيْن بالنصائح والتحذيرات الرهيبة التي انهالت علينا، وزادت مع اقتراب يوم مغادرتنا. بالطبع، لا بُدَّ أن نعاني من أفظع نوبات الحنين إلى الوطن! لكن رفيقتي التي كانت تفكر في كل شيء تعرف علاج هذا أيضًا: كان علينا فقط التأكد من أننا لن نشعر بالحنين إلى الوطن في نفس اليوم، حتى يتمكَّن أحدنا دائمًا من التخفيف عن الآخر. على الرغم من العديد من الاعتراضات الأخرى، في هذه المرحلة لا شيء يمكن أن يثنينا. وقد دعَّم الكثير من الناس خططنا، لأننا بعد كل شيء كنَّا بحاجة إلى رحلة طويلة من الاسترخاء، حتى نتمكن من العودة إلى حملة حق المرأة في التصويت بقوة ونشاط.

كان لا يزال أمامنا المؤتمر الدولي لحق المرأة في الانتخاب في ستوكهولم. السيدة كات وصلت في نهاية أبريل لتتمكن كالعادة من تولي التحضيرات النهائية المهمَّة. وصلت إلى ستوكهولم مع العديد من

الهولنديات في بداية شهر يونيو. بدا الأمر شبه مستحيل أن نناقش مواضيع أخرى غير المؤتمر مع السيدة تشابمان كات، وكنت أعرف من التجربة أنه مع اقتراب الافتتاح، سيكون من المستحيل تقريبًا صرف انتباهها عن المؤتمر. بمجرد أن سئمت أنا وبعض الأصدقاء في ستوكهولم، قررنا زيارة داليكارليا في الأيام التي سبقت المؤتمر. هذه الرحلة مستوحاة من كتب سلمى لاجيرلوف حول الحياة الزراعية[80]. لقد وجدنا أن الرحلة الطويلة من ستوكهولم إلى راتفيك مرهِقةً للغاية، لكننا حقَّقنا متعة كبيرة من المناظر الطبيعية الجميلة والأزياء ومزارع داليكارليا.

حتى عندما انتهى المؤتمر، لم تتمكَّن السيدة تشابمان من المغادرة على الفور. كعادتها دائمًا؛ إذ كان عليها أولًا إعداد تقرير وإكمال الكثير من الأعمال الأخرى. وقدرت أن هذه المهام ستستغرق شهرًا على الأقل، وهو ما حدث بالفعل. كنت أتوقع ذلك ووافقت على زيارة إقليم لابلاند مع أحد رفاقي الهولنديين، وإذا سمح الوقت، فإنني سأزور نورث كيب أيضًا. وصلنا إلى أبيسكو، وجهتنا الأولى، بعد أن أمضينا ليلتين ويومًا واحدًا في قطار سريع. أبيسكو موقع الحديقة الوطنية السويدية. في وسطها فندق سياحي ممتاز. في البداية بدت المنطقة بأكملها وكأنها أرض جدباء يابسة، ولكن كلما طالت مدة بقائنا، أصبحنا أكثر وعيًا بجمالها الطبيعي، والفراشات الرائعة، والطيور النادرة، والحشرات الغريبة، والعديد من النباتات والزهور. ظهرت جبال لابلاند بأشكال رائعة، وفي المساء كان حيوان الرَّنَّة

80- كانت الروائية السويدية سلمى لاجيرلوف (1858-1940) أول امرأة تفوز بجائزة نوبل للأدب (1904). في بداية رسائل السفر. تحكي جاكوبز عن سماعها خطابًا قويًّا في مؤتمر التحالف الدولي لحقوق المرأة عام 1911 في ستوكهولم. في رسالة لاحقة. تصف إقامتها في المستعمرة السويدية الأمريكية المشتركة في القدس. تشيد جاكوبز بوصف لاجيرلوف لها في كتابها «بيت المقدس».

يهبط من التلال في قُطعان كبيرة. حاولنا الاقتراب منها، لكنها كانت خجولة لدرجة أنها فرَّت على الفور. بالطبع، الآن بعد أن مكثنا في لابلاند، أردنا أيضًا مقابلة أناس ألابس، وهم السكان الأصليُّون لتلك المنطقة، لقد عاشوا في أعالي الجبال، وسافرنا ليوم كامل لنصل إلى أقرب مخيماتهم. بسبب وجود خط سكة حديد في طريقنا، كان لدى تلك المجموعة اتصال أكبر بكثير بالحضارة من بعض المجموعات التي سنلتقي بها لاحقًا. كانوا قادرين على شراء العناصر المطلوبة من متجر، بدلًا من الاضطرار إلى صنع كل شيء بأنفسهم من المواد المحلية والأدوات المنزلية. كانوا أيضًا خاضعين للقانون السويدي واضطروا إلى إرسال أطفالهم إلى المدرسة.

بعد أيام قليلة تركنا هذا العالم الغريب وعبرنا الحدود الشمالية التي تفصل السويد والنرويج. كنا نعلم أنه إذا كنَّا محظوظين بمواعيد وصول القوارب، فيمكننا زيارة جزر لوفوتين، والجزء المفضَّل لديَّ من النرويج ونورث كيب. حالفنا الحظ في يوم منقطع النظير، إذ تمكَّنَّا من رؤية الظاهرة المعروفة لشروق الشمس وغروبها في نفس اللحظة. خلال رحلاتنا نحو نورث كيب، كنا نتعامل كثيرًا مع ألابس؛ السكان الأصليين للمنطقة، الذين فقدوا القليل من عاداتهم وتقاليدهم الأصلية.

في طريق العودة إلى ستوكهولم، قضينا يومًا في كيرونا، في ذلك الوقت كانت لا تزال مدينة صغيرة نسبيًّا. محاطة بسلاسل جبلية شاسعة من الجبال الغنية بالحديد. يُستخرج معظم الحديد من المناجم الموجودة في أعماق الأرض، ولكن هذه الجبال العالية توفر أيضًا خام الحديد، الذي يتمُّ استخراجه بواسطة عدد من الشركات الإنجليزية والاسكتلندية. وتحقيقًا لهذه الغاية، فقد وضعوا خطًّا

للسكك الحديدية من كيرونا إلى نارفيك، حيث يمكن شحن المواد الخام. كنت أتمنى أن أكتشف شيئًا عن ظروف العمال هناك، ولكن للأسف لم تُتَح لي تلك الفرصة.

بمجرد عودتنا إلى ستوكهولم، اكتشفت أن السيدة كات قد غادرت قبل أيام قليلة إلى إنجلترا. وجدت هناك رسالة في انتظاري، توضِّح أنها تريد زيارة لندن في أقرب وقت ممكن لتسوية بعض الأمور هناك. على الرغم من أن خططها لم تكن غير مؤكَّدة حتى الآن، إلا أنها كانت تأمل في أن ننتقل من قلعة وولمر إلى ماديرا في 15 يوليو، ثم نلحق بسفينة الساكسون المتجهة نحو كيب تاون بعد أسبوع، حتى نبدأ رحلتنا إلى كيب تاون. نظرًا لأنه لم يتبقَّ لنا شيء في ستوكهولم؛ فقد أخذنا القطار الليلي في ذلك المساء. عدت إلى نايميخن بعد ليلتين ويوم واحد لأتمكَّن من رئاسة الاجتماع الصيفي لجمعية حق المرأة في التصويت، واستطعت أن أودِّع بنفسي جميع أصدقائي.

تغَيَّرَت رغبة رفيقتي الهولندية في السفر، وسألتني عمَّا إذا كان بإمكانها مرافقتي إلى جنوب إفريقيا. لم يكن لديَّ أي اعتراض لأن السيدة كات كانت برفقتها أيضًا صديقة أمريكية شابة. في 11 يوليو، ذهبنا نحن الاثنان إلى لندن ووجدنا السيدة كات ما زالت منغمسةً في الكثير من العمل. وكان من الواضح أنها لن تقوم بالإبحار في 15 يوليو. قرَّرنا أن تذهب السيدتان الهولنديتان إلى ماديرا كما خطَّطنا، ويتقابلا بعد أسبوع مع السيدتين الأمريكيتين، حتى نتمكَّن نحن الأربعة من السفر معًا إلى كيب تاون. لم أندم أبدًا على الثمانية أيام التي قضيتها في ماديرا، فقد تركت لي انطباعًا جيدًا لا يمكن نسيانه.

على الرغم من حقيقة أن الساكسون قد وصلت إلى كيب تاون

في الصباح الباكر، فقد استقبَلَنا حشدٌ من النساء اللاتي جئن لكي يقدِّموا التحية بالنيابة عن العديد من المنظمات النسائية. وسرعان ما أصبح واضحًا أن زيارتنا تعتبر هامة ليس فقط فيما يتعلق بحق المرأة في الاقتراع؛ ولكن أيضًا لأنهم كانوا يريدون مساعدتنا في عدد من القضايا الاجتماعية الأخرى.

طُلب مني على الفور أن أخاطب النساء في كل مدينة في جنوب إفريقيا بشأن مخاطر البِغاء، كان هذا موضوعًا مناسبًا للغاية، لأن العديد من النساء في جنوب إفريقيا أردن فعلًا أن تنشئ الحكومة بيوتًا للدعارة التي لم تكن موجودة فيها حتى هذا الوقت! وكتبت بالفعل قصة موجَزة عن هذا في فصل عن البغاء «الدعارة». وبقينا لمدة أسبوعين في كيب تاون، وألقينا العديد من الخطب في اليوم، وتناقشنا مع جمعيات للنساء، وما زال لدينا قدر كبير من الوقت لزيارة معالم المدينة. وظلت تلاحقني كل أنواع الدعوات.

بعد كيب تاون قرَّرنا زيارة مدينة بورت إليزابيث. غادرت السيدة كات بالقارب مع رفيقتها الأمريكية، وذهبت أنا ورفيقتي بالقطار. اخترت هذا الطريق غير المباشر لأنه أتاح لي الفرصة لزيارة تلك المرأة العظيمة من جنوب إفريقيا، أوليف شراينر، التي كنت أراسلها لبعض الوقتن والتي كنت أعرفها أيضًا من خلال كتبها. بعد رحلة بالقطار استمرَّت لمدة أربعٍ وعشرين ساعة، وصلنا في الصباح الباكر ووجدنا أوليف شراينر في انتظار مقابلتنا. وشعرت كلانا أننا نعرف بعضنا البعض منذ زمن طويل، كما لو كنا صديقتين قديمتين. وكانت أفضل مني بكثير ككاتبة موهوبة، ولكننا شعرنا كأن كلتينا رفيقة روح للأخرى، لأن كل واحدة منَّا كانت قد كرَّست حياتها لتحقيق أهداف سامية. كانت كل كلمة نطقتها تشهد على حبها الكبير للبشرية.

لكنها، على خلافي، لم تكن قبل كل شيء نسوية، بدلًا من ذلك استثمرت كل طاقتها في مساعدة مَن هم في أَمَسِّ الحاجة إلى مساعدتها ودعمها. كانت شخصية محبوبةً لدرجة أنها استطاعت أن تسامح الطبقة الحاكمة على معاملتها للضعفاء والعاجزين من خلال نسب أخطائهم إلى عدم الفهم. كان قلمها هو الوسيلة التي اختارتها لمساعدة المضطهدين، وحاولت باستخدامه تثقيف أكثر أعضاء المجتمع قوة. على الرغم من أن معاصريها لم يقدِّروها، وأن مواطنيها أساؤوا فهمها، واضطهدتها الحكومة الإنجليزية بسبب أفعالها الشجاعة، لا شيء يمكن أن يضعف إيمانها الأساسي بالجنس البشري. كتبت لي ذات مرة «لا تزال البشرية في مهدها، ولكن سيكون هناك عالَم أفضل ذات يوم». بالنسبة لي، كان اليوم الذي قضيناه معًا شاهدًا على تلك المثل العليا التي مثَّلتها السيدة شراينر.

سيكون من غير العادل لأوليف شراينر لو لم نُدرِجها في صفوف النسويات. وعلى الرغم من أن الحركة النسائية لم تكن التزامَها الأساسي، فكان كتابها المرأة والعمل، الذي ترجمته إلى الهولندية، يوضِّح فهمها الواضح والأخلاقي لتلك المشكلات. كتبت لي خطاب لاحقًا لتخبرني أن اليوم الذي قضيناه معًا كان «يومًا مميَّزًا، لن تنساه أبدًا». وبالنسبة لي كان إلهام أن أجد امرأة في ركن بعيد من جنوب إفريقيا، والتي لو كانت تعيش في هولندا لربما كانت أكبرَ عَون وأهم دعم بالنسبة لي.

ربما أخوض في الكثير من التفاصيل هنا فيما يتعلق برحلتنا إلى جنوب إفريقيا، لكنني سأضيف فقط أنني أقمت مع الرئيس السابق ستاين وأسرته، وأنني حضرت اجتماعًا في بلومفونتين كشف الكثير عن ولاية أورانج الحرة ودافع فيه الجنرال هرتزوج عن إبقاء على

اللغتين الإنجليزية واللغة الإفريقية كلغتين رسميتين، وأننا كنا من القليل من المسافرين الذين سافروا عبر روديسيا (زيمبابوي) إلى شلالات فيكتوريا وزامبيزي. تمت دعوتي أنا والسيدة كات لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في مزرعة الجنرال سموتس، الذي كان في ذلك الوقت وزير الشئون الداخلية[81]. ولسوء الحظ، كان الوقت قد نفد منَّا، لكننا استطعنا أن نقضي يومًا كاملًا مع الجنرال وزوجته. وقمنا أيضًا بزيارة الكثير من الأماكن السياحية، وكنا مهتمين بشكل خاص باستكشاف الصناعات المحلية؛ مثل مزارع النعام وسوق ريش النعام في مدينة بورت إليزابيث، وتفحُّص أحوال العمال في مناجم الذهب والماس. وأدركنا أن، مع الاستثناء المحتمل للتنقيب عن الذهب، ستفقد هذه الصناعات الثلاث أهميتها قريبًا إذا أصبحت النساء أقلَّ هوَسًا بتزيين أنفسهنَّ بالماس وريش النعام، إذ لم يَعُد لديهن المال لشراء هذه الحلي.

وشكَّك القليل من الناس أنه مع قيام الحرب العظمى، فإن هذا الاحتمال سوف يصبح في الواقع حقيقة.

وعلى الرغم من أن رحلتنا هذه كان الهدف منها أن تكون راحة من العمل في مجال حق المرأة في التصويت، لم يمُرَّ يوم واحد من خلال الثلاثة أشهر التي قضيناها في جنوب إفريقيا لم نتكلم فيه عن اجتماعٍ ما عن حق المرأة في التصويت، أو عن الحركة النسوية عمومًا، أو عن موضوع يتعلَّق بالبغاء «الدعارة». قضينا أيام فراغنا في السفر بالقطار إلى أماكن بعيدة. وفي كيب تاون شَرُفنا بتلقي خطاب من

81- يمكن للقُرَّاء الراغبين في استكشاف وظائف ومعتقدات ستين وهرتزوغ وسموتس. وكلها مهمة جدًّا في تاريخ جنوب إفريقيا. أن تبدأ بالاطلاع على المقالات التفصيلية عنها في قاموس السيرة الذاتية لجنوب إفريقيا

مدير السكك الحديدية في جنوب إفريقيا، والذي جاء فيه: «سيتم حجز عربة من الدرجة الأولى في منتصف القطار للدكتورة أليتا. هـ. جاكوبز ورفيقتها، أينما سافرتا في جنوب إفريقيا. ويجب معاملتهما بعناية خاصة طوال رحلتهما». وتلقَّت السيدة كات خطابًا مماثِلًا. ساعدنا هذا الخطاب الرسمي كثيرًا خلال رحلاتنا في جنوب إفريقيا.

حضرت نساء من البوير والإنجليز - اللاتي جئن من جميع أنحاء البلاد - اجتماعنا الأخير في ديربان في نهاية شهر أكتوبر. ومن هنا أنشأت السيدة كات تحالُفًا في جنوب إفريقيا من أجل حق المرأة في الاقتراع، والذي انضمَّ بدوره إلى التحالف الدولي لحق المرأة في الاقتراع. ثم غادرنا جنوب إفريقيا راضيتين تمامًا عن نجاح زيارتنا.

وجدنا أنه قد تمَّ تجهيز أربع غرف لنا في سفينة أفونديل كاسل، وهي سفينة شحن كانت تبحر على طول الساحل الشرقي لإفريقيا إلى بورسعيد. كان أصدقاؤنا من البوير قَلِقين على سلامتنا؛ لأنها كانت سفينة قديمة ومتهالكة. ومع ذلك اخترنا تلك السفينة عمدًا لأنها تتوقَّف في كل ميناء لمدة تتراوح بين ساعات قليلة ويومٍ أو يومين؛ ممَّا أتاح لنا الحصول على فكرة عن مدن الموانئ المتنوعة. كانت الرحلة مليئة بالتناقضات، وبعد ثمانية وعشرين يوم - دون أحداث مهمَّة - وصلنا أخيرًا إلى ميناء بورسعيد؛ وجهتنا الأخيرة.

وهنا أدركنا أولًا كم كنَّا محظوظات لأن رحلتنا لم تكن محدَّدة بتذكرة حول العالم. خلال الأسابيع الأربعة التي قضيناها على متن السفينة الصغيرة، لم نسمع شيئًا عن العالم الخارجي، ولم نكن نعلم أن اليوم الذي يلي وصولنا سيأتي ملك وملكة إنجلترا لزيارة بورسعيد في طريقهما إلى الهند للاحتفال بتتويجهما.

وكانت خطتنا أن نغادر بورسعيد على الفور ونذهب إلى القاهرة، وأن نقضي أسبوعين في مصر قبل الذهاب إلى الهند. ولكن عندما سمعنا بالزيارة الملكية أدركنا أننا سنصل إلى الهند في وسط الاحتفالات، وستكون لدينا فرصة ضعيفة لرؤية البلاد في حالتها الطبيعية؛ لذلك قرَّرنا تغيير خط رحلتنا.

عندما وصلنا تلك الليلة إلى فندقنا في بورسعيد اكتشفنا أنه من الممكن قضاء الليل هنا، ولكن علينا أن نغادر في اليوم التالي؛ لأن جميع الغرف قد حُجِزَت منذ وقت طويل بسبب الاحتفالات. كانت هناك سفينة سوف تغادر إلى يافا في الثانية مساء بعد الظهيرة، وكنا متأكدين أنه ما زال من الممكن حجز مكان على تلك السفينة. وبعد منتصف الليل قررنا أخيرًا أن نأخذ تلك السفينة ونتوجه إلى القدس والمنطقة المحيطة بها لمدة عشرة أيام تقريبًا. غادرنا مبكرًا في الصباح التالي لكي نأخذ جوازات سفرنا من نائب القنصل. ثم حصلنا على النقود من خطابات توصية، والتي تضمَّنَت مرة أخرى زيارات إلى مكاتب مختلفة، أماكن محجوزة في السفينة، ووضعنا معظم أمتعتنا مع وكالة توماس كوك للسفر، بعد أن أخذنا كل ما نحتاج إليه لرحلة عشرة أيام. وبالإضافة إلى ذلك، اضطررت أنا والسيدة كات أيضًا إلى حجز أماكن على قارب دي نيدرلاندر الذي كان سيبحر من بورسعيد إلى كولومبو في يناير. وبالطبع كان يجب أن يتم ذلك بسرعة كبيرة حتى نصل في الوقت المناسب للقارب المتجه إلى يافا.

كم كنَّا مسرورين لاحقًا لأننا قرَّرنا الذهاب إلى القدس! وتمكَّنَّا من رؤية كلٍّ من فلسطين وسوريا (التي لم يكن لدينا في الواقع أي خيار سوي زيارتهما) حيث كانت هذه البلاد ما زالت بِكرًا. وحسب ما قيل لي، تمَّ تحديث تلك البلاد بشكل كامل، ولم يعد من الممكن مقارنتها

بحالتها التي كانت عليها قبل الحرب، أو كما قالت السيدة كات «قبل أن يصاب العالم بالجنون».

لم يكن هناك سوى فندق واحد جيد في يافا. في القدس، كان علينا أن نستأجر مسكنًا في مستوطنة أمريكية سويدية، التي وصفتها سلمى لاجيرلوف بشكل رومانسي للغاية. بدا كل الناس في كلٍّ من يافا والقدس مثل الجميلات النائمات في المنزل واستيقظن فجأة بعد ألف عام من النوم، وما زلن يمارسن أعمالهن بملابسهن التقليدية، ووفقًا لعاداتهن التقليدية. الآن لم يتبقَّ شيء من تلك الحقبة سوى الكنائس وبعض الآثار التاريخية المغمورة الأخرى، التي تُبنى حولها مدينة جديدة، تمامًا مثل روما القديمة التي تقع داخل روما الحديثة.

حين شاهدنا كل المعالم السياحية بالقدس قررنا العودة إلى بورسعيد، ولكننا اكتشفنا في حالة من الرعب أنه لا توجد قوارب تبحر من يافا بسبب تفشّي مرض الجدري الذي أودى بحياة شخصين في أسبوع واحد! ونصحنا البعض بالذهاب عبر سوريا إلى بيروت، ومن هناك نأخذ قاربًا لن يتوقف في يافا، ولكن يذهب مباشرة إلى بورسعيد. لذلك، برفقة دليلنا، والكثير من المؤن، تكدَّسنا في عربيتين، كلٌّ منهما يتم سحبها بواسطة ثلاثة خيول، ومزوَّدة بمقاعد خشبية صلبة مثبَّتة على قضبان حديدية. وبعد عدة أيام من ترنُّح السيارة على طول الطرق المتَّسِخة وعبر حقول القش، وصلنا إلى طبرية أخيرًا. وعبرنا بحر الجليل على متن قارب للوصول إلى محطة قطار صغيرة، واستغرق سفرنا إلى دمشق عدة ساعات في قطار متهالك. كل هذا تم تغييره وتطويره الآن.

وبما أن هذا الكتاب ليس المكان المناسب للدخول في الكثير من

التفاصيل، فسوف أذكر فقط الجوانب الأكثر أهمية في رحلتنا اللاحقة. عندما وصلنا إلى بيروت عن طريق دمشق، قرَّرنا أن نأخذ سفينة، وتأكَّدنا أنها لن تتوقف في يافا. ركبنا السفينة التالية، وعندما غادرنا الميناء أدركنا أيَّ نوع من السفن قد ركبنا. كان في السفينة حوالي ألف ومائتا شخص مهاجر، وعدد قليل من ركاب الدرجة الأولى. وتخطَّينا يافا، ولكن حدث شيء آخر أحبط كل جهودنا بألَّا ينتهي بنا الأمر في الحجر الصحي. في الليلة التي سبقت ليلة وصولنا، انهارت امرأة عجوز كانت في طريقها مع أبنائها إلى الولايات المتحدة، وماتت على الفور. ونتيجة لذلك اضطررنا أن نرسو خارج بورسعيد، ولم يُسمَح لأحد بمغادرة السفينة. وسُمِح لنا في النهاية بالذهاب إلى الإسكندرية تحت راية التحذير الصفراء والخضراء. ولكن عندما وصلنا كنا ممنوعين من الاختلاط. وبعد ثلاثة أيام تم إخبارنا «أنه لمن المستحيل إثبات أن المرأة العجوز لم تَمُت بسبب الكوليرا».

وأدَّت هذه المغالطة الطبية لإرسالنا إلى الحجر الصحي في الإسكندرية، وتمَّ احتجازنا كالسجناء لمدة أربعة أيام. وبعد ذلك سُمِح لنا بالمغادرة، ولكن أُجبِرنا على إبلاغ السلطات عن وجهتنا، وعن الفندق الذي ننوي الإقامة فيه. وبعد دفع فواتير باهظة الثمن على السكن في الحجر الصحي، والفحوصات الطبية الإجبارية، والكثير من الخدمات الأخرى التي لم نطلبها، اكتشفنا أن أمتعتنا تمَّ وضع علامة صليب أحمر عليها لتوضِّح لمن يرانا أنه تمَّ خروجنا من الحجر الصحي للتَّوِّ، وأنه ينبغي تجنُّبنا. وطلبنا سيارة لكي نتمكَّن بسرعة من ركوب القطار القادم المتجه إلى القاهرة. ومع ذلك حرص السائق على التأكد من أن تذاكرنا المقطوعة من محطة الإسكندرية تم وضع صليب أحمر عليها حتى تعرف السلطات في القاهرة حالة الزوار الذين تتعامل

معهم. وعندما وصلنا إلى القاهرة في وقت متأخر من ذلك المساء، تمَّ إجبارنا مرة أخرى على الخضوع لفحص طبي، فقرَّرتُ استخدام لقبي الطبي، وطلبتُ التحدث مع كبير الأطباء، وأعطيته بطاقتي، وأكَّدتُ له أنني ورفيقتي نتمتع بصحة جيدة؛ ونتيجة لذلك سمح لنا بالدخول إلى فندقنا دون أي تعامُلات أخرى مع الحكومة المصرية.

كانت إقامتنا في القاهرة هادئة. وفي القاهرة وجدنا أنفسنا نتولى دورنا التوعوي للنساء مرة أخرى. ومع ذلك كانت لدينا فرصة كبيرة للتعرف على حياة النساء التركيات بدلًا من ممارسة أي تأثير لدينا. نتج عن هذه التجربة سلسلة من المعارف الجدد، وأثناء مؤتمر التحالف العالمي لحق المرأة في الاقتراع في روما عام 1923، التقيت بمندوب مصري كنت التقيت به أثناء زيارتي إلى القاهرة[82].

في أوائل عام 1912 ودَّعنا أنا والسيدة كات ورفيقتانا في السفر القاهرة، وركبنا على متن سفينة الملكة جوليانا إلى سيلان (سري لانكا). وكانت احتمالية إدخال حق المرأة في الاقتراع قريبًا في هولندا يفسِّر لماذا، بعد أقل من ثلاثة أيام في عرض البحر، قُدِّمَت إليَّ عريضة موقَّعة من ستة وثلاثين مسافرًا يطلبون مني التحدث في هذا الموضوع. من الممكن أن أكون ناشطة ملتزمة، ولكن يجب أن أعترف أنه هناك في مكان ما في منتصف المحيط الهندي، وفي هذا الجو شديد الحرارة يصعب التفكير في إلقاء المحاضرات، ولكن من المؤسف إضاعة الفرصة، وبعد أن سمح لنا القبطان بذلك لنا تحوَّلَت غرفة

82- ربما كانت هذه هي القائدة النسوية هدى شعراوي. التي كان قد نزعت غطاء وجهها أو حجابها في محطة قطار القاهرة عند عودتها من مؤتمر روما. تُعدُّ تلك لحظة درامية ومهمَّة للحركة النسوية المصرية. الصور في طبعة مارجوت بدران من ذكريات شعراوي متضمِّنة ملحوظة مكتوبة بخط اليد من كاري تشابمان كات «النجاح لنساء مصر الجديدات».

طعام الدرجة الثانية إلى قاعة اجتماعات لهذه المناسبة. وكان جميع ركاب الدرجة الأولى والثانية حاضرين عندما بدأت خطابي في الساعة الرابعة والنصف بعد ظهر ذلك اليوم. كان هناك الكثير من الاهتمام لدرجة أن نقاشنا كان لا يزال في ذروته حين اضطررنا إلى تحويل القاعة مرة أخرى إلى غرفة طعام في السادسة مساءً. في اليوم التالي طُلِب من السيدة كات أن تتحدث أيضًا، وبهذه الطريقة أصبحت قضية حق المرأة في الاقتراع «موضوعَ الساعة»، وكثيرًا ما انجذبنا إلى مناقشات الركاب الآخرين.

ووصلت سفينتنا الجميلة والمريحة أخيرًا إلى كولومبو في 20 يناير. وقضينا عدة أسابيع بها الكثير من المتعة في سيلان، بما في ذلك بعض الأيام في مدينة كاندي الرائعة، وهناك تابعنا مراسلاتنا، ورأينا الحدائق النباتية المحلية، وكنت مبهورةً بشكل خاص بهذه الزيارة لأنني أردت أن أعرف ما إذا كانت هذه الحدائق أكثر روعة من أراضي يلانتين توين في مدينة بويتنزورج (في جزيرة جاوه). وصلنا الساعة السابعة من صباح اليوم إلى بيرادنيا، حيث تقع الحدائق، ووجدنا أنها مهجورة تمامًا، باستثناء طالب شاب عرض علينا أن يكون مرشِدَنا. وعندما كان يرينا أهم النباتات، لفت انتباهنا إلى نخلة طويلة متوَّجة بأزهار كبيرة، وكانت هذه نخلة تابليوت. وأخبرنا أنها تزهر مرة كل مائة عام ثم تموت. وبعد ذلك بقليل أشار إلى شجرة أخرى تدعى الشجرة الملكية «رويال بالم».

لا مزيد من الحديث عن هذه الحدائق الرائعة إلا لأضيف أن ذلك اليوم وضع حدًّا للتفاهم الروحي والمثالي بيني وبين السيدة تشابمان كات. في سيلان، الهند، بورما، سنغافورة، وجزيرة جاوه، رأينا العديد من الأشجار الملكية «رويال بالمز» وفي رأيي أننا رأينا نخلة تابليوت

مظلية في مناسبة أخرى فقط. بعد مرور بعض الوقت بدأت السيدة كات في الخلط بين الاسمين؛ إذ إنها في كل مرة رأينا فيها هذه الأشجار لم أتمكَّن من منع نفسي عن جملة «انظروا، هناك بعض النخيل الملكي»، والتي كانت تردُّ عليها على الفور السيدة كات «أنتِ تقصدين نخلة تابليوت ». تبع ذلك حتمًا جدال بشأن الاختلافات النباتية بين النخيل الملكي ونخل التابليوت. في النهاية بدأت كلتانا في التعب من هذا الجدل، واتَّفقنا على النظر في اتجاهٍ آخر كلما لمحنا هذه الأشجار المثيرة للجدل. حافظنا على اتفاقنا في هذا الأمر حتى وصلنا إلى أراضي يلانتين توين في مدينة بويتنزورج، إذ قام المدير نفسه بجولة معنا. وبوضوح أشار إلى هذه الأشجار بالذات. طلبت منه بجرأة أن يشرح لنا الفرق بين النخلة الملكية ونخل التابليوت، التفت لي بدهشة، لكنه أجاب على سؤالي، وأثبت أنني كنتُ على حقٍّ طوال الوقت. في تلك اللحظة نظرنا أنا والسيدة كات لبعضنا البعض، لكننا لم نقل شيئًا.

هنا سوف أقفز في حكي تلك القصة لمشهد آخر وهو أنني في وقت مبكر من صباح أحد الأيام في مانيلا، استيقظت فوجدت السيدة كات جالسة على سريري وتقرأ لي الأبيات الشعرية التالية:

إلى أليتا

منذ عام مضى، واليوم يا صديقتي العزيزة

بدأنا في رحلة بحرية

حول العالم، قلنا إننا سنذهب

ونسلِّي أنفسنا.

اتفق أصدقاؤنا وخصومنا على حدٍّ سواء

أننا لن نأتي أبدًا

كنا نقاتل ونتشاجر بالتأكيد كالدخان
جنحت صداقاتنا.
قالوا إن سفينة واحدة ستحملك،
وستحملني سفينة أخرى
وهل نلتقي في يوم آخر
لن نتحدث أبدًا، أتري!
ولكن ها نحن ما زلنا معًا
وسأخبر أفضل الأصدقاء
ما كنا عليه حين أبحرنا إلى ساكسون
منذ هذا العام حتى هذا اليوم.
لكني بعد ذلك يا عزيزتي
كنت سأعرف أنها نخلة تابليوت
تلك النخلة التي يسمُّونها الملكية
لنعود لنتراهن مرة أخرى.
إذا كنتِ ستُقرّين بذلك
فمعكِ بحار الصيف
سأبحر حتى يفصلنا الموت
إذا لم يكن كذلك، سأقول وداعًا.

18 يوليو 1911- 18 يوليو 1912

حين أقتبس من هذه القصيدة البسيطة والحساسة، أجد نفسي في حيرة من الكلمات التي تصف حياتنا في هذا الجزء الرائع من العالم، إذ يضم عددًا كبيرًا من البلدان، الناس، العادات، المعالم، والشخصيات. على أي شخص مهتمٍّ باكتشاف المزيد من التفاصيل الرجوع إلى رسائل سفري من إفريقيا وآسيا التي نُشِرَت في كتاب يحمل عنوان «رسائل السفر من إفريقيا لآسيا»، وتغطي هذه الفترة من حياتي بتفصيلٍ أكبر. مع حرصي في توضيح ما هو واضح بالفعل، أودُّ أن أضيف أننا نجحنا دائمًا في الجمع بين العمل والمرح، ولم يشغلنا ذلك عن الهدف الأساسي لتلك الرحلة؛ ألا وهو دراسة الوضع القانوني والاجتماعي للمرأة في كل بلد قمنا بزيارته، والمساعدة في تنظيم هؤلاء النساء متى أمكن ذلك من أجل تحسين ظروف حياتهن.

غالبًا ما نلتقي بأشخاص صدفةً يكونون خيرَ عَونٍ لنا فيما بعد. كان هذا هو الحال خلال رحلتنا من مدينة بوجور إلى مدينة سيندان جلاي الأندونيسية. أخذنا عربة بدائية للغاية، رؤيتنا للمناظر الطبيعية المذهلة جعلتنا نفضِّل أن نقطع أكبر مسافة سيرًا على الأقدام، وأمامنا رأينا عربة مشابهة لعربتنا، بها راكب نزل مثلنا من العربة وسار على قدميه. أقبل نحونا وقدَّم نفسه. كان من السهل تذكُّر اسمه: ديل بان. سرعان ما أدركنا أنه كان شخصًا متعلمًا، راقيًا، مستقلًّا، وكثير السفر على نطاق واسعٍ من البلدان. كان على دراية كبيرة بأمريكا كما كانت السيدة كات، وتحدث معي عن هولندا بإحاطة شديدة، من شأنها أن تكون موضع غيرة من العديد من الهولنديين. وُلِد ديل بان في مدريد، ويعمل حاليًّا كمسؤول حكومي رفيع المستوى. حين التقينا به كان في طريقه للسفر إلى سيندان جلاي؛ إذ كان ينوي البقاء لعدة أيام هناك. بعد زيارتنا لبوجور، وسومطرة، وأجزاء أخرى من

جزر الهند الشرقية الهولندية، وأخيرًا وصلنا إلى مانيلا بعد بضعة أشهر لبدء جولتنا في الفلبين. مقابلتنا مع ديل بان أثبتت لنا أنه مفيد بشكل خاص. لقد بذلت السُّلطات الأمريكية، وحتى الحاكم، قصارى جهدهم لمساعدتنا، ولكن السيد ديل بان نفسه أثبت أنه لا يُقدَّر بثمن كمرشد ممتاز وساحر، قدمنا إلى السكان المحليين، وعرَّفنا على الكثير من عاداتهم وتقاليدهم، لأنه كان مسافرًا جيدًا، ومثلنا؛ لديه هدف محدَّد يسعى إليه، فإنه يعرف بالضبط الأكثر أهمية لنا، فنظَّم خطَّ سير الرحلة وفقًا لهدفنا. لا يزال لديَّ تصريح حكومي رسمي صادر للسيدة كات، ولي، يصرِّح بأننا مُفتِّشو مدرسة، يُسمَح لنا بزيارة أي مدرسة في الجزر والتفتيش عليها. حتى يومنا هذا ما زلت أتلقى التقرير السنوي للحكومة عن المدارس.

عندما غادرت الفلبين، شعرت أن هذا البلد يمكن أن يحقق الكثير باتباع جزيرة جاوه كمثال فيما يتعلق باستغلال الموارد الطبيعية، ولكن أيضًا يمكن أن تتعلم جاوه من الفلبين حول التعليم والنظافة وتنمية البشر.

في اليوم الذي كنا سنغادر فيه مانيلا، زارنا العديد من الأصدقاء الذين تعرَّفنا عليهم خلال إقامتنا التي استمرت ستة أسابيع، والذين جاؤوا ليودِّعونا ويقدموا لنا الهدايا التذكارية. لن يحدث في أي مكان آخر - غير أمريكا، أو في إحدى مستعمراتها - أن يأتي الحاكم وزوجته شخصيًّا لتوديع زائرين غير رسميين.

لقد فوجئنا أكثر بترحيبهم الحار ولفتتهم الودية حين أهدوا كلًّا منَّا صندوقًا من الورود الجديدة، والتي وجدناها في حجراتنا على متن السفينة، وهي لفته طيبة هوَّنت علينا طول الرحلة في البحر.

بعد الفلبين زرنا الصين واليابان. لقد نصحونا بعدم المضي إلى ما وراء ساحل الصين، على الرغم من انتهاء الثورة الثانية، كان من الواضح أن هناك ثورة ثالثة في المستقبل القريب. وتلقينا الكثير من التحذيرات الرهيبة أثناء رحلاتنا لدرجة أننا نميل الآن إلى اعتبارها مبالغات. في الصين تعلَّمنا الكثير والتقينا بالعديد من الأشخاص غير العاديين. بالإضافة إلى ذلك كانت زيارتنا مفيدة بالنسبة للحركة النسوية. حركة النسوية للصينيات كانت تفتقر إلى أي شكل من أشكال التنظيم أو وحدة الهدف، وقد استحوذت عليها الأساليب المتشددة، تمامًا كحركة حق الاقتراع الإنجليزية. عندما سألت هؤلاء النساء لماذا اخترن مثل هذا النهج الراديكالي، فوجئت بسماع ذلك، بدلًا من تقديم التقارير للتعريف بالحركة النسوية في جميع أنحاء العالم، كانت الصحافة الصينية تتحدث فقط عن تكتيكات الحملة الإنجليزية تجاه حق المرأة في الاقتراع، فلا عجب من أنه عندما بدأت النساء الصينيات في المطالبة بحقوقهن، كان أول عمل لهنَّ هو كسر جميع نوافذ مبنى البرلمان.

على الرغم من أن كِلتَيْنا عارضت تلك الطريقة في المطالبة بحق المرأة في الاقتراع، إلا أن هذه الرحلة أثبتت لنا مرة أخرى أن أفعالهن جعلت النساء في جميع أنحاء العالم مدركات لحقوقهنَّ المحرومات منها، والحاجة إلى تنظيم الحملات. حتى في المناطق النائية في إفريقيا وآسيا، كانت تتم مواجهتنا بالتأثيرات السلبية لحركة حق المرأة في الاقتراع، إذ استغلت الصحف بشغف مثل هذه القصص المثيرة، بينما تجاهلت المزيد من الجهود المعتدلة المبذولة لتحقيق الإصلاح. كثيرًا ما أُجبِرنا على الاعتراف مرارًا بأن العمل الراديكالي بالتأكيد يجعل العالم يقف وينتبه. من ناحية أخرى، أثَّرَت زيارتنا أيضًا على نساء الصين

لاعتماد نهج أكثر هدوءًا وأفضل تنظيمًا.

حين وصلنا إلى يوكوهاما، تلقَّت كلٌّ منَّا العديد من الرسائل التي تحثُّنا على العودة إلى الوطن؛ لذا قرَّرنا قطع زيارتنا إلى اليابان وعدم استكمال رحلتنا، كانت الخطة الأساسية أن السيدة كات سترافقني إلى هولندا عبر روسيا، أو نسافر معًا إلى جزيرة هونولولو، ومن ثم إلى سان فرانسيسكو، ثم نعبر أمريكا إلى نيويورك، وبعدها سوف أركب سفينة إلى هولندا. وللأسف أصبحت كلتا الخطَّتين الآن صعبتين. في النهاية قررنا أنني سأعود عبر روسيا إلى هولندا، وستعود السيدة كات إلى الوطن عبر هونولولو. اتفقنا على أن تُعدَّ كلٌّ واحدة منا سجلًّا لرحلاتها وترسلها إلى الأخرى عن تلك الفترة الوجيزة التي انفصلنا فيها أثناء رحلتنا.

كانت النساء اللواتي قابلتهن في اليابان مختلفات تمامًا عن النساء الصينيات. لم تكن أي منهنَّ على استعداد للنضال من أجل حقوقهن بالطريقة التي كانت عليها أخواتهن الصينيات، لكننا التقينا بعدد من المجموعات النسائية، وحاولنا حثَّهنَّ على أن ينظِّمن أنفسهن. في عام 1923 في لاهاي سعدت حين زارني أربع نساء يابانيات طلبن نصيحتي حول تشكيل حركة نسوية في اليابان. لقد أردن بشكل خاص معرفة نوع الحملة التي ستكون أكثر فاعلية من حيث تحقيق هدفهن الرئيسي للمطالبة بحق المرأة في التصويت، وما هي الأهداف الإضافية التي يجب أن يضعنها في الاعتبار.

خلال رحلتنا حول العالم، رأينا عددًا لا يحصى من الأحداث غير العادية والتقينا بالعديد من الأشخاص المميزين. لقد كان لدينا الكثير من التقدير لكل ما تعلمناه خلال تلك الرحلة، ولكن في نهاية رحلتنا كان أقوى شعور يتملَّكنا هو الامتنان لتمكُّننا من أداء مثل هذا العمل

المفيد بين نساء إفريقيا وآسيا.

رأيت السيدة كات في يوكوهاما بينما كانت على وشك البدء في رحلتها إلى هونولولو. ظللت عدة أيام في انتظار القطار الذي سيأخذني من فلاديفوستوك إلى برلين، لأن السكك الحديدية العابرة لسيبيريا كانت تغادر مرة واحدة فقط في الأسبوع. قيل لي إنه لم يتبقَّ لي مقعد جيد في القطار القادم، لكنني سأتمكَّن من إجراء حجز مناسب على القطار الذي يليه. وهذا بالضبط ما تم تنفيذه. قضيت عدة أيام أتجوَّل في اليابان بمفردي، ثم أبحرت لمدة يومين على متن سفينة روسية من تسوروجا إلى فلاديفوستوك، حيث وجدت مقصورة ممتازة لي في منتصف القطار. على الرغم من أنني كنت المرأة الوحيدة على متن السفينة الروسية، إلا أنني لم أتخيل أنه لن تكون هناك راكبات أخريات طوال الرحلة إلى سيبيريا. ربما كان هذا هو السبب في إعطائي مقصورة بمفردي، ولكن على أي حال، كان هناك عدد قليل من المسافرين الآخرين.

عندما وصلنا إلى هاربين بعد ظهر اليوم التالي، كان علينا الانتظار لمدة ساعة تقريبًا لقطار بكين. كان من بين ركابنا الجدد الأمير هاينريش من بروسيا، شقيق القيصر الألماني، وحاشيته الكبيرة التي تضمُّ ممثِّلين عن السكك الحديدية العابرة لسيبيريا، والعديد من الجنرالات الروس وعدد من المسؤولين الآخرين. قدَّم هؤلاء المسافرون على الأقل القليل من المتعة على الرحلة التي لا نهاية لها عبر تلك المناظر الطبيعية القاسية في سيبيريا.

كان هناك عدد قليل من ركاب الدرجة الأولى بخلافي. تناولت وجباتي مرتين في اليوم في غرفة الطعام الفسيحة إلى جانب الوفد المرافق

للأمير هاينريش، بينما كان صاحب السمو الإمبراطوري واثنان من الجنرالات الروس يأكلون في غرفة طعام أصغر. لقد تحدَّثت عدَّة مرات مع هؤلاء السادة عن الحرب والسلام، وعن حقوق المرأة. من حين لآخر كان هناك طَرقٌ على بابي، إذ يُجري ضابط رفيع المستوى محادثةً مع النزلاء المجاورين له في السفينة حول حركة السلام. حدث كل هذا في أواخر تشرين الثاني (نوفمبر) عام 1912. لو عرفت مدى اقترابنا من الحرب لكنَّا تحدثنا بالتأكيد بطريقة يمكن أن تعرِّض حياتي للخطر. في إحدى نقاشاتي مع جنرال ألماني، أصررت بعناد على أنه يستحيل أن تندلع حرب في أي من البلدان المتحضِّرة؛ لأن شعوبها - ببساطة - شديدة التطور. كم كنت مخطئةً!

للأسف، يجب عليَّ الآن إنهاء هذا الفصل؛ لأن نطاق كتابي محدود للغاية بحيث لا يمكنني أن أكتب كل ما اكتشفته أثناء السفر. خلال هذه الرحلة كتبت مقالين في الصحف الأسبوعية تمَّ نشرهما لاحقًا في كتاب. بالإضافة إلى ذلك لم يكن من الممكن دائمًا تدوين ما وجدته مثيرًا لاهتمامي الشخصي؛ إذ كانت السنة الأولى التي أسافر في رحلة لأول مرة منذ وفاة زوجي.

شعرت بسعادة عميقة حين أمضيت كل يوم محاطة بالحب والمعرفة، بصحبة شخص أحترمه وشاركته آرائي. خلال الستة عشر شهرًا التي سافرنا فيها معًا، أدركت أن السيدة تشابمان كات هي واحدة من هؤلاء النساء أصحاب المبادئ القلائل، لو كانت عاشت في الماضي كان من الممكن أن يتمَّ تنصيبها كقدِّيسة.

الفصل الثالث عشر

من عام 1913 حتى 1924

(نظرة عامة على العشر سنوات الأخيرة. موت السيدة هافر. أحداث الاقتراع العام الأول للمرأة والعريضة الوطنية في عام 1913. فترة مُقتَطَعة من الحرب والعمل من أجل حركة السلام. استئناف حملة الانتخاب العام ونتائجها في عام 1915. منح المرأة الحق في الترشح للانتخابات، ثم حق الاقتراع العام في 1919. انتقالي إلى مدينة لاهاي. الاحتفالات بمناسبة الذكرى الخمسين لدخولي الجامعة في 1921. الاقتراع الأول لي. التعافي من مرض خطير. الاحتفال بذكرى ميلادي السبعين. الخاتمة).

وصلت إلى المنزل في منتصف الليل بعد أن سافرت بالقطار لمدةٍ تزيد عن أسبوعين، وفي صباح اليوم التالي وصلت سكرتيرة الجمعية الوطنية للمطالبة بحق المرأة في الانتخاب، وكنت ما زلت في الفِراش لتنقل لي الأخبار السيئة بأن السيدة تي. ب هافر توفِّيَت قبل أيام قليلة، وهي واحدة من أفضل المناضلات لدينا وأكثرهن كفاءة. وسيتم حرق جثمانها في اليوم التالي، وتأمل اللجنة التنفيذية أن أوافق على إلقاء كلمة في جنازتها.

لقد صُدِمتُ بشدة بوفاة السيدة هافر. وبالرغم من أنني كنت أعلم جيدًا أنها كانت مريضة بمرض عضال لا يمكن الشفاء منه، إلا أنه كان لديَّ الأمل أن أراها لمرة أخيرة لأعبِّر لها عن الكثير من الامتنان الذي كنت أحمله للعمل الذي قدَّمَته، ولأطمئنها بأننا سنواصل النضال

من أجل النهوض بأوضاع المرأة. لقد زارتني السيدة هافر ذات مساء قبل فترة قصيرة من سفري في تلك الرحلة حول العالم، وكانت تبدو حزينة حقًّا بسبب قلقها من تباطؤ معدل تقدُّمنا. ماذا يحدث إذا مرض أو مات أهمُّ مناضلينا؟ كان لديها إحساس مسبق عن المرض المميت الذي سرق ببطءٍ الكثيرَ من حيويتها ونشاطها. ولأن قلبي وعقلي قد أسعفاني بالكلمات الملائمة لتلك المناسبة الحزينة، وافَقتُ على التحدث أثناء مراسم حرق جثمانها.

لم تكن وفاة السيدة هافر أمرًا خطيرًا فقط، بل خسارة غير متوقَّعة للحركة النسوية. قرَّرت لجنة وأعضاء الجمعية تأجيل حفل الاستقبال الذي كان سيقام للاحتفال بعودتي، إذ لا يشعر أحدٌ منَّا أنه في مزاج مناسب للاحتفال. وتمت إقامة الحفلة في وقت لاحقٍ، وأقنعني دفء الترحيب أنني ما زلت أحظى بتقدير كبير، على الرغم من غيابي المطوَّل.

كانت حكومة هيمسكيرك لا تزال في السلطة، ومع اقتراب الانتخابات العامة الجديدة، قرَّرَت الأحزاب اليسارية الثلاثة - الاتحاد الديمقراطي الليبرالي، والاتحاد الليبرالي، والليبراليين الأحرار - في يونيو 1913 تشكيل تحالف مناهض للحكومة؛ لأنه في عام 1905 جرت مرة أخرى مناقشة التعديل الدستوري، واقترح التحالف اليساري مراجعة المادة رقم 80 وجميع المواد ذات الصِّلة، بحيث يكون الاقتراع العام للذكور جزءًا من دستورنا، وإزالة كافة المعوقات التي تحول دون إعطاء المرأة حق الاقتراع في المستقبل. لقد احتججت على حزبي لأنني شعرت أنه يجب أن يتمسك بما جاء في بيانه التأسيسي، الذي دعا على وجه الخصوص إلى مراجعة دستورية تمنح حق الاقتراع العام لكل من الرجال والنساء بشكل كامل وفوري.على أية حال، فشلت في جذب أي

دعم، وسرعان ما أدركت أن كل جهودي كان محكومًا عليها بالفشل، ولكن عندما قرأت مشروع القانون الذي اقترحته الأحزاب المسيحية المناهضة للحركة النسوية في السلطة، كنت أعلم أنه - بالنسبة لحق الاقتراع للمرأة - كان من الضروري أن ننضمَّ - نحن النساء - لإسقاط حكومة لم تقدِّم لنا أي شيء على وجه التحديد. وقد كان لدى الوزير هيمسكيرك الجرأة ليعلن في البرلمان أن «النساء في هولندا ببساطة لا يرغبن في التصويت!». كان هذا سببًا كافيًا لدعوة الآلاف من أعضائنا ومؤيدينا للاحتجاج بشدة ضد هذه الحكومة.

أثناء رحلاتي مع رفيقتي الحكيمة السيدة تشابمان، أدركت حينما يكون الإصلاح الاجتماعي هو الهدف، فليس هناك جدوى من محاولة إقناع وزراء الحكومة إذا لم يكن أحدهم قد فاز بأصوات ذلك الجمهور المطالب بالإصلاح؛ لذلك اقترحت على لجنتنا إقامة مظاهرة في لاهاي؛ لنثبت أن عددًا كبيرًا من النساء الهولنديات يرغبن بشدة في أن يكون لهن الحق في التصويت.

وبعد ذلك سيتوجَّه المتظاهرون إلى اجتماع كبير، حيث سيتم إلقاء الخُطب، ليس فقط من قِبَل النساء، بل أيضًا من قِبَل ممثِّلي الأحزاب السياسية المختلفة. وكان رد فعل اللجنة على اقتراحي يشير إلى أنها لم تكن مستعدة بعدُ لاتخاذ أي قرار بالاحتجاج العام. في النهاية اتفقنا على اقتراح وسط، حيث بدت الخطة إلى حدٍّ كبير تعني المطالبة بحق المرأة في الاقتراع، وهي أننا سوف نعقد اجتماعًا في لاهاي. وهؤلاء الحاضرون من جميع أنحاء البلد لهم الحرية في اختيار الانضمام أو عدم الانضمام إلى المسيرة التي ستتحرَّك من محطة القطار إلى القاعة التي سيقام بها الاجتماع.

كان هذا أول احتجاج عام تقوم به جمعيتنا. وفي يوم الأحد 4 مايو

1913 حضر مئات من الأعضاء تلك المظاهرة، ومُنِعنا من السير أمام منزل وزير هيمسكيرك، وتمَّت قيادتنا عبر الشوارع الخلفية المختلفة إلى حدائق الحيوان، حيث كان من المقرر عقد اجتماع المحتجِّين هناك، ولم يصيبني أي قدر من الإحباط بسبب هذا التغيير في المسار؛ لأنه لا فائدة من أن نثبت للوزير هيمسكيرك أن آراءه غير صحيحة، فهو كان على علم برغبة المرأة في التصويت، وكان هدفنا الفوز بالموافقة العامة. وعندما جاء اليوم العظيم، تمكَّن العديد من أعضائنا من التَّغلُّب على تردُّدهم الشخصي، وانضمُّوا إلى المسيرة لنشر مبادئنا في شوارع لاهاي.

ونجح الاجتماع التي تلا المظاهرة نجاحًا كبيرًا أيضًا. وامتلأت القاعة الكبيرة في حدائق الحيوان بالكامل، وأرسلت جميع الأحزاب اليسارية أفضل المتحدثين. تلقَّينا رسائل لدعم قضيتنا من العديد من الجمعيات المهمة والأشخاص البارزين، وحقَّقنا انطلاقة ممتازة، ورغم أننا لن نتمكن من التصويت في الانتخابات التالية، ظللنا نعمل بجدٍّ مثل الأحزاب السياسية، تمامًا كما الأحزاب اليسارية النشطة والمنظمة.

في يوم الانتخابات، في يونيو عام 1913، مثل العديد من الناشطات الأُخريات كنت أحضر مؤتمر التحالف العالمي لحق المرأة في الاقتراع في بودابست، وهنا تلقَّينا أنباء سارة أن حكومة هيمسكيرك أُجبرت على الاستقالة، ولكن تأثَّرَت فرحتنا حين رفض الحزب الاشتراكي الدخول في تحالف مع الأحزاب اليسارية الأخرى من أجل تشكيل حكومة يسارية. أدَّى كل هذا في نهاية المطاف إلى إنشاء حكومة الأقلية بقيادة كورت فان دير ليندن. ولم نكن سعداء بهذا التحوُّل في الأحداث؛ فنحن نعرف بالفعل وجهات نظر رئيس الوزراء؛ لأنه - كوزير في حكومة سابقة - أظهر نفسه كمناهِضٍ لحقوق المرأة، وعارض كل

الجهود المبذولة لمنح المرأة الحق في التصويت. وعلى الرغم من ذلك، كنا مقتنعين بأن هذه الحكومة ستقدم إصلاحات دستورية تتضمن على الأقل المقترحات التي طرحتها الأحزاب الثلاثة في بيانها الانتخابي. ولكن بالطبع لم يكن ذلك كافيًا بحدٍّ ذاته. وأثبتت تجربتنا السابقة في لاهاي أنه يمكن للمرأة أيضًا أن تعترض من خلال التظاهرات العامة، وسرعان ما حاولنا تعميم ذلك المبدأ الخاص بالتظاهر على كل فروع الجمعية في كامل هولندا.

وفي سبتمبر التالي شجَّعَنا خطابُ الملكة، الذي تعرَّض لأول مرة لمسألة حقِّ المرأة في التصويت. وأعلنت الملكة أن الحكومة ستقدِّم مراجعة للدستور، والذي بدوره سيمنح حقَّ التصويت لجميع الرجال فوق سنٍّ مُعيَّن، وإزالة العقبات القانونية أمام إعطاء المرأة الحق في التصويت في المستقبل.

وكانت تلك إشارةً جيدة، ودفعتنا إلى بذل مزيد من الجهد. وأعرب رئيس وزراء كورت فان دير ليندن عن رغبته أن يحكم وفقًا للرأي العام، ولكنه ذكر في وقت سابق أن إدخال حق المرأة في التصويت مثل القفز إلى المجهول؛ لذلك كنَّا بحاجة إلى دحض كلٍّ من هذه الادعاءات بطريقة مباشرة، ولدحض أول ادعاءاته نظَّمنا حملةً للتوقيع على عريضة قومية تطالب المساواة في الدستور بين الرجل والمرأة. وفي خلال بضعة شهور، حصلنا على إجمالي 165 ألف توقيع، وعندما وصلنا لهذا الرقم أجبرتنا الحرب على إنهاء حملة التوقيعات. وفيما يتعلق بالنقطة الثانية لفان دير ليندن، كتبنا إلى حكومات جميع الدول التي مُنح فيها حق المرأة في التصويت من أجل الاستفسار عن كيفية نجاحهم في الممارسة العملية. وبُعث خطابنا إلى البرلمان الأسترالي وجميع الولايات الفردية في أستراليا، وإلى حُكَّام العديد من

الولايات في أمريكا، حيث تمكَّنَت المرأة من التصويت، وإلى حكومتَيْ النرويج وفنلندا أيضًا. وسرعان ما تلقينا الردود التي كنَّا بحاجة إليها، ثم طبعناها وأرسلناها إلى كل عضو في الحكومة وإلى الصحافة.

وفي أغسطس عام 1913، وخلال افتتاح قصر السلام أثناء المؤتمر الدولي للسلام في لاهاي، نظَّمنا سلسلة من الاجتماعات العامة في أمستردام ولاهاي، مع خطابات ألقاها العديد من المندوبين الأجانب. لقد كان لدينا الكثير من الامتنان لهؤلاء المشاركين لأن المؤتمر كان به الكثير من العمل الشاق، وكان كثير من هؤلاء الشخصيات البارزة يشعر بالإعياء جرَّاء مؤتمر السلام. كان معظم الذين قبلوا دعوتنا أصدقاء شخصيين لي. كانوا: الكونتيسة بيرثا فون سوتنر من النمسا، والمونسينور الدكتور إلكسندر جيسوين، الأسقف البابوي لهنجاريا، الدكتور كارل ليندهاجن، عمدة ستوكهولم، السيدة سيوال الرئيسة الأمريكية للمجلس الدولي للمرأة، والسيدة جين ميلين من فرنسا[83].

وبعيدًا عن الحملة الرئيسية اعتمدنا أيضًا أساليب أخرى فعَّالة للغاية، كنا نطلب من العديد من النساء بعد الظهيرة في كل يوم أن يخرجن للشارع يحملن شرائط الاقتراع والأعلام، ويقمن بتوزيع

83- عرفت جاكوبز المتحدثين الأربعة خلال سنوات مشاركتها في المنظمات الدولية. كان الاشتراكي المسيحي والناشط السلمي ساندور جيسوين (1856-1923) ناشطًا في الحوار بين الثقافات. لقد تحدَّث من أجل السلام خلال الحرب العالمية الأولى. وبعد ذلك دافع بشكل خاص عن تعاليم السلام. (جوزيفسون) كارل ليندهاجن (1860-1946) كان عمدة ستوكهولم من 1903 إلى 1930. اشتهر بتشجيعه التنمية في المناطق الريفية شمال السويد؛ لجهوده في جعل جميع الدول الإسكندنافية تُمرِّر قانونًا موحَّدًا لحقوق المرأة. والدعوة إلى جمهورية سويدية. دون ولاء. كان مدافعًا منذ فترة طويلة عن حق المرأة في التصويت. وقد تبنَّى قضية السلام في وقت لاحق من حياته المهنية. وحثَّ سيلوجان مفضل على «سياسات الضمير. وليس سياسات المصلحة فقط».

كانت المناصرة الأمريكية البارزة في حق الاقتراع ماي رايت سيوول (1844 - 1920) رئيسة المجلس الدولي للنساء ICW من عام 1899 إلى عام 1904. وترّأست لجنة السلام والتحكيم التابعة لـ ICW من عام 1904 إلى عام 1914. كقائدة لحزب السلام النسائي. عارَضت بشدَّة مشاركة الولايات المتحدة في الحرب العالمية الأولى لم تحضر الناشطة النسوية الفرنسية والناشطة في مجال السلام جين ميلين مؤتمر لاهاي لعام 1915.

الكتيبات في أحياء الطبقة العاملة والتحدث إلى مجموعات صغيرة من النساء. كما قامت بعض النساء باستئجار الخيام في الأسواق الأسبوعية لبيع التحف الرخيصة وإلقاء خطب عن الاقتراع لعدد من الجمهور الذي يزيد تدريجيًّا من المتسوِّقين. ونتيجة لكل هذا فقد تدفَّقَت علينا العضويات الجديدة كل أسبوع.

وفجأة، توقَّف كل هذا العمل مع اندلاع الحرب في صيف 1914. وبصفتي من الدعاة للسلام الملتزمين، تعاطَفتُ في البداية مع زوجات المحاربين وأمهاتهم الذين تُركوا بلا زوج ولا ابن، كما تعاطَفتُ مع الشباب المجندين في الجيش. وشعرت أنه من واجبي تخفيف تلك المعاناة بكل ما أملك، وهو هدف كرَّستُ كل وقتي له في تلك الفترة. ولكن هل كانت هذه حقًّا أهم مَهمَّة للمرأة في زمن الحرب، وهي المهمة التي يجب أن أشارك فيها أنا أيضًا؟ ومن المؤكَّد أنه منذ زمن قديم اعتُبِرَت المرأة مصدرًا للراحة ودواء للجروح. ولفترة طويلة، تمسَّكتُ بهذا الدور بشكل أساسي، حتى تولَّيتُ منصبًا قياديًّا. لقد جعلتنا الفظائع التي سمعناها وقرأنا عنها كل يوم نبذل المزيد من الجهد. ولكن بعد مرور الوقت بدأت أرى الأشياء من منظور مختلف. وكنت في عذاب مقيم بسبب الرعب المسيطر على الأجواء. ولحسن الحظ، كانت الحكومة الهولندية حكومةً مسالمة، ولكن لو لم يكن الأمر كذلك، فقد تعزَّز عزمها على المشاركة في الحرب من خلال حقيقة أنها يمكن أن تعتمد على دعم المرأة. وكنت أنا شخصيًّا مشارِكةً في عمل خيري، الذي بدلًا من أن يعجِّل بوقف إطلاق النار، كان في الواقع يساعد على إطالة الأعمال العدائية؛ لأن كل ما فعلناه كان لتخفيف عبء الحرب.

أصبحت مقتنعة بشكل كبير أن نحن النساء لدينا مَهمَّة أسمى لنحققها. وكان من واجبنا الاحتجاج على التدمير الطائش لكنوز الفن،

وتَفكُّك الأُسر، والتضحية الوحشية بأرواح الشباب. وكان من واجبنا أن نعارض جنون الحرب. وبمجرد وصولي إلى ذلك الاستنتاج، بذلت قصارى جهدي للتأكيد على أن احتجاجات النساء ستُسمع. وكان المؤتمر الذي عُقِد في لاهاي في أبريل عام 1915 تعبيرًا مباشرًا عن تلك الروح. ويصف الفصل الثامن هذا المؤتمر بمزيد من التفاصيل، وكذلك رحلتي التي قمت بها مع الآنسة جين آدمز من شيكاغو للاتصال بالحكومات المختلفة، ورحلتي إلى أمريكا الشمالية، التي تُوِّجَت بمقابلة مع الرئيس الأمريكي ويدرو ويلسون.

في تلك الأثناء قررت أن أحتفظ بنضالي الأساسي الذي كنت أشتغل عليه قبل بداية الحرب، والذي في ذلك الوقت لم يبدُ أنه يتعارض مع معتقداتي السلمية. كما ذكرت في نهاية الفصل الثامن، كان عملي يتألف من مساعدة النساء والفتيات الأجنبيات اللواتي وجدن أنفسهن محاصَرات في هولندا، أريد أن أعود إلى هذا الموضوع لأنه يحتوي على بعض الحالات غير العادية. على سبيل المثال. في أحد الأيام ظهرت فتاة ترتدي ملابس سوداء اللون على عتبة بابي وهي تمسك بخطاب. كانت تتحدث الفرنسية بلكنة ثقيلة، لدرجة أنه كان من المستحيل فهمها. رسالة من امرأة من لندن سمعت بي من خلال الحركة النسوية وعرفت أيضًا العديد من معارفي في لندن. جاءت هذه المرأة السوداء من لندن، وكانت تسافر إلى كولونيا، حيث كان لديها أصدقاء وعائلة. لقد جاءت في الأصل من مدغشقر، وطلبت مني في رسالتها أن أساعدها في الوصول إلى ألمانيا. ثبت أن هذا الأمر صعب للغاية، لكن بعد أسبوعين تمكَّنتُ من نقلها عبر الحدود، حيث كان من المقرَّر أن يقابلها شخص تعرفه. على الرغم من وعودها، لم تكتب لي مطلقًا لإبلاغي بوصولها الآمن. بعد أربع سنوات، اندهشت لتلقِّي رسالة من

كولونيا من نفس الشابة التي تحمل الاسم الرائع «رازانمانجا» من مدغشقر. بلغة ألمانية غير لَبِقة ولكنها كافية، ذكَّرَتني كيف ساعدتها في الوصول إلى ألمانيا. في غضون أسابيع قليلة، كانت ستصل إلى هولندا، وكانت تطلب مساعدتي مرة أخرى من أجل الوصول إمَّا إلى إنجلترا أو فرنسا، والعودة إلى وطنها. اتصلت بي أيضًا عضوات من الطبقة الأرستقراطية الإنجليزية والألمانية، والذين انقطعت بهم السبل ولا يملكون أموالًا أو جوازات السفر، ويحتاجون إلى يد المساعدة.

كان عام 1915 مخصَّصًا بالكامل تقريبًا لقضية السلام، ولكن بطريقة ما لا زلنا نجد الوقت لمواصلة حملتنا حول حق المرأة في الاقتراع. لقد تمَّ إعداد مشروع قانون الإصلاح الدستوري، وسيُناقَش قريبًا في البرلمان. في أوائل عام 1916 تضمَّنَت خطط جمعيتنا تنظيمَ مظاهرات واسعة النطاق في أمستردام ولاهاي لإشراك الناخبين في قضيتنا. كانت المشكلة الرئيسية هي تزامن الحرب مع قضيتنا، فلم تكن السلطات تسمح بالمظاهرات أو التجمعات في أوقات الحرب. ولكن عندما تضع النساء أنظارهن على هدف معيَّن، عادة ما ينجحن في تحقيقه. لم تقدم أمستردام أي اعتراض، حيث قرَّر قائد الشرطة على الفور تجاوز جميع التصريحات حتى يتسنَّى لنا تنظيم المظاهرة الأولى هناك في 16 يونيو، والتي لم تشمل فقط أعضاءنا، بل العديد من الأفراد من الجمعيات الأخرى التي تمثِّل مجموعة واسعة من المصالح. لمدة ساعتين ونصف ساروا في أكثر المناطق كثافة سكانية، واستُقبِلوا بحماس كبير. حقَّقَت تلك المظاهرة نجاحًا باهرًا.

ولكن في لاهاي كان هناك معاملة مختلفة تمامًا، فقد كان رئيس البلدية مصمِّمًا على عدم السماح بأي مظاهرات في وقت الحرب، بما في ذلك مسيرتنا السلمية. وما أن سمعت ذلك، سافرت من أمستردام إلى

لاهاي، حيث ذهبت أنا والسيدة كيرر- ستيوارت، رئيسة الفرع المحلي، للتحدث مع مفوض الشرطة. وتهرَّب بشدَّة من القضية بإحالتنا إلى رئيس البلدية بصفته رئيس الشرطة؛ لذلك، بعد ثلاثين دقيقة، وجدنا أنفسنا جالسين في مكتب رئيس البلدية. وحاول أن يفسِّر لماذا قرر عدم السماح بأي مظاهرات في المدينة طوال فترة الحرب. وعلى الرغم من أننا عارضنا كل حججه، رفض أن يغيِّر رأيه. ثم أشرت إلى أن هذا الحدث مهمٌّ لحملتنا لأنه يوجد قرار على وشك أن يُتَّخذ في البرلمان، والذي سيؤثر تأثيرًا كبيرًا على مصالح المرأة الهولندية. وكانت خطتنا ببساطة هي تنظيم اجتماع في حدائق الحيوان، إذ سيتم تقديم اقتراح بشكل جماعي إلى رئيس البرلمان الهولندي. وإذا كان رئيس البلدية، كرئيس للشرطة، على استعداد لضمان أننا سنقوم بمسيرتنا بحرية؛ سأكون على استعداد لتحمُّل المسؤولية الشخصية عن عواقب أفعالنا.

قام رئيس البلدية بعدها باستدعاء مفوض الشرطة، ووافق، بشرط أن أضمن من جانبي بقاء المظاهرة منظَّمة طوال الوقت، وأن تضمن الشرطة، من جانبها، عدم السماح بحدوث أي أعمال غير لائقة. جرت هذه المظاهرة الثانية في 18 أكتوبر عام 1916 دون وقوع أي حوادث. وطلبنا من رئيس البرلمان الهولندي أن يلتقي بنا في ذلك اليوم حتى نتمكَّن من تقديم اقتراحنا له. وحضرنا إلى مبنى البرلمان في الوقت المحدَّد، الوقت الذي عادة يكون فيه البرلمان يعمل بكل طاقته، واندهشنا حينما لم نجد غير عضو واحد فقط. هرب الآخرون من خلال الباب الخلفي. بالتأكيد الشجاعة هي صفة ذكورية!

ومنذ ذلك اليوم وحتى نهاية المناقشات المتعلقة بحق التصويت، ظلَّت النساء يقفن خارج مبني البرلمان حتى يتمَّ تذكير الأعضاء دائمًا بحقيقة أن النساء يطالبن بالحق في التصويت. رغم ذلك، لم نُمنَح

في البداية حق الاقتراع المباشر، رغم أنه سُمح لنا بالترشُّح للمناصب، وهو حلٌّ أُثبت أنه فريد من نوعه بين الحكومات الدستورية. وأجريت انتخابات عام 1918 على أساس الدستور المعدَّل، الذي تضمَّن الاقتراع العام للرجال، وكذلك أهلية المرأة للترشُّح وتولِّي المناصب. وضمت العديد من الأحزاب السياسية مرشَّحات، وكان الحزب الديمقراطي الليبرالي هو الذي رشَّحني. ولكن تمكَّنَت كل الأحزاب بطريقة ما من تجنُّب انتخاب المرأة. ولكن المرأة الآن لديها الفرصة لمخاطبة الجماهير العريضة من الناخبين ولفت الانتباه إلى أحكام الدستور الجديدة الحمقاء. ونجح الاشتراكيون الديمقراطيون فقط في انتخاب امرأة، وهي ظاهرة حدثت في جميع البلدان التي تمَّ منح فيها حق المرأة للاقتراع وأهليتها لشغل المناصب للمرة الأولى[84].

ولم يثبِّط كلٌّ هذا من عزيمتنا، بل على العكس، لقد جعلنا ندرك أن معظم الجمهور الآن يؤيد قضيتنا، وأن النصر أصبح قريبًا. وبحلول نوفمبر عام 1918، كانت روح الثورة تسيطر على كل البلدان تقريبًا، ولا تُستَثنى هولندا. وفي حالة من الذعر سألت الحكومة عن مطالب الثوار، والتي تمَّ التعبير عن اثنين منها بدقَّة: العمل لمدة ثماني ساعات، ومنح المرأة الحق في التصويت. ووعَدَت الحكومة الرجعية، المكوَّنة من الأحزاب المسيحية، بتلبية كلا المطلبين. وقدم قائد حزب الديمقراطيين الليبراليين، السيد مارشانت، مشروع قانون في بداية الدورة البرلمانية في سبتمبر، والذي يضمن أن تصبح المرأة مساوية للرجل في السياسة. وتمَّ إصدار هذا المشروع من الأغلبية العظمى، وحصل على موافقة ملكية في 18 سبتمبر عام 1919.

84- كانت المرأة الأولى والممثلة الديمقراطية الاجتماعية التي تمَّ انتخابها في عام 1918 هي سوزي جرونيفيج.

على الفور غمرتني رسائل التهنئة والزهور القادمة من جميع أنحاء البلاد، ونُظِّمَت الحفلة الكبيرة في مسرح كونسيرت خيباو في أمستردام، والتي تقام على شرفي في المقام الأول. ومن بين العديد من الهدايا التي حصلت عليها كانت هناك نسخة من شعار حق المرأة في الاقتراع مصنوع من الذهب بواسطة فنان، وما زلت أعتز به وأرتديه كل يوم تقريبًا. وتلقيت أيضًا العديد من الرسائل والبرقيات من الخارج. ولكن يجب أن أضيف على الفور أن لم يكن أيٌّ من هذا ممكنًا دون مساعدة الكثيرين من مؤيدينا الممتازين. ولن أذكر الأسماء؛ خوفًا من نسيان الكثير منهم، ولكن يجب أن استثني شخصًا واحدًا فقط. السيدة كلارا مولدر فان دي جراف دي بروين، وهي كاثوليكية متشدِّدة، وواحدة من أكثر قادة حملتنا اجتهادًا[85]. وقامت في كثير من الأحيان بزيارة المقاطعات الجنوبية لكي تدافع عن حق المرأة في الاقتراع من وجهة النظر الكاثوليكية، على الرغم من معارضة الكهنة والمتعصبين المحليين.

كيف أشعر الآن بعد أن تحقَّقَت أخيرًا رغبتي الشديدة في الاقتراع؟ سأجيب بتذكُّر الأيام التي قضيتها في مانيلا مع السيدة تشابمان كات. كانت تطلُّ غرفة فندقنا على منزل صغير، والذي كان بمثابة مكتب. وكان يقع في حديقة حيث توجد شجرة عليها قرد كبير، الهدف الوحيد منه في الحياة هو تسلية المسؤولين المحليين. وكان هذا الحيوان ينزل من حين لآخر إلى الأرض، ويُجبَر على البقاء قرب شجرة، بسبب السلسلة التي تربطه بشدَّة بجذع الشجرة. وكان يزعجني ذلك كلما نظرت من النافذة، لأنني أود أن أساعد هذا المخلوق المسكين

85- أول عضو كاثوليكي في VVVk كانت كلارا أ. م. مولدر فان دي جراف دي بروين (1865-1945). عملت أيضا لمدة ست عشرة سنة في مجلس إدارة القسم الهولندي من العصبة النسوية العالمية للحرية والسلام

على الهرب. وذات يوم أشرت إلى الحيوان للسيدة كات. ونظرت إليَّ بعينيها الزرقاء الجميلتين وقالت: «ذلك القرد يشبهنا تمامًا. ألسنا مقيَّدين بشجرة حق الاقتراع؟ متى سيُطلَق سراحنا؟»، ويمكنني أن أصف سعادتي الأولية بمنح المرأة الحقَّ في الاقتراع على أنها شعور بالتَّحرُّر. لقد تحرَّرتُ أخيرًا من شجرة الاقتراع التي كنتُ مُقيَّدة بها سنوات عديدة.

ولكنني سرعان ما بدأت أتساءل عمَّا سأفعله بعد ذلك. كان أول عمل قمت به هو الانتقال من أمستردام إلى لاهاي، وتمنَّيت أن أستريح من عناء العمل في جمعية حق المرأة في الاقتراع، وأن أكون قادرة على تكريس نفسي للعديد من الأعمال التي كنت أرغب في القيام بها، ولكن لم يكن لديَّ الوقت الكافي أبدًا. وأردت أيضًا أن أغادر أمستردام؛ لأن الكثير من أعزِّ أصدقائي إمَّا ماتوا أو انتقلوا خارج أمستردام. وكنت أعلم أنني لا بُدَّ أن أكوِّن العديد من الأصدقاء الجدد في لاهاي. وكل شيء سار وفقًا للخطة، باستثناء حصولي على حياة هادئة بالطبع، فحتى قبل أن أفرغ حقائبي في لاهاي، وجدت نفسي مُرغَمةً على الذهاب إلى زيورخ للمساعدة في تنظيم مؤتمر للسلام. وسبق لي أن قمت بتغطية هذا الحدث، ورحلتنا التي استغرقت خمسة أيام من لاهاي إلى زيورخ، في الفصل الثامن، وكذلك رحلتي إلى ألمانيا مباشرةً بعد ذلك، والعمل السلمي الآخر الذي جعلني مشغولة مثل عملي السابق في مجال حق المرأة في الانتخاب.

وعلى الرغم من أن الحياة في لاهاي لم تكن مريحة كما ينبغي، إلا أنني أعلم أن هذه هي الطريقة التي أردت أن تكون عليها.

ووجدت العديد من الأصدقاء الأعزَّاء والمخلصين من بين عائلة

برويز فان جروينو. وكنت أشعر أنني مرتبطة بهم بشكل كبير، بما في ذلك العديد من الأولاد والأحفاد، أكثر ممَّا أشعر به مع العديد من أقربائي. أحد هؤلاء الأحفاد هو ابني بالمعمودية؛ لذا الآن أشعر وكأنني جدَّة حقيقية. وبالإضافة إلى ذلك، بما أن كلارا مولدر فان دي جراف انتقلت أيضًا إلى هذا الحي بعد فترة قصيرة من وصولي إلى لاهاي، وهكذا يمكنني الاسترخاء لمعرفة أنني لن أكون امرأة عجوزًا وحيدة.

ومنذ عام 1919 كرَّستُ نفسي للعمل من أجل السلام، وإذا سمح الوقت، لمجالات معيَّنة من الحركة النسوية، التي اتَّسع نطاقها الآن. وعلى الصعيدين القومي والعالمي، كنت مشغولة بشكل خاص بقضية مسألة جنسية المرأة المتزوجة، والتي اكتسبت مكانة بارزة مرة أخرى. وكان هناك مصدر آخر للقلق، على الرغم من أن هذا لا يزال خارج نطاق عمل الحركة النسوية، وهو تنظيم الأسرة. وعلى مدى السنوات القليلة الماضية، أصبح تنظيم الأسرة موضوعًا مهمًّا في أمريكا وإنجلترا والدول الإسكندنافية، وكثيرًا ما يناقشها الاقتصاديون والأطباء، وأثارت أيضًا الكثير من الاهتمام العام. وفي الواقع، أصبح الرد على جميع الخطابات التي أتلقَّاها بشأن هذا الموضوع مَهمَّة كبرى. وكثيرًا ما كان يزورني خبراء من البلاد المذكورة في الأعلى، والذين يطلبون مشورتي بانتظام. والآن في ربيع عام 1924، أستعدُّ للذهاب إلى الولايات المتحدة، ووجدت وابلًا من الطلبات لأخذ موعد ومعرفة عنواني في أمريكا لتسهيل الاتصال بي في المستقبل.

وفي عام 1921، كما سبق أن ذكَرتُ، شاركت في مؤتمر السلام في فيينا. وكان ذلك العام له أهمية خاصة بالنسبة لي، لأنه يصادف الذكرى الخمسين لالتحاقي بالجامعة. وقرَّر أصدقائي في لاهاي تنظيم يوم للاحتفال بتلك الذكري. ولذلك السبب سأكون ممتنَّةً لهم

إلى الأبد. وكان يومًا مليئًا بالأزهار والمودَّة. وكان أفضل شيء بالنسبة لي عندما جاء موكب من الفتيات، يمثِّلن الجامعات السِّتَّ في هولندا، جاءت هؤلاء الفتيات للتعبير عن امتنانهن ولإحياء ذكرى اللحظة التي فتحت فيها الجامعات الهولندية أبوابها للنساء لأول مرة على مضض. كان هذا التجديد بسبب فتاة واحدة، والآن، بعد ذلك، جاءت هؤلاء الطالبات لشُكرها شخصيًّا. وأعتز بشكل خاصة بهديتهن، وهي ساعة بسوار. ولم تفارقني تلك الساعة قطُّ في أي لحظة، فهي لم تكن فقط ساعة دقيقة، بل كانت بالنسبة لي دليلًا ملموسًا على أن الفتيات الصغيرات أصبحن الآن يحصلن على تعليم أفضل، وأكثر قدرة على الحياة بحرية، وأنجزن أكثر ممَّا كنت أحلم به في شبابي.

يبدو أن السنوات القليلة الماضية كانت احتفالًا طويلًا. ويجب أن أعترف أن كل هذه المشاعر من الدفء، والصداقة، والثناء، عوَّضَتني عن الإساءات التي تعرَّضت لها في كثير ممَّا مضى من العديد من أبناء وطني.

وفي عام 1922 وجدت نفسي مرة أخرى مركزًا للاهتمام أثناء أول انتخابات عامة تمكَّنَت المرأة فيها من ممارسة حقها في التصويت. ونظرًا لأنني كنت تعافيتُ للتَّوِّ من مرض خطير، بدا أنه من غير المرجَّح الذهاب إلى الانتخابات بنفسي لأنني لست بصحَّة جيدة. كنت لا أزال طريحةَ الفراش حتى قبل ذلك اليوم العظيم بوقت قصير. ولكن أصدقائي في لاهاي فعلوا كل ما وسعهم ليمكِّنوني من الإدلاء بذلك التصويت الأول الثمين. وبالزهور التي قدَّمتها الناخبات الممتنَّات، وضعت صوتي الأول في الصندوق بحرصٍ، وجاء مسؤول الاقتراع ليصافحني وينقل لي أطيب أمنياته. وفي ذلك اليوم، غمرتني خطابات التهنئة والبرقيات من جميع أنحاء البلد، أرسلتها النساء اللاتي أدلين

بصوتهن للتَّوِّ لأول بمرة. وأكثر من أي شيء آخر، تأثَّرتُ بشكل خاص بخطاب من مجموعة من النساء المسيحيات اللاتي اعترفن أنهن عارضن دائمًا حق المرأة في التصويت. ولكن أدركن بعد أن حصلن على حق التصويت الآن أنهن أصبحن في وضع أفضل بكثير لإنجاز واجبهن المسيحي تجاه المجتمع.

في عام 1923 حضرتُ مؤتمر التحالف العالمي لحق المرأة في الاقتراع في روما[86]. ومن هناك سافرت إلى باريس، وبالكاد عدت إلى الوطن، قبل أن أنطلق مرة أخرى لعدة اجتماعات عالمية في دريسدن وبرلين. وهناك تأثرت بشدة بالظروف السيئة التي اضطرَّ معظم الشعب الألماني للعيش فيها. ربما هذا هو السبب الذي جعلني أتحمَّل أكثر ممَّا أستطيع تحمُّله. مهما كان السبب، عندما ذهبت للبقاء مع عائلة مانوس بعد فترة قصيرة من عودتي إلى أمستردام، مرضت فجأة. كنت مدركة لأعراض هذا المرض منذ فترة من الوقت، ولكن الآن اضطررت إلى البقاء في السرير أسابيعَ متواصلة. في البداية ظننت أنني لن أتعافى أبدًا، على الرغم من أن طبيبي، الذي عانى معي كثيرًا، الدكتور و.ج. فينهاوجن، أكَّد لي عكس ذلك. وبسبب صبره، وإصراره تعافَيتُ وتمكَّنت من الاحتفال بعيد ميلادي السبعين.

وأثناء مرضي وفترة الشفاء التي تبعته، بدأت الآنسة روزا مانوس

86- أثناء مؤتمر روما، كان موسوليني قد وصل بالفعل إلى السلطة.

وأصدقائي الآخرون في التحضير للاحتفال بعيد ميلادي السبعين[87]. وتم تنظيم الحفل من قِبَل لجنة كبيرة، مع لجنة فرعية تنفيذية تتكوَّن من روزا مانوس، والسيدة ف. و. فان فولفتن بالث برويز فان جرونو، والسيدة هـ. فان بيما هيمانز، والسيدة ك. مولدر فان دي جراف دي بروين، والسيدة ب. فان دين بيرج ويلينج، و«ك.س.جروت». وحرصوا على إطلاع الجميع، سواء في الداخل أو الخارج، على حقيقة أنني سأحتفل بعيد ميلادي السبعين في 9 فبراير عام 1924. وجعلني ذلك اليوم أدرك كم كان أصدقائي من كل أنحاء العالم يقدِّرونني، حتى بعض الذين كانوا خصومًا لي من قبل!

بدأ ذلك اليوم العظيم بالكثير من الخطابات والهدايا التي جُلِبَت إلى منزلي. وكان هناك الكثير من الأزهار الرائعة ذات الرائحة الطيبة. وصلت اللجنة في الساعة الحادية عشرة صباحًا، لتهديني هدية عظيمة القيمة. وأخبروني ببرنامج اليومي الذي خُطِّط له بعناية ليتضمَّن قسطًا وافيًا من الراحة، لأنني كنت لا أزال أتعافى من مرضي.

ولوصف أحداث تلك الظهيرة الرائعة والعظيمة، لا أستطيع إلا أن أقتبس كلمات تلك المراسلة الممتازة، الآنسة إيمي. ج. بيلينفانتي، التي ظهرت في عددين متتاليين من جريدة «دي نيوي كورانت».

87- المجال لا يتَّسع للتعليق على عشرات الأشخاص الذين تمَّت تسميتهم كمشاركين في هذه الاحتفالية. إلا أنني أقول إنها تمثِّل طيفًا واسعًا. ولكن ليس شاملًا. لكل المنظمات الهولندية التي عملت على حقوق النساء في تلك الفترة. ومن المفارقات أن إحدى المنظمات التي لم يتم تمثيلها بشكل واضح. وكانت المنظمة الهولندية للنساء خريجات الجامعات. التي كانت في ذلك الوقت لا تزال ضد أفكار جاكوبز عن تنظيم الأسرة وموانع الحمل. لكن في غضون عامين فقط بعد ذلك التاريخ سوف تتغير قيادة المؤسسة وسوف تقوم بتكريم جاكوبز لاحقًا.

«عيد ميلاد الدكتور جاكوبز السبعين»

حفل الاستقبال

كانت هناك الكثير من الإشادات والإطراءات في عيد ميلاد الدكتورة أليتا جاكوبز، وهي الناشطة الرائدة في المطالبة بحقوق المرأة، ومن بين الباقات العديدة التي حوَّلت الفناء فعليًّا إلى بحر من الزهور، كان هناك لوحة مهداة من الدكتورة سيمنز؛ صورة مُزيَّنة بأغصان من أزهار الأوركيد الجميلة تظهر المنزل في سابامير حيث وُلِدَت الدكتورة جاكوبز. كما احتفلت رابطة ضباط الصف بهذه المناسبة بترتيب الزهور. كانت هناك موسيقى بيانو، بينما كانت الدكتورة جاكوبز تدخل إلى القاعة حيث ينثر الفتيات الصغيرات الأزهار في طريقها.

سيكون من المستحيل أن أكتب عن جميع الكلمات التي ألقاها الحضور بالتفصيل، لكن الجو العام لتلك الكلمات كان يدل على الامتنان الكبير الذي يُكِنُّه الجميع لإنجازات الدكتورة جاكوبز: إنجازتها للنساء بوصفها رائدة نسوية؛ وإنجازاتها العالمية من خلال عملها؛ وإنجازتها من أجل إحلال السلام بوصفها ناشطة في هذا المجال وواحدة من دعاة السلام؛ وإنجازاتها الأخلاقية من خلال حملتها ضد المعايير المزدوجة (للرجال والنساء)؛ وإنجازاتها للطالبات في الجامعات كونها أول طالبة؛ ودعمها لربَّات البيوت من خلال تجربتها الخاصة كربة منزل. تحدث عدد من الرجال نيابة عن الليبراليين الديمقراطيين ولفتوا الانتباه إلى دور الدكتور جاكوبز في تأسيس حزبهم. أعلن السيد ميرينز من فرع لاهاي لاتحاد الحرية، أن حملتها لتحسين الوضع القانوني للمرأة كانت موضِعَ تقدير كبير من رجال الاتحاد الذين تضمَّن بيانهم الكامل أيضًا الحقوقَ المدنية والاقتصادية للمرأة.

لم يقتصر الأمر على تكريم أولئك الذين شاركوها وجهات نظرها فيما يتعلق بالسياسة والحركة النسوية والسلمية، بل سارعت النساء اللاتي لديهن معتقدات سياسية أو نسوية معارضة إلى الاعتراف بأهمية مساهمتها.

قامت السيدة روزا مانوس بصفتها رئيسة اللجنة التنفيذية الفرعية بنقل رسائل التهنئة من النساء في الخارج (بما في ذلك رئيسة التحالف الدولي لحق المرأة في الاقتراع)، وأيضًا من أولئك الذين لم يتمكَّنوا من الحضور، مثل السيدة روتجرز هويتسيما، الذي كان تغيُّبها عن الحفل بفعل المرض. ذكرت الآنسة مانوس أن الدكتورة جاكوبز تمتعت بحياة مليئة بالأحداث، لقد تمكَّنَت من تحقيق العديد من مُثُلها من خلال خليط فريد من الجرأة والتصميم والطاقة المستمرة للعمل. ذكَّرَت الآنسة مانوس الحضور أن السيدة جاكوبز هي شخصية معروفة في الخارج، وهي حقيقة قوبلت بتصفيق حاد. ذكرَت أيضًا أن اللجنة قدَّمت بالفعل للدكتورة جاكوبز رمزًا خاصًّا بها، وشعرت أنه لا يمكن أن يكون هناك تكريم أفضل من نشر كتابها في عيد ميلادها (للحدِّ الذي كان جاهزًا فيه للطباعة). أخيرًا أعطت للدكتورة جاكوبز إكليلًا كبيرًا من الزهور.

العشاء

وصلت الدكتورة جاكوبز لتجد في انتظارها أغنية ترحيب. وقبل تقديم العشاء، بينما كان الجميع جالسين، ظهر الوزير ثوربيك على المسرح ليلقي قصيدة للسيدة جاكوبز، وهو شيء لاقى الكثير من التصفيق؛ لأن القصيدة كانت تشير إلى الوضع السياسي الحالي. ثم

قرأت السيدة فان فولفتن بالث خطابًا ترحيبيًّا مكتوبًا بالقافية، والذي قوبل أيضًا بالكثير من التصفيق.

قرأت منظمة الحفل الآنسة روزا مانوس، برقيه تهنئة من مجلس سابيمير وذكرت أنه كان هناك جبل حقيقي من البرقيات، بما في ذلك تلك الواردة من السيدة أبردين، رئيسة المجلس العالمي للمرأة، وعددٍ لا يُحصَى من الجمعيات الهولندية والأجنبية، وسوزي جروينيج، والسيدة ماري فان إيسدن فينك، وروزا دي جوشتينيري؛ والعديد من الأفراد والمنظمات الأخرى المتصلة بالنضال من أجل حقوق النساء في الداخل والخارج».

بقي القليل فقط كي أضيفه إلى هذا التقرير، تلقيت الكثير من البرقيات، لدرجة أنه كان من المستحيل أن أقرأها كلها أو أعثر فيها حتى على البرقيات المهمة. وسبق لي وأن أشرت إلى عدد من هذه الرسائل، ولكنني أودُّ أن أضيف أنني تأثرت بشكل خاص برسائل التهنئة من مجلس جامعة جرونينج. ومن مجلس سابيمير، ومن الأطباء الذين كتبوا إليَّ في مجموعات، وبشكل فردي.

وأعربت عن تقديري الخاص للخطاب الذي ألقاه الدكتور ديكناتل، رئيس فرع جمعية النهوض بالطب في لاهاي، والذي قدَّم لي أيضًا باقة رائعة من الزهور. وعلى الرغم من أنهن تمَّ تمثيلهن بالفعل في حفل الاستقبال، إلا أن العديد من الطالبات من مختلف الجامعات أرسلن لي برقيات أيضًا. وبالإضافة إلى ذلك، هنأني عدد من الشخصيات المعروفة التي تستحق الذكر هنا. وكان من بينهم: السيد ج. ليمبورج، وهو مصلح اجتماعي أُكِنُّ له الكثير من التقدير بشكل خاص، وهو أيضًا قائد حزب العمال الديمقراطي الاشتراكي، والسيدة ب. ج. ترولسترا،

والسيد د. هانز، رئيس الاتحاد الهولندي للصحفيين. وعبَّر أيضًا رئيس فرع هذا الاتحاد في لاهاي، والسيد ج. ج. فان بولهويس، عن أطيب أمنياته. ومن بين العديد من البرقيات التي تلقَّيتها من النساء في هولندا، ذكرت رسالة الدكتورة ميا بويسيفين أنها كانت واحدة من الكثيرين الذين يحتفلون الآن بحياتي، وأنها تأمل أن يتحول أي ألم مررت به في حياتي إلى سعادة بفعل تلك الإشادات. وبغضِّ النظر عن تلك المنظمات التي كانت حاضرةً في احتفال عيد ميلادي، كتبت منظمات أخرى لم تحضر عيد ميلادي للتعبير عن احترامهم وإعجابهم. ومن بين هؤلاء أتذكر بشكل خاص المجموعات التي لا أشاركها معتقداتها السياسية أو الدينية، بما فيهم المجموعة النسائية لاتحاد الحرية، ومعلِّمي مدارس الحضانة المسيحية، ومجلس المرأة اليهودي.

ومن بين العديد من البرقيات الأجنبية، أودُّ أن أذكر بشكل خاص الخطابَ الذي تلقَّيتُه من السيدة تشابمان كات، التي عملت لمدة عشرين عامًا كرئيسة للتحالف العالمي لحقوق المرأة في الاقتراع، ومن خليفتها، السيدة كوربيت أشبي، ومن السيدة إيشبل أبردين، رئيسة المجلس العالمي للمرأة، ومن رئاسة المجلس بأكمله، ومن الآنسة جين أدامز، رئيسة الرابطة النسائية العالمية للسلام والحرية، وأيضًا من رئاسة مجلس الرابطة. كما هنأني أيضًا عددٌ لا يُحصَى من الجمعيات في فنلندا والدنمارك والنرويج، وكذلك الشعوب الفلمنجية والمجر وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا وفرنسا إسبانيا وإيطاليا. وكل هذا التدفق من الرسائل من الداخل أو الخارج يقدِّم الكثير من الشكر لي على ما قمت به في العمل العام، أو على مساعدة نضالي لتلك الجمعيات بشكل خاص.

وعندما رأيت ذلك الكم من الإشادات والتهنئات في اليوم التالي، وجدت نفسي أتساءل: هل فعلت كل هذا حقًّا؟ ثم نظرت إلى الصورة التي قُدِّمَت كهدية لي والتي تصور منزل والديَّ في سابيمير. وتذكرت أولًا الغرفة التي درست فيها كفتاة صغيرة وجلست أتأمل مستقبلًا غامضًا. هل عشت حقًّا كل هذا؟ الكثير من التجارب المعقدة جدًّا لإدراجها في كتاب واحد...؟ لذا جلست ببساطة هناك وحيدة، وأنا أشعر أنني مشوَّشة الذهن قليلًا من عواطف اليوم السابق، أحدق في صورتي. ثم صدمت فجأة بالفكرة الحزينة أن لا والداي ولا العديد من إخوتي وأخواتي، الذين كثيرًا ما قلقوا على مستقبلي، عاشوا ليشهدوا هذا اليوم الرائع[88]. وبالنظر إلى تلك الغرفة، حيث علمني والدي الكثير، تحدثت إليه بصمت: «أبي، كل شيء على ما يرام. لطالما كنت قلِقًا من أن ينتهي بي المطاف وقد ورَّطت نفسي في مشكلات كبيرة. لكن القليل الذي يجب أن أقوم به لا يدعو للقلق. اكتمل عملي بنجاح بفضل مساعدتك ونصيحتك. ويمكن للنساء الآن أن يتطلعن إلى مستقبل أكثر إشراقًا!».

88- شقيق جاكوبز الأخير. إدواردو، الذي كان شاهِدًا على زفافها. توفي في عام 1921 عن عمر ستة وستين عامًا. اثنان من أشقائها، فريدريكا وهيرمان، توفِّيا في الثلاثينات من العمر. وأربعة آخرون من أخوتها توفُّوا في الخمسينات من العمر؛ شارلوت، الأطول عمرًا، ماتت في التاسعة والستين عام 1916؛ لذلك ليس من المستغرب أنه في عيد ميلادها السبعين، وبعد المرض، تكتب هنا بتلك النبرة المتشائمة. وكأنَّ حياتها اقتربت من نهايتها.

أليتا جاكوبز من منظور تاريخي

هنريت باس فريدريش

جامعة تمبل

كانت أليتا جاكوبز طبيبة رائدة، ونسوية، وواحدة من المؤثِّرين في القرن العشرين، على الرغم من أنها عاشت معظم حياتها خلال العصر الفيكتوري. كانت جاكوبز من النساء التي تركت الكثير من الأثر بصفتها أول امرأة التحقت بالجامعة وحصلت على شهادة الطب في هولندا. بعد ذلك تمكَّنَت من الجمع بين الحياة المهنية والزواج السعيد والنشاط السياسي. يمكن أن تكون السيدة جاكوبز نموذجًا يُحتذى به للنساء المهنيات في العصر الحديث، على الرغم من أنه نموذج يجب الاعتراف بأنه من الصعب تقليده من قِبَل النساء الأخريات. أسَّست جاكوبز ما يمكن اعتباره أول عيادة لتحديد النسل في العالم. كما قادت حملات من أجل تحرير الدعارة، ومن أجل مراعاة ظروف العمل للمرأة، وإدخال حق المرأة في الاقتراع في هولندا. كانت زعيمة بارزة في كل من المنظمات الهولندية والدولية للاقتراع، وفي حركة السلام النسائية خلال الحرب العالمية الأولى. توثق مذكِّرات أليتا جاكوبز ما يمكن أن تحققه امرأة شجاعة من خلال عملها المتفاني طوال حياتها نيابة عن جميع النساء الأخريات.

يعتمد الكثير ممَّا نعرفه عن أليتا جاكوبز وحياتها وعملها على ما اختارت أن تخبرنا به في مذكراتها. تقدم الذكريات تلك التجارب

بكلماتها الخاصة، وتساعدنا على فهم نقاط القوة والضعف في الحركة النسوية في القرن التاسع عشر، وبعض الأسس التي بُنيت عليها الحركة النسوية في القرن العشرين. على الرغم من أن جاكوبز قد نالت تقديرًا واسعًا في هولندا كشخصية شديدة الأهمية في الموجة النسوية الأولى، إلا أنها تظل غير معروفة نسبيًّا للجمهور الناطق باللغة الإنجليزية؛ فمعظم ما كتب عنها وحولها حتى الآن يظل باللغة الهولندية. تقدم الكتابات العامة التي تتناول تاريخ المرأة الأوروبية إشارات متكرِّرة ولكن موجزة إلى مساهمات أليتا جاكوبز في تحديد النسل، ومؤتمر السلام لعام 1915 في لاهاي، ولكن حتى الآن يوجد مصدر واحد فقط باللغة الإنجليزية، وهو كتاب «مينيك بوش» و«آن ماري كلوسترمان»؛ بعنوان «الصداقة والسياسة» والذي يزوِّد القارئ الأمريكي بنظرة ثاقبة حول دور جاكوبز داخل التحالف الدولي للمطالبة بحق المرأة في التصويت، وحياتها الشخصية من خلال المراسلات مع المدافعين عن حقوق المرأة الآخرين.

كانت جاكوبز شخصية غير عادية، لكنها لم تكن وحيدة في النضال في ذلك الوقت. حالفها الحظ إذ عاشت في وقت أصبحت فيه الخيارات والفرص الجديدة متاحة للنساء. كانت جزءًا من الجيل الأول من الطبيبات والنسويات الأوروبيات اللواتي ساعدن في فتح الأبواب التعليمية والمهنية لأنفسهن وللآخرين، وناضلن من أجل حقوق المرأة وحق المرأة في التصويت.

تحدَّت جاكوبز العديد من الأعراف السائدة في عصرها، ورفَضَت أن تعيش حياة امرأة فيكتورية تقليدية. كان من المتوقع أن تبقى فتيات الطبقة الوسطى في منتصف القرن التاسع عشر داخل نطاق المنزل كزوجات وأمهات، ولكن تمرَّدَت جاكوبز على اتِّباع خطى والدتها

كربَّة منزل. كان تعليم الفتيات منفصلًا، باستثناء المرحلة الابتدائية، دعت جاكوبز بشدَّة إلى التعليم المختلط والموحد للرجال والنساء. كانت المدارس الثانوية للبنات في ذلك الوقت، التي تُعرف غالبًا باسم «مدارس التخرج»، تدرِّس فيها اللغات الحديثة والموسيقى والفنون والحرف اليدوية لإعداد «الفتيات الصغيرات» للزواج، ولكنها لم تكن تقدم علوم الرياضيات، أو الفيزياء أو اليونانية أو اللاتينية، والتي كانت شروطًا أساسية للقبول في جامعات الذكور فقط.

كرهت جاكوبز الالتحاقَ بمدارس خاصة بالفتيات، ولم تكن مهتمَّةً على الإطلاق بتعلم الإتيكيت ومهارات التدبير المنزلي، قرَّرَت دراسة الطب بدلًا من ذلك. كانت المهنة الوحيدة المقبولة للمرأة العازبة من الطبقة المتوسطة هي التدريس، سواء كانت كمعلِّمة خاصة أو في مدرسة للبنات. اضطرت المعلمات المتزوجات إلى التخلي عن عملهن. ساعدت جاكوبز في تمهيد الطريق للمرأة لتصبح طبيبة، واستمرت في ممارسة الطب بعد زواجها، رغم أنه لم يكن من اللائق لامرأة متزوجة من الطبقة الوسطى أن تعمل خارج المنزل إلا لو كان ذلك العمل تطوعيًّا.

لم تكن أليتا جاكوبز ثورية أو ذات طابع ثوري بأي حال من الأحوال، وهي بالتأكيد لم ترغب في ذلك الوقت أن تتعرض للفضيحة على أيدي جيرانها، لكنَّ آراءها وسلوكها الشخصي كان سابقًا كثيرًا لعصرها. في أواخر القرن التاسع عشر في أمستردام، لم يكن من المفترض أن تسير النساء المحترمات على ضفاف القنوات المائية في الشتاء، أو تسير في بعض الطرق الرئيسية في فترة ما بعد الظهر، ناهيك بالظهور في الأماكن العامة بدون مرافق أو المشي بمفردهن بعد حلول الظلام. كان يطلق على البائعات المتجولات في الشارع «عاهرات»؛

لأن المرأة المحترمة في ذلك الوقت كان يجب أن يكون لها زوج يرعى مصالحها لتجلس هي في المنزل. ومع ذلك، استمتعت السيدة جاكوبز بالمشي في تلك الطرقات، وأصرَّت على زيارة مرضاها وعائلتها، ليلًا أو نهارًا، سيرًا على الأقدام. كما حضرت المسرح بنفسها، وشاركت في الاجتماعات السياسية، بصفتها امرأة وحيدة. قبل نهاية القرن التاسع عشر، عندما كان الجنس والحياة الجنسية من الموضوعات المحظورة تمامًا للمناقشة في دوائر الطبقة الوسطى، ولم يكن تحديد النسل والدعارة أمورًا واردة في الجماعة المهذبة، وخاصة من قِبَل امرأة، قدَّمت جاكوبز معلومات، ووسائل منع الحمل، وألقت خطابات عن الدعارة وحقوق المرأة في الاجتماعات العامة.

كانت النساء الهولنديات المتزوجات وغيرهن من الأوروبيات يفتقدن للوضع القانوني كأفراد، وكذلك الحق في التملك، كانت ممتلكات الزوجة تؤول للزوج بمجرد الزواج. اعترضت جاكوبز بشدة على الزواج باعتباره مؤسسة تحطُّ من قدر المرأة.

أرادت بشدة أن تنجب طفلًا، لكنها كانت تخشى وصمة العار التي كانت ستلصق بذلك الطفل بوصفه ابنًا غير شرعي[89]. في سنِّ الثامنة والثلاثين، بعد أكثر من عقد من الحب والعلاقة الحميمة، قرَّرت جاكوبز الزواج من كاريل فيكتور جريتسن، لكنها احتفظت باسمها، وحسابها المصرفي ومكان المعيشة الخاص بها داخل منزلهما المشترك، وهو ترتيب لا يتناسب إطلاقًا مع القرن التاسع عشر. كما توضح

89- في حالة مماثلة، هيلين روزنباخ دويتش (1884-1982)، التي تدربت كطبيبة في فيينا وأصبح في وقت لاحق محللة نفسية فرويدية شهيرة، قررت أن تتخذ قرار الإجهاض في عام 1911 بدلا من إنجاب طفل خارج إطار الزواج.. على الرغم من أن جاكوبز كان لها نمط به الكثير من التحرر إلا أنها قررت الزواج من جيرستين في سن الثامنة والثلاثين. على النقيض من ذلك، آنا كوليسكوف (1855-1925)، وهي ثورية وطبيبة روسية المولد، كان لديها علاقتان طويلتان، أولها أدى إلى ولادة ابنة محبوبة للغاية، لكنها لم تتزوج أبدا.

بمذكراتها، فإن صداقتهما وزواجهما يمثل شراكة فكرية حقيقية تقوم على المساواة والاحترام المتبادل. لقد استمتعا بشكل خاص بالسفر معًا والكتابة بشكل تعاوني.

أصبحت السيدة جاكوبز أرملة في عام 1905، واصلت جاكوبز جولاتها في أوروبا وحول العالم، بمفردها ومع رفيقاتها. بحلول أوائل القرن العشرين، أصبح هذا السلوك المستقل أكثر قبولًا للنساء، وخاصة النساء الأكبر سنًّا، ولم يُثِر تعليقًا كبيرًا. غالبًا ما كانت النساء الأوروبيات والأمريكيات من الطبقة العليا أو المتوسطة في أيام جاكوبز، بما في ذلك العديد من زميلاتها في الحركة النسوية؛ يسافرن كثيرًا، سواء من أجل المتعة أو لحضور المؤتمرات الدولية. على الرغم من أن السفر بالسفينة أو القطار أو عربة تجرها الخيول كان بطيئًا للغاية، إلا أنه يمكن القيام به بشكل عام براحة تامة، بمساعدة الخدم والحمَّالين، باستثناء أوقات الحرب. بحلول وفاتها في عام 1929، في سن الخامسة والسبعين، كانت وجهات نظر جاكوبز المتطورة وأسلوب حياتها قد أثار اعتراضات أقل بكثير ممَّا كانت عليه خلال سنوات شبابها.

أول طبيبة هولندية

كانت أليتا جاكوبز رائدة في مجال الطب، ولم يكن هناك نماذج نسائية لتحتذي بها. كفتاةٍ أرادت أن تصبح طبيبة، ليس لأنها قد شاهدت أو حتى سمعت عن طبيبة؛ ولكن لأن والدها الحبيب وأخاها الأكبر كانا طبيبين. كان من المعتاد أن يختار أفراد الجيل الأول من الطبيبات النسويات دراسة الطب تقليدًا للذكور. فرانزيسكا تيبورتيوس (1843 - 1927) معلِّمة غير متزوجة كانت من أوائل النساء الألمانيات اللواتي حصلن على شهادة الطب في سويسرا عام

1876، واختارت دراسة الطب بدلًا من إنشاء مدرسة للبنات لإلحاح شقيقها الطبيب[90]. قدَّمت جاكوبز وتيبورتيوس وغيرهما من رواد الطب الأوائل من النساء نماذج نسائية لم تكن موجودة قبلهم لتتبعها الأجيال اللاحقة. كانت نشأة جاكوبز في منزل يهودي يقدِّر التعليم يزيد احتمالية حصول أليتا وشقيقاتها على تعليم عالٍ لإعدادهن لمهنٍ تسمح لهنَّ بأن يصبحن كاملات الاعتماد على النفس.

تتطلَّب الدراسة المتقدمة للفتيات، بالإضافة إلى تنشئة الطبقة الوسطى، دافعًا شخصيًّا استثنائيًّا ودعمًا أُسَريًّا كبيرًا، ماليًّا ومعنويًّا. كما كان شائعًا جدًّا بين أوائل الجامعات، كان التأثير الأقوى على حياة جاكوبز المبكرة هو والدها بلا شك؛ أبراهام جاكوبز، وهو ديمقراطي ملتزم، ومناهض للعسكَرَة، وليبرالي. كان أبراهام جاكوبز هو مثال لليهودي الجيد في تلك الأيام حينما كان (يوهان) ثوربيك رئيس الوزراء الليبرالي يحكم هولندا حتى عام 1872. لقد حرص أبراهام على أن يقدم لبناته الخمس وأبنائه الستة أفضل تعليم ممكن في ذلك الوقت. على عكس العديد من الآباء، دعَّم أبراهام جاكوبز تطلُّعات ابنته المفضَّلة أليتا غير التقليدية في ذلك الوقت، وزوَّدها مع العديد من زملائه الطبيين اليهود بالإرشاد والدروس الخصوصية قبل وأثناء كلية الطب. على الرغم من أنها حضرت لفترة قصيرة التعليم في مدرسة للأولاد، إلا أنها لم تكمل المتطلبات القياسية للقبول مباشرة في كلية الطب، لكنها بدلًا من ذلك أصبحت مؤهَّلةً للجامعة بعد اجتيازها امتحان مساعد صيدلي. بفضل تصميمها الخاص وتدخُّل والدها الشخصي؛ تلقَّت أليتا جاكوبز تصريحًا خاصًّا من رئيس الوزراء

90- على عكس جاكوبز. كان لدى تيبورتيوس زوجة أخ حصلت بالفعل على شهادة في طب الأسنان في الولايات المتحدة.

ثوربيك ليتم قبولها مؤقتًا في جامعة جرونينجن في سنِّ السابعة عشرة[91]. وتلك الحالة الأولى الاستثنائية التي ثبت صعوبة تكرار مثيلها، كانت أصغر بكثير من معظم النساء الأوروبيات الأخريات اللواتي سعين إلى الالتحاق بمهنة الطب في ذلك العصر.

في أواخر القرن التاسع عشر، كان التعليم الطبي في الولايات المتحدة وبريطانيا وروسيا يميل إلى الفصل بين الجنسين. ومع ذلك، في أماكن أخرى من أوروبا، لم يتم تطوير برامج تدريس وتدريب منفصلة للطبيبات. حصلت العديد من الطبيبات الروسيات والألمانيات والبريطانيات والأمريكيات الأوائل، مثل ناديجدا سوسلوفا وفرانزيسكا تيبورتيوس وإليزابيث جاريت (أندرسون) وماري بوتنام (جاكوبي)، على الدكتوراه من زيورخ أو برن أو باريس؛ لأنهن لم يكن بمقدورهن الوصول إلى كليات الطب في أوطانهن، أو لأنهن اعتبرن أن التدريب الذي توفِّره الدورات الطبية النسائية أقل شأنًا. فقط في أوائل القرن العشرين أصبح التعليم المختلط متاحًا، وصار أليتا جاكوبز هي القاعدة التي من خلالها أصبحت جميع كليات الطب الأوروبية تقريبًا، بما في ذلك تلك الموجودة في ألمانيا والنمسا، متاحة للنساء.

في ذلك الوقت، شكَّلَت النساء اليهوديات نسبة كبيرة من الطالبات الملتحقات بالجامعات الأوروبية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين بشكل واضح. مثل أليتا جاكوبز، بدا العديد منهم

91- كانت هذه الثغرة للقبول الخاص في كلية الطب مؤقَّتة فقط؛ وبالتالي لم تفد الآخرين. استخدمت إليزابيث جاريت (أندرسون) حيلة في إنجلترا باستخدام رخصة صيدلي للسماح لها ببدء ممارسة الطب في عام 1865. واجهت صعوبات في إكمال تدريبها الطبي في إنجلترا. ومع ذلك، فإنها درست في نهاية المطاف في باريس.

منجذبًا بشكل خاص لدراسة الطب[92]. من بين الطبيبات الأوروبيات الأوائل: فارفارا كاشيفاروفا رودنيفا (1842 - 1899) من روسيا، روزا ويلت من تشيرنفتسي بالنمسا، وإيرما كلاوسنر (1874 - 1959) من برلين. كاشيفاروفا؛ مَثَل جاكوبز الأعلى، إذ كان على فارفارا كاشيفاروفا دونيفا الحصول على إذن خاص لقبولها في أكاديمية الجراحة الطبية في سانت بطرسبرغ في عام 1863. بعد عشر سنوات من تأهيلها كطبيبة، بعد أن تغلَّبت على العديد من العقبات، صارت أول امرأة تحصل على الدكتوراه في الطب في روسيا في عام 1878. لم تمهِّد فارفارا كاشيفاروفا رودنيفا موجة التعليم الطبي المختلط في روسيا، وبديلًا لذلك تم إنشاء دورات طبية منفصلة لتدريب النساء على العمل كأطباء. بسبب القيود ونظام المحاصصة في روسيا، فإن العديد من النساء الروسيات، وخاصة اليهوديات، ذهبن إلى سويسرا، وبعد ذلك ألمانيا والنمسا؛ من أجل إنهاء دراستهن للطب.

في عام 1878، قبل عام من حصول أليتا جاكوبز على الدكتوراه، أصبحت روزا فيلت أول امرأة نمساوية تحصل على شهادة الطب من جامعة سويسرية. وكما ساعدت جاكوبز اثنتين من أخواتها في شقِّ طريقهم، واحدة كطبيبة صيدلية والأخرى كمدرسة في مدرسة ثانوية، اتبعتها أخوات فيلت وساروا على خطى روزا الطبية خلال العقد الذي يليه، في حين أصبحت أخت أخرى طبيبةً صيدلية. وواصلت روزا فيلت (شتراوس) ممارستها للطب، مثل جاكوبز، بعد زواجها، وأصبحت ناشطة نسوية شاركت في حملات الاقتراع في كلٍّ

92- كان كثير من النساء اليهوديات يدرسن الطب. وشكلت المرأة الروسية الغالبية من الدارسين في الجامعات السويسرية في أواخر القرن التاسع عشر. بعد فترة الحرب العالمية الأولى شكلت النساء اليهوديات 30% من الجيل الأول من طالبات الطب الملتحقات بالجامعات البروسية. و60% من طالبات الطب في جامعة فيينا. عدد ونسبة النساء اليهوديات في الجامعات الهولندية كان أقل بكثير.

من الولايات المتحدة وفلسطين.

كانت تجربة إيرما كلاوزنر في ألمانيا بعد عشرين عامًا تقريبًا متماثلة مع تجربة أليتا جاكوبز. وعلى الرغم من أنه لم يكن مسموحًا للنساء بالالتحاق بالجامعات الألمانية قبل بداية القرن الجديد، إلا كطالبات مستمعات، وبإذن خاص من معلِّميهم، فأيَّد والد كلاوزنر بشدة رغبتها في دراسة الطب، واستخدم علاقاته السياسية في المساعدة في تغيير القانون من خلال برلمان بروسيا (مجلس الدولة) الذي مكَّن ابنته من إجراء اختبار سريري في جامعة هال عام 1899، وسمح ذلك القانون للنساء لاحقًا أن يأخذن اختبارات الحصول على شهادة الطب، والتي التي عُرِفَت لاحقًا باختبارات «ليكس إيرما». واصلت إيرما كلاوزنر كرونهايم، كامرأة متزوجة، ثم كأرملة؛ ممارَسَتها للطب لأكثر من نصف قرن. وكانت كلاوسنر على عكس جاكوبز، إذ لم تشارك في السياسة أو في الحركة النسوية، ولكن واحدة من أخواتها أصبحت معلِّمة في المدرسة الثانوية ونسوية سياسية، بينما أصبحت أخرى قاضية في نهاية المطاف[93]. وتوضِّح نماذج أخوات كلاوسنر - مثل الأخوات جاكوبز وفيلت - الدعم القوي للتعليم العالي للنساء بين العائلات اليهودية الأوروبية من الطبقة المتوسطة في أواخر القرن التاسع عشر.

كانت أليتا جاكوبز محظوظةً لأنها - على عكس الكثير من النساء المعاصرات لها - لم تكن مضطرة إلى مغادرة وطنها للحصول على شهادة الطب، وتلقَّت نفس التعليم الذي تلقَّاه معاصروها من الرجال. قبلها اضطرَّت إليزابيث بلاكويل للسفر للالتحاق بكلية جنيفا للطب في

93- ترملت في سن مبكرة، ولديها طفلان. حافظت إيرما كلاوسنر كرونهايم على ممارسة الطب في برلين وإنشغلت بشكل خاص في رعاية الرجال والنساء من جميع الطبقات.

نيويورك عام 1847، وكذلك طبيبات أخريات، مثل فارفارا كاشيفاروفا في سانت بطرسبرغ، وناديجدا سوسلوفا في زيورخ في ستينيات القرن التاسع عشر، وإيرما كلاوزنر في هال، أو راهل جويتين ستراوس في هايدلبرغ في بداية القرن الجديد. كانت جاكوبز المرأة الوحيدة التي تدرس الطب في غرونينغن، ثم في أمستردام، ولكن لم تتطلب أو تتلقَّ رعاية خاصة. وبصفة عامة، قَبِلها أساتذتها وزملاؤها الطلاب وساعدوها، ومثل معظم أوائل النساء اللاتي درسن الطب في أوروبا، لم تشتكِ من التمييز العلني والمضايقات، على الرغم أن هذه الحوادث وقعت من دون شك.

بعد أن حصلت جاكوبز على تصريح بمواصلة دراستها للطب في عام 1872، لم تواجه النساء الهولنديات أي عقبات قانونية تمنع التحاقهن بمعاهد التعليم العالي في هولندا، طالما أنهن بإمكانهن اجتياز نفس اختبارات القبول بالجامعة مثل الرجال، ولكن القليل منهن التحقن بالتعليم الثانوي الضروري للاستفادة من هذه الفرصة. وكانت كاثرين فان توسينبروك المرأة الثانية التي تأهَّلَت للعمل كطبيبة في هولندا (1852 - 1925)، التي بعد مزاولتها مهنة التدريس، التحقت بجامعة أوتريخت عام 1880، وحصلت على شهادتها عام 1887. وبحلول عام 1900 لم يكن هناك سوى عشر طبيبات في هولندا، وبحلول عام 1923، في الوقت الذي بدأت فيه جاكوبز بكتابة مذكراتها، كان هناك 175 طبيبة، والعديد من النساء اللاتي يدرسن في كليات الطب في الجامعات الهولندية، مُتَّبعات خطى جاكوبز وتوسينبروك[94].

94- كان هناك ما لا يقل عن خمس عشرة من هؤلاء النساء من اليهود الأصل. على الرغم من أن الرجال اليهود لم يشكلوا أكثر من 5% من الهولنديين يمارسون مهنة الطب. شكلت النساء اليهوديات تقريبا 8% من النساء الأطباء في هولندا ما بين الحربين العالميتين. هذه الأرقام تتجاوز بكثير التمثيل النسبي لليهود التوجه داخل السكان الهولنديين. على الرغم من أنهم أقل من نصف المؤيدين من الرجال والنساء اليهود في مهنة الطب الألمانية والنمساوية.

ممارسة طب النساء

كان كثير من الرجال والنساء يرون أن الطبيبات هنَّ أكثر ملاءمة لعلاج النساء، واللاتي يخجلن للغاية حين يقصدن طبيبًا ذَكَرًا في مجال أمراض النساء، وبررت النساء دخولهن مهنة الطب على هذا الأساس. وبالفعل، سمحت كل من روسيا والنمسا بتدريب وتوظيف أول نساء طبيبات بهدف علاج النساء المسلِمات في الأقاليم البعيدة عن الإمبراطوريات مثل أورنبرج والبوسنة. عندما بدأت جاكوبز دراساتها للطب، لم تكن تنوي التخصص في طب النساء أو الأطفال. وقرب نهاية تدريبها، حين حلَّت محلَّ أخيها مؤقَّتًا وتولَّت مسؤولية العيادة الريفية الخاصة بوالدها، قامت بعلاج المرضى الذكور وكذلك النساء.

ومع ذلك، بعد تأسيس عيادتها في أمستردام عام 1879، كانت مثل كاثرين فان توسينبروك بعد بضع سنوات، تبعت نفس النمط الذي تبعته فعليًّا جميع الطبيبات في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، من خلال تركيز اهتمامها بالكامل تقريبًا على صحة المرأة. وكذلك كانت طبيبات أخريات مثل فرانسيسكا تيبورتيوس وإيميلي ليموس في برلين عام 1876، ونساء أخريات ممارِسات للطب، أنشأت جاكوبز عيادة خاصة، حيث كانت الأسعار موحَّدة لجميع المرضي؛ وبالتالي كان يمكنهم تحمُّل تكاليفها، وكذلك عيادة للنساء الأكثر فقرًا، اللاتي عالجتهن مجانًا عند الضرورة.

حصرت جاكوبز ممارستها للطب على النساء إلى حدٍّ كبير، لكنها لم تكن قد اتَّخذَت خيارًا متعمَّدًا. ولكن سرعان ما حققت شهرة واسعة من خلال توزيع وسائل منع الحمل في عيادتها، وعلى مرضاها، بعد

عام 1881. ميَّزت جاكوبز نفسها عن جميع زملائها في مجال الطب، بما فيهم فان توسينبروك وتيبورتيوس، وكان يشار إليها على أنها مؤسِّسة أول عيادة لتحديد النسل، فسبقت عيادتها صغيرة الحجم المخصصة للنساء التي تذهب إليها مرتين أسبوعيًا، عيادات مارجريت سانجر الأكثر شهرة وشيوعًا، وماري ستوبس في إنجلترا، بما لا يقل عن خمسة وثلاثين عامًا.

أرادت جاكوبز تمكين النساء من ترك فترة ولادة كل طفل وتجنُّب وجود أُسَر كبيرة الحجم لا يستطعن تحمُّل نفقات تربية الأبناء فيها. وفي حوالي عام 1882، بمجرد أن علمت طريقة «فرزجة ماسنجا»، التي تمَّ تطويرها في ألمانيا، وبدأت بتركيب هذا النوع الجديد من الأغشية لمرضاها، والذي أصبح يُعرف باسم «القبعات الهولندية». واستخدمت أكثر أشكال تحديد النسل فعالية للنساء والأكثر إتاحة لهنَّ، وهو نفس نوع الأغشية الذي كانت سانجر تقوم بتوزيعه في وقت لاحق. لم تروِّج جاكوبز لعيادتها على نطاق واسع، ولكنها استمرت في توفير خدمات تحديد النسل مجانًا لمدة اثني عشر عامًا تقريبًا، حتى بعد ولادة ووفاة طفلها الأول عام 1893. استمر اتحاد المالتوسية الهولندي الجديد في تشغيل عيادات تحديد النسل في هولندا بعد تقاعد جاكوبز، وقدَّم نموذجًا للعيادات الأخرى التي أُنشِئت في القرن العشرين. بعد وفاتها تمَّ تحويل منزل أليتا جاكوبز إلى مركز مرموق لتحديد النسل وعلم الجنس في هولندا، وتمَّ تسميته تكريمًا لها.

لكن في ثمانينيات القرن التاسع عشر، أثارت دعوة جاكوبز العلنية لتحديد النسل فضيحةً في المجتمع الهولندي ككلٍّ، وفي الأوساط الطبية على وجه الخصوص. كان توفير وسائل منع الحمل موضوعًا مثيرًا للجدل في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين مثلما أصبح

الإجهاض لاحقًا. على الرغم من انتشار ممارسة تحديد النسل، إلا أن توزيع معلومات حول وسائل منع الحمل لم يكن قانونيًا في معظم البلدان، كما يتضح من المحاكمات الشهيرة لآني بيسانت وتشارلز برادلو في إنجلترا عام 1878 ومارجريت سانجر في نيويورك عام 1917.

على الرغم من أن العديد من المرضى طلبوا نصائح حول وسائل منع الحمل من الأطباء الإناث، إلَّا أن معظم الطبيبات الأوائل، على عكس جاكوبز، لم يرغبن في تقديم هذه المساعدة في القرن التاسع عشر لأنهن يخشين تعريض سُمعتهن المهنية للخطر. اختلفت جاكوبز مع زميلتها كاثرين فان توسينبروك حين أصرَّت جاكوبز على أن الأطباء يجب أن يكونوا مسؤولين عن نشر وسائل منع الحمل، واعترضت على مثل هذه السياسات على أساس أخلاقيات مهنة الطب ورفضت منح الأزواج والأطباء الحق في السيطرة على جسد المرأة. بدأ هذا الوضع يتغير أثناء الفترة الواقعة ما بين الحربين العالميتين، عندما دعَّمَت العديد من الطبيبات، وخاصة الاشتراكيات الشابات، حركةَ الإصلاح الجنسي، وساعدت في إنشاء عيادات لتنظيم الأسرة في ألمانيا وإنجلترا والولايات المتحدة. ظل الإجهاض غيرَ قانوني، وضد احترام أخلاقيات المهنة في عالم الطب. الطبيبة الفرنسية مادلين بيليتير (1874 - 1939)، وهي امرأة كانت ترتدي ثيابًا رجولية وذات شعر قصير وتُنسب إلى الأناركيين، تُعدُّ نموذجًا نادرًا لطبيبة دعَّمَت عمليات الإجهاض وأجرتها علنًا في أوائل القرن العشرين. لم تكن أليتا جاكوبز بأي حال من الأحوال راديكالية مثل بيليتير، سواء على الصعيد السياسي أو الشخصي، لكنها أظهرت أيضًا شجاعة كبيرة وقوة قناعاتها من خلال الدعوة علنًا وتوفير وسائل منع الحمل في بداية حياتها المهنية.

بمجرد أن تخلَّت عن ممارستها الطبية، قلَّلت جاكوبز من ارتباطها بوسائل منع الحمل، وأصبحت أكثر فاعلية في القضايا الأخرى بدلًا من ذلك، ولكن بعد فترة طويلة من تقاعُدها في عام 1904، كانت لا تزال تُستشار باعتبارها خبيرة في هذا المجال.

ومع ذلك، لم تصبح أبدًا بارزة في منظمات تحديد النسل. على الرغم من أنها علمت بوسائل منع الحمل من جماعة النيو مالتوسيين التي التقت بهم في إنجلترا، إلا أنها لم تستمر في دعم الاتحاد المالتوسي الهولندي الجديد لأنها كانت تعتقد بقوة أن الأطباء فقط هم مَن يجب أن يوفِّروا وسائل منع الحمل. عندما حاولت مارجريت سانجر ترتيب لقاء معها في عام 1915، رفضت جاكوبز رؤيتها، بدا أن سانجر كانت ممرضة متدربة وليست طبيبة، في عام 1925 تصالحت جاكوبز مع سانجر في مؤتمر دولي لتحديد النسل في نيويورك. بحلول ذلك الوقت، أصبحت جاكوبز بلا شك «الجدَّة الكبيرة» لتحديد النسل، لكنها لم تكن إحدى أولوياتها لسنوات عديدة.

النِّضال من أجل حقوق العاملات

من خلال ممارستها للطب، أصبحت جاكوبز على دراية بالحاجة الشديدة، ليس فقط لتنظيم الأسرة، ولكن أيضًا بالمشكلات والمآسي التي تواجهها النساء العاملات بالجنس والنساء العاملات في مجال المبيعات. كان اهتمامها بنساء الطبقة العاملة ينبع من كونها مُصلِحة اجتماعية أكثر من كونها اشتراكية. لم تحاول تنظيم كلٍّ من البائعات أو المومسات للنضال من أجل حقوقهن، كما أنها لم تتدخل شخصيًّا لمساعدتهن بشكل فردي من خلال الأعمال الخيرية. على الرغم من أنها قدَّمَت لهن الرعاية الطبية، وكانت الحلول المفضلة لديها لمثل تلك

المشاكل الاجتماعية هي التعليم والقانون.

ربما لأن هولندا لم تكن بلدًا صناعيًّا بالقدر الكافي في ذلك الوقت، وكان القليل من الناس يعملون في المصانع من الأساس؛ ولذلك اهتمَّت جاكوبز بتحسين ظروف عمل البائعات في المحلات والمتاجر. لقد شنَّت حملة دعائية للمطالبة بمقاعد خلف طاولات العمل، وفترات من الراحة للعاملات، وتحديد ساعات للعمل. بدأت جهودها كحملة شخصية مميَّزة، وتوسَّعَت لدعوة المستهلك لمقاطعة المنتجات التي تبيعها تلك المحلات؛ ممَّا جعلها تحقِّق أخيرًا بعض النجاح على نطاق ضيق.

تطلَّب الأمر شجاعة شخصية أكثر بكثير لمحاربة الدعارة والأمراض التناسلية، والموضوعات التي كانت محظورة أكثر من تحديد النسل. إلى حدٍّ ما على غرار البريطانية جوزفين بتلر (1828 - 1906) قد سعت لإنهاء تقنين الدعارة من خلال إغلاق البيوت التي تديرها الدولة- وإلغاء الفحص الطبي المهين للمومسات المسجَّلات. عندما شنَّت هجومًا على الدعارة، فإنها كانت تحارب ضد ازدواجية الأخلاق. لكن يبدو أنها شدَّدَت على الجوانب الطبية للمشكلة أكثر من القضايا الأخلاقية. لم تشارك أبدًا في حملة ضد «الرق الأبيض»، أو الجهود التي تهدف لحماية الفتيات الصغيرات من الوقوع في قبضة المتاجرين بالنساء أو إنقاذ المومسات من الحياة سيئة السُّمعة. في هذا، اختلفت ليس فقط عن بتلر البريطانية، ولكن أيضًا عن بيرثا بابنهايم (1859 - 1936) النسوية اليهودية الألمانية التي أسَّسَت رابطة النساء اليهوديات عام 1904.

معظم الأطباء في هولندا وفي أي مكان آخر في أوربا، قاموا بدعم تقنين الدولة ومراقبتها للدعارة كوسيلة للحد من انتشار الأمراض المنقولة

جنسيًّا. لكن جاكوبز كانت ترى في القوانين والقواعد المنظِّمة للدعارة أنها موجَّهة ضد المومسات وليس ضد الرجال الذين يمارسون الجنس غير الشرعي، وكان ذلك غيرَ منطقي وغير مُجدٍ تمامًا في نظرها. وبما أن تلك المؤسسات كانت تركِّز على وصم النساء العاملات في هذا المجال ولم تقدِّم حلولًا فعلية للأمراض المنتشرة نتيجة الدعارة؛ فإن سعي جاكوبز للتخلص من الدعارة نفسها كمؤسَّسة قائمة كان هو الهدف. سعت جاكوبز للتخلص من الدعارة كمؤسسة قانونية من خلال التثقيف ورفع الوعي، فقد تحدَّثت جاكوبز علنًا ونشرت مقالات حول هذا الموضوع داخل وخارج البلاد. كما كان الحال في أماكن أخرى في أوربا، على الرغم من أن الدعارة لم تتوقف في هولندا، لكن اختفت بيوت الدعارة الرسمية في نهاية المطاف، وتوقَّفَت الفحوصات الطبية الإلزامية للمومسات، مؤقتًا على الأقل. بشكلٍ ما ساهمت جهود أليتا جاكوبز، والنسويات الهولنديات الأخريات، في جعل هولندا نموذجًا أوروبيًّا، وقدوة في عملية خفض معدَّل الإصابة بالأمراض التناسلية في أوائل القرن العشرين[95].

الليبراليُّون والسياسة الهولندية

كانت أليتا جاكوبز ليبرالية ونسوية. وتكوَّنت وجهات نظرها حول السياسة بشكل كبير من تأثير الرجال الليبراليين، مثل جون ستيوارت ميل. وشاركت الآراء التقدمية والديمقراطية الخاصة بوالدها؛ أبراهام جاكوبز، وزوجها؛ كارل جريتسن. كان جريتسن إصلاحيًّا اشتراكيًّا

95- كانت أهم منظمة هولندية لمكافحة البغاء في ذلك الوقت هي جمعية النساء البروتستانتيات الهولندية من أجل النهوض الأخلاقي.

نَشِطًا، ولديه قناعات نسوية قوية، حتى من قبل أن يقابل زوجته المستقبلية، وجمع مجموعة كبيرة من الأدب ووثائق عن المرأة وحقوق المرأة. وكان كل منهما من المفكرين الليبراليين الذين انفصلوا عن أصولهم الدينية؛ جاكوبز ابنة العائلة اليهودية، وجريتسن ابن عائلة مسيحية تتبع الكالفينية الهولندية. وكان هذا الزواج المختلط بين اليهود والبروتستانتيين في هولندا نادرًا في أواخر القرن التاسع عشر. وعلى الرغم من أن الزواج المدني كان غير شائع، اختار كل من أليتا وكاريل الزواج المدني؛ لأنه لم يكن أيًّا منهما ينتمي لأي جماعة دينية[96].

وفي أوائل القرن العشرين، انقسم المجتمع الهولندي إلى أربعة تيارات سياسية، البروتستانتيين، الكاثوليكيين، الليبراليين أو «المحايدين»، والاشتراكيين. واشتمل اليمين السياسي في هولندا على ثلاثة أحزاب مسيحية، الاتحاد التاريخي المسيحي والحزب المناهض للثورة، بين البروتستانتيين، والحزب الكاثوليكي. وانقسم اليسار إلى عدة طوائف ليبرالية: الاتحاد الليبرالي، والاتحاد الراديكالي، وفي وقت لاحق: الاتحاد الديمقراطي الليبرالي، وكذلك حزب العمال الديمقراطي الاشتراكي. كانت أليتا جاكوبز وكاريل جريتسن تنتميان إلى الجناح الليبرالي اليساري داخل هذا الطيف السياسي.

وفي هولندا، كما في ألمانيا والنمسا، تم تصنيف معظم اليهود من جيل أليتا جاكوبز بالليبراليين. وحصل اليهود الهولنديون على الحقوق المدنية عام 1796، عقب الثورة الفرنسية، التي أدَّت إلى تحرير اليهود

96- في مطلع القرن العشرين كان معدل الزيجات المختلطة بين اليهود والمسيحيون تقريبا 6% من الزيجات الجديدة.

الفرنسيين قبل ذلك بعدة سنوات. وعلى الرغم من أن معظم اليهود الهولنديين كانوا فقراء وعاشوا في أمستردام، إلَّا أن خلال القرن التاسع عشر دخل الكثير من اليهود - وبالأخص من المقاطعات - إلى مصاف الطبقة الوسطى، وأصبحوا مع الوقت أكثر اندماجًا في الهوية الوطنية الهولندية. وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، دعَّم كلٌّ يهود هولندا الليبراليِّين، وبحلول القرن العشرين، انضم العديد من عمال الماس اليهود في أمستردام، وبعض المثقفين اليهود، إلى الجناح اليساري، وأصبحوا أكثر مَيلًا للاشتراكية.

ومالت الناشطات اليهوديات من أوروبا الشرقية، مثل العديد من جيل الشباب من النساء الجامعيات اليهوديات في ألمانيا والنمسا في أوائل القرن العشرين، إلى أن يصبحوا راديكاليات واشتراكيات، بدلًا من أن يصبحوا ليبراليات ونسويات، ومع ذلك، ظلت جاكوبز مع التيار الليبرالي، كما فعلت تقريبًا جميع النسويات من الغرب الأوروبي من أصل يهودي في القرن التاسع عشر.

اشتركت أليتا جاكوبز مع جريتسن - بنشاطٍ - في الاتحاد الراديكالي الليبرالي اليساري، وكان أول حزب سياسي هولندي يعترف بحقوق بالمرأة ويدعو إلى حق التصويت للجميع، ويدعم الإصلاح الاجتماعي أيضًا، والفصل بين الكنيسة والدولة داخل المدارس العامة. عمل جريتسن كعضو مجلس في مجلس مدينة أمستردام وعضو في البرلمان الهولندي. كان كلٌّ من جاكوبز وجريتسن من بين الأعضاء المؤسِّسين للاتحاد الديمقراطي الليبرالي، الذي أعقب الاتحاد الراديكالي في عام 1901. وفي عام 1918، قبل عام من منح المرأة الهولندية حق التصويت، ترشَّحَت جاكوبز للبرلمان على قائمة، أو ضمن حزب الاتحاد الليبرالي الديمقراطي، ولكنها فشلت في الفوز بالانتخابات ممَّا أحبطها.

حق التصويت للنساء

شاركت أليتا جاكوبز في العديد من الأنشطة النسوية المختلفة في مراحل مختلفة من حياتها، لكن الهدف الأكبر التي كرَّسَت نفسها له لأطول فترة في حياتها كان حقَّ المرأة في التصويت. كانت جاكوبز ترى - على عكس معظم النسويات الأوروبيات في ذلك الوقت - أن حصول المرأة على حق التصويت - وبالتالي الوصول المباشر إلى السلطة السياسية - هو المفتاح لتحسين أوضاع المرأة بشكل عام. تصف جاكوبز نفسها في المقام الأول على أنها نسوية تؤمن بالحقوق المتساوية بين الرجال والنساء، وتناضل من أجل التحرر السياسي والقانوني للمرأة، على الرغم من أنها استخدمت أحيانًا الحجج النسوية العقلانية التي تؤكد على تفوُّق النساء، ودور الأمومة المنوط بهنَّ. كانت جاكوبز ترى أن لديها الكثير من القواسم المشتركة مع الناشطين النسويين الأنجلو-أمريكيين الفرديين، أكثر من أي مجموعة أخرى، سواء على مستوى النظرية أو التطبيق، ناشطات مثل ميليسنت جاريت فوسيت (1847 - 1929) وكاري تشابمان كات (1859 - 1947)، أكثر من المدافعين الأوروبيين البارزين عن الأمومة، مثل السويدية إلين كي (1849 - 1926) أو الفرنسية نيللي روسيل (1878 - 1922). ومع ذلك، فقد أيَّدَت القضايا التي كانت النسويات الراديكاليات يدافعن عنها في ذلك الوقت، مثل نضال النسويات الألمانيات أنيتا أوجسبورج (1857 - 1943)، وليدا جوستافا هيمان (1868 - 1943)، وهيلين ستوكر (1869 - 1941)، (الرابطة الألمانية لحماية الأمومة)، وكذلك الناشطات النسويات المجريات روزيكا شويمر (1877 - 1948) وويلما جلوكليتش (1872 - 1927). كانت جاكوبز على إيمان راسخ

بأن مزيدًا من القوة السياسية للنساء يعني مزيدًا من تحسُّن أوضاع النساء بشكل عام.

في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، شهدت أوروبا تزايُدَ عدد المنظمات النسوية المهتمة بتحسين وضع المرأة، بعضها يهتمُّ بتعزيز الفرص التعليمية والمهنية لنساء الطبقة الوسطى، والبعض الآخر يهدف إلى حماية حقوق نساء الطبقة العاملة، بينما ركَّز آخرون، معتدلون ومتشدِّدون، على منح المرأة حق التصويت. ومنذ الوقت الذي حاولت فيه التسجيل للتصويت في عام 1883، إلى اليوم الذي سُمح لها فيه بالإدلاء بأول اقتراع لها بعد أربعين عامًا تقريبًا- انخرطت أليتا جاكوبز في تلك الحملات على أُسُسٍ قانونية ومعتدلة. كانت منادية بحق المرأة في الاقتراع دون أن تحصل على حق الاقتراع، وكانت تعارض بشدة التكتيكاتِ المتشدِّدةَ للاتحاد الاجتماعي والسياسي للمرأة البريطانية، والتي تضمَّنَت تخريب الممتلكات العامة، وغالبًا ما أسفرت عن اعتقالات، بالإضافة إلى قدر كبير من الدعاية السلبية. لكن جاكوبز اعترفت بأن مثل ذلك التطرف قد لفت الانتباه إلى القضية النسوية، لكنها فضَّلت المسيرات والمظاهرات السلمية. كانت الجمعية الهولندية لحق المرأة في الاقتراع، التي تأسَّست عام 1894 وترأَّستها جاكوبز، منخرطةً إلى حدٍّ كبير في التيار السائد للتحالف الدولي لحق المرأة في التصويت، الذي كانت تنتمي إليه بصفتها شريكة مؤسسة. لم تشغل جاكوبز منصبًا في هذا التحالف، التي تأسس عام 1904 وترأَّسته صديقتها المقرَّبة كاري تشابمان كات، لكنها شاركت بانتظام في مؤتمراتها كرئيسة للوفد الهولندي وغالبًا ما سافرت نيابة عن الجمعية لحضور تلك المؤتمرات والفعاليات النسائية.

بحلول الوقت الذي كتبت فيه أليتا جاكوبز مذكراتها، كانت النساء

قد حصلن على حق التصويت في هولندا وفي العديد من الدول الأوروبية الأخرى، ما عدا فرنسا وإيطاليا وإسبانيا. بمجرد الحصول على حق الاقتراع في مختلف البلدان، بدأت الحركة النسوية الدولية، ولا سيما التحالف الدولي لحق المرأة في الاقتراع، ولكن أيضًا أقدمها، الأكثر تحفُّظًا وذو القاعدة العريضة؛ المجلس الدولي للمرأة- في التَّفكُّك. في سنوات ما بين الحربين العالميتين، فازت النساء في انتخابات البرلمانات الأوروبية الوطنية والإقليمية، وكذلك المجالس البلدية. تم انتخاب معظمهن كاشتراكيات أو شيوعيات، ولكن القليل منهن كُنَّ ليبراليات أيضًا. في الانتخابات الهولندية عام 1918، هُزِمت جاكوبز في الانتخابات البرلمانية، وأصبحت النائبة الاشتراكية الديمقراطية سوز جرونويج، أوَّلَ امرأة تحصل على العضوية في البرلمان الهولندي. تمَّ انتخاب بيتسي باكر نورت كنائبة ليبرالية ديمقراطية في عام 1922، وهي محامية يهودية مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بجاكوبز في حركة حق المرأة في الاقتراع. على الرغم من أن المشرِّعات الأوروبيات من جميع الأحزاب شجَّعن ودعَّمن بشكل عام تدابيرَ لتحسين وضع المرأة، إلا أنهن لم يكن بمقدورهن التأثير لإحداث تغييرات كبيرة داخل النظام السياسي. تميل الاشتراكيات أو الشيوعيات إلى اعتبار أنفسهن اشتراكيات أو شيوعيات أوَّلًا، ونسويات في المرتبة الثانية. على الرغم من أن جاكوبز ظلت متفائلة في نهاية حياتها بأن يؤدي حق الاقتراع إلى مساواة حقيقية للرجال مع النساء، إلا أن آمالها لم تتحقق.

ناشطة من أجل السلام

قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى، لم تكن جاكوبز منخرطة بشدة في الأنشطة الداعية للسلام، على عكس بيرثا فون سوتنر (1843

- 1914)؛ المرأة النمساوية التي كانت المحرِّك الرئيسي في حركة السلام الدولية حتى وفاتها، كانت أولوية جاكوبز هي الحصول على حق المرأة في الاقتراع. خلقت الحرب انقسامًا خطيرًا داخل المنظمات النسوية المختلفة، وكذلك داخل معظم الأحزاب الاشتراكية الأوروبية. غالبية المؤيدين لحق المرأة في الاقتراع، وخاصة القادة المعتدلين مثل آنا شابانوفا في روسيا، وميليسنت جاريت فوسيت في إنجلترا، وكاري تشابمان كات في الولايات المتحدة، ولكن أيضًا المزيد من المناصرين لحق المرأة في الاقتراع، بما في ذلك إيميلين وكريستابل بانكهورست- انحزن إلى وطنيتهنَّ ودعم جهودهنَّ الحربية الوطنية بدلًا من دعم حركة السلام، والتي شعر البعض أنها قد تُعرِّض فرص النساء في الحصول على حق الاقتراع للخطر، على النقيض من ذلك، هناك أقلية صغيرة نسبيًّا من النسويات الراديكاليات، بما في ذلك المجرية روزيكا شويمر والألمانيات أنيتا أوجسبورج وليدا جوستافا هيمان، والبريطانية كريستال ماكميلان وإيميلين بيثيك. أصبحت لورنس - إلى جانب بعض الأمريكيات، مثل آنا جارلاند سبنسر، وفاني فيرن أندروز، وكريستال إيستمان - مقتنعات بأن الواجب الأخلاقي الأساسي للمرأة دعوتها لوقف مذبحة الحرب في أقرب وقت ممكن. أُلغي مؤتمر التحالف الدولي لحق المرأة في التصويت المقرَّر عقده في برلين في 1915 بسبب الحرب، قرَّرَت أليتا جاكوبز أن تأخذ على عاتقها توجيه دعوات إلى النساء من كل من البلدان المحايدة والمحاربة لحضور مؤتمر خاص لمناقشة استراتيجيات السلام. يمثل المؤتمر الدولي للمرأة في أبريل 1915 في لاهاي أهم تجمُّع نسائي لتعزيز السلام وإنهاء الحرب العالمية الأولى.

مثل نظيره الاشتراكي الذي لاقى اهتمامًا أقل، والذي عُقِد في مدينة

برن في مارس، كان مؤتمر لاهاي، الذي حضره ما يقرب من ألفين ومائتي امرأة، معظمهن من الهولنديات- أمرًا رائعًا، ليس لإنجازاته الفعلية؛ ولكن لكونه نجح في ظل ظروف الحرب الصعبة للغاية، ورغم الكثير من المعارضة. تمكَّنت النساء من ممثِّلات البلدان على طرفي الحرب من الالتقاء معًا في هولندا المحايدة والاتفاق على مقترحات لمحاولة حلِّ النزاع ومنع الحروب المستقبلية. ألقت أليتا جاكوبز - بصفتها المنظمة الرئيسية - الكلمة الافتتاحية في لاهاين وساعدت في صياغة قرارات المؤتمر، بينما ترأَّسَت إجراءات المؤتمر جين آدامز الإصلاحية الاجتماعية الأمريكية؛ إذ كانت تحظى بالكثير من الاحترام في ذلك الوقت.

في أعقاب هذا المؤتمر، كما تقول جاكوبز، سافر وفدان إلى عواصم أوروبية مختلفة لتقديم مقترحاتهم إلى كبار المسؤولين في الحكومات الأوروبية المختلفة، كانت جاكوبز وآدامز على رأس أحد تلك الوفود، بينما كانت رزيكا شويمر وكريستال ماكميلان على رأس الوفد الأخر. على الرغم من أن جاكوبز تحكي تلك القصة بالكثير من الدرامية في مذكِّراتها إلَّا أن هذه الجهود الدبلوماسية الفردية، سواء في أوروبا أو لاحقا في الولايات المتحدة، كان لها تأثير ضئيل أو معدوم على حالة الحرب.

لكن النتيجة المباشرة والملموسة بشكل كبير للمؤتمر الدولي للمرأة في لاهاي هي إنشاء ما أُطلِق عليه في نهاية المطاف «الرابطة النسائية الدولية للسلام والحرية»، والتي تعتبر أهم منظمة سلام نسوية في القرن العشرين. لعبت أليتا جاكوبز دورًا أساسيًّا في تأسيس تلك الرابطة، وشغلت منصب نائب رئيس الرابطة في سنواتها الأولى. حصلت جين أدامز، أول رئيس لتلك الرابطةعلى جائزة نوبل للسلام في عام 1931.

بمجرد حصول المرأة على حق الانتخاب في هولندا عام 1919، واصلت جاكوبز جهودها من أجل السلام العالمي الدائم. كانت قَلِقَة للغاية بشأن الوضع الاقتصادي المزري في ألمانيا ما بعد الحرب، والآثار السلبية طويلة المدى لمعاهدة فرساي. لكن بحلول هذا الوقت، كانت جاكوبز تقترب من السبعين عامًا، وفي حالة صحية سيئة، تدهور وضعها المالي أيضًا. على الرغم من أنها كانت لا تزال تحضر المؤتمرات الدولية بقدر الإمكان، إلا أنها كانت تفتقر إلى القوة والطاقة لبدء حملة نضال دولية جديدة.

منظور مقارن

على الرغم من الاعتراف بدور جاكوبز المهم بشكل عام في كلٍّ من تحديد النسل وحركة النساء من أجل السلام خلال الحرب العالمية الأولى، إلا أن أكثر ما يميِّز أليتا جاكوبز عن الطبيبات الرائدات الأخريات والنسويات من الموجة الأولى؛ هو عدد القضايا النسائية المختلفة التي تبنَّتها شخصيًّا ودافعت عنها بنشاط. لا يمكن مقارنتها بسهولة بأي فرد آخر، على الرغم من أنها تشترك في العديد من الخصائص مع مجموعة متنوعة من الطبيبات والمدافعات عن حق المرأة في الانتخاب.

كرَّسَت معظم الطبيبات في القرن التاسع عشر حياتهن لممارسة الطب. على الرغم من أن الرواد الطبيين مثل إليزابيث بلاكويل وجاريت أندرسون وفرانزيسكا تيبروتوس قد روَّجن للتعليم الطبي للمرأة، وتعاطفن في كثير من الأحيان مع العديد من القضايا النسوية ودعَّمنها، إلا أنهن لم يتولَّين بشكل عام مناصب قيادية في المنظمات النسوية. وبالمثل، فإن الزعيمات الأُوليات للحركة النسوية؛ مثل

سوزان. ب. أنتوني وإليزابيث كادي ستانتون في الولايات المتحدة، وجوزفين بتلر وإميلي ديفيز في إنجلترا- يَمِلن إلى الارتباط بجانب أو ربما جانبين من جوانب الحركة النسوية. على سبيل المثال، رفيقة جاكوبز في السفر، كاري تشابمان كات، شاركت بشكل أساسي في الترويج والنضال من أجل حق المرأة في الانتخاب معظم حياتها، على الرغم من أنها شاركت لاحقًا في أنشطة المنظمات النسوية من أجل السلام أيضًا. على النقيض من ذلك، كانت جاكوبز تشارك في مجالات متعددة من النضال النسوي، كطبيبة و كنسوية، في هولندا وكذلك على المستوى الدولي.

تمكَّنَت طبيبة نسوية أوروبية أخرى، وهي السيدة الروسية آنا شابانوفا (1848 - 1932)، من الجمع بين مهنة الطب والقيادة في الحركة النسوية في روسيا. إذ اختارت أن تصبح نسوية ليبرالية بارزة تدافع عن حق المرأة في التصويت، بدلًا من أن تكون راديكالية أو اشتراكية، شبانوفا تشبه جاكوبز، لكنها اختلفت عن العديد من الطبيبات الروسيات الأخريات في عصرها. كانت عضوًا في أول دفعة تخرَّجَت في الأكاديمية الطبية النسائية في سانت بطرسبرج عام 1877، وكانت طبيبة أطفال ممارسةً وباحثة ومعلِّمة وكاتبة، بالإضافة إلى أنها ناشطة اجتماعية وناشطة من أجل السلام قبل الحرب العالمية الأولى. كانت شابونوفا أيضًا أكثر تحفُّظًا من جاكوبز، ولم تناضل أبدًا في قضايا مثل تحديد النسل وإلغاء تنظيم الدعارة، كانت مسيرة شابانوفا المهنية وأهدافها موازية تمامًا لجاكوبز، على الأقل حتى عام 1914، كلتاهما تجنَّبَتا التَّشدُّد وفضَّلَتا العمل من خلال القنوات القانونية والعلاقات الشخصية لتحقيق المساواة السياسية والاقتصادية للمرأة مع الرجل.

كانت هناك زعيمة نسوية أوروبية أخرى تشترك مع أليتا جاكوبز في الكثير من الصفات، وهي روزيكا شويمر، والتي كانت جاكوبز بالنسبة لها بمثابة المعلم والقدوة. تنتمي شويمر لعائلة يهودية مجرية من اللاجئين، لكنها لم تتلقَّ أي تعليم عالٍ. كانت شويمر، وهي صحفية غزيرة الإنتاج وخطيبة مفوَّهة، تعمل على تنظيم نساء الطبقة العاملة، وأسَّسَت جمعية حق الانتخاب للمرأة المجرية. مثل جاكوبز، شاركت في حملة تحديد النسل وإصلاح منظومة الزواج، وكانت ملتزمة مؤيِّدة للسلام، وكذلك حق المرأة في الانتخاب. لعبت شويمر دورًا حيويًّا في تشكُّل وتطوُّر الحركة النسوية في المجر قبل الحرب العالمية الأولى، وكذلك كانت عضوة نشطة في التحالف الدولي لحق المرأة في الانتخاب، التقت جاكوبز وشويمر في 1903؛ ممَّا طوَّر علاقتهما إلى صداقة قوية، وتمَّت بينهما مراسلات بانتظام، وشاركَتَا معًا في العديد من المؤتمرات. لكن أساليبهما الشخصية كانت مختلفة؛ شويمر أكثر تشدُّدًا بكثير من جاكوبز في سلوكها وآرائها السياسية، وكانت شخصية شويمر أكثر استبدادًا وقَلَقًا. قضت شويمر السنوات الأخيرة من حياتها كمهاجرة ومنبوذة في المجتمع الأمريكي، بينما وجدت جاكوبز في شيخوختها تكريمًا في وطنها.

الهويَّة اليهودية

كانت إحدى الروابط التي تربط جاكوبز وشويمر هي ما يمكن أن نسميه الوعي بتلك الهوية اليهودية المشتركة. حافظت أليتا جاكوبز على هويتها كيهودية بشكل خاص. وكان من الواضح أن الآخرين ينظرون إليها على أنها يهودية، وهي لم تنكر «يهوديتها»،

لكنها فضَّلَت عدم مناقشة هذا الموضوع علانية. أشارت إلى نفسها على أنها «يهودية متجوِّلة» في مراسلاتها الخاصة، وفي رسائلها إلى شويمر غالبًا ما أشارت أن أشخاصًا آخرين بلفظ اليهود، لكن يبدو أنها افتقرت تمامًا لكونها شخصية يهودية عامة، واعتبرت نفسها «مواطنة عالمية»، مثل معظم النساء اليهوديات في عصرها. لم تتلقَّ أي تربية يهودية أولية، ولم تذكر أجدادها في مذكِّراتها، أو أيَّ مناسبات يهودية أقيمت في منزل طفولتها. بصفتها مفكِّرة حرَّة، لم تكن تنتمي إلى مجتمع ديني منظَّم أو دين مكروه من أي نوع. بالتأكيد لم تكن صهيونيَّةً أو قومية يهودية، عندما سافرت إلى فلسطين لم تُظهِر أي اهتمام طائفي بالمواقع اليهودية أو فكرة الوطن القومي لليهود. خلال زيارتها لسراييفو، أثارت اهتمامها عادات النساء السَّفَرديم هناك، لكنها أشارت إليهم على أنهم إسبان وليسوا يهودًا، تمامًا كما تفضِّل أن تسمي مسلمي البوسنة الأتراك، على الرغم من حقيقة أنه لم يكن هناك فعليًا أي أتراك أو إسبان يعيشون في سراييفو قبل الحرب العالمية الأولى بوقت قليل.

مثل جاكوبز وشويمر، العديد من النسويات اليهوديات، وكذلك الاشتراكيات في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين؛ يمِلن إلى التقليل من ارتباطتهم الدينية باليهودية أو ارتباطاتهم الاجتماعية بالمجتمع اليهودي، وذلك على الرغم من أنهن غالبًا ما ارتبطن باليهود الآخرين ذوي التفكير المتفتح. رفض بعض المستوطنين اليهود في أوروبا الشرقية والإصلاحيين الاجتماعيين في أوروبا الغربية الفكرَ الرجعي لعائلاتهم اليهودية تمامًا. روزا لوكسمبورغ (1879-1919) بولندية الأصل ومُنظِّرة ديمقراطية اجتماعية حاصلة على دكتوراه في العلوم السياسية من زيورخ؛ لم تكن مهتمَّةً بالمسائل

اليهودية ولا النسوية. كتبت ذات مرة إلى صديقتها اليهودية: «لماذا تأتينني بحزنك اليهودي الخاص؟ فأنا لا أحمل في قلبي أي مشاعر تجاه الحي اليهودي الجيتو، كما أشعر أن وطني الحقيقي هو العالم بأسره...». آنا كوليسيوف (1855-1925) الطبيبة النسوية الإيطالية الاشتراكية، التي بدأت حياتها باسم آنا روزنستاين في روسيا، ودرست الطب في زيورخ وبافيا؛ قطَعَت أيضًا كل الصِّلات مع المجتمع اليهودي الذي وُلِدَت فيه، لكنها أعربت عن تعاطفها أحيانًا مع اليهود المضطهدين.

مثل النساء اليهوديات الحديثات بشكل عام، أظهر الجيل الأول من الطبيبات والنسويات اليهوديات طيفًا فكريًّا أوسع من الهوية اليهودية، لكن معظمهن تخلَّين إلى حدٍّ كبير عن الممارسات الدينية التقليدية. على الجانب الآخر من النهر الذي سارت فيها جاكوبز، كانت راهيل جويتين ستراوس (1880 - 1963) أول طالبة طب في هايدلبرج في مطلع القرن العشرين، والتي احتفظت بهويتها اليهودية، وكان لديها بيت يهودي تقليدي مع زوجها وأطفالها الخمسة، وشاركت بنشاط في كل من الحركة الصهيونية، والمنظمة النسائية اليهودية الألمانية، ورابطة النساء اليهوديات، مع استمرار ممارستها الطبية الخاصة وإلقاء محاضرات حول الجنس وإصلاح التشريعات المناهضة للإجهاض. كان التزام راهيل ستراوس القوي تجاه المجتمع اليهودي أكثر استثنائية بين النساء اليهوديات ذوات التعليم العالي، وكانت بذلك على العكس تمامًا من أليتا جاكوبز.

ومع ذلك، فإن الانفصال عن الجذور اليهودية للفرد لم يقدِّم الحماية الكافية لهؤلاء النساء من معاداة السامية. من بين المصلحين الاجتماعيين اليهود المندمجين الناشطين في حركة المرأة الألمانية،

كانت الأبرز أليس سالومون (1872 - 1948)، مبتكرة مهنة العمل الاجتماعي الحديثة في ألمانيا، حاصلة على درجة الدكتوراه في اليهودية في سنٍّ مبكِّرة، وتمَّ تعميدها كبروتستانتية في عام 1914. ومع ذلك، على الرغم من أنها عملت كسكرتيرة ونائبة رئيس اتحاد الجمعيات النسائية الألمانية، وأيضًا بصفتها سكرتيرة للمجلس الدولي للمرأة لسنوات عديدة، مُنِعَت من تولي رئاسة اتحاد الجمعيات النسائية الألمانية بعد الحرب العالمية الأولى؛ بسبب معاداة السامية. جاكوبز لا تذكر معاداة السامية، ولكن حتى لو لم تختبرها شخصيًّا، فقد كانت بلا شك على دراية بهذه المشكلة، والتي أثَّرَت سلبًا على حياة النسويات اليهوديات الأخريات، بما في ذلك ليس فقط سالومون، ولكن أيضًا روزيكا شويمر وروز مانوس.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

خاتمة

في تلك المذكرات، تبدو أليتا جاكوبز كقائدة لديها الكثير من الثقة بالنفس، وشخصية حيوية وقوية للغاية، مصمِّمة على تحقيق أهدافها، وتُفضِّل كثيرًا إصدار الأوامر بدلًا من اتِّباعها. على الرغم من أنها تعترف أحيانًا بمساهمات النساء الأخريات اللائي عملن معها، لا سيَّما في حركات الاقتراع والسلام، فإنها غالبًا ما تقدِّم نفسها على أنها الناشطة الوحيدة التي تحاول النظر إلى الجانب المشرق للأشياء، والتأكيد على الإيجابيات والتقليل من السلبيات التي واجهتها، لا ترغب في الكشف عن نقاط ضعفها أو مشكلاتها الشخصية. في مراسلاتها المكثفة، والتي نُشِر بعضها باللغة الإنجليزية، يمكننا أن نلقي نظرة على شخصية أليتا جاكوبز الأقل رسمية والأكثر ضعفًا. على الرغم من ذلك، فهي تظل شخصية متفرِّدة للغاية حيث احتفظت بالكثير من أفكارها ومخاوفها الداخلية بشكل سرِّيٍّ، ولم تُعبِّر عنها كثيرًا في كتاباتها.

كانت جاكوبز تتحدث الإنجليزية والألمانية والفرنسية، بالإضافة إلى لغتها الأم الهولندية، وألقت محاضرات باللغتين الألمانية والإنجليزية خلال جولاتها المختلفة حول العالم. ومع ذلك، فإن جميع أعمالها المنشورة تقريبًا، باستثناء بعض كتب رحلاتها، كُتِبَت باللغة الهولندية. على الرغم من أنها قامت بالكثير من الجولات للتحدث في هولندا وأماكن أخرى أثناء مشاركتها في حملات حق المرأة في التصويت، إلا أنها لم تشعر أبدًا براحة كبيرة كمتحدِّثة عامة، وفضَّلَت كثيرًا نقل أفكارها كتابيًّا. نشرت العديد من المقالات التي لاقت الكثير

من الشهرة، والتي دافعت فيها عن حقوق المرأة في مختلف الصحف والمجلات الهولندية، وكتبت النَّصَّ المصاحب بالرسوم التشريحية في كتاب يتناول الجسد الأنثوي حتى تتمكَّن النساء الهولنديات من التعرف على وضع ووظيفة أعضائهن التناسلية. وفي إطار جهودها لرفع مستوى الوعي بشأن الوضع الاقتصادي الصعب للمرأة، قامت بترجمة كتاب «المرأة والاقتصاد» لشارلوت بيركنز جيلمان، وكتاب «النساء والعمل» لأوليف شرينر، إلى اللغة الهولندية. كما كتبت كتابًا عن سيرة ستٍّ من النساء الرائدات في الحركة النسائية العالمية، وجميعهن إمَّا أمريكيات أو بريطانيات. احتفظت بمذكرات مفصَّلة عن رحلاتها مع جريتسن ومع كاري تشابمان كات، والتي ظهرت أجزاء منها في شكل تسلسلي في الصحف، وفيما بعدُ في كتب. تركِّز معظم كتاباتها - بما في ذلك مذكراتها؛ آخر أعمالها المهمة - على المرأة ومكانتها في المجتمع.

كيف رأى الآخرون أليتا جاكوبز في حياتها؟ تصفها كاري تشابمان كات، إحدى صديقاتها المقربات، والتي سافرت معها في إفريقيا وآسيا لمدة خمسة عشر شهرًا، بقدر كبير من المودة والاحترام: «كنا على حدٍّ سواء قويَّتَيْ الإرادة، عنيدتين، متشبِّثتين برأيَيْنا، ومع ذلك فإننا صنعنا صداقات راسخة. فهي على الأقل نالت الكثير من الاحترام من كثير من الأصدقاء. إن إخلاصها لقضية المرأة، وثقافتها العامة الجيدة، وذاكرتها القوية، وحكمها الهادئ، وحماسها الذي لا يتوقف، تجتمع لجعلها امرأة عظيمة ورائعة حقًّا»[54]. كانت أليس هاميلتون، الطبيبة الأمريكية التي رافَقَت جين أدامز وجاكوبز في بعثتهما الدبلوماسية في عام 1915، ومرة أخرى في عام 1919- أقلَّ سخاءً عندما صوَّرَت جاكوبز على أنها «امرأة مُسِنَّة، حازمة للغاية، سريعة الانفعال إلى

حدٍّ ما، وقادرة تمامًا على إدراك ما يحقِّق لها راحتها الشخصية». المقيِّمون الآخرون لجاكوبز يخففون أحيانًا من مدحهم. بينما تشير إحدى كاتبات سيرة مارجريت سانجر إلى جاكوبز على أنها «بطولية»، يصفها آخر بأنها «مستبدَّة» لأنها لم «تتنازل» لمقابلة سانجر[56]. على الرغم من أن معاصريها كانوا يحترمون جاكوبز ويعجبون بها بشكل عام، إلا أنهم لم يكونوا دائمًا مولعين بها كشخص، وبالأخص بعد أن أصبحت صعبة المراس في سنوات حياتها الأخيرة.

في خطاب كتبته إلى كاري تشابمان كات في عام 1928، قبل عام من وفاتها، لخَّصَت أليتا جاكوبز التغييرات التي ساعدت في إحداثها خلال حياتها:

«أشعر بالسعادة لأنني رأيت الأشياء الثلاثة العظيمة التي أردتها لحياتي تتحقَّق وأنا على قيد الحياة... وهي: فتح جميع الفرص أمام النساء في التعليم، وجعل ذلك الأمر واقعًا لا يمكن التغافل عنه؛ جعل الأمومة مسألة رغبة وليست واجبًا؛ والمساواة السياسية للمرأة.

من خلال تلك الحقوق الثلاثة التي حصلت النساء عليها حديثًا، تستطيع النساء الحصول على الكثير من المساواة القانونية والاجتماعية والاقتصادية الكاملة بسهولة إذا رغبن في ذلك حقًّا. وأنا أشعر بأن ذلك اليوم قد أصبح أقرب من أي وقت مضى، لن يستغرق الأمر وقتًا طويلًا قبل أن تصل نساء العالم إلى هذا الهدف. لا يا عزيزتي كاري، أنا على يقين أننا لم نعش من أجل اللا شيء.

لقد أنجزنا مَهمَّتنا، ويمكننا أن نترك العالم ونحن مقتنعون بأننا تركناه في حالة أفضل ممَّا وجدناه عليها».

قدَّمت جاكوبز وزميلاتها في الحركة النسوية في مطلع القرن العشرين بالفعل الكثيرَ من المساهمات المهمة في تحسين حياة المرأة، لكن تقييمها لإنجازات موجة النسوية التي مثَّلتها كان مفرطًا في التفاؤل. حصلت النساء على إمكانية الوصول إلى التعليم العالي، ولكن لم يتمَّ قبولهن في مِهَن الذكور بحلول وقت وفاة جاكوبز، أصبحت عيادات تحديد النسل أكثر انتشارًا في كلٍّ من أوروبا وأمريكا، وانخفض معدل المواليد بشكل كبير، ولكن وسائل منع الحمل الفعَّالة لم تكن متاحة بسهولة، وظلَّ الإجهاض غير قانوني. وقد تحسَّنَت ظروف عمل المرأة إلى حدٍّ ما، لكن المرأة ما زالت تتعرَّض للاستغلال وتدني الأجور. تم تحرير الدعارة، ولكن لم يتم القضاء عليها، واستمرَّت الأمراض المنقولة عن طريق الاتصال الجنسي في الانتشار. لقد فازت المرأة بحق التصويت، لكن تصويت المرأة لم يكن له تأثير يُذكَر على العملية السياسية. حركة السلام النسائية التي ظهرت خلال الحرب العالمية الأولى أصبحت عاجزة عن مكافحة صعود النازية والانفجار اللاحق للحرب العالمية الثانية.

بفضل العمل الشاق لجاكوبز والنسويات الأخريات في القرن التاسع عشر، قطعت النساء شوطًا كبيرًا، لكن لا يزال أمامهن طريق طويل للغاية لتحقيق الكثير من أهدافهن.

أنماط التَّذكُّر

خاتمة أدبية

كتبت جاكوبز في مقدِّمة مذكراتها: «إن مذكرات النساء نادرة نسبيًّا في هذه البلد». كان لديها بالفعل القليل من الكتابات السابقة، والتي يمكنها الاقتداء بها في تصوير ازدحام حياتها وما تتمتع به من ثراء متميز من الأنشطة، والقضايا، والعلاقات. وسَعَت في كتابة مذكراتها على الحصول على شكل مناسب لهذا التَّنوُّع، وكتبت نصًّا لسيرتها الذاتية التي رأت أنه مناسب لعرضه أمام الجمهور.

يتَّسِم هيكل هذه المذكرات الشخصية جزئيًّا بالتسلسل الزمني، وجزئيًّا بالطابع الموضوعي. تروي الفصول الأربعة الأولى عن طفولتها، وسنواتها الدراسية، والسنوات الأولى من ممارستها لمهنة الطب. وكل فصل من الفصول الخمسة الوسطى - التي أحب أن أسميها «فصول النضال» - مُكرَّسة لقضية رئيسية ألزمت جاكوبز بها نفسها. تشكَّلَت الفصول الأربعة الأخيرة، مثل الفصول الأربعة الأولى، تسلسلًا زمنيًّا: من بداية علاقتها بزوجها كارل فيكتور جريتسن، إلى الاحتفال بعيد ميلادها السبعين.

كانت التزامات جاكوبز المهنية والسياسية والشخصية متشابكة ومتداخلة بشكل كبير، عملت جاكوبز على تلك القضايا والالتزامات في أوقات متوازية، أحيانًا مع نفس الحلفاء أو الخصوم من خلال المنظمات المرتبطة بها. ونتيجة لذلك، وفي كثير من الأحيان، تخبرنا

جاكوبز عن نفس الحدث في فصلين مختلفين. وفي أحيان أخرى يكون أحد الأحداث ببساطة أكثر تفصيلًا من الآخر، أو يتم تسليط الضوء على جوانب مختلفة من نفس التجربة. وبعيدًا عن كونها ميزة أحيانًا، فإن هذه الاختلافات تلقي نظرة خاطفة على عملية جاكوبز في تصنيف ودمج وفصل وصياغة الأحداث والسرد.

على سبيل المثال، ذكرت جاكوبز مؤتمر لندن للمجلس الدولي المرأة عام 1899، والذي كان بمثابة تجربة مثيرة لجاكوبز وفترة هامة في الدفاع عن حق المرأة في التصويت والدفاع عن قضايا المرأة بالتفصيل في الفصل العاشر، والمعنون بـ«زواجي من كاريل فيكتور جريتسن»، ولكن هناك ذِكرٌ بقدر أقل من التفصيل في الفصل السادس «حملة الدفاع عن حق المرأة في الاقتراع»، والذي يمكن القول إنه المكان المناسب لذكر تفاصيل المؤتمر. وأبرزت في ذلك الفصل لقاءها الأول الذي لا يُنسَى مع سوزان. ب. أنتوني وغيرها من القادة العالميين في مجال حق المرأة في الاقتراع. أمَّا في الفصل العاشر، تبرز جاكوبز أنها ذهبت هي وزوجها إلى المؤتمر معًا. وذكرت بكل فخر أن زوجها كان واحدًا من الرجال القليلين الذين تحدَّثوا في المؤتمر، وأن تجربة تقديمه مرارًا وتكرارًا على أنه «زوج الدكتورة جاكوبز» جعلته يدرك ما قيمة أن يُنظر إلى المرء على أنه تابع لزوجته.

القصة بأكملها في فصلها «في المنزل»، ويشير تضمين جاكوبز للنسخة الأكثر تفصيلًا من تجربة الاقتراع المهمة هذه في سرد جريتسن إلى المزج الذي كانت تعتزُّ به بشدة، بشراكتهما في الحب والعمل.

إن هوية جاكوبز كطبيبة كانت هي أكثر ما أرادت أن تُعرَف به خلال سنواتها الأولي في الدراسة، وقد سعت واجتهدت من أجل أن

تحصل على ذلك الاعتراف في سنوات الدراسة. ولكن في سنوات العمل العام لا تظهر تلك الهوية بشكل متكامل، فغالبًا ما انشغلت جاكوبز بالكثير من القضايا والأنشطة الأخرى. تبدأ في الفصل الرابع المعنون بـ«السنوات الأولى من ممارسة الطب»، نرى بوضوح أن ممارستها للطب لم تكن مقتصرةً على التعريف الضيق للممارسة الطبية في وقتها، بل يتعرض الفصل للمشاكل والصعوبات الأعم التي واجهتها النساء في ذلك الوقت، على سبيل المثال؛ إجبار النساء على التقيد بالجلوس في مقاعد الشرفة في المسرح، ونظرات الارتياب التي كانت تتلقَّفها حين تسير بمفردها في الليل. ومع ذلك على الرغم من اختيارها عدم جعل الخمسة والعشرين عامًا من ممارستها للطب مُركَّزة على ممارسة الطب فقط، توضح جاكوبز مرارًا وتكرارًا أن العناية بمرضاها هي التي قادتها إلى الدفاع عن قضايا مثل تنظيم الأسرة، وتحسين ظروف العمل للفتيات البائعات، والقضاء على الأمراض المنقولة جنسيًّا، وهذه الهوية المشتَّتة كطبيبة يُنظر إليها على أنها حاسمة في العديد من نضالاتها السياسية. وتروي أيضًا أحداثًا فكاهية أو مخيفة من رحلاتها، والتي ما زالت فيها هويتها كطبيبة بارزة، على الرغم من أنها تخلَّت منذ فترة كبيرة عن الممارسة الطبية بشكل فعلي.

ناقشت بشكل أكثر تفصيلًا كيف يبدو أن المادة الغنية والأحداث الكثيرة التي مرَّت عليها خلال حياتها، تقاوم التحول إلى قصة واحدة مُتَّصِلة أو سلسلة من القصص المنفصلة[97]. ومع ذلك فإن الانطباع العام عن تلك المذكرات هو أنها كانت مُقنِعة وموجَّهة ولديها الكثير

97- كان هناك الكثير من النقاش حول معنى ما يبدو أنه انقطاع وكتابة عرضية في العديد من أعمال السيرة الذاتية للنساء. حتى نظرة عامة على النشاط العلمي الأخير حول السيرة الذاتية للمرأة هي أبعد من نطاق هذه الكلمة الختامية. على الرغم من أنني أود أن أذكر - كمصادر مفيدة بشكل خاص - مجلدات بروزدكي وستشينك: وبينستوك وهيلبرون. وفصلًا «كتابة الحياة» في ويكسلر.

من الإشارات المرجعية في الكتابة، والتي توازن من خلالها بين حكي الأحداث وتقديم نفسها بشكل منضبط ومتَّسِق للغاية في سياق حكيها للأحداث.

ومن المثير أيضًا للاهتمام أن تقديم ذاتها خلال تلك المذكرات لم يحدث فقط من خلال كلماتها الخاصة، ولكن أيضًا من خلال الاقتباسات والمراجع الكثيرة التي أوردتها في سياق الحكي. ربما تأثرت من كتابة السيرة الذاتية في غرفة الدراسة المليئة بالتذكارات المطبوعة، وأدرجت جاكوبز في مذكراتها مقالات صحفية كاملة، ومقتطفات من مقالات، ومقتبسات قصيرة، وإعادة صياغة مواد منشورة، وإشارات عديدة إلى أعمال منشورة أو غير منشورة، بما في ذلك أعمال جاكوبز وجريتسن.

وتعتمد على مراسلاتها الخاصة، وكذلك على الصحف المهنية والمنشورات النسوية. وتبدو قصتها أحيانًا عبارة عن مجموعة من المصادر تقريبًا، من خلال الاقتباس المباشر أو جُمَلٍ مثل «كنت دائمًا في الصحف» و«عدد كبير من الرسائل والبرقيات تصل وترسل كل يوم».

من خلال تلك الإشارات المتكررة إلى مراسلاتها الدولية، نعرف أن جاكوبز كانت على علاقة جيدة بالكثير من الناشطات النسويات في تلك الفترة، كما ضمَّنَت جاكوبز الكثير من آرائهم في تلك المراسلات وكتبت عن الذكريات الخاصة التي تجمعها ببعضهن. أيضًا، ومن خلال وصفها لعلاقتها بجريتسن، نجد إشارات متكرِّرة بشكل خاص إلى كتاباتهما: المراسلات المستمرة كلما كانا منفصلَيْن، مُسَوَّدات المقالات التي شاركاها دائمًا مع بعضهما البعض قبل إرسالها للنشر،

وكتابة يوميات سفر مشتركة. بالأخذ بمجمل الآراء الأخرى المضادة لها والآراء التي تدعِّمها، فإنه يتضمَّن دليلًا على تملُّق جاكوبز الذي قد يبدو ادعاءً وغرورًا منها للوهلة الأولى. لكن تلك المراسلات والتضمينات تعطينا فرصة لنرى جاكوبز كشخصية اجتماعية ومشهورة في ذلك العصر.

لدى هذه المذكرات الحضور والغياب المميز في نفس الوقت. تسير المذكرات عبر ثلاثة عناصر رئيسية؛ وهي: المؤتمرات الدولية، والسفر، والصداقات النسائية؛ لكن هناك الكثير من الأشياء التي غفلت عن ذكرها جاكوبز، مثل بعض العلاقات الإنسانية الصعبة التي مرَّت بها، أو عن الأشياء التي مرَّت بها كونها يهودية.

يحفل الكتاب بالكثير من الذِّكر للعديد من المؤتمرات الدولية. من الواضح أن جاكوبز استمتعت في جميع فترات حياتها بمثل تلك المؤتمرات، والتي أتاحت لها مقابلة الأشخاص ذوي التفكير المماثل؛ فكتبت عن ذلك. لقد أحبَّت التقدير المهني الذي لاقته خلال تلك المؤتمرات، وأيضًا العيش المشترك، والاحتفالات والرحلات، وفتح آفاق الفكر، واللقاءات مع نجوم المجتمع من جميع الأطياف، ولَمَّ الشمل مع الأصدقاء، والظروف المناسبة للتحدث بطريقة مقنعة أو ملفتة، وأحيانًا مزعجة.

تغيَّر لدى جاكوبز لاحقًا المعنى الحيوي والعاطفي للمؤتمرات كلَّما أصبحت أكثر نُضجًا وكبرت في السن، ولكن لم ترغب في الابتعاد تمامًا. فتكتب عن إعجابها بالمؤتمر الطبي الدولي لعام 1879 في أمستردام، وهو أول مؤتمر حضرته، عندما كانت شابَّةً في الخامسة والعشرين من عمرها. هناك عرفت لأول مرة إحساس الاعتراف المهني بها،

والتقدير لها، ووجَدَت فرصة للاختلاط ببعض الأطباء المشهورين. تؤكِّد روايتها عن مؤتمر 1908 للتحالف الدولي لحقوق المرأة في أمستردام، بعد ما يقرب من ثلاثة عقود، على طاقتها وفخرها بتوليها المسؤولية، وتنظيم المناصرين الهولنديين لحق الاقتراع لاستضافة الحدث بأكمله: الهيكل والضيافة والدعاية. المؤتمرات التي حضرتها جاكوبز في سنواتها الأخيرة، وخاصة مؤتمرات التحالف الدولي لحقوق المرأة ورابطة النساء الدولية للسلام والحرية، أصبحت فرصة أخرى لِلَمِّ الشمل ورؤية الأصدقاء الأعزاء الذي كبروا سويًّا وكانوا يعيشون على بُعد آلاف الأميال من بعضهم البعض[98].

برفقة زوجها، الذي كان مُشرِّعًا هولنديًّا لسنوات، حضرت العديد من المؤتمرات السنوية للاتحاد البرلماني الدولي. كتبت جاكوبز أنها لم تكن ناشطة في الدعوة للسلام في ذلك الوقت، واستخدمت هذا بشكل أساسي لجعل قضية حق المرأة في التصويت قضية دولية[99]. ومع ذلك، فإن هذه التجارب السنوية لرؤية مندوبين من العديد من الدول يحاولون بناء مؤسسات وممارسات من شأنها أن تدعم السلام بلا شك ساهمت أيضًا في جعلها قادرة لاحقًا على تصوُّر وتحقيق هدفها وسط الكارثة الساحقة للحرب الأوروبية.

98- تأسست الرابطة النسائية الدولية للسلام والحرية (WILPF) في عام 1919 في زيورخ. على يد مجموعة من النساء اللائي شاركن في مؤتمر لاهاي. عرفت جاكوبز العديد من نساء WILPF من خلال عملها على حق التصويت. انظر الفصلين السادس والثامن.

99- كان الاتحاد البرلماني الدولي عبارة عن تجمُّع للعديد من أعضاء البرلمانات من دول مختلفة. وكان الهدف منه تعزيز الحكم والنهج اللاعنفي للمشاكل الدولية. وعقد اتحاد البرلمانات ثمانية عشر مؤتمرًا دوليًّا في المدن الأوروبية والأمريكية بين عام 1889 واندلاع الحرب العالمية الأولى. ورحَّب تيودور روزفلت. بالمشاركين في اجتماع سانت لويس عام 1904. آخر اجتماع حضره كل من جاكوبز وجيرستين قبل وفاته. في البيت الأبيض. توقف المؤتمر مرتين بسبب الحرب العالمية ثم أعيد تنظيمه. لا يزال الاتحاد البرلماني موجودا حتى الآن وتقع مقراته في جنيف.

خلال سنوات ما قبل الحرب، وخاصة من خلال إدارة مؤتمر التحالف الدولي لحقوق المرأة عام 1908، كانت جاكوبز تراقب أوَّلًا، ثم تقوم هي نفسها بتطوير المهارات الإدارية والتنظيمية والشبكات التي كانت ستستخدمها بشكل أكثر فاعلية في ما قد يكون أفضل حينها؛ تنظيم مؤتمر النساء الدولي أبريل 1915 في لاهاي حيث اجتمعت اثنتا عشرة امرأة من الدول المحاربة والمحايدة للاحتجاج على الحرب.

إلى جانب روايتها لمؤتمرات الاقتراع والسلام، تكتب جاكوبز أيضًا عن حضور العديد من المؤتمرات الطبية الدولية، ليس فقط خلال سنوات ممارستها، ولكن لبقية حياتها. من خلال تضمين العديد من هذه الأحداث الدولية، فإنها توازن بين العديد من الصفحات المخصَّصة للسياسة الهولندية الداخلية ووضع النساء الهولنديات، وتظهر في هوية دولية، ولكن هولندية للغاية.

كما ازدهرت في حضور المؤتمرات الدولية وتنظيمها، جاكوبز محبَّة للسفر. في وقت مبكِّر من خيال طفولتها انتوت الهروب إلى أمريكا متنكِّرة في زي صبي، تبرز آفاق بعيدة في شخصيتها. مثَّلَت حرية التَّنقُّل لها أمرًا مهمًّا، سواء عبر الحدود أو - في السنوات الأولى من ممارستها الطبية - بأن تسير ببساطة في شوارع أمستردام، في بعض الأوقات والأماكن التي لم تشعر فيها النساء «المحترمات» بالحرية في المشي. تسهب جاكوبز في ذكريات سفرها في كل فرصة ساخرة، تحنُّ للماضي، متفلسفة قليلًا، هزلية، مرحة، وملتزمة بشكل كبير بتلك التقلبات.

في هذا الكتاب المليء بالاجتماعات مع العظماء وشبه العظماء، من

الرؤساء إلى الباباوات، لا تزال تحِنُّ إلى الحوادث المؤسفة في رحلاتها، واستمرَّت في الكتابة عنها بالصفحات. في الواقع، تمَّ تصوير صداقتها المهمة والوثيقة مع كاري تشابمان كات بحماسة شديدة من خلال حكاية من هذا القبيل: الوقت الذي قامت فيه هي وكات، في جولة الاقتراع في عام 1906، باستقلال القطار الخطأ من براغ، والنوم في سقيفة أحد الفنادق المزرية، وكان يومًا مروِّعًا بعد ذلك. وبالمثل، توضِّح جاكوبز الكثير من الأمور المهمة في علاقتها مع جريتسن تحدث خلال رحلاتهما العديدة. في جولة سيرًا على الأقدام في سويسرا، قرَّرا الارتباط ببعضهما البعض، ولكن بدون زواج. بعد بضع سنوات، قاما برحلة إجازة طويلة إلى جزيرتَيْ جيرسي وجيرنزي لاتخاذ خيارات بشأن مستقبلهما، وفي الرحلة قرَّرا الزواج مع الحفاظ على استقلال كلٍّ منهما اقتصاديًّا بأكبر شكل ممكن.

في خلال وصف تلك الرحلات العديدة، غالبًا ما تصوِّر جاكوبز نفسها على أنها تقوم بما يمكن أن نطلق عليه علم اجتماع الإثنوغرافيا للهواة؛ المراقبة والتعلم ومقارنة الثقافات الأخرى بثقافتها والكتابة. توضِّح عمق علاقتها بجريتسن من خلال شرح كيفية كتابة ملاحظاتهما بشكل مشترك بعد كل يوم من جولات الدراجات الهوائية. غالبًا ما كانا يحملان ملاحظات سفرهما السابقة معهما على دراجتيهما؛ لتحسين المقارنة والتعلم. علَّقت على المحتويات المتنوعة للمقالات التي كتبها كل منهما للصحف الهولندية أثناء رحلتهما إلى الولايات المتحدة عام 1904. وهي تحيل القراء الذين يريدون أكثر ممَّا ورد في الفصل الثاني عشر «جولة حول العالم»، إلى «رسائل السفر»، وهي إعادة إصدار مجموعة من المقالات مرتين أسبوعيًّا التي كتبتها بأمانة خلال رحلتها لصحيفة «التلغراف» الهولندية.

العنصر الثالث الرئيسي هو الصداقة مع النساء. ومن التناقض أن علاقات جاكوبز مع النساء كانت مغمورة جزئيًّا في السرد، على الرغم من تركيزها الموضوعي على قضايا النساء. وتؤكِّد أحيانًا على أهمية صداقاتها النسائية، ولكن لأن الكثير من مذكراتها تدور حول «النضال»؛ فإن تطوير واستمرارية هذه العلاقات أحيانًا ما يتم إغفاله. وتكتب بعاطفة عن الصداقات الدائمة، ولكن الحكايات ليست واضحة. وخُصِّصَت الحكايات الطويلة للقضايا والرحلات و جريتسن.

ويبدو أن تعاملها مع صداقتها مع كاري تشابمان كات، التي استمرت من 1904 حتى وفاة جاكوبز، تعتبر استثناءً، وخُصِّص فصل كامل لرحلتهما بين عامي 1911 - 1912 إلى إفريقيا وآسيا، ووجَّهَت جاكوبز تحية حارة إلى كات في نهاية الفصل. وتؤكد أن هذه كانت السنة الأولى التي شعرت فيها بالسعادة منذ وفاة زوجها، وتمدح طبيعة كات التي تكاد تكون قدِّيسة. وكرَّسَت تقريبًا نصف فصل «حملة الدفاع عن حق المرأة في التصويت» إلى سفرهما ومغامرتهما للاقتراع عام 1906 في النمسا والمجر.

ومع ذلك، كوَّنَت الرحلات الصداقة، وازداد الودُّ بينهما والاهتمام والمرح الخاص، جعلت كل هذه الفترات الطويلة من الوقت معًا مهمَّة لكلتيهما، لا تصبح في حدِّ ذاتها موضوعًا.

في تلك المذكرات نرى مثالًا نموذجيًا للصداقات التي ذُكِرَت ولكنها لم تتطور، تبدأ من فصل «السنوات الأولي من عملي».

تكتب جاكوبز أن شهرتها الجديدة جعلتها على اتصال مع أربع نساء: هيلين ميرسييه، وإليس هايتون، وألبردينك تيم، وكورنيلي

هيجنز- والتي عرفتهن من أعمالهن المنشورة فقط، «ولكن الصداقات التي كوَّنَّاها كانت لتدوم مدى الحياة»، ولكن باستثناء قصة واحدة لاحقة عن هؤلاء «الأصدقاء الأعزاء،» وحكايتين موجزَتَيْن عن هيلين ميرسييه، لم تكتب مرة أخرى عن هذه الصداقات المهمة بوضوح.

كما أن صداقتها مع مييل كوبس وميان فان فولفتن بالث، عضوتي عائلة برويز فان جروينو، التي كانت قريبة جدًّا منهما، لم يتم ذِكرُها كثيرًا. وتقول في الفصل الأخير إنها عندما عاشت في لاهاي، كانت محظوظة بصداقة هذه العائلة، وشعرت أنها أكثر تعلُّقًا بهم عن العديد من أفراد عائلتها. ومع ذلك، فإن العلاقة مع ميان ومييل، والتي ترجع إلى عام 1908، لم تكن لها ملامح مرسومة[100]. في الواقع لم يتم ذِكر اسم مييل أبدًا، وذُكِرَت ميان فقط كرفيقة سفر جاكوبز أثناء زيارتها لرؤساء البلاد بعد مؤتمر لاهاي، ومرة أخرى كرفيقة سفر أثناء مؤتمر زيورخ عام 1919، ومُصمِّمة للاحتفال بعيد الميلاد السبعين.

وبالمثل، ذكَرَت بعض النساء الأخريات مرَّةً أو مرتين في سياق العمل الدولي والنضال العالمي سويًّا، وقامت بمدحهن، ولكن استبعدت هذه الصداقة الخاصة طويلة الأمد التي كانت تتماشى أحيانًا مع العمل العالمي العام، على سبيل المثال، تمَّ ذِكر القائدتين النسويتين الألمانيتين أنيتا أوجسبورج وليدا جوستافا هيفمان كمؤسِّستين للتحالف العالمي لحق المرأة في الاقتراع، ومرة أخرى فيما يتعلق بمؤتمر لاهاي عام

100- كانت كلتا المرأتين نشيطتين في مجموعة من القضايا. لأكثر من عشرين عامًا ظلت ماين سكرتيرة في القسم الهولندي من الرابطة النسائية الدولية للسلام والحرية. شاركت بشكل خاص التزام جاكوبز السلمي. نشرت مايل «المثل التربوية» لماريا مونتيسوري: كان أول فصل دراسي على طريقة مونتيسوري في هولندا في منزلها.

1915، ولم يتم ذكرهما بعد ذلك. ولكن في خطاب عام 1926 إلى مييل كوبس، تكتبت جاكوبز عنهما (أنيتا وليدا) اللتين أرسلتا لها للتَّوِّ كتابًا لعيد الميلاد[101].

كانت جاكوبز مدركة جيدًا للفرق الذي يمكن أن يوجد بين الشخصية العامة والشخصية الخاصة. وفي هذا الصدد، تكتب إلى مييل كوبس، في خطاب طويل مفصَّل مع جزء كامل عمَّا تقرؤه، «إذا كنتِ مهتمَّة فيما بعدُ بالخطابات التي كتبتها روزا لوكسمبورج[102] إلى لويز كاوتسكي، أو التي كتبتها إلى سونيا ليبكنخت، وهي خطابات كتبتها من السجن؛ يمكنني أن أعيرك هذه أيضًا، فإنها تستحق القراءة؛ فهي تمكِّننا من رؤية هذه المرأة بشكل مختلف تمامًا عن الصورة التي كوَّنَّاها لها من القصص الموجودة في الصحف. تخبِّئ هذه المرأة كنزًا من الرِّقَّة وشخصيتها النبيلة وراء روحها المنفعلة». ومن المثير للدهشة، هذا الخطاب كُتب أثناء الفترة التي كانت فيها جاكوبز تعمل على كتابة قصة حياتها. وبالفعل، يقدِّم خطاب جاكوبز، كما أشارت إنج دي وايلد، جانبًا مختلفًا وأحيانًا أكثر ليونة ممَّا اختارت أن تشاركه في مذكراتها.

إن حكايات جاكوبز عن المؤتمرات العالمية، والسفر، والصداقات المهمة مع النساء تجتمع معًا بطريقة مميزة في سرد مؤتمر لاهاي

101- كتبت جاكوبز في موضع آخر «استمرت علاقة ليدا وأنيتا معًا خمسة وعشرين عامًا. في 18 ديسمبر، وكهدية، دعت ليدا صديقتها في رحلة لمدة شهرين تقريبًا إلى القسطنطينية واليونان ومصر والقدس». وهذا دليل مثير للاهتمام على أن جاكوبز ومايل قَبِلتا في بعض المستويات شراكة أوجسبرج وهيمان الأنثوية مدى الحياة. في أوجسبورغ وهايمان. بما في ذلك فحوصات علاقتهما في سياق التاريخ السحاقي.

102- روزا لوكسمبورج هي الثورية الألمانية البولندية. سُجنت روزا (1871-1919) خلال الحرب العالمية الأولى بسبب موقفها الرافض للحرب ودعوتها لثورة بروليتارية. قُتلت هي وكارل ليبكنخت، قائدة رابطة سبارتاكوس الشيوعية، على يد أعداء الثورة الألمانية في ذلك الوقت. كانت سونيا ليبكنخت زوجة كارل، ولويز كاوتسكي زوجة المنظر الماركسي كارل كاوتسكي.

الشامل، الذي يحتل المركز المادي للنَّصِّ، وهو مركز أيضًا؛ مركز عاطفي مهم في سياق سرد تلك المذكرات، وبدون أن ننسب إلى المؤتمر الفعلي أهمِّيَّةً أكبر ممَّا كانت عليه في حياة جاكوبز الطويلة والمشغولة، يمكن أن نلاحظ أن أهمية سرد المؤتمر في المذكرات تتجلَّى بشكل خفيٍّ في الطريقة التي تتحول بها العناصر الثلاثة المتكررة للسرد: المشاركة في المؤتمرات الدولية يساهم في إقامة مؤتمر، وأصبح السفر بعثة دبلوماسية. وأصبحت علاقات الصداقة بين النساء تحالفات جريئة.

وهذا السرد عن لاهاي، كان محوري بشكل موضوعي وهيكلي إلى المذكرات، موضع مفيد لملاحظة ما تحذفه جاكوبز بشكل مميز من سردها للأحداث العامة. وهذا إلى حد كبير مذكرات عن مشاركاتها، في حين أنها أحيانًا تنسب الفضل إلى زملائها في العمل والمتطوعين التي عملت بشكل مباشر معهن، وتشعر أنها ليست بحاجة إلى الإشارة إلى إنجازات المجموعات الأخرى التي تنتمي إلى اليسار، أو مع سبب مختلف، أو العمل في مكان آخر باسم التوازن التاريخي والاكتمال. وهي لم تضع مؤتمر لاهاي في سياق جهود السلام المعاصرة مثل أنشطة الهولندية المعاصرة الراديكالية بارت دي ليج في الوطن، وتشكيل حزب السلام للنساء في الولايات المتحدة، والمبادرات التي تقوم بها العديد من النساء في أوروبا[103]. ومع ذلك، إن الوعي بمثل هذه المبادرات الأخرى، يمكن أن يؤطِّر سردَ جاكوبز بشكل مختلف للقارئ.

لقد أعطى سرد جاكوبز الرائع عن رحلتها عبر المحيط الأطلنطي في وقت الحرب لرؤية وودرو ويلسون- انطباعًا بأن جهودها كانت

103- الأناركي الهولندي بارت دي ليخت (1883-1938). طُرد من وظيفته وسُجن في النهاية بسبب خطبه المناهضة للحرب.

فريدة من نوعها، في حين أنه في الواقع سبق وأن حاول عدد كبير من ناشطات السلام إقناعه بالتدخل، وأن يكون وسيطًا. وكان من بين هؤلاء: جين آدامز وإميلي بالش، وهما نفس الشخصين اللتين كانتا تساعدان ونشجِّعان جاكوبز وهي تسرع ذهابًا وإيابًا لرؤية مساعديه الكولونيل هاوس وروبرت لانسينج، وأخيرًا بشكل مخيِّب للآمال، الرئيس نفسه.

وهناك مبادرة أخرى غير مذكورة تشكِّل نظيرًا رائعًا: مؤتمر السلام العالمي للمرأة الذي سبق مؤتمرها. وقبل شهر من لحظة جاكوبز العظيمة، تجمَّعَت مجموعة أصغر من ثماني وعشرين امرأة في برن، سويسرا. ومثل مؤتمر لاهاي، نشأ مؤتمر برن من شبكة من النساء سبقت الحرب، ولكن من مجموعات اشتراكية ويسارية مختلفة. وكان من بين الحاضرين الاشتراكيتان الهولنديتان البارزتان: هيلين أنكرسميت وكاري بوثويس سميت. ومن المؤكد أن جاكوبز كانت تعلم عن هذا الحدث، لأن المجموعة أرسلت «تحيات» إلى اجتماع لاهاي في شكل خطاب حادٍّ يؤكد على ضرورة تمرُّد البروليتاريا العالمية ضد مُسبِّبي الحرب الرأسماليين[104].

104- حضرت أنكرسميت وبوثويس سميت المؤتمر الثاني للمرأة الاشتراكية في كوبنهاغن في عام 1910: طورت أنكرسميت صداقة مع كلارا زيتكين. وهي اشتراكية يسارية ألمانية رائدة ورئيسة الأمانة الدولية للمرأة. وكتبت بعد ذلك مقالات في دورية زيتكين دي جليشيت (المساواة). عندما قامت زيتكين وإينيسا أرماند. وهو شريك مقرب من لينين. بتنظيم مؤتمر برن لاحقًا. كانت أنكرسميت وبوثويس من بين المندوبين.

كان مؤتمر لاهاي أكبر بكثير. وكان مخطَّطًا له بالكامل من قبل النساء. وقد أنتج مجموعة من القرارات المنشورة: ومع ذلك. فقد أحبِط مؤتمر برن بسبب جهود أرماند والأقلية البلشفية لطرح أجندتهم الخاصة: وفقًا لكاتب سيرة أرماند آر سي إلوود. «قضى لينين معظم المؤتمر جالسًا في مقهى فولكهاوس في انتظار تقارير من مرؤوساته من النساء». وغضب من الإجراءات. على الرغم من أن كلا المؤتمرين كانا بمثابة أماكن اجتماعات لمزيج من المتحاربين والمحايدين. إلَّا أن مؤتمر برن كان له «مزيج» مختلف: كان لديها مشاركة فرنسية وروسية. لكن لم يكن هناك أمريكيون في مؤتمر برن حول الأيديولوجية والتخطيط. خاصة الاختلافات بين زيتكين وأرماند. سوويروين. «النساء» والأخوات 144-150 حول المشاركة الفرنسية وفي اجتماع برن فيما يتعلق بمؤتمر زمروالد اللاحق والأكثر شهرة للاشتراكيين الذكور ضد الحرب. وتفوقوا على الاشتراكيين الهولنديين.

بدأت كلتا المجموعتين من النساء، المدافعات عن حق المرأة في الاقتراع والاشتراكيات، في العمل في ربيع عام 1914 للتحضير للمؤتمرات العالمية للمرأة التي كان يجب إلغاؤها بسبب الحرب. وفي كلتا الشبكتين مجموعات فرعية صغيرة من النساء من الأمم المتحاربة على أتمِّ الاستعداد للاجتماع، حتى ضد رغبات أحزابهن ومنظماتهن. وعلى الرغم من أن جاكوبز لم تختر ذِكرَ مؤتمر برن، فإن الوعي التاريخي به باعتباره «مقابلًا» يساريًّا صغيرًا يضيف صدًى خاصًّا إلى قراءتنا لروايتها.

وكان هناك شيء مُبهَم حول علاقتها الصعبة مع صديقتها المقربة وزميلتها في العمل في فترة من الوقت، المدافعة عن حق المرأة في الاقتراع والداعية للسلام؛ روسيكا شويمر، في المجر، يؤثِّر أيضًا على الرواية التاريخية في المذكرات[105]. كانت شويمر شخصية رئيسية في مؤتمر لاهاي، وفي الواقع هي التي اقترحت بعثات ما بعد المؤتمر، شكَّلَت هي وإميلي بالش والعديد من الآخرين وفدًا إلى الدول المحايدة. ولكن جاكوبز غضبت بشدَّة من شويمر ومن المشارِكة البريطانية في مؤتمر لاهاي؛ كريستال ماكميلان؛ لأنهما ذهبتا إلى الولايات المتحدة بمفردهما بمجرد أن ذهبت جاكوبز لرؤية ويلسون، وخافت من أن تؤدِّي الشعبية التي سيحقِّقانها إلى تدمير فرص نجاحها. وبعد عودتها من رحلتها، انفصَلَت جاكوبز عن صداقتها بشكل مفاجئ ودائم.

105- قبل الحرب. لعبت روسيكا شويمر (1877-1948) دورًا رائدًا في تنظيم النساء الهنجاريات (المرأة المجرية) وفي التحالف الدولي لحقوق المرأة. خلال الحرب. التقت مرتين مع ويلسون تورج في الرحلات. وكانت شخصية رئيسية في مشروع «سفينة السلام» لهنري فورد. أمضت شويمر سنواتها الأخيرة في الولايات المتحدة. لكنها حُرِمَت من الجنسية بسبب آرائها السلمية.

وفي المذكرات، قَلَّ الكلام عن روسيكا، المتحمِّسة والناقدة، والمتحدثة القوية، والتي كانت كاتمةً لجميع أسرار جاكوبز، إلى مجرد ذِكرٍ بسيط. لا تظهر عاطفة شديدة ولا غضبًا لاحقًا. ويحجب حذف الدور الحاسم لشويمر حقيقةَ أن هناك بعثتين مهمَّتين بنفس الأهمية قامت بهما إلى رؤساء البلاد بعد المؤتمر؛ لأن الوفد المبعوث إلى البلاد المحايدة ويضم شويمر، تمَّ استبعاده تقريبًا.

وتوجد علاقة أخرى مفقودة ومؤلمة في نهاية المطاف في حياة جاكوبز؛ جاء تشارلز جاكوبز، ابن شقيقها الأكبر جوليوس والذي كانت تحبه كثيرًا، من الجزر الهندية إلى هولندا، وكان صبيًّا، في عام 1894، بعد وفاة جوليوس عام 1895، قامت جاكوبز وجريتسن بتربية تشارلز باعتباره ابنهما بالتَّبنِّي. خرج من المدرسة بعد عام 1900، وعاد ليعيش مع جاكوبز بعد فترة من وفاة زوجها عام 1905، وبقي معها حتى عام 1909، إذ غادر إلى كلية الحقوق.

وتوجد أدِلَّة كافية على علاقة الأم الحنون بابنها بالتَّبنِّي وسعادة جاكوبز بروحها الشبابية في خطاباتها، تدعوه كات «ابنك الرائع»، ولكن، في يوليو 1909، كتبت جاكوبز إلى روسيكا شويمر أن «تشارلز كان أكثر من وَقِح معي»، وأنه تمَّ إبعاده عنها عن طريق خطيبته وعائلتها، وأنها قضت «ليالي بلا نوم، وأيامًا عصيبة»، ثم «انتقل، وبعد ذلك طلب مني أن أسامحه، وسامحته»، ولكن كتبت جاكوبز إلى شويمر «أنه ليس نفس الصبي بالنسبة لي كما كان من قبل. هناك شيء مكسور بداخلي».

ولم تقتصر على عدم ذِكر تشارلز أبدًا، ولكن، على سبيل المثال، قرارها لأخذ إجازة في جبال تاترا في صيف 1909، الذي يتعلَّق برسالة

مواساة من كات بالبحث عن الراحة بعد الانفصال في علاقتهما، فقامت بإرجاع ذلك إلى أسباب أخرى.

وكان الشيء المؤسف حقًّا هو دور تشارلز فيما بعد في انتكاستها المالية. ربما أعطاها نصيحة استثمارية غير حكيمة. ولكن بعدما استمرَّت مشاكل مادية أخرى في عام 1922 دتأأدَّت إلى إعلان إفلاسها، دعمها أفراد عائلة برويز فان جروينو وصديق ثريٌّ آخر لبقية حياتها[106]. ولكن سنة 1922، التي جلبت لها يأسًا شديدًا، حقَّقَت فيها فقط تعافيها من المرض في الوقت المناسب لتتمكن من إجراء أول اقتراع لها.

إن الذكريات ليس كتابًا تُحذَف منه الصعوبات والصراعات. لم تتردَّد في التعبير عن حزنها عندما عاش طفلها هي وجريتسن الذي أنجبته لمدة يوم واحد فقط، أو عن شدَّة حزنها بعد وفاة جريتسن. ولكن العلاقات القريبة ساءت، والشعور بالخزي لا يناسب قصة حياتها التي أعدَّتها للجمهور.

وهناك شيء آخر مثير للاهتمام يستحق التعليق؛ في سردها عن المؤتمر الطبي العالمي عام 1879 في أمستردام، والذي تلقت فيه الكثير من المدح، تستشهد جاكوبز بمقالة الدكتور بيتيثان الحماسية في الصحيفة الطبية البلجيكية «لو سكالبيل»: «يستحيل أن نتخيل شكلًا أكثر جاذبية للعِلم من شكل هذه الجميلة اليهودية التي تبلغ

106- يمكن لبرويز فان جرونوس دعم جاكوبز بسهولة. رب الأسرة وولتر أصبح مزارعًا غنيًّا للسُّكَّر في جزر الهند الشرقية الهولندية قبل أن يعود إلى هولندا. اعتنق هذا الرجل غير العادي والسخي المسألَةَ وحق المرأة في التصويت. حتى إنه أعار سيارته وسائقه لحملة اقتراع سفر عام 1910. شجَّع أطفاله على تعلم الإسبرانتو: على أمل تعزيز التفاهم في جميع أنحاء العالم. ومنح المنزل الذي بناه له المهندس المعماري ابنه دولف اسم إسبرانتو. هيمو نيا (منزلنا). كان دعم صديقهم الناشط المسن في هذه الحالة تعبيرًا طبيعيًّا عن المُثُل العليا للأسرة.

من العمر خمسة وعشرين عامًا، وهي تستمع إلى أكثر المناقشات دقَّةً بأقصى درجة من اللباقة والهدوء»[21]. ومن الغريب أن هذه هي الإشارة الوحيدة في السيرة الذاتية إلى أصولها اليهودية. واقتبستها بالفرنسية، وترجمتها إلى الهولندية، وكتبتها دون تعليق يُذكَر.

إذا أرادت جاكوبز إخفاء كونها يهودية، كان يمكنها تجاهل هذه الهوية اليهودية تمامًا. ويبدو لي أن ترك الأمر دون تحديد ثم التوقف عن ذِكر أصولها في مكان آخر من المذكرات أنها أكثر رفضًا من مجرد الإخفاء، وبهذه الإشارة، تفوَّقَت على نفسها تقريبًا في جعل يهوديتها غير مهمَّة. لكن هل كانت كذلك؟

تشير الأدِلَّة المتاحة على أن العديد من زملائها لم يروا يهودية جاكوبز كجزء من هويتها. وسجلت زميلتها المفكرة الحرة كاري تشابمان كات في مذكراتها أنه عند وصولها إلى جاكارتا في جزر الهند الشرقية الهولندية، استقبلتهما أخت جاكوبز الطبيبة الصيدلية شارلوت، «يهودية محافظة ووسيمة». ووصفتها الداعية للسلام إيميلي بالش، وهي صديقة جاكوبز منذ زمن طويل من الرابطة النسائية العالمية للسِّلم والحرية، في خطابٍ لها بعد وفاتها بعدة سنوات بأنها «طبيبة يهودية هولندية».

ولكن في سيرتها الذاتية، تفصل جاكوبز نفسها في مرحلة ما عن أيٍّ اتصال شخصي مع الحياة الطائفية اليهودية. وتعليقًا على الأعداد الكبيرة من البرقيات والأمنيات الطيبة التي تلقَّتها بمناسبة عيد ميلادها السبعين، كتبت «وهنا أفكر بشكل خاص في الجماعات التي لا أشاركها معتقداتها السياسية والدينية؛ مثل معلِّمي مدارس الحضانة اليهودية، ومجلس المرأة اليهودية». وكأن بُعدَها النفسي عن المجموعتين جعلها تشعر بنفس الشيء. ربما فعلت هذا.

كانت جاكوبز مفكِّرةً حرة تزدري المبشِّرين وأيَّ مظهر من مظاهر العقائد الدينية، وفي آخر خطاب لها إلى مييل كوبس كتبت لها: «يعطي هذا الدِّين اللعين الكثيرَ من الناس تعقيداتٍ في عقولهم. إذا استطعنا فقط تخليص العالم من هذه الفوضى بأكملها، كم سيكون أكثر هدوءًا وسلامًا».

ولكن هذا الغضب لا يفسِّر صمتها عن تراثها وهي تروي قصة حياتها؛ لأنها تكتب بتعاطُفٍ عن الرفض المبكِّر لزوجها كارل جريتسن للبروتستانتية المتشدِّدة لوالديه، وبتأييدٍ وإعجابٍ عن صديقتها كلارا مولدر فان دي جراف، التبشيريَّة الشُّجاعة؛ لحصولها على حق التصويت في بيئتها الكاثوليكية.

ومن المثير للدهشة، أنه في ضوء هذا الصمت في مذكِّراتها، كان لجاكوبز في الواقع، منذ طفولتها، علاقات مع الأطباء والمرشدين اليهود الذين تمكَّنوا من الجمع بين الاندماج المهني والتقدم، مع الحفاظ على العلاقات مع تراث أجدادهم. كان ليفي إيلي كوهين، وهو صديق مقرَّب للعائلة والذي شعرت جاكوبز في حضوره بنوبةٍ لا تُنسى من الإحباط تجاه مستقبلها لأنها كانت فتاة- عالِمًا بالعبرية، الذي بدأ سلسلة من المحاضرات عن المواضيع اليهودية. وكان البروفيسور المشهور صموئيل روزنشتاين صديقًا آخر للعائلة، والذي يَسَّر دخولها إلى جامعة جرونينجن، ابن حاخام برلين. «يهودي متدين، اعتاد أن يمر على عيادته في طريقه إلى المنزل من المعبد اليهودي يوم السبت مرتديًا معطفه الطويل وقبعة سوداء، والتي كانت موضة في تلك الأيام».

كانت تعرف أيضًا عائلة إسرائيل. كان الطبيب والمؤرخ الطبي أبراهام إسرائيل، وهو صديق مقرَّب لإيلي كوهين، تعلَّم بما يكفي من

النصوص اليهودية التقليدية أن يكتب رسالة الدكتوراه في الطب في إشارة إلى الولادة في التلمود البابلي، شقيقه الأصغر الرسام المشهور جوزيف إسرائيل، أحيانًا كان يرسم مواضيع اليهودية[26]. وأظهر البروفيسور باريند ستوكفيس، الذي عالجها خلال دراستها للطب عندما أصيبت بمرض خطير من حمَّى التيفود، تَعلُّقه اليهودي بطريقة مختلفة كرئيس مجلس العديد من المؤسسات الخيرية اليهودية.

لم تتبع جاكوبز هؤلاء الناس الذين شاركوا في التعليم اليهودي والمعاهد اليهودية، والناجحين والمندمجين أيضًا في عوالمهم المهنية. كما أن العديد من النساء اليهوديات البارزات في عصرها، الإصلاحيات والثوريات، لم يمارسن عقيدتهن بالطريقة التقليدية. إلى جانب روزا لوكسمبورج وإيما جولدمان[28]، عرفت جاكوبز عن هاتين الشخصيتين الرائعتين، ولكن لم تُذكَرَا في مذكراتها، وكان هناك العشرات من الآخرين في أوروبا والأمريكتين، الذين كانت مواقفهم تجاه يهوديتهم متنوِّعة ومُعقَّدة، بما في ذلك الرفض الصريح، وعدم الاهتمام، والاعتراف المتقطِّع، والفخر المتقطِّع، والنوستالجيا، والاعتناق الخفي.

كشف أحد الخطابات المكتوبة في عام 1906 إلى روسيكا شويمر، التي كانت يهوديَّةً أيضًا، عن اعتراف جاكوبز ضمنيًّا، وبفخر، بهويتهم اليهودية المشتركة. وفي فقرة لاحظها بوش بشكل خاص كتبت:

«قمنا بتوظيف بعض العاملات الشابات الجيدات في مجال الاقتراع، ومن الجدير بالملاحظة أنهن دائمًا فتيات يهوديات. معنا، أو في أي مكان آخر، توجد الشجاعة والحيوية أكثر في هؤلاء الفتيات».

وكتبت إلى لوسي أنتوني بمزيج من الفكاهة والحزن عام 1928،

قبل عام واحد من وفاتها: «سأقوم ببيع بيتي وممتلكاتي، وبعد ذلك سأصبح يهودية متجوِّلةً، ربما متسوِّلة. ولكن من الممكن أن أموت قبل ذلك. لا أحد يعرف». يشير هذان التعليقان، وبينهما اثنان وعشرون عامًا، ومختلفان في الحالة النفسية، إلى أن علاقة جاكوبز بأصولها اليهودية كانت مُعقَّدة. ولكن لم تتكلم في مذكراتها عن هذا التعقيد.

بعد أن أنهت جاكوبز سيرتها الذاتية، مع غروب الشمس، وشعورها أن حياتها الفعلية أوشكت على الانتهاء، استمرَّت، على الرغم من المشاكل الصحية المتكررة، بالسفر وحضور المؤتمرات العالمية. وذهبت إلى الولايات المتحدة مرتين في عامين، ووصلت في مايو عام 1924 لاجتماع الرابطة النسائية العالمية للسِّلم والحرية في واشنطن، ثم عادت في مارس عام 1925 لمؤتمر تحديد النسل في نيويورك، وبعد ذلك لاجتماع مايو للمجلس العالمي للمرأة في واشنطن. وخطَّطَت جاكوبز لزيارة أصدقائها القدامى في منازلهم قبل وبعد العديد من المؤتمرات.

حتى قبل شهرين من وفاتها، بعد أن أصبحت أبطأ بسبب المرض، استمرَّت جاكوبز في العمل والنضال، وفي يونيو عام 1929 ذهبت إلى اجتماعين في برلين، أحدهما نيابة عن النساء العاملات، والآخر كان الاحتفال بالذكرى السنوية الخامسة والعشرين للجمعية العالمية للدفاع عن حق المرأة في التصويت. وتوفيت في 10 أغسطس، وحزنت الحركة النسوية على موتها كثيرًا، وتمَّ تأبينها في مؤتمر الرابطة النسائية العالمية للسلام والحرية في أواخر أغسطس في براغ، والذي كانت تخطِّط لحضوره.

مكتبة ياسمين